قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الرابع

١٤





تونس
بيروت

الكتاب الثالث

الحضارة اليهودية

١٣٥ — ١٣٠٠

الحوادث التاريخية فى الكتاب الثالث مرتبة حسب تواريخها

التاريخ	الحادثة
١ — ٢٢٠	التنايم .
١٨٩	يهودا هنسيا .
٢٢٩	المجمع العلمى اليهودى فى سورا .
٢٢٠ — ٥٠٠	الأمورائم .
٢٨٠ — ٥٠٠	جمع التلمود .
٣٥٩	هلل الثانى يحدد التقويم اليهودى .
٥٠٠ — ٦٥٠	السبورائم .
٦٥٨ — ١٠٤٠	الجادنئم فى بابل .
٨١٥	وفاة ما شاء الله الفلكى .
٧٥٥ — ٩٥٥	إسحق إسرائيلى ، الفيلسوف .
٨٩٢ — ٩٤٢	سعديا جاؤن ، الفيلسوف .
٩١٥ — ٩٧٠	حسداى بن شبروط ، الوزير .
١٠٠٠	مرسوم الزواج بواحدة يصدره الكوهن جرشم .
١٠٢١ — ١٠٧٠	ابن جبيرول الشاعر والفيلسوف .
١٠٣٨ — ١٠٥٥	شمويل بن نجدلا ، الوزير .
١٠٤٠ — ١١٠٥	شلومة بن يتزحاق (راشى) شارح التلمود .
١٠٥٥ — ١٠٦٦	يوسف بن نجدلا .
١٠٦٥ — ١١٣٦	إبرهام بارحيا (العالم فى الرياضيات) .
١٠٧٠ — ١١٣٩	موسى بن عزرا الشاعر .
١٠٨٦ — ١١٤٧	يهودا هليفى ، الشاعر .
١٠٩٣ — ١١٦٨	إبراهام بن عزرا ، الشاعر .
١٠٩٦	مذابح الحرب الصليبية الأولى .
١١١٠ — ١١٨٠	إبراهام بن داود ، الفيلسوف .
١١٣٥ — ١٢٠٤	ابن ميمون .
١١٤٧	مذابح الحرب الصليبية الثانية .
١١٦٠	دافيد الروئى المسيح الكذاب .
١١٦٠ — ١١٧٣	رحلات بنيامين التطيلى .
١١٧٠	مشنة التوراة لابن ميمون .
١١٨١ ، ١٢٥٤ ، ١٣٠٦	اليهود يطردون من فرنسا .

١١٩٠ دلالة الحائرين .

١١٩٠ نشأة القبالة .

١١٩٠ المذابح فى إنجلترا .

١٢١٥ مجلس اللاتران الرابع يأمر بأن يكون لليهود شارة .

١٢٣٤ إحراق كتب ابن ميمون فى منبلييه .

١٢٤٢ إحراق التلمود فى باريس .

١٢٩٠ اليهود يطردون من إنجلترا .

١٢٩٥ سفر زوهر لموسى الليونى .

الباب الخامس عشر

التلمـــود

الفصل الأول

النفى ١٣٥ - ٥٦٥

بين بلاد الإسلام والمسيحية كان يعيش شعب عجيب احتفظ فى خلال كل ما مر به من الشدائد بثقافته الخاصة يعزيه ويلهمه دينه الخاص ، ويعيش على هدى شريعته ومبادئه الأخلاقية ، ويخرج من بينه شعراؤه ، وعلماؤه ، وأدباؤه ، وفلاسفته ، وينقل البذور الخصبة بين عالمين متعادين .

ولم تكن فتنة باركوزيبة Bar Cocheba (١٣٢ – ١٣٥) آخر الجهود التى بذلها اليهود ليستعيدوا حريتهم التى قضى عليها پمپى وتيتس Titus . فقد أعادوا الكرة لاستخلاصها فى عهد أنطونينس بيوس Antoninus Pius (١٣٥ – ١٦١) وأخفقوا فى محاولتهم وحرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة إلا فى يوم تلك الذكرى المؤلمة ، ذكرى تدميرها ، فقد كان يسمح لهم نظير جعل معين أن يأتوا إليها ليندبوا ويبكوا أمام جدران الهيكل المهدم . وكان سكان فلسطين التى خرب من مدائنها فى فتنة باركوزيبة ٩٨٥ مدينة حتى محيت من الوجود ، وقتل من أهلها ٥٨٠,٠٠٠ رجل وامرأة قد نقص إلى نصف ما كان عليه من قبل ، وانحط الباقون إلى درجة من الفاقة كادت الحياة الثقافية معها ألا يبقى لها أثر . ومع هذا فإنه لم يكد يمضى على فتنة باركوزيبة جيل واحد حتى أنشئ فى طبرية بيت الدين ، أى المجلس اليهودى القومى — وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين

من العلماء الأحبار والمشترعين — وافتتحت المعابد والمدارس ودب الأمل مرة أخرى فى النفوس .

غير أن فوز المسيحية قد صحبته متاعب جديدة . ذلك أن قسطنطين كان قبل أن يعتنق المسيحية قد سوى من الوجهة القانونية بين الدين اليهودى وبين سائر الأديان التى يدين بها غيرهم من رعاياه . أما بعد اعتناقه المسيحية فقد اضطهد اليهود وفرض عليهم قيوداً ومطالب جديدة ، وحرم على المسيحيين أن يتصلوا بهم[1] . ونفى قسطنطين أحبارهم (٣٣٧) وجعل زواج اليهودى من مسيحية جريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام[2] . وفرض جالوس Gallus أخو قسطنطين على اليهود من الضرائب الفادحة ما اضطر الكثيرين منهم إلى أن يبيعوا أبناءهم ليوفوا بمطالبه منهم . وثار اليهود مرة أخرى فى عام ٣٣٢ وأخمدت ثورتهم ودكت صبورى دكاً ، وخربت أجزاء من طبرية وغيرها من المدن ، وقتل آلاف من اليهود ، واستعبد آلاف آخرون . وبلغت حال اليهودى الفلسطينى وقتئذ (٣٥٩) درجة من الانحطاط ، كما بلغ الاتصال بينهم وبين غيرهم من الجماعات اليهودية درجة من الصعوبة ، اضطر معهما حاخامهم هلل الثانى أن ينزل عما كان ليهود فلسطين من الحق فى أن يحددوا لجميع اليهود تواريخ أعيادهم ، وأصدر لهم تقويماً يحددون هم بمقتضاه تواريخ هذه الأعياد مستقلين عن يهود فلسطين ، ولا يزال هذا التقويم الذى أصدره هلل معمولا به إلى اليوم لدى اليهود فى جميع أنحاء العالم .

فلما ارتقى يوليان عرش الإمبراطورية أنقذ اليهود إلى أجل قصير من هذا التعذيب . فقد خفض هذا الإمبراطور الضرائب المفروضة عليهم ، وألغى القوانين التى تجعلهم أقل منزلة من غيرهم ، وأطرى الصدقات العبرانية ، واعترف بأن يهوه « إله عظيم » . وسأل زعماء اليهود عن سبب امتناعهم عن الضحايا الحيوانية ؛ فلما أجابوه بأن شريعتهم تحرم عليهم هذه التضحية إلا فى هيكل أورشليم أمر أن

بعاد بناء الهيكل من مال الدولة[٣] . وأعيد فتح أورشليم لليهود فهرعوا إليها من جميع أنحاء فلسطين ومن كل ولاية في الإمبراطورية ، وسخر الرجال والنساء والأطفال جهودهم لإقامة البناء ، وتبرعوا بحليهم وما ادخروه من أموالهم لتأثيث الهيكل الجديد[٤] ، وفي وسعنا أن نتصور سرور القوم الذين ظلوا مائتى عام يدعون ربهم أن يمن عليهم بهذا اليوم (٣٦١) . ولكن بينما كانوا يحفرون الأرض لوضع الأساس إذ خرج من باطنها لهيب أحرق عدداً من العمال القائمين بالعمل[٥] . غير أن الناس عادوا إلى العمل من جديد — فعادت هذه الظاهرة مرة أخرى — ولعل سببها انفجار بعض الغازات الطبيعية — فأوقفت العمل وثبطت همة القائمين بالمشروع . وفرح المسيحيون إذ بدا لهم أن الله غير راض عن إعادة بناء الهيكل ، وعجب اليهود من هذا وحزنوا له ؛ ثم مات يوليان فجاءة ، فحبست عنهم أموال الدولة ، وسنت من جديد القوانين المقيدة لهم وجعلت أشد صرامة مما كانت من قبل ، وحرم على اليهود مرة أخرى دخول أورشليم ، فعادوا إلى قراهم ، وفقرهم ، وصلواتهم . وكتب جيروم بعد قليل من ذلك الوقت يقول : إن أهل فلسطين اليهود « لا يزيدون على عشر ما كانوا عليه من قبل »[٦] . وفي عام ٤٢٥ ألغى ثيودوسيوس الثانى الحاخامية الفلسطينية ، وحلت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية ، وتخلت فلسطين بعد هبة قصيرة في عام ٦١٤ ، عن زعامة العالم اليهودى .

فهل يلام اليهود بعد هذا إذا أملوا أن تكون حالهم أحسن من هذه الحال في بلاد لا تسود فيها المسيحية سيادتها في البلاد التي يخضعون لسلطانها . فمنهم من انتقل نحو الشرق إلى أرض النهرين وإلى بلاد الفرس وقووا العنصر اليهودى البابلى الذى لم ينعدم من تلك البلاد منذ الأسر الذى حدث في عام ٥٩٧ ق . م . وكانت وظائف الدولة محرمة على اليهود في بلاد الفرس أيضاً ؛ ولكن هذه الوظائف كانت محرمة كذلك على جميع الفرس ما عدا طبقة الأشراف ، ولذلك

لم يكن هذا القيد ثقيلا على اليهود أنفسهم[٧] . وقد حاقت باليهود فى تلك البلاد عدة اضطهادات ، ولكن الضرائب المفروضة عليهم كانت أخف عبئاً منها فى غير تلك البلاد ، وكانت الحكومة فى الأحوال العادية تتعاون معهم ، وكان ملوك الفرس يعترفون بالإجزيلارك أى زعيم الطائفة اليهودية ويجلونه . وكانت أرض العراق وقتئذ خصبة تسقيها مياه النهرين ، ولذلك أضحى من فيها من اليهود زراعا أثرياء وتجاراً ناشطين ، ومنهم طائفة من بينها عدد من جلة العلماء الذائعي الصيت أثرت من عصر الجمعة[٨] . وتضاعف عدد الجالية اليهودية فى بلاد الفرس بسرعة كبيرة لأن دين الفرس كان يبيح تعدد الأزواج . وكان اليهود يتبعون هذه العادة لنفس الأسباب التى كانت تبيحها الشريعة الإسلامية . وكان الكوهنان الطيبان رب ونحمان أثناء تجوالهما يعلنان فى كل مدينة يحلان بها عن رغبتهما فى زوجات مؤقوتات ، لكى يضربا بذلك مثلا لشبان تلك المدن للحياة الزوجية ويبعداهم على الحياة الإباحية[٩] . وفى نحرديا Nehardea ، وسورة ، ويمبديثا أنشئت مدارس للتعليم العالى ، أضحى علماؤها ، وأضحت قرارات كواهنها الدينية ، موضع الإجلال فى جميع أنحاء البلاد التى تشتت فيها اليهود .

وظل اليهود فى أثناء ذلك الوقت ينتشرون فى جميع البلاد الواقعة حول البحر المتوسط : فمنهم من ذهب لينضم إلى الجاليات اليهودية فى بلاد الشام وآسية الصغرى ، ومنهم من ذهب إلى القسطنطينية ؛ رغم عداء أباطرة الروم وبطارقتهم ، ومنهم من اتجهوا من فلسطين جنوباً إلى جزيرة العرب وعاشوا فى سلام وحرية دينية مع بنى جنسهم الساميين ، واحتلوا فى تلك البلاد أقاليم برمتها مثل خيبر ، وكاد عددهم فى يثرب (المدينة) يكون مساويا لعدد العرب أنفسهم ، واستمالوا إلى دينهم عدداً من الأهلين ، وهيئوا عقول العرب لما جاء به الإسلام من عقائد يتفق بعضها مع العقائد اليهودية . ومنهم من عبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة حيث تضاعف عددهم بسرعة حتى قيل إنهم بلغوا

فى عام ٣١٥ نصف سكان تلك البلاد[١٠] . وكان اليهود يمتلكون نصف سفن الإسكندرية ، وكان ثراؤهم فى تلك المدينة السريعة التأثر والاهتياج مما زاد من حدة العداء الدينى .

وانتشرت جاليات يهودية فى جميع مدائن أفريقية الشمالية ، وصقلية ، وسردينية . وكان عددهم كبيراً فى إيطاليا ، وكان الأباطرة الوثنيون يحمونهم فى العادة من الأذى ، وإن كان الأهلون المسيحيون والإمبراطور ثيودريك ، والبابوات يشددون عليهم النكير فى بعض الأحيان . وكان فى أسپانيا جاليات يهودية قبل يوليوس قيصر ، ونمت تلك الجاليات دون أن يتعرض لها بأذى تحت حكم الأباطرة الوثنيين ، وأثروا فى عهد القوط الغربيين الآريين ، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد الميئس بعد أن اعتنق الملك ريكارد (٥٦٨ — ٦٠١) عقائد مؤتمر نيقية . ولسنا نعرف أن اليهود تعرضوا للاضطهاد فى غالة قبل أن تصدر قرارات مجلس أورليان الثالث والرابع (فى عامى ٥٣٨ و٥٤١) بعد أن انتصر كلوفس Clovis المسيحى المتمسك بدينه على القوط الغربيين الآريين بجيل من الزمان . وأحرق مسيحيو أورليان كنيساً يهودياً حوالى عام ٥٦٠ ، وطلب اليهود إلى جنثرام Gunthram ملك الفرنجة أن يعيد بناءه من أموال الدولة أسوة بما فعله ثيودريك فى مثل هذه الحادثة من قبل . ولما رفض جنثرام هذا الطلب صـاح الأسقف جريجورى التورى Gregory of Tours : « ما أعظمك أيها المليك وما أعجب حكمتك ! »[١١] .

وكان اليهود فى البلاد التى انتشروا فيها ينتعشون على الدوام بعد هذه الخطوب ، فكانوا يعيدون بناء معابدهم فى صبر وأناة ، وينظمون شئون حياتهم ، ويكدحون ، ويتجرون ، ويرابون ، ويصلون ، ويأملون ، ويزدادون ويتضاعفون . وكان يطلب إلى كل جالية فى بلد أن تقيم على نفقتها مجتمعة

ما لا يقل عن مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية يضمهما فى العادة الكنيس نفسه ، وكان يشار على العلماء ألا يعيشوا فى بلد يخلو من هاتين المدرستين . وكانت لغة العبادة والتعليم هى اللغة العبرية ، أما لغة التخاطب اليومى العادى فكانت الآرامية فى بلاد الشرق ، واليونانية فى مصر وفى بلاد أوربا الشرقية ؛ أما فى غير تلك البلاد فكان اليهود يتخاطبون بلغة من يعيشون بينهم من الأهلين . وكان الدين هو الموضوع الذى يدور حوله التعليم اليهودى ، أما الثقافة غير الدينية فكادت فى ذلك الوقت أن تهمل إهمالا تاماً : ذلك أن اليهود المشتتين لم يكونوا يستطيعون أن يحفظوا كيانهم جسمياً وروحياً إلا عن طريق شريعتهم ، وكان الدين عندهم هو دراسة هذه الشريعة والعمل بها . وكان دين آبائهم يزداد قيمة لديهم كلما زاد الهجوم عليه ، وكان التلمود والكنيس الدعامتين والملجأين اللذين لا غنى عنهما لشعب حائر تقوم حياته على الرجاء ويقوم رجاؤه على الإيمان بالله .

الفصل الثانى

منشئو التلمود

كان الكهنة ورجال الدين المقيمون فى المعابد والمدارس الفلسطينية والبابلية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة الضخمة المعروفة بالتلمود الفلسطينى والتلمود البابلى . وكانوا يقولون إن موسى لم يترك فقط لشعبه شريعة مكتوبة تحتويها الأسفار الخمسة ، بل ترك له أيضاً شريعة شفوية تلقاها التلاميذ عن المعلمين ووسعوا فيها جيلا بعد جيل . وكان أهم ما ثار حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقيين الفلسطينيين هو : هل هذه الشريعة الشفوية هى الأخرى من عند الله فهى لذلك واجبة الطاعة ؟ ولما أن زال الصدوقيون بعد تشتت اليهود عام ٧٠ م وورث رجال الدين تقاليد الفريسيين ورواياتهم قبل جميع اليهود المتمسكين بدينهم الشريعة الشفوية ، وآمنوا بأنها أوامر من عند الله وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة ، فتكونت من هذه وتلك التوراة أو الشريعة الموسوية التى استمسك بها اليهود وعاشوا بمقتضاها ، وكانت حقيقة لا مجازاً هى كيانهم وقوام حياتهم . وإن القصة التى تروى تلك العملية الطويلة التى استغرقت ألف عام ، والتى تجمعت فى خلالها الشريعة الشفوية ، واتخذت فيها صورتها النهائية المعروفة بالمشنا ، والقرون الثمانية التى تجمعت فيها ثمار الجدل ، والأحكام ، والإيضاح فكانت هى الجمارتين أو شروح المشنا ، وانضمام المشنا إلى أقصر هاتين الجمارتين ليتألف منهما التلمود الفلسطينى ، وإلى أطولها ليتألف منهما التلمـــود البابلى — إن القصة التى تروى هذه الأحداث الثلاثة لمن أكثر القصص تعقيداً وأعظمها إثارة للدهشة فى تاريخ العقل البشرى . وكما كان الكتاب المقدس أدب العبرانيين

الأقدمين ودينهم ، كانت التوراة حياة يهود العصور الوسطى ودماءهم .

وذلك أن أحكام الشريعة الواردة فى الأسفار الخمسة أحكام مسطورة ، ولهذا فإنها لم تكن تستطيع الوفاء بجميع حاجات أورشليم بعد أن فقدت حريتها ، ولا اليهودية بعد أن فقدت أورشليم ، ولا الشعب اليهودى فى خارج فلسطين ، لم تستطع الوفاء بحاجات هذه أو معالجة الظروف المحيطة بها . ومن ثم كانت مهمة علماء السنهدرين قبل التشتت ، والأحبار بعده ، هى تفسير الشريعة الموسوية تفسيراً يهتدى به الجيل الجديد والبيئة الجديدة ويفيدان منه . وتوارث المعلمون جيلا بعد جيل تفاسير هؤلاء العلماء ومناقشاتهم وآراء الأقلية والأغلبية فى موضوعاتها . على أن هذه الروايات الشفوية لم تدون ، ولعل سبب عدم تدوينها أن هؤلاء العلماء أرادوا أن يجعلوها مرنة قابلة للتعديل ، أو لعلهم أرادوا بذلك أن يرغموا الأجيال التالية على استظهارها . فكان فى وسع الأحبار الذين أخذوا على أنفسهم تفسير الشريعة إذا اضطرتهم الظروف أن يستعينوا بمن قدروا على استظهارها . وكان الأحبار فى الستة القرون الأولى بعد ميلاد المسيح يسمون « التنام Tennaim » أى « معلمى الشريعة » وإذ كانوا هم وحدهم المتضلعين فيها ، فقد كانوا هم المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين بعد تدمير الهيكل .

وكان أحبار فلسطين وأحبار اليهود «المشتتين أرستقراطية فذة لا مثيل لها فى التاريخ . ذلك أن هؤلاء الأحبار لم يكونوا طبقة وراثية أو مغلقة مقصورة على طائفة خاصة من الناس ، بل إن الكثيرين منهم قد ارتقوا من أفقر الطبقات ، وكان معظمهم يكسبون قوتهم بالعمل فى الصناعات المختلفة حتى بعد أن أصبحوا من ذوى الشهرة العالمية ، وظلوا إلى ما يقرب من أخريات تلك الفترة التى نتحدث عنها لا يعطون أجوراً على قيامهم بالتدريس أو بأعمال القضاء . وكان الأثرياء

يجعلونهم فى بعض الأحيان شركاء غير عاملين فى مشروعاتهم المالية والتجارية ، أو يأوونهم فى بيوتهم ، أو يزوجونهم من بناتهم ، ليوفروا عليهم عناء الكد لكسب قوتهم . ومنهم من عدد قليل أفسدهم ما كان لهم من المنزلة الرفيعة بين أبناء دينهم ، ومنهم كانوا كسائر الخلق يغضبون ، ويغارون ، ويحقدون ، ويسرفون فى النقد ، ويتكبرون . ومنهم من كان لابد لهم أن يذكروا أنفسهم المرة بعد المرة أن العالِم بحق رجل متواضع ، لأن الحكيم يرى الجزء فى ضوء الكل إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . وكان الناس يحبونهم لفضائلهم ولعيوبهم ، ويعجبون بهم لعلمهم وتقواهم ، ويروون ألف قصة وقصة تنبئ عن حكمتهم ومعجزاتهم . وقد ظل اليهود إلى يومنا هذا يجلون طلاب العلم والعلماء كما لا يجلهم شعب آخر فى العالم كله .

ولما كثرت قرارات الأحبار وتضاعفت أضبحت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة . ولذلك حاول هلل وعقيبا Akiba وماير Meir مراراً عدة أن يصنفوها ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والرموز ، ولكن هذه التصانيف والرموز والحيل لم يحظ شيء منها بالقبول من جمهرة اليهود . وكانت نتيجة هذا أن أصبح الاضطراب فى نقل الشريعة هو القاعدة العامة ، ونقص عدد من يحفظون الشريعة كلها عن ظهر قلب نقصا مروعا ، وكان مما زاد الطين بلة أن تشتت اليهود قد نشر هذه القلة فى أقطار نائية . وحوالى عام ١٨٩ تابع الحبر يهودا هنسيا Jehuda Hanasi فى قرية صبورة(*) بفلسطين عمل عقيبا وماير ، وعدله ، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوية بأكملها ، ثم دونها ، وزاد عليها إضافات من عنده ، فكانت هى « مشنا الحبر يهودا »(**) وانتشرت هذه بين اليهود انتشاراً

(*) قرية على بحيرة طبرية فى فلسطين . (المترجم)

(**) ونرى أقلية من العلماء أن يهودا لم يدون مشناه ، وأنها أخذت تنتقل شفوياً من جيل إلى جيل حتى القرن الثامن الميلادى . ومن شاء معرفة رأى الأغلبية فليرجع إلى —

أصبحت معه بعد زمن ما هى المشنا ، والصورة المعتمدة لشريعة اليهود الشفوية .

والمشنا (أى التعاليم الشفوية) كما نعرفها اليوم هى الصورة النهائية لطبعات مختلفة كثيرة وحواشى متعددة أدخلت عليها من أيام يهوذا إلى الآن . ولكنها مع هذا خلاصة مدمجة محكمة ، وضعت لكى تحفظ عن ظاهر قلب بكثرة التكرار ؛ ولهذا فإن من يقبل على قراءتها يرى أن عباراتها المحكمة الجامعة الغامضة تعذب قارئها بما تبعثه فى نفسه من الآمال الخادعة اللهم إلا إذا كان هذا القارئ ملما بحياة اليهود وتاريخهم .

وقد قبلها يهود بابل وأوربا كما قبلها يهود فلسطين ، ولكن كل مدرسة فسرت أمثالها وحكمها تفسيراً يخالف ما فسرتها به الأخرى ، وجمعت ستة أجيال (٢٢٠ — ٥٠٠ م) من أحبار الأمورائم (الشراح) هاتين الطائفتين الضخمتين من الشروح وهما الجمارا الفلسطينية والبابلية ، كما اشتركت من قبل ستة أجيال (١٠ — ٢٢٠ م) من الأحبار التنائم فى صياغة المشنا . وبذلك فعل المعلمون الجدد بمشنا يهودا ما فعله التنائم بالعهد القديم : فتناقشوا فى النص ، وحللوه ، وفسروه ، وعدلوه ، ووضحوه لكى يطبقوه على المشاكل الجديدة ، وعلى ظروف الزمان والمكان . ولما قارب القرن الرابع على الانتهاء نسقت مدارس فلسطين شروطها وصاغتها فى الصورة المعروفة بالجمارا الفلسطينية . وشرع الكوهن رب آشى رئيس جامعة سورا حوالى ذلك الوقت فى تقنين الجمارا البابلية وظل يواصل العمل فى ذلك التقنين جيلا من الزمان . وأتمه ربينا الثانى بار (ابن) شمويل ، وهو أيضا من جامعة سورا بعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٩٩) .

= كتاب ج . ف . مور المسمى « اليهودية فى القرون الأولى من التاريخ المسيحى Judaism in the First Centuries of the Christian Eara طبعة جامعة كيمبردج بولاية مسشوستس عام ١٩٣٢ المجلد الأول ص ١٥١ وكذلك كتاب و . ا . أوسترلى W. O. Oesterley و . ج . ه . بكس O. H. Box, المسمى نظرة قصيرة فى الآداب الدينية اليهودية فى العصور الوسطى Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism.

وإذا ذكرنا أن الجمارا البابلية أطول من المشنا إحدى عشرة مرة ، بدأنا نعرف لم استغرق جمعها مائة عام كاملة . وظل الأحبار السبورائم (المناطقة) مائة وخمسين سنة أخرى (٥٠٠ — ٦٥٠) يراجعون هذه الشروح الضخمة ، وينصقلون التلمود البابلى الصقل الأخير .

بقى أن نقول إن لفظ التلمود يعنى التعليم . ولم يكن الأمورائم يطلقون اللفظ إلا على المشنا . أما فى الاستعمال الجديث فهو يشمل المشنا والجمارا . . والمشنا فى التلمود البابلى هى بعينها مشنا التلمود الفلسطينى ، ولا يختلف التلمودان إلا فى الجمارا أو الشروح فهى فى التلمود البابلى أربعة أمثالها فى التلمود الفلسطينى(*) .

ولغة الجمارا البابلية والجمارا الفلسطينية هى الآرامية ،أما لغة المشنا فهى اللغة العبرية الجديدة تتخللها ألفاظ كثيرة مستعارة من اللغات المجاورة . وتمتاز المشنا

(*) يشتمل التلمود البابلى على ٢٠٤٩ ورقة من القطع الكبير أى نحو ٦٠٠٠ صفحة فى كل منها ٤٠٠ كلمة . وتنقسم المشنا إلى ستة سدريمات sedarim (ست فصائل) وينقسم كل سدريم إلى عدد من المسكتات Masechtoth (المقالات) يبلغ مجموعها ثلاثاً وستين مسكتة وتنقسم كل واحدة منها إلى عدد من البرقيمات (الفصول) وكل برقيم إلى مسنيوتات (تعاليم) . وتشتمل الطبعات الحديثة من التلمود عادة على : (١) شروح راشى Rashi (١٠٤٠ — ١١٠٥) وهذه تظهر على الهامش الداخلى لصفحات النصوص و (٢) توسافوتات Tossphoths . (إضافات) وهى مناقشات فى التلمود للأحبار الفرنسيين والألمان من رجال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وهذه تظهر على الهامش الخارجى لصفحات النصوص . وتضيف عدة طبعات إلى هذه وتلك توسفتات Tosefta (تكملات) — وهى بقايا من الشريعة الشفوية التى تخلو منها مشنا يهودا هنسيا .

وسنتمثل فى هذا الفصل فضلا عن ذلك من المدرش (التفسير) وهى خطب ألقاها — على حد قولهم — التنائم أو الأمورائم ولكنها جمعت ودونت خلال الفترة المحصورة بين القرنين الرابع والثانى عشر ، وتشرح فى أسلوب شعبى سهل كتباً مختلفة من الكتب العبرية المقدسة . ومن هذه المدرشيمات (التفاسير) الكبرى تفسير جنثيز رباه Rabbah' لسفر التكوين ، وويقرا رباه لسفر اللاويين وخمسة ملفاظ (مجلوتات Megilloth) — تشرح إستير ، ونشيد الأنشاد ، والمراثى ، وسفر الجامعة : وتشرح المكيلتا Nachilta سفر الخروج والسفر Sifra يشرح سفر اللاويين ، والسفرى Sifre يشرح سفرى الأعداد والتثنية ، وتحتوى البسيقتا على عظات ذات صلة بفقرات من الكتاب المقدس(١٢) .

بالإيجاز ، فهى تعبر عن القانون الواحد بقليل من السطور ، .أما الجماريان فتتبسطان عن قصد وتعمد ، وتذكران مختلف آراء كبار الأحبار عن نصوص المشنا وتصفان الظروف التى قد تتطلب تعديل القانون وتضيفان كثيراً من الإيضاحات . ومعظم المشنا نصوص قانونية وقرارات (هَلَـكا) ، أما الجماريان فبعضهما هلكا — إعادة نص قانون أو بحثه — وبعضها هَجَدَة (قصص) . وقد عرفت الهجدة تعريفاً غير دقيق بأنها كل ما ليس هلكا فى التلمود . وأكثر ما تسجله الهجدة هو القصص ، والأمثلة الإيضاحية . وأجزاء من السير ، والتاريخ ، والطب ، والفلك ، والتنجيم ، والسحر ، والتصوف ، والحث على الفضيلة ، والعمل بالشريعة ، وكثيراً ما تروح الهجدة عن نفس الطلاب المتعلمين بعد جدل معقد متعب . ومثال ذلك ما يأتى :

بينما كان رب أمى ورب أسى يتحدثان مع الكوهن إسحق منجا إذ قال له أحدهما : « احك لنا يا سيدى قصة لطيفة » ، وقال الآخر : « لا بل أرجوك أن تفسر لنا بدلا من هذا نقطة دقيقة من النقاط القانونية » . . فلما بدأ القصة أغضب أحدهما ، ولما أخذ يشرح النقطة القانونية أغضب الآخر . فلما رأى ذلك ضرب لهما هذا المثل : « إن مثلى معكما كمثل رجل تزوج باثنتين إحداهما شابة والأخرى عجوز ، فاقتلعت الزوجة الشابة جميع شعره الأشيب حتى يبدو شاباً ، واقتلعت الزوجة العجوز جميع شعره الأسود حتى يبدو عجوزاً ، وكانت نتيجة فعلهما هذا أن أصبح الرجل أصلع »[١٣] .

الفصل الثالث

الشريعـــة

فإذا حاولنا الآن على الرغم من جهلنا بالموضوع عامة أن نصوّر باختصار مخل كريه ، بعض مناحى هذا التلمود الضخم ، الذى تتأثر به كل صغيرة وكبيرة من حياة العبرانيين فى العصور الوسطى ، إذا حاولنا هذا وجب علينا أن نقر من بداية الأمر أننا إنما نخدش الجبل ، وأن معالجتنا إياه من خارجه تعرضنا لا محالة للخطأ .

الناحية الدينيـــة

يقول رجال الدين اليهود إن من واجب الإنسان أن يدرس الشريعـــة مسطورة وشفوية ، ومن حِكَمهم المأثورة فى هذا المعنى قولهم : « إن دراسة التوراة أجل قدراً من بناء الهيكل »[١٤] . و « إن من واجب الإنسان وهو منهمك فى دراسة الشريعة أن يقول لنفسه كل يوم : « كأنا فى هذا اليوم قد تلقيناها من طورسيناء »[١٥] ، وليست الدراسات الأخرى بعد ذلك بواجبة ؛ فالفلسفة اليونانية والعلوم الدنيوية لا تصح دراستها إلا فى تلك الساعة التى ليست ليلاً ولا نهاراً[١٦] . ويعتقد اليهود أن كل كلمة من كتابهم المقدس من كلمات الله بالمعنى الحرفى لهذه العبارة ، وحتى نشيد الإنشاد نفسه إن هو إلا ترنيمه موحى بها من عند الله — لتصور بصورة مجازية اقتران يهوه بإسرائيل عروسه المختارة(*)[١٧] . وإذ كان انعدام الشريعة تعقبه حتما الفوضى الأخلاقية فإن

(*) ويفسر رجال الدين هذه العبارة بأنها وصف رمزى لاتحاد المسيح بالكنيسة زوجته المختارة .

الشريعة وجدت لا محالة قبل أن يخلق العالم « فى صدر الله أو عقله »(*) ، وكان إنزالها على موسى لا شيء غير حادثاً من حوادث الزمان . والتلمود أو بعبارة أدق جزؤه الذى يبحث فى الشريعة (الهلكا) هو أيضاً كلمات الله الأزلية ، وهو صياغة للقوانين التى أوحاها الله إلى موسى شفويا ثم علمها موسى لخلفائه ، ولهذا فإن ما فيها من الأوامر والنواهى واجبة الطاعة تستوى فى هذا مع كل ما جاء فى الكتاب المقدس(**) . ومن أحبار اليهود من يجعلون المشنا مرجعاً أقوى حجة من الكتاب المقدس ، لأنها صورة من الشريعة معدلة جاءت متأخرة عنها[١٨] . وكانت بعض قرارات الأحبار تتعارض تعارضاً صريحاً مع قوانين أسفار موسى الخمسة ، أو تفسرها تفسيراً يبيح مخالفتها[١٩] . وكان يهود ألمانيا وفرنسا فى العصور الوسطى يدرسون التلمود أكثر مما يدرسون الكتاب المقدس نفسه .

ومن المبادئ البديهية فى التلمود ، كما أن من المبادئ البديهية فى الكتاب المقدس وجود إله عاقل قادر على كل شيء . وقد وجد بين اليهود من حين إلى حين عدد من المتشككين أمثال اليشع بن أيوبا العالم الذى اتخذه الكوهن مائير صديقا له ، ولكن يبدو أن أولئك المتشككين كانوا أقلية صغيرة لا تكاد تجهر بآرائها . والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر ؛ فهو يحب ويبغض ويغضب[٢٠] ويضحك[٢١] ويبكى[٢٢] . ويحس بوخز الضمير ،

(*) قارن بذلك ما يعتقده الصينيون الأقدمون من أن حركة العالم وبقاءه إنما يعتمدان على القانون الأخلاق ؛ وتشبيه هرقليطس حيود الكواكب السيارة بالذنوب ؛ و « أفكار » أفلاطون النموذجية الأصلية المقدسة . وأصل هذه النظرية يرجع إلى الآية الثانية والعشرين من الأصحاح الثامن من سفر الأمثال . وقبل أقر المسيح بأزلية الشريعة (الآية ٧ من الأصحاح السابع عشر من إنجيل لوقا ، والآية الثامنة عشرة من الأصحاح الخامس من إنجيل متى) ؛ كذلك يعتقد المسلمون أن القرآن أيضاً أزلى .

(**) لم يقر أى مجمع يهودى رسمى هذا الرأى التلمودى الخاص بالتلمود ؛ واليهودية الحديثة بعد إصلاحها ترفضه .

ويلبس التمائم[٢٤] ، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفى الدرجات يقومون على خدمته ، ويدرس التوراة ثلاث مرات فى كل يوم[٢٥]. ويعترف رجال الدين بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما ، ويقولون : « إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه »[٢٦] ؛ وإذا لم يكن فى مقدور العامة أن يفكروا إلا على أساس الصور المادية فليس الذنب واقعاً عليهم . وهم يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة ، السارية فيه كله ، تمده بالحياة ، تسمو عليه وتلازمه فى وقت واحد ، تعلو على العالم ولكنها مع ذلك حالّة فى كل ركن من أركانه وكل جزء من أجزائه . والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسُكينا (السكّن) تكون حقيقية بنوع خاص فى الأشخاص المقدسين وفى الأماكن والأشياء المقدسة ، وفى ساعات الدرس والصلاة . لكن هذا الإله القادر على كل شيء رغم هذا إله واحد . وليس بين الأفكار كلها فكرة أبغض إلى اليهودية من تعدد الآلهة ، واليهود لا يفتئون يجهرون بوحدانية الله فى حماسة قوية ويندون بشرك الوثنية وبما يبدو فى الثالوث المسيحى من تثليث . وهم يجهرون بهذه الوحدانية فى أشهر صلواتهم وأكثرها انتشاراً بينهم صلاة شمع يسرائيل : « اسمعى يا إسرائيل ، الله إلهنا ، الله واحد » (شمع يسرائيل أدوناى إلوهينا أدوناى أحد)[٢٧] . وليس ثمة مكان بجواره فى هيكله أو عبادته إلى مسيح ، أو نبى ، أو قديس . وقد نهى أحبار اليهود الناس عن ذكر اسمه إلا فى أحوال جد نادرة يقصدون بذلك أن يحولوا بينهم وبين تدنيسه أو اتخاذه وسيلة للسحر ، ولكى يتجنبوا النطق بهذا الاسم الرباعى يهوه كانوا يذكرون بدلا منه لفظ أدوناى أى الرب ، بل ويشيرون بأن يستعمل بدلا منه عبارات مثل : « الواحد المقدس » « الواحد الرحيم » « السماوات » « أبينا الذى فى السماء » . وفى اعتقادهم أن الله قادر على صنع المعجزات وأنه يصنعها فعلا ، وخاصة على أيدى كبار الأحبار ؛ ولكن يجب ألا يظن أن هذه

المعجزات خرق لقوانين الطبيعة إذ ليس ثمة قوانين إلا إرادة الله ؛

وقد خلق كل شيء لغرض إلهي طيب : « فقد خلق الله القوقعة لمداواة الجرب ، والزجاجة لمداواة لسعة الزنبور ، والبعوضة لمداواة عضة الأفعى ، والأفعى لعلاج الاحتقان[٢٨] ، وبين الله والإنسان صلة لا تنقطع ؛ وكل خطوة يخطوها إنما يخطوها أمام ناظريه لا تخفى عنه ، وكل عمل يعمله الإنسان أو فكرة تجول بخاطره فى خلال يومه يمجد بها الذات الإلهية أو يغضبها . والناس كلهم أبناء آدم ، ولكن « الإنسان قد خلق أولا وله ذنب كذنب الحيوان[٢٩] و « كانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجوه القردة »[٣٠] . ويتكون الإنسان من جسم وروح ، فروحه من عند الله ، وجسمه من الأرض ، والروح تدفعه إلى الفضيلة ، والجسم يدفعه إلى الخطيئة . أو لعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان ، ومن ذلك العدد الجم من الأرواح الخبيثة التى تكمن حوله فى كل مكان[٣١] . بيد أن كل شر قد يكون فى نهاية الأمر خيراً ؛ ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كد الإنسان أو تناسل . وتقول إحدى الفقرات الظريفة « تعال نعز الخير لآبائنا ، فإنهم لو لم يأثموا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا »[٣٢] .

والخطيئة من فطرة الإنسان ، ولكن ارتكابها ليس موروثاً ، وقد قبل أحبار اليهود عقيدة سقوط الإنسان ، ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ولا الكفارة الإلهية . فالإنسان فى رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من الذنوب ، وإذا ما لقى من العقاب فى الحياة الدنيا أكثر مما يبدو له أنه يستحقه على ذنوبه ، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذه الذنوب كلها ، أو قد يكون هذا الإفراط فى العقاب نعمة كبرى ، تؤهله للخير العميم فى الدار الآخرة . ومن أجل هذا يجب على الإنسان كما يقول عقيبا أن يبتهج لكثرة ما يصيبه من سوء[٣٣] . أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان ، وغير الآثم بحق لا يموت أبداً[٣٤] . فالموت دين على البشرية الآثمة لباعث الحياة جميعها . ويقص

علينا مدرسن قصة مؤثرة عن موت الكائن مإير فيقول :

بينما كان الكوهن مإير يلقى موعظته الأسبوعية عصر يوم من أيام السبت إذ مات ولداه المحبوبان فجاءة فى منزله . فغطتهما أمهما بغطاء ، وأبت أن تندبهما فى اليوم المقدس . ولما عاد الكوهن مإير بعد صلاة المساء سأل عن ولديه لأنه لم يرهما فى الكنيس بين المصلين ، فطلبت إليه أن يتلو الهبدلة (وهى دعاء يختتم به السبت) وقدمت له العشاء . ثم قالت له : « لدى سؤال أريد أن أسألك إياه . ائتمننى أحد الأصدقاء فى يوم من الأيام على جواهر أحفظها له ، ثم أراد الآن أن يستعيدها فهل أردها إليه ؟ » فأجابها الكوهن مإير « ذلك واجب عليك بلا ريب » ؛ فأمسكت زوجته حينئذ بيده ، وسارت به إلى الفراش ورفعت عنه الغطاء . فأخذ الكوهن مإير ينتحب ولكن زوجته قالت له : لقد كانا وديعة لدينا إلى حين والآن قد أراد سيدها أن يسترد وديعته » .

ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشىء القليل عن خلود الثواب والعقاب ، ولكن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير فى آراء الأحبار الدينية . فقد صوروا النار على أنها جهنم Ge Hinnom أو شاول(*) ، وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تتدرج فى درجات العذاب . ولا يدخلها من المختتنين إلا أخبثهم(٣٦) ، وحتى الآثمون الذين يداومون على الإثم لا يعذبون فيها إلى أبد الآبدين ، بل إن « كل من يلقون فى النار يخرجون منها مرة أخرى إلا فئات ثلاثا : الزانى ، ومن يفضح غيره أمام الناس ، ومن يسب غيره »(٣٧) . أما السماء فقد كانوا يسمونها جنة عدن Gen Eden ، وكانوا يصورونها فى صورة حديقة تحوى جميع المسرات الجسمية والروحية . فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من

(*) كان وادى هنم كومة من الأقذار فى خارج أورشليم ، تظل النار متقدة فيه لمنع انتشار الأوبئة . أما شاول فقد كانت فى رأيهم مكاناً مظلماً تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات .

الستة الأيام التى خلق فيها العالم ، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية ، والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب فى وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه . بيد أن بعض أحبار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر[٣٨] .

وإذا ما فكر اليهود فى النجاة كان تفكيرهم فيها أنها نجاة الشعب لا نجاة الفرد . وذلك أنهم وقد شتتوا فى أنحاء العالم بضروب من القسوة لا يبررها فى ظنهم عقل ، وأخذوا يقوون أنفسهم باعتقادهم أنهم لا يزالون شعب الله المحبوب المختار ، فهو أبوهم ، وهو إله عادل ، ولا يمكن أن ينكث عهده لإسرائيل . أليسوا هم الذين أنزل عليهم كتابه المقدس الذى يؤمن به المسيحيون والمسلمون ويعظمونه ؟ وقد دفعتهم شدة يأسهم إلى درجة من الكبرياء اضطر معه أحبارهم الذين سموا بهم إلى تلك الدرجة أن ينزلوا بهم عنها بضروب اللوم والتأنيب . وكانوا فى ذلك الوقت كما هم الآن يتوقون إلى البلد الذى نشأت فيه أمتهم ، وكانوا يعزونها ويرون أنها المثل الأعلى لجميع البلدان ، ويقولون « إن من يمشى أربع أذرع فى فلسطين يعيش بلا ريب إلى أبد الآبدين ، ومن يعش فى فلسطين يطهر من الذنوب »[٣٩] . « وحديث من يسكنون فلسطين فى حد ذاته توراة »[٤٠] ، وأهم قسم فى الصلوات اليومية وهو الشمونة عسرا (الفقرات الثمان عشرة) تحوى دعاء بمجىء ابن داود ، الملك المسيح الذى يجعل اليهود كما كانوا أمة متحدة ، حرة ، يعبدون الله فى هيكلهم بشعائرهم وترانيمهم القديمة

٢ – الشعائر الدينية

لم يكن ما يميز اليهود من غيرهم من الشعوب فى عصر الإيمان الذى نتحدث عنه ، والذى يحفظ عليهم وحدتهم وهم مشتتون ، هو عقيدتهم الدينية بل شعائرهم ، لم يكن هو العقيدة التى لم تفعل المسيحية أكثر من التوسع فيها والتى قبل الإسلام الكثير منها بل هو قواعد الطقوس والمراسم المعقدة تعقيداً ثقيلاً لم يكن فى مقدور

شعب غير هذا الشعب المتكبر ، السريع التأثر ، أن يظهر من الوداعة والصبر ما تتطلبه إطاعته والعمل بها . لقد كانت المسيحية تنشد الوحدة عن طريق توحيد العقيدة ، أما اليهودية فكانت تنشدها عن طريق توحيد الشعائر . وفى ذلك يقول أبا أريكا : « إن الشرائع لم توضع إلا لكى تؤدب الناس وترقق طباعهم بالعمل بها »(٤١) .

ولقد كانت الشعائر أولاً وقبل كل شيء هى قانون العبادة . ولما أن حلت المعابد اليهودية محل الهيكل استبدلت بالأضاحى الحيوانية القرابين والصلوات ، ولكنهم لم يكونوا يجيزون وضع صورة لله أو للآدميين فى المعابد كما لم يكونوا يجيزون وضعها فى الهيكل . ذلك أنهم كانوا يتجنبون كل ما يشتم منه عبادة الأوثان ، وكذلك كانت الموسيقى الآلية المباحة فى الهيكل محرمة فى المعابد . وفى هذا تختلف المسيحية عن اليهودية وتتفق مع الإسلام ، فقد تكشف الدينان الساميّان عن تقوى قاتمة وتكشفت المسيحية عن فن مقبض قاتم كذلك .

وكانت الصلاة تجربة دينية يمارسها اليهودى المتدين كل يوم ، بل يكاد يمارسها فى كل ساعة . وكانت صلوات الصباح تتلى من قلقطيرات (علب صغيرة محتوية على فقرات من الكتاب المقدس) مثبتة على الجباه والأذرع ولم يكونوا يطعمون طعاما دون أن يتلوا دعاء قصيرا قبله وصلاة للشكر طويلة فى نهايته . على أنهم لم يكونوا يكتفون بهذه الصلوات المنزلية ، ذلك أن الناس لا يرتبطون ويتماسكون إلا إذا اشتركوا معاً فى القيام بأعمال واحدة ، وكان أحبار اليهود يحاجون بما عرف عن الشرقيين من مبالغة أن « الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها فى الكنيس »(٤٢) . وكان أهم ما تشتمل عليه الطقوس الدينية العامة هو « الشمونة عسرا » ، « والشمع يسرائيل ، وتلاوة من أسفار موسى الخمسة ، ومن سفر الأنبياء ، ومزامير داود ، وعظة تشتمل على تفسير فقرات من الكتاب

المقدس ، وعلى « قديس Kaddish » (أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات) ثم دعاء ختامى . ولا يزال هذا هو الأساس الجوهرى للشعائر التى تقام فى المعابد إلى يومنا هذا .

وأدق من هذه الشعائر وأكثر منها تفصيلاً القواعد الخاصة بالنظافة البدنية أو طقوس الطهارة . فقد كان أحبار اليهود يرون أن الصحة البدنية تعين على سلامة الروح(٤٣) . ولهذا كانوا يحرمون على بنى دينهم أن يعيشوا فى مدينة ليس بها حمّام(٤٤) ، ويعينون للاستحمام قواعد تكاد تبلغ مرتبة الأوامر الطبية كقولهم : « إذا اغتسل الإنسان بماء ساخن ولم يغتسل بعده بماء بارد كان مثله كمثل الحديد الذى يحمى فى تنّور ثم لا يوضع بعدئذ فى ماء بارد »(٤٥) ، فمثل الجسم كمثل الحديد يجب أن يُسقى ويُقسّى . ويجب أن يدهن الجسم بالزيت بعد الاستحمام(٤٦) . كذلك يجب غسل اليدين عقب الاستيقاظ مباشرة ، وقبل تناول كل وجبة من الوجبات وبعد تناولها ، وقبل الصلاة العامة وقبل القيام بكل شعيرة دينية . وكانت جثث الموتى ، والاتصال الجنسى ، والحيض ، والولادة ، والحشرات ، والخنازير ، والجذام (ومختلف الأمراض الجلدية) كانت هذه كلها حسب القواعد الدينية نجسة . ومن مس شيئاً منها أو أصيب به وجب عليه أن يتوجه إلى الكنيس ويؤدى فيه شعائر التطهير . وكانت المرأة تعد نجسة (أى لا يقترب منها زوجها) أربعين يوماً بعد أن تلد ولداً ذكراً ، وثمانين يوماً إذا كانت المولودة أنثى(٤٧) . ويجب وفقاً لما ورد فى الكتاب المقدس (فى الآيات من ٩ إلى ١٤ من الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين) أن تجرى عملية الختان للمولود الذكر فى اليوم الثامن بعد مولده ، وكان هذا الختان يعد قرباناً ليهوه وعهداً بينه وبين عباده ؛ ولكن انتشار هذه العادة بين المصريين الأقدمين ، والأحباش ، والفينيقيين ، والسوريين ، والعرب ، يوحى بأنها كانت إجراء صحيا يحتمه الجو الذى يساعد على النضوج والاهتياج الجنسى المبكرين ، أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة

ويؤيد هذا الرأى ما يحتمه أحبار اليهود على بنى دينهم ألا يبقوا لديهم عبداً أكثر من اثنى عشر شهراً دون ختان[٤٨] .

ولقد يخيل إلى الإنسان وهو يقرأ بعض أجزاء من التلمود أنه كتاب مبسط فى الطب المنزلى أكثر مما هو كتاب فى الشرائع الدينية ، والحق أنه كان لا بد أن يجعل بمثابة موسوعة من النصائح للشعب اليهودى . ذلك أن يهود القرن الرابع والقرن الخامس بعد الميلاد كانوا كمعظم شعوب البحر المتوسط ينزلون عائدين إلى الخرافات والحيل الطبية التى تسود بين الشعوب المنعزلة الفقيرة ؛ ولقد تسرب كثير من هذا الطب الشعبى والخرافى إلى التلمود . غير أننا مع هذا نجد فى أجزاء البابلية وصفاً غاية فى الجودة للمرىء والحنجرة ، والقصبة الهوائية ، والرئتين ، والأغشية السحائية ، وأعضاء التناسل . وقد وصفت فيه خراجات الرئتين وتليف الكبد ، والحَرَض الجبَنى وكثير غيرها من الأمراض وصفاً دقيقاً ؛ ومما أثبته الأحبار أن الذباب وأكواب الشرب قد تنقل العدوى[٤٩] ، كما أثبتوا أن التَدْمام (أى الاستهداف للنزف) داء وراثى يجعل ختان أبناء المصابين به أمراً غير مستحب . لكن هذه الآراء قد اختلطت بها رقى سحرية لطرد الأرواح الخبيثة التى يحسبونها سبباً فى الأمراض .

ولقد كان أحبار اليهود ، مثلنا نحن جميعاً ، خبراء فى التغذية الصحية . وتبدأ القواعد الحكيمة للتغذية عندهم بالأسنان . فهذه فى رأيهم يجب ألا تخلع ، مهما اشتدت آلامها[٥٠] لأن « الإنسان إذا أجاد مضغ الطعام بأسنانه وجدت قدماه القوة »[٥١] . وهم يمتدحون الخضر والفاكهة ما عدا البايح ويوصون بأكلها . أما اللحم فمن مواد الترف التى يجب ألا يتناولها سوى المتطهرين[٥٢] . ويجب أن يذبح الحيوان بحيث تقل آلامه إلى أقصى حد ، وبحيث يخرج الدم من اللحم ، لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس . ومن أجل هذا يجب أن يعهد ذبح الحيوان لاتخاذ لحمه طعاماً إلى أشخاص مدربين ، عليهم أن يفحصوا عن أحشائه

حتى يتأكدوا من أن الحيوان سليم من الأمراض . ويجب ألا يجمع فى الوجبة الواحدة بين اللحم واللبن أو بين الأطعمة التى يدخل فيها هذان الصنفان ، بل يجب ألا يوضعا قريبين أحدهما من الآخر فى المطبخ[٥٣] . ولحم الخنزير محرم ممقوت ، ولا يصح أكل البيض ، أو البصل ، أو الثوم إذا كان قد ترك بالليل منزوع القشر[٥٤] . ويجب الامتناع عن تناول الطعام فى غير أوقاته المحددة : « لا تنقر طول النهار كالدجاج »[٥٥] . و« الذين يموتون من الإفراط فى الأكل أكثر ممن يموتون من نقص التغذية »[٥٦] . « والأكل إلى سن الأربعين نافع للصحة ، أما بعد الأربعين فالشرب نافع لها »[٥٧] ، والاعتدال فى الشرب خير من الامتناع عنه بتاتاً ، فكثيراً ما يكون الخمر دواء نافعاً[٥٨] ، و« ليس ثمة سرور إلا به »[٥٩] . وقد أراد أحبار اليهود أن يسيروا فى موضوع التغذية إلى غايته فقالوا إن « من يطل المكث فى المرحاض يطل عمره » وأشاروا بأداء صلاة شكر كلما استجاب الإنسان لنداء الطبيعة[*][٦٠] .

وكانوا يقاومون التنسك وينصحون بنى دينهم أن يتمتعوا بطيبات الحياة إذا لم يكن فيها ما هو محرم[٦١] . وقد فرض عليهم الصيام فى مواسم معينة وفى بعض الأيام المقدسة ، ولكن لعل الدين هنا قد اتخذ وسيلة للحض على العناية بالصحة . واقتضت حكمة الشعب أن يؤمر اليهود بأن يحتفلوا بالأعياد ويقيموا الولائم من آن إلى آن ، رغم نغمات الحزن والأسى التى كانت تسمع منهم حتى فى أفراحهم . « يجب على الإنسان أن يدخل السرور فى العيد على زوجته وآل بيته » . ويجب عليه إن استطاع أن يهيئ لهم ثياباً جديدة[٦٢] . ويبدو أن السبت — وهو أعظم ما ابتدعه اليهود — كان عبئاً ثقيلا عليهم فى أيام التلمود ، فقد كان ينتظر من اليهودى التقى أن يجعل كلامه أقل ما يستطيع ، وألا يوقد النار فى منزله ، وأن يقضى الساعات عاكفاً على الصلاة فى الكنيس . وثمة نبذة طويلة تتحدث بالتفصيل

(*) أى كلما ذهب إلى المرحاض .

الوافى الممل عما يجوز عمله وما لا يجوز فى السبت . ولكن فتاوى الأحبار كانت تهدف إلى التقليل من أهوال التقوى أكثر مما تهدف إلى زيادتها . وكان ما فيها من الدقة يرمى إلى تلمس الأسباب المقنعة لحمل الإنسان على أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله فى يوم الراحة .. يضاف إلى هذا أن اليهودى الصالح كان يجد سعادة خفية فى التمسك بشعائر السبت القديمة : فكان يبدؤه بقداس قصير . كان وهو محوط بأفراد أسرته وبأصدقائه (لأن هذا اليوم كان من الأيام التى يحلو فيها دعوة الأصدقاء) ، يمسك بيده كأساً مملوءة بالخمر ، يتلو عليها بعض الأدعية ، ثم يشرب بعضها ويناول الكأس لضيوفه وزوجته وأبنائه . ثم يأخذ بعدئذ الخبز ويباركه ، ويحمد الله « الذى يخرج الخبز من الأرض » ، ويعطى بعضه لكل من يجلسون معه على المائدة . ولا يجوز الصوم أو الحزن فى السبت :

وكانت أيام مقدسة كثيرة تتخلل العام وتتيح لليهود الفرص للاحتفال بالذكريات المقدسة أو للراحة المحببة . فمنها عيد الفصح اليهودى الذى يبدأ فى الرابع عشر من شهر نيسان (إبريل) ويستمر ثمانية أيام يحيى فيها ذكرى فرار اليهود من مصر : وكانوا فى الأيام الأولى من العهد الذى أوحى فيه بالكتاب المقدس يسمونه عيد الخبز الفطير ، لأن اليهود قد فروا ومعهم العجين الذى يصنعون منه خبزهم دون أن يختمر . وكان هذا العيد يسمى فى أيام التلمود عيد المرور ، لأن يهوه وهو يقضى على البكور من أبناء المصريين قد « مر » بالبيوت التى رش من فيها من اليهود دم الحمل على قوائم أبوابها[٦٣] . وكان اليهود يحتفلون فى اليوم الأول من هذا العيد بوجبة عيد الفصح (السدر) ، فكان كل أب يرأس حفلة الصلاة لأسرته المجتمعة عنده ، ويقوم معهم بمراسم تذكرهم بأيام موسى البئيسة ، ينقل فى خلالها عن طريق الأسئلة والأجوبة القصة القيمة العزيزة إلى الأبناء الصغار وفى عيد العنصرة ، وموعده بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح يحتفل اليهود فى عيد شيوعوت بحصاد القمح وتجلى الله لموسى على الجبل فى سيناء . وفى اليوم الأول من

تشرين — وهو الشهر السابع من السنة اليهودية الدينية ، والشهر الأول من سنة اليهود المدنية — وهو يتفق بوجه عام مع الإعتدال الخريفي يحتفل اليهود بعيد رأس السنة ، وبهلال الشهر ، وينفخون في قرن الحمل (الشفار أي الصفارة) إحياء لذكرى نزول التوراة ، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب ، واستعجالا لذلك اليوم السعيد حين يدعى جميع يهود العالم ليعبدوا الله في أورشليم . ومن مساء رأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين أيام توبة وتكفير عن الذنوب ، وكان أتقياء اليهود في هذه الأيام جميعها ما عدا اليوم التاسع منها يصومون ويصلون . فإذا جاء اليوم العاشر المسمى بيوم هاكيبريم (يوم الغفران) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا أو يحتذوا نعالا أو يقوموا بعمل أو يستحموا أو يقربوا النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، بل كانوا يقضون النهار كله في الكنيس يصلون ، ويعترفون بذنوبهم ، ويستغفرون لها هي وذنوب بني دينهم ، يستغفرون لهذه الذنوب بما فيها عبادة العجل الذهبي نفسه . وفي اليوم الخامس عشر من شهر تشرين يحل عيد سوكوت أو عيد المظلات . وكان المفروض أن يقضي اليهود هذا العيد في أخصاص إحياء لذكرى الخيام التي يقال إن آباءهم الأقدمين قد ناموا فيها خلال الأربعين يوما التي قضوها في البيداء . ولما وجد اليهود المشتتون صعابا جمة في الاحتفال بعيد الحصاد هذا كما هو مفروض عليهم بالدقة ، أظهر أحبارهم ما يتصفون به من تسامح بأن فسروا السكة (الخيمة) بأنها كل ما يصح أن يرمز به للمسكن . وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع شهر كسلو (ديسمبر) والسبعة الأيام التالية لهذا اليوم يقع عيد حَنُكة أو التكريس ، الذي يذكرهم بتطهير الهيكل من المكابيين (١٦٥ ق . م) ، بعد أن دنسه أنتيوخوس إيفانيز Antiochuc Epiphanes ؛ وفي الرابع عشر من آذار (مارس) يحتفل اليهود بعيد پوريم الذي أنجى فيه موردكى وإستر الشعب من مكر الوزير الفارسي هامان . وكانوا في ذلك اليوم يتبادلون الهدايا والدعوات أثناء وليمة مرحة يشربون .

فيها الخمر . وفى ذلك يقول رب ربا Rab Raba إن على الإنسان أن يشرب فى ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قولهم « ملعون هامان » و « ملعون موردكى »(٦٤) .

وليس من حقنا أن نظن أن هؤلاء اليهود التلموديين قوم مفرطون فى التشاؤم يحز فى نفوسهم احتقار من حولهم من الشعوب لمواهبهم ، تتقاذفهم أعاصير العقائد المتباينة ، يهيمون فى بيداء الآمال بالرجوع إلى بلادهم . ذلك أنهم وهم يعانون مرارة التشتت والظلم ، والندم والفقر ، كانوا يرفعون رؤوسهم عالية ، ويتذوقون لذة العمل والكفاح فى سبيل الحياة ، ويستمتعون بما يتحلى به نساؤهم المثقلات من جمال قصير الأجل وما فى الأرض والسماء من جلال مقيم . وفى ذلك يقول كوهنهم مإير : « يجب أن ينطق الإنسان فى كل يوم بمائة دعوة صالحة »(٦٥) . ويقول كوهن آخر قولا ما أجدرنا كلنا أن نعمل به « إذا مشى إنسان أربعة أذرع لا أكثر لم يطأطئ فيها رأسه أغضب الله ، ألم يرد فى الكتاب المقدس « مجده ملء كل الأرض »(٦٦) .

٣ — المبادئ الأخلاقية فى التلمود

ليس التلمود موسوعة من التاريخ ، والدين ، والشعائر ، والطب ، والأقاصيص الشعبية وحسب ، بل هو فوق هذا كله رسالة فى الزراعة ، وفلاحة البساتين ، والصناعة ، والمهن ، والتجارة(٦٧) ، وشئون المال ، والضرائب ، والملك والرق ، والميراث ، والسرقة ، والمحاكمات القضائية ، والقوانين الجنائية . وإذا شئنا أن نوفى هذا الكتاب حقه من البحث ، كان علينا أولا أن نلم بطائفة كبيرة العدد من العلوم المختلفة ، وأن نكتسب منها ما تهيؤه لعقولنا من الحكمة وسداد الرأى ، ونستخدم تلك الحكمة الجامعة فى الإلمام بأحكام هذا الكتاب فى الميادين المختلفة السالفة الذكر .

وأول ما نذكره أن التلمود أولا وقبل كل شىء قانون أخلاقى ، وأن هذا القانون

الأخلاق شديد الاختلاف عن القانون الأخلاقى المسيحى وعظيم الشبه بالقانون الإسلامى ، حتى لتكفى نظرة خاطفة إليه لدحض الرأى السائد فى العصور الوسطى القائل بأنه ليس إلا قصة المسيحية فى تلك العصور . إن الأديان الثلاثة الكبرى متفقة فى أن المبادئ الأخلاقية الفطرية — غير الدينية — تصلح لأن تكون قواعد عملية للإنسانية ، وترى أن الكثرة الغالبة من الناس لا يمكن أن تحمل على المسلك الحسن والخلق القويم إلا عن طريق خوف الله . ولهذا أقامت الأديان الثلاثة قانونها الأخلاقى على مبادئ رئيسية واحدة : أن لله عيناً تبصر كل شىء ، ويداً تسجل كل شىء ، وأن القانون الأخلاقى منزل من عند الله ، وأن الفضيلة تتفق فى آخر الأمر مع السعادة بما يناله المحسن بعد الموت من الثواب والمسىء من العقاب. ولم يكن من المستطاع فى الدينين الساميين فصل القوانين الثقافية والأخلاقية من الدين ، فلم تكن هذه القوانين تجيز التفرقة بين الجريمة والخطيئة ، أو بين الشر والشريعة الكنسية ، بل إن من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته ولاسمه جل جلاله .

وتتفق الأديان الثلاثة فضلاً عن هذا فى بعض قواعد الأخلاق : تتفق فى حرمة الأسرة والمسكن ، وفيما يجب للآباء وكبار السن من تكريم وإجلال ، وفى حب الأبناء ورعايتهم ، وفى عمل الخير لجميع الناس . وليس ثمة شعب أكثر من اليهود حرصاً على تجميل الحياة العائلية ، ولقد كان عدم الزواج عن قصد من الآثام الكبرى فى اليهودية كما هو فى الإسلام(٦٨) ؛ وكان إنشاء البيت وتكوين الأسرة من الأمور الشرعية التى يحتمها الدين(٦٩) ، وتنص عليه القاعدة الأولى من قواعد الشريعة البالغ عددها ٦١٣ قاعدة ؛ وفى ذلك يقول أحد المعلمين اليهود(٧٠) « إن من لا ولد له يعد من الأموات » ؛ ويتفق اليهودى ، والمسيحى ، والمسلم أن البشرية تصبح مهددة بالزوال إذا ما فقدت قوتها أوامر الدين التى تقضى بوجوب إنجاب الأبناء . على أن أحبار اليهود أباحوا تحديد عدد أفراد الأسرة فى

بعض الأحوال ، ويفضلون أن تكون السبيل إلى هذا هى منع الحمل ، وفى ذلك يقول بعضهم : « هناك ثلاث طبقات من النساء يجب عليهن أن يستعملن الأدوية الماصة : القاصر خشية أن يقضى الحمل على حياتها ، كيلا تكون النتيجة هى الإجهاض ، والمرضع حتى لا تحمل فتضطر إلى فطام الرضيع قبل الأوان فيموت الطفل »(٧١) .

وكان اليهود ، كما كان معاصروهم ، يكرهون أن يلدوا بنات ويسرون إذا أنجبوا الذكور ، ذلك أن الذكر لا الأنثى هو الذى يحمل اسم أبيه واسم الأسرة ، ويرث أملاكه ، ويعنى بقبره بعد وفاته ؛ أما البنت فسوف تتزوج فى بيت غريب وقد يكون بيتاً بعيداً ، ولا تكاد تتم تربيتها حتى يفقدها أبواها . لكن الآباء متى رزقوا الأبناء ، ذكوراً كانوا أو إناثاً ، أعزوهم وأدبوهم تأديباً ممزوجاً بالحب وفى ذلك يقول أحد أحبارهم : « إذا كان لا بد لك أن تضرب طفلك ، فاضربه برباط حذاء »(٧٢) . ويقول آخر «إذا امتنع الإنسان عن عقاب طفل ، انتهت به الحال إلى الفساد المطلق»(٧٣) . وكان من الواجب على الآباء أن يتحملوا كل تضحية تتطلبها تربية الأبناء أى تثقيف العقل ، وتقويم الخلق بدراسة « الشريعة وأسفار الأنبياء » . وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : « إن العالم ينجو بنفس تلاميذ المدارس »(٧٤) . فالسكينة أو الحضرة الإلهية تتجلى فى وجوههم ، وفى نظير هذا يجب على الابن أن يعظم والديه ويحميهما بكل ما فى وسعه وفى جميع الأحوال .

والصدقات من الواجبات التى لا مفر من أدائها وإن « من يتصدق لأعظم ممن يقدم كل القرابين »(٧٥) . ولقد كان بعض اليهود أشحاء ، وبعضهم بخلاء إلى أقصى حدود البخل ، ولكنهم بوجه عام يفوقون سائر الشعوب فى هباتهم وتبرعاتهم ، وقد بلغ من سخائهم فى هذه الناحية أن اضطر أحبارهم إلى أن ينهوهم عن إعطاء أكثر من خمس أموالهم للصدقات ؛ ومع هذا فقد وجد عند

وفاة بعضهم أنهم قد أعطوا نصف ما يملكون رغم هذا التحريم[٧٦] . « لقد كانت تلوح على وجه أبا أومنا على الدوام هالة من الطمأنينة القدسية ؛ ذلك بأنه كان جراحا ولكنه لم يكن يرضى أن يمسك بيديه أجراً على عمله ، بل كان له صندوق فى ركن حجرة استشارته يستطيع من كان فى مقدوره أداء شىء من المال أن يضع فيه ما يرغب فى أدائه ... وحتى لا يعترى الخجل من يعجز عن أداء شىء منه »[٧٧] . وكان رب هونا « إذا جلس لتناول الطعام فتح أبوابه ونادى : من كان فى حاجة فليدخل ويطعم »[٧٨] . وكان شاما بن إلعى Châma ben Elai يطعم الخبز كل من يطلبه ويضع يده فى كيس نقوده كلما سار فى خارج داره حتى لا يحجم أحد عن سؤاله[٧٩] . ولكن التلمود كاد يؤنب التظاهر بالبذل ويشير بأن يكون سراً ويقول « إن من يعطى الصدقات سراً أعظم من موسى »[٨٠] .

ووجه رجال الدين كل ما أوتوا من علم وبلاغة لامتداح نظام الزواج الذى كان هو والدين الأساس الذى يقوم عليه صرح الحياة اليهودية كلها . ولم يندوا بالشهوة الجنسية ولكنهم كانوا يخشون قوتها وبذلوا جهدهم فى كبح جماحها . فمنهم من كان ينصح بأكل الملح مع الخبز « ليقل المنى »[٨١] ، ومنهم من كان يحس بأن الوسيلة الوحيدة لكبح جماح الشهوة الجنسية هو العمل المجهد مضافاً إلى دراسة التوراة ؛ فإذا لم يجد هذه الوسيلة « فليذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، وليلبس سود الثياب ، وليفعل ما تبتغيه نفسه ، ولكن عليه ألا يدنس اسم الله جهرة »[٨٢] . وعلى الإنسان أن يبتعد عن كل المواقف التى تثير شهوته ، فلا يكثر من الحديث مع النساء ، « ولا يمشى فى الطريق خلف امرأة ولو كانت زوجته ... وخير للإنسان أن يمشى خلف أسد من أن يمشى خلف امرأة »[٨٣] وتظهر فكاهة أحبار اليهود المبهجة مرة أخرى فى قصة رب كهنا Reb Kahan .

فقد كان مرة يبيع سلال النساء وإذا هو يتعرض لغواية الشيطان ؛ وأخذ يقاوم طبيعته راجيا أن ينطلق هذه المرة على أن يعود إذا نجا . ولكنه بعد أن تغلب

على نفسه لم يعد بل صعد إلى سقف بيت وألقى بنفسه من فوقه ؛ وقبل أن يصل إلى الأرض وصل إليه اليشع وأمسك به ولامه على أن اضطره إلى قطع مسافة أربعمائة ميل لكى يحول بينه وبين إهلاك نفسه[٨٤] .

ويلوح أن أحبار اليهود يرون أن البكورية لا بأس بها ، ولكن البكورية الدائمة هى بعينها وقف النماء الطبيعى ، ويعتقدون أن كمال المرأة فى كمال الأمومة ، كما أن أسمى فضائل الرجل فضيلة الأبوة الكاملة . وكان من الواجب على كل أب أن يدخر بائنة لكل بنت من بناته ومهراً يمهر به كل ولد من أولاده عروسه حتى لا يتأخر زواج الولد والبنت تأخراً يضر بصحتهما . وكانوا يشيرون بالزواج المبكر — فى الرابعة عشرة للبنت وفى الثامنة عشرة للولد . وكان القانون يبيح زواج البنت إذ بلغت سنها اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وزواج الولد فى الثالثة عشرة من عمره . وكان يباح للطلاب المشتغلين بدراسة الشريعة أن يؤخروا زواجهم بعض الوقت . ومن الأحبار من كانوا يقولون إن على الرجل أن يثبت دعائم مركزه الاقتصادى قبل أن يقدم على الزواج : « على الرجل أولا أن ينشئ البيت ، ثم يغرس الكرمة ، ثم يتزوج »[٨٥] . — ولكن هذا الرأى هو رأى الأقلية ولعله لا يتعارض مع الزواج المبكر إذا ما تكفل الأبوان بتدبير العون المالى المطلوب . وكانوا ينصحون الشاب بألا يختار زوجته لجمالها بل لصفاتها التى سوف تجعلها فى المستقبل أمًّا صالحة[٨٦] ، ويقولون « اهبط درجة فى اختيار الزوجة ، وارق درجة فى اختيار الصديق »[٨٧] ، ومن يختر لنفسه زوجة من طبقة فوق طبقته يدع الناس إلى احتقاره .

وأجاز التلمود ، كما أجاز العهد القديم والقرآن ، تعدد الزوجات ؛ ومن أقوال أحد الأحبار فى هذا المعنى : « يستطيع الرجل أن يتزوج أى عدد من النساء يشاء » ولكن فقرة ثانية فى مقاله هذا تحدد عدد الزوجات بأربع ، وتطلب

فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ له زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى إذا أرادت هي الطلاق[٨٨] . ونظام تعدد الأزواج هذا تفترضه كذلك العادة القديمة التي يطالب اليهودي بمقتضاها أن يتزوج من أرملة أخيه بعد وفاته ، وأكبر الظن أن منشأ هذه العادة لم يكن هو العطف والشفقة فحسب ، بل كانت تقوم فوق ذلك على الرغبة في الإكثار من النسل في مجتمع ترتفع فيه نسبة الوفيات شأنه في ذلك شأن كل المجتمعات التي قامت في العصور القديمة والعصور الوسطى .

وبعد أن يسر الأحبار للرجل إشباع غريزته الجنسية على هذا النحو جعلوا الزنى من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وكان منهم من يقول مع المسيح إن « الإنسان قد يزني بعينيه »[٨٩] ، ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا فقال : « إن من يتطلع إلى خنصر امرأة لا أكثر قد ارتكب إثماً في قلبه »[٩٠] . ولكن رب أريكا أرق من هؤلاء وأولئك قلبا إذ يقول : « يجد الإنسان في كتاب سيئاته يوم الحشر كل شيء رآه بعينيه وأبى أن يستمتع به[٩١] .

وأبيح الطلاق برضا الطرفين ؛ فأما الزوج (الرجل) فلا يمكن أن يطلق إلا برضاه ، وأما الزوجة فيجوز للرجل أن يطلقها بغير رضاها . وطلاق الزوجة الزانية أمر واجب ، كذلك يشار بطلاق الزوجة إذا ظلت عقيما عشر سنين بعد الزواج[٩٢] . ولم تكن مدرسة شماي تبيح طلاق المرأة إلا إذا زنت ، أما مدرسة هلل فقد أباحت للرجل أن يطلق زوجته إذا وجد فيها « شيئاً معيباً » ؛ وكانت الغلبة في أيام التلمود لرأي هلل ، وقد ذهب فيه عقيبا إلى حد بعيد فقال إن « في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، إذا وجد امرأة أخرى أجمل منها »[٩٣] . وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته إذا عصت أوامر الشريعة اليهودية ، بأن سارت أمام الناس عارية الرأس ، أو غزلت الخيط في الطريق العام ، أو تحدثت إلى مختلف أصناف الناس أو « إذا كانت عالية الصوت أي إذا كانت تتحدث في بيتها ويستطيع جيرانها سماع ما تقول »[٩٤] ولم يكن عليه في هذه الأحوال

أن يرد إليها بائنتها . ولم يكن هجر الرجل زوجته يوجب طلاقها منه[٩٥] ، وأباح بعض رجال الدين للزوجة أن تلجأ إلى المحكمة تطلب الطلاق من زوجها إذا قسا عليها ، أو كان عنينا ، أو أبى أن يؤدى الواجبات الزوجية ، أو لم ينفق عليها النفقة التى تليق بها[٩٦] ، أو كان مشوهاً أو نتناً[٩٧] . وكان الأحبار يحاولون تقليل الطلاق بأن يضعوا فى سبيله إجراءات قانونية معقدة ، ويفرضون فى جميع الأحوال — إلا القليل النادر منها — استيلاء الزوجة على البائنة والمهر ؛ ويقول الحاخام إلْعِزَر Eleazar « إن المذبح نفسه ليذرف الدمع على من يطلق زوجة شبابه »[٩٨] .

وجملة القول أن قوانين التلمود ، بوجه عام ، من وضع الرجال وأنها لذلك تحابى الذكور محاباة بلغ من قوتها أن بعثت فى نفوس أحبار اليهود الفزع من قوة المرأة ، وهم يلومونها ، كما يلومها الآباء المسيحيون ، لأنها أطفأت « روح العالم » بسبب تشوف حواء المنبعث عن ذكائها . وكانوا يرون أن المرأة « خفيفة العقل »[٩٩] ، وإن كانوا يقرون لها بأنها وهبت حكمة غريزية لا وجود لها فى الرجل[١٠٠] . وهم يأسفون أشد الأسف لما جبلت عليه المرأة من ثرثرة : « لقد نزلت على العالم عشرة مكاييل من الكلام ؛ أخذت المرأة منها تسعة ، وأخذ الرجل واحداً »[١٠١] . ونددوا بانهماكها فى السحر وما إليه من الفنون الخفية[١٠٢] ، وفى الأصباغ والكحل[١٠٣] . ولم يكونوا يرون بأساً فى أن ينفق الرجل بسخاء على ملابس زوجته ، ولكنهم كانوا يطلبـــون إليها أن تجمل نفسها لزوجها لا لغيره من الرجال[١٠٤] . وفى القضاء — على حد قول أحد الأحبار — « تعدل شهادة مائة امرأة شهادة رجل واحد »[١٠٥] ؛ وكانت حقوق النساء المِلْكية محددة فى التلمود بالقدر الذى كانت محددة به فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر ؛ فكاسبهن وما يؤول إليهن من ملك لهن حق لأزواجهن[١٠٦] ، ومكان المرأة هو البيت . ويقول أحد الأحبار المتفائلين إن المرأة فى « عصر المسيح الثانى ستلد

طفلاً في كل يوم »[١٠٧] وإن « الرجل الذى له زوجة خبيثة لن يرى وجه جهنم »[١٠٨] ، ويقول عقيبا من جهة أخرى إنه ليس أغنى من الرجل الذى له امرأة اشتهرت بأعمالها الطيبة[١٠٩] : ويقول أحد المعلمين اليهود إن « كل شيء يصدر عن المرأة[١١٠] » . وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : « إن كل ما فى البيت من نعم وبركات قد جاء إليه عن طريق الزوجة ؛ ولهذا فإن من الواجب على زوجها أن يكرمها . . . وليحذر الرجال من أن يبكوا المرأة ، فإن الله يعدّ دموعها »[١١١] .

ولقد جمع ناشر غير معروف فى أبهج جزء من أجزاء التلمود ، وهو الرسالة الصغيرة المسماة برقى أبوت Pirke Aboth (الأصول السياسية) ، حكم كبار الأحبار الذين عاشوا فى القرنين السابقين لمولد المسيح والقرنين التاليين له . وكثير من هـــذه الأمثال يمتدح الحكمة وبعضها يعرفها ويحدد معناها !

قال بن زوما : من هو الحكيم ؟ هو الذى يتعلم من كل إنسان ... من هو القوى ؟ هو الذى يخضع ميوله (الخبيثة) ... من يسيطر على روحه خير ممن يستولى على مدينة . من هو الغنى ؟ هو الذى يسر بما قسم له . . . من هو الكريم هو الذى يكرم بنى جنسه[١١٢] . . . لا تحتقر إنساناً ولا تحتقر شيئاً ؛ فليس ثمة إنسان ليست له ساعته ، وليس ثمة شيء ليس له مكانه[١١٣] . . . لقد نشأت طول عمرى بين الحكماء ، ولقد وجدت أن لا شيء أحسن للإنسان من الصمت . . .[١١٤] .

وقد اعتاد الكوهن إلعزر أن يقول : مثل من تزيد أفعاله على حكمته ، كمثل شجرة كثرت فروعها وقلت جذورها ، إذا هبت عليها الريح اقتلعتها وألقتها على وجهها . . . أما من تزد حكمته على أفعاله فمثله كمثل شجرة قلت أغصانها وكثرت جذورها لو أن رياح العالم كلها هبت عليها لما زحزحتها من مكانها[١١٥] .

الفصل الرابع

الحياة والشريعة

ليس التلمود من التحف الفنية ، ذلك بأن جمع أفكار ألف عام كاملة ووضعها فى مجموعة مترابطة متناسقة عمل لا يقوى عليه حتى مائة حبر من الأحبار الصابرين . وما من شك فى أن كثيراً من المقالات قد وضعت فى غير موضعها من الكتاب ، وأن عدداً من الفصول قد وضع فى غير المقالات التى يجب أن يوضع فيها ، وأن موضوعات تبدأ ، ثم تترك ، ثم تبدأ من جديد على غير قاعدة موضوعة . وليس الكتاب ثمرة تفكير بل هو التفكير نفسه ، فكل الآراء المختلفة قد دونت فيه وكثيراً ما تترك النقط المتعارضة دون أن تحل وتفسر . وكأننا قد اجتزنا خمسة عشر قرنا من الزمان لننصت إلى نقاش أشد المدارس إخلاصا ونستمع إلى عقيبا ومابر ويهودا هنسيا ورب فى أثناء جدلهم العنيف . وإذا ما ذكرنا أننا فضوليون متطفلون ، وأن هؤلاء الرجال وغيرهم قد اختطفت ألفاظهم العارضة اختطافاً من أفواههم وقذف بها فى نصوص لم تكن معدة لها ، ثم أرسلت تجلجل خلال القرون الطوال ، إذ ذكرنا هذا استطعنا أن نعفو عما نجده فى هذه الأقوال من جدل ، وسفسطة ، وأقاصيص غير صادقة ، وتنجيم ، وحديث عن الجن والشياطين ، وخرافات ، ومعجزات ، وأسرار الأعداد ، وأحلام وحى ، ونقاش لا آخر له يتوج نسيجا مهلهلا من الخيالات والأوهام ، والغرور الذى يغريهم ويأسو جراحهم ويخفف عنهم آلام آمالهم الضائعة .

وإذا ما اشمأزت نفوسنا من قسوة هذه القوانين ، ومن دقة هذه النظم وتدخلها فيما لا يصح أن تتدخل فيه ، وما يجازى به من يخرقها من شدة وبطش ، فإن من واجبنا ألا نحمل هذه المسألة محمل الجد ، ذلك أن اليهود لم يدعوا قط أنهم يطيعون

هذه الوصايا كلها ، وأن أحبارهم كانوا يغضون أبصارهم عما يجدونه فى كل صفحتين من كتابهم من ثغرات بين نصائحهم التى تدعو إلى الكمال ، وبين ما فى الطبيعة البشرية من ضعف خفى . وفى ذلك يقول أحد الأحبار الحذرين : « لو أن إسرائيل قد حرصت الحرص الواجب على سبت واحد لجاء ابن داود من فوره »(١١٦) . ولم يكن التلمود كتاب قوانين يطلب إلى اليهود إطاعتها جملة وتفصيلا ، بل كان سجلا لآراء الأحبار ، جمعه جامعوه ليهدوا به الناس إلى التقى على مهل ، ولم تطع الجماهير غير المثقفة إلا قلة مختارة من الأوامر التى جاءت بها الشريعة .

ويهتم التلمود اهتماما كبيراً بالشعائر الدينية ، ولكن بعض هذا الاهتمام كان رد فعل من اليهود لما بذلته الكنيسة المسيحية والدولة من محاولات لإرغامهم على التخلى عن شريعتهم . ولقـــد كانت هذه الشعائر سمة تميزهم ، ورابطة تجمع شتاتهم وتصل بين مختلف أجيالهم ، وشعارا يتحدون به عالما لا يعفو قط عنهم . وإنا لنجد فى مواضع متفرقة من مجلدات التلمود العشرين كلمات حقد على المسيحية ، ولكنها حقد على مسيحية نسيت رقة المسيح وظرفه ، مسيحية اضطهدت المتمسكين بشريعة أمر المسيح أتباعه بالعمل بها ، مسيحية يرى أحبار اليهود أنها حادت عن مبدإ التوحيد جوهر الدين القويم وأساسه الذى لا يتبدل . وإنا لنجد بين هذه الشعائر والطقوس المعقدة ، وهذا الجدل الشائك الطويل ، مئات من النصائح السديدة ، والبصيرة النفسانية ، تتخللها فى بعض الأحيان فقرات تعيد إلى الذاكرة جلال كتاب العهد القديم أو الحنان الصوفى الذى تراه فى العهد الجديد . وإن ما يمتاز به اليهودى من فكاهة شاذة غريبة الأطوار لتخفف عنه عبء هــذا الدرس الطويل . انظر مثلا إلى ما يقوله أحد أحبارهم من أن موسى دخل متخفيا إلى الحجرة التى يلقى فيها عقيبا دروسه ، وجلس فى الصف الأخير ، ودهش من

كثرة القوانين التى استنبطها المعلم الكبير من الشريعة الموسوية ، والتى لم يحلم بها قط كاتبها[١١٧] .

ولقد ظل التلمود أربعة عشر قرناً من الزمان أساس التربية اليهودية وجوهرها . وكان الشاب العبرانى ينكب عليه سبع ساعات فى كل يوم مدى سبع سنين ، يتلوه ويثبته فى ذاكرته بلسانه وعينه ؛ وكان هو الذى يكون عقولهم ويشكل أخلاقهم بما تفرضه دراسته من نظام دقيق ، وبما يستقر فى عقولهم من معرفة ، شأنه فى هذا شأن كتابات كنفوشيوس التى كان يستظهرها الصينيون كما يستظهر اليهود التلمود . ولم تكن طريقة تعلمه مقصورة على تلاوته وتكراره ، بل كانت تشمل فوق ذلك مناقشته بين المدرس والتلميذ ، وبين التلميذ والتلميذ ، وتطبيق القوانين القديمة على ما يستجد من الظروف . وقد أفادت هذه الطريقة حدة فى الذهن ، وتقوية للذاكرة ، وتثبيتاً للمعلومات ، ميزت اليهودى من غيره فى كثير من الميادين التى تتطلب الوضوح ، وتركيز الذهن ، والمثابرة ، والدقة ، وإن كانت فى الوقت نفسه قد عملت على تضييق أفق العقل اليهودى والحد من حريته . ولقد روض التلمود طبيعة اليهودى الثائرة المهتاجة ، وكبح جماح نزعته الفردية ، وبث فيه روح العفة والوفاء لأسرته وعشيرته ؛ ولربما كان « نير الشريعة » عبئاً ثقيلا على ذوى العقول السامية الكبيرة ، ولكنها كانت السبب فى نجاة اليهود بوجه عام .

وليس من المستطاع فهم التلمود إلا إذا درس فى ضوء التاريخ على أنه العامل الفعال الذى أبقى على شعب مطرود ، معدم ، مظلوم ، يتهدده خطر التفكك التام . ولقد فعل أحبار اليهود فى تشتتهم الواسع ما فعله أنبياؤهم للاحتفاظ بالروح اليهودية فى الأسر البابلى . فقد كان لا بد لهم من أن يعيدوا إليهم عزتهم وكبرياءهم ، وأن يعملوا على أن يستقر بينهم النظام ، ويثبتوا فى قلوبهم الإيمان ، ويحافظوا على أخلاقهم القويمة ، ويعيدوا إليهم سلامة العقول وصحة الأبدان اللتين حطمتهما

المحن الطوال[١١٨] . وبفضل هذا التأديب الشاق ، وعرس أصول التقاليد اليهودية فى صدر اليهودى بعد اقتلاعها ، عاد الاستقرار وعادت الوحدة ، عن طريق التجوال فى أطراف القارات والأحزان خلال القرون الطوال ؛ ولقد كان التلمود على حد قول هينى Heine وطناً متنقلا لليهود يحملونه معهم أينما ساروا . فحيثما وجد اليهود ، حتى وهم جالية واجفة فى أرض الغربة ، كان فى وسعهم أن يضعوا أنفسهم مرة أخرى فى عالمهم ، وأن يعيشوا مع أنبيائهم وأحبارهم ، وذلك بأن يرووا عقولهم وقلوبهم من فيض الشريعة . فلا غرابة والحالة هذه إذا أحبوا هذا الكتاب الذى نراه نحن أكثر تنوعاً واختلافاً مما كتبه مائة كاتب من أمثال منتانى Montaigne . ولم يكفهم الاحتفاظ بالكتاب كله ، بل احتفظوا بأجزاء صغيرة منه بحب يصل إلى درجة الجنون ، وكانوا يتبادلون قراءة نتف من هذا المخطوط الضخم ، وأنفقوا فى القرون المتأخرة أموالا طائلة لطبعه كاملا ، وبكوا حين كانت الملوك والبابوات ، والمجالس النيابية تحرم تلاوته ، أو تصادره ، أو تحرقه ؛ وابتهجوا حين رأوا روشلين Reuchlin وإرزمس Erasmus يدافعان عنه ، وعدوه فى أيامنا هذه أثمن ما تمتلكه معابدهم وبيوتهم ، واتخذوه ملجأ وسلوى ، وسجناً للروح اليهودية .

الباب السادس عشر

يهود العصور الوسطى

٥٦٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

المجتمعات الشرقية

كان لليهود وقتئذ شريعة ولكنهم لم تكن لهم دولة ؛ كان لهم كيان ، ولم يكن لهم وطن . ذلك أن أورشليم ظلت إلى عام ٦١٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٦٢٩ فارسية ، وإلى عام ٦٣٧ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة إسلامية . وفى ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين فى الدفاع عنها ، فلما سقطت فى أيدى الصليبيين سيق من بقى فيها حياً من اليهود إلى إحدى بيعهم وأحرقوا عن آخرهم[1] ، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ أعقب ذلك ازدياد سريع فى عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثمائة من أحبارهم الذين فروا من إنجلترا وفرنسا فى عام ١٢١١ استقبالا حسناً . لكن ابن نحمان لم يجد فيها بعد خمسين عاماً من ذلك الوقت إلا حفنة صغيرة من اليهود[2] ، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين .

وظل اليهود كثيرى العدد فى سوريا والعراق وفارس الإسلامية رغم ما لاقوه فى بعض الأحيان من الاضطهاد ورغم اعتناق عدد منهم دين الإسلام . وأضحت لهم فى ربوعها حياة اقتصادية وثقافية ناشطة قوية . ولقد ظلوا فى شئونهم الداخلية ،

كما كانوا فى عهد الملوك الساسانيين ، يتمتعون بالحكم الذاتى تحت إشراف الإجزيلارك (رئيس اليهود فى المهجر) ومديرى المجامع الدينية . واعترف الخلفاء المسلمون بالإجزيلارك فى كل من بلاد بابل ، وأرمينية ، والتركستان ، وفارس ، واليمن ، رئيساً لجميع اليهود فيها ؛ ويقول بنيامين التطيلى إن جميع رعايا الخليفة كان يفرض عليهم أن « يقوموا واقفين فى حضرة أمير الأسر ، وأن يحيوه باحترام »[٣] . وكان منصب الإجزيلارك وراثياً فى أسرة واحدة ترجع بنسبها إلى داود ، وكان سلطانه سياسياً أكثر منه روحياً ، وقد أدى ما بذله من الجهود للسيطرة على رجال الدين إلى اضمحلاله ثم إلى سقوطه ، وأصبح مديرو المجامع العلمية بعد عام ٧٦٢ هم الذين يختارون الإجزيلارك ويسيطرون عليه .

وكانت الكليات الدينية فى سورا Sura وبمبديثا Pumbeditha تخرج الزعماء الدينيين والعقليين لليهود فى بلاد الإسلام ، وتخرج أمثالهم بدرجة أقل لليهود فى البلاد المسيحية . وحدث فى عام ٦٥٨ أن أخرج الخليفة مجمع سورا العلمى من اختصاص الإجزيلارك القانونى ، فلما حدث هذا اتخذ رئيس المجمع لنفسه لقب جاؤن Gaon (صاحب السعادة) وابتدأ من ذلك الحين نظام الجاؤنية ، وعهد الجاؤنيم فى الدين والعلم البابليين[٤] . ولما ازدادت موارد كلية بمبديثا وعظمت منزلتها لقربها من بغداد ، اتخذ مديروها أيضاً لأنفسهم لقب جاؤن ؛ وكاد اليهود فى جميع أنحاء العالم فيما بين القرن السابع إلى القرن الحادى عشر يستفتون الجاؤنيم فى المدينتين فيما يعرض لهم من مسائل التلمود القانونية ، ونشأ لليهودية من أجوبتهم على هذه المسائل أدب قانونى جديد .

وحدث فى الوقت الذى قامت فيه الجاؤنية انشقاق دينى فرق العالم اليهودى فى الشرق وزازلت له أركانه — أو لعل هذا الانشقاق نفسه هو الذى حتم قيام الجاؤنية فى ذلك الوقت . ذلك أنه لما توفى الإجزيلارك سليمان ، طالب ابن أخيه عنن بن داود بحقه فى أن يخلفه فى منصبه ، ولكن زعماء سورا وبمبديثا طرحوا

مبدأ الوراثة وراءهم ظهريا ونصبوا حنانيا أخا عنن الأصغر إجزلاركا فى مكانه . فما كان من عنن إلا أن طعن فى الجاؤنين ، وفر إلى فلسطين وأنشأ فيها كنيسا خاصا به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة . وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذى كان عليه الصدوقيون ؛ وكان شبيها بما ينادى به بعض الشيعة فى الإسلام من نبذ « السنة » النبوية واتباع القرآن وحده ، وما يطالب به البروتستنت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل . على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر فى أسفار موسى الخمسة ويشرحها شرحا يعد خطوة جريئة فى سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس . واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل فى الشريعة الموسوية وما يحاولونه فى تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة فى أيامهم ، وأصر على اتباع ما جاء فى الأسفار الخمسة من أوامر وتنفيذها بنصها ، ولهذا سمى أتباعه بالقرائين(*) — أى « المتمسكين بالنصوص » وامتدح عنن عيسى وقال إنه رجل صالح لم يرغب فى نبذ شريعة موسى المدونة ، بل كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتبة والفريسيين الشفوية . ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب فى وضع دين جديد ، بل كان يرغب فى تطهير الدين اليهودى وتدعيمه(٥) . وكثر اليهود القراءون فى فلسطين ، ومصر ، وأسپانيا ، ثم نقص فى القرن الثانى عشر ، ولم يبق منهم الآن إلا أقلية آخذة فى الانقراض فى تركيا وجنوبى الروسيا ؛ وبلاد العرب . ونبذ القراءون فى القرن التاسع ما كان ينادى به عنن من تفسير حرفى لنصوص الشريعة ، وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء فى الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله ، يجب أن تؤخذ على سبيل المجاز ، ولعلهم فى قولهم هذا كانوا متأثرين بآراء المعتزلة المسلمين .

(*) من اللفظ الأرامى قرا أى النص وهذا اللفظ نفسه مشتق من قرأ ، ومنه أيضا القرآن .

فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها ، وقالوا إن ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات أمثال « يد الله » وجاوس الله » يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقى ، بل إن بعضهم قد تغالى فى هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته[٦] . ونشأت فئة قليلة من اليهود حرة التفكير منها صبى البلخى Chivi al-Balchi كانت تنادى بأن أسفار موسى الخمسة نفسها ليست شريعة واجبة الطاعة[٧] . فى هذه البيئة التى تمتاز بالرخاء الاقتصادى ، والحرية الدينية ، والجدل العنيف أنجبت اليهودية أول فيلسوف يهودى ذائع الصيت فى العصور الوسطى .

ولد سعديا بن يوسف فى قرية من قرى الفيوم فى عام ٨٩٢ . وشب فى مصر وتزوج فيها ثم هاجر منها إلى فلسطين فى عام ٩١٥ ، ثم هاجر بعدئذ إلى بابل . وما من شك فى أنه كان طالبا مجدا ومعلما قديرا ، لأنه عين وهو شاب فى السادسة والثلاثين من عمره جاوئنا أى مديراً لكلية سورا . وشاهد ما أدخله القراءون والمتشككة من بدع فى الدين اليهودى القديم ، فآلى على نفسه أن يفعل لهذا الدين ما فعله المتكلمون للدين الإسلامى — فيبين أن هذا الدين القديم يتفق كل الاتفاق مع العقل والتاريخ . وأخرج سعديا فى حياته القصيرة التى لم تتجاوز خمسين عاماً مقداراً ضخماً من المؤلفات — معظمها — لا يماثلها فى سجل التفكير اليهودى فى العصور الوسطى إلا مؤلفات ابن ميمون . ومن هذه المؤلفات « الأجرون » وهو معجم آرامى للغة العبرية يعد أساسا للفلسفة العبرية ؛ ومنها « كتاب اللغة » وهو أقدم ما عرف من كتب فى نحو اللغة العبرية . وقد ظلت ترجمته العربية للعهد القديم إلى يومنا هذا الترجمة التى يستخدمها جميع اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ، وإن شروحه لأسفار الكتاب المقدس « لتكاد تجعله » أعظم شارح للكتاب المقدس فى جميع العصور[٨] » ؛ ويعد « كتاب الأمانات والاعتقادات » (٩٣٣) أعظم رد فى الدين اليهودى على الخارجين على هذا الدين .

ويؤمن سعديا بالوحي والتواتر معاً أي بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ، ولكنه يؤمن أيضاً بالعقل ، ويطالب بأن يثبت استناداً إلى العقل صدق الوحي والتواتر . فإذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضاً صريحا مع حكم العقل ، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته . كذلك يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أنها مجاز لا حقيقة ؛ ذلك أن الله ليس إنساناً يتصف بما يتصف به البشر . ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر . وليس من العقل فى شىء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثيب على الفضيلة ، ولكن الفضيلة ، كما هو واضح ، لا يثاب عليها دائما فى هذه الحياة ؛ ومن ثم لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تعوّض ما يبدو فى هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهرى ؛ ولعل آلام الصالحين فى هــذه الدنيا ليست إلا عقاباً لبعض ما ارتكبوه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة ، حتى ... ولكن الناس كلهم حتى الذين يقومون بأحسن الأعمال الصالحة فى هذا العالم وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون فى أعماق قلوبهم أن ثمة حالا خيراً من حالهم هذه الواسعة الآمال القليلة المتعة ، وكيف يجوز لله الذى اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال فى النفس إذا لم يشأ أن تتحقق ؟[٩] ، ولقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم فى الشرح والإيضاح ، بل إنه استعار منهم فى بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه فى جميع أنحاء العالم اليهودية وتأثر بها ابن ميمون ، وهل أدل على هذا من قول ابن ميمون : « لولا سعديا لكادت التوراة أن تختفى من الوجود »[١٠] .

وهنا يجب أن نقر بأن سعديا كان رجلا فظا إلى حد ما ، وأن نزاعه مع الإجز يلارك داود بن زكاى قد أضر بيهود بابل . وكانت نتيجة هذا النزاع أن

أعلن داود فى عام ٩٣٠ حرمان سعديا ، وأن أعلن سعديا حرمان داود . ولما مات داود فى عام ٩٤٠ نَصَّب سعديا إجزيلاركاً جديداً ، ولكن المسلمين قتلوا هذا الإجزيلارك لأنه طعن فى النبى محمد . فما كان من سعديا إلا أن عيّن ابن القتيل خلفاً ، وقُتل هذا الشاب أيضاً ؛ وحينئذ قرر اليهود بعد أن فت فى عضدهم على هذا النحو أن يبقوا هذا المنصب شاغراً ، وبذلك انتهى عهد الإجزيلاركية البابلية الذى دام سبعة قرون . وكان تفكك الخلافة العباسية فى بغداد وقيام دول إسلامية مستقلة فى مصر ، وشمالى أفريقية ، وأسبانيا سبباً فى ضعف الروابط بين يهود آسية وأفريقية وأوربا وأصيب يهود بابل بما أصيب به الإسلام فى الشرق من ضعف اقتصادى بعد القرن العاشر الميلادى ، فأغلقت كلية سورا أبوابها فى عام ١٠٣٤ وحلت حلوها بمبديثا بعد أربع سنين ، وانتهى عهد الجاوْنية فى عام ١٠٤٠ ؛ وزادت الحروب الصليبية الهوة بين يهود بابل ويهود مصر وأوربا ، ولما خرب المغول بغداد فى عام ١٢٢٨ كادت الجالية اليهودية البابلية أن تختفى من صفحات التاريخ .

وكان كثيرون من يهود الشرق قد هاجروا قبل هذه الكوارث إلى أقاصى آسية الشرقية ، وبلاد العرب ، ومصر ، وشمالى أفريقية وأوربا ؛ فكان فى سيلان ٢٣٫٠٠٠ عبرانى فى عام ١١٦٥[١١] ، وبقيت فى بلاد العرب عدة جاليات يهودية بعد أيام النبى ؛ ولما فتح عمرو بن العاص مصر فى عام ٦٤١ كتب إلى الخليفة يقول إن فى الإسكندرية أربعة آلاف من اليهود « أهل الذمة » . ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد من فيها من اليهود أصحاب العقيدة القديمة والقرائين . وكان يهود مصر يستمتعون بالحكم الذاتى فى شئونهم الداخلية بزعامة النجيد أو أمير اليهود ، وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية وارتفعوا إلى المناصب العالية فى حكومات الدول الإسلامية[١٢] . وتقول إحدى الروايات إن أربعة من أحبار اليهود أبحروا على ظهر إحدى السفن من بارى Bari فى إيطاليا ، ولكن

أحد أمراء البحر الأندلسيين المسلمين أسر سفينتهم وباعهم بيع الرقيق ، فبيع الحبر موسى وابنه حنوخ فى قرطبة ، وبيع سحرية فى الإسكندرية ، وبيع الحبر هوسيل فى القيروان : ثم أعتق كل واحد من هؤلاء الأحبار ، كما تقول الرواية ، وأنشأ فى المدينة التى بيع فيها مجمعاً علمياً . والشائع على الألسنة ، وإن لم يكن هذا مؤكداً ، أنهم كانوا من علماء سورا ؛ وأياً كانت نشأتهم فقد نقلوا العلم من يهود الشرق إلى الغرب ؛ وبينما كانت اليهودية فى آسية آخذة فى الضعف بدأت أيام عزها وسعادتها فى مصر وأسبانيا .

الفصل الثانى

الجماعات اليهودية فى أوربا

اتخذ اليهود طريقهم إلى بلاد الروسيا فى العصور الوسطى من بابل وفارس مجتازين ما وراء جيحون والقوقاز ، وإلى ساحل البحر الأسود من آسية الصغرى مجتازين القسطنطينية . وظل اليهود فى تلك العاصمة يستمتعون بالرخاء النكد من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر . وكان فى بلاد اليونان جماعات يهودية كبيرة وبخاصة فى طيبة حيث كانت لمنسوجاتهم الحريرية شهرة عظيمة . وهاجر اليهود شمالا إلى بلاد البلقان مجتازين تساليا وتراقية ومقدونية ، ثم ساروا بمحازاة نهر الدانوب إلى بلاد المجر . وجاءت حفنة من التجار العبرانيين من ألمانيا إلى پولندة فى القرن العاشر لأن اليهود كانوا فى ألمانيا من قبل ميلاد المسيح . فكان فى متز Metz ، واسپير Speyer ، وميتز Mainz ، وورمز Worms ، واسترسبورج Strassbourg ، وفرنكفورت Fraokfort ، وكولونى جاليات يهودية كبيرة فى القرن التاسع ، وإن كانت هذه الجاليات قد شغلتها التجارة وما تستلزمه من كثرة الترحال فلم يكن لها شأن كبير فى تاريخ اليهود الثقافى . ومع هذا فقد أنشأ جرشوم بن يهودا (٩٦٠ — ١٠٢٧) مجمعاً علمياً للأحبار فى مينز وكتب بالعبرانية شرحاً للتلمود ، وبلغ من سلطانه أن كان يهود ألمانيا يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل فى شريعة التلمود بدل أن يستفتوا فى ذلك جاؤنيم بابل .

وكان فى إنجلترا يهود فى عام ٦٩١ [١٣] ، وجاء إليهم عدد آخر كبير منهم مع وليم الفاتح William the Conqueror ، وبسط عليهم النورمان الفاتحون فى أول الأمر حمايتهم لما كانوا يمدونهم به من رءوس الأموال وما كانوا يقومون به من

من جباية الإيراد . وكانت جماعاتهم المقيمة فى لندن ، ونورتش Norwich ، ويورك ، وغيرها من المراكز الإنجليزية خارجة عن اختصاص ولاة الأمور المحليين فى شئونها القانونية ، فكانت لا تخضع إلا للملوك أنفسهم . ووسعت هذه العزلة الثنائية الهوة بين المسيحيين واليهود ، وكانت سبباً من أسباب المذابح المدبرة التى حدثت فى القرن الثانى عشر .

وكان فى غالة تجار يهود من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يحل عام ٦٠٠ بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية فى جميع المدن الكبرى فى غالة ؛ واضطهدهم الملوك الميروفنجيون بوحشية ، وأمرهم كلبريك Chilperic أن يعتنقوا الدين المسيحى على بكرة أبيهم وإلا فقأ أعينهم (٥٨١)[١٤] ؛ أما شارلمان فإنه بسط عليهم حمايته لأنه وجد فيهم زراعا ، وصناعا ، وأطباء ، ورجال مال نافعين ، واختار يهوديا ليكون طبيبه الخاص ، وإن كان قد أبقى على القوانين التى تحرم اليهود من بعض الحقوق التى يتمتع بها غيرهم . وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها إنه استقدم فى عام ٧٨٧ أسرة قلونيموس Kalonymos من لكا Lucca إلى مينز ليشجع الدراسات اليهودية فى دول الفرنجة ، ثم أرسل فى عام ٧٩٧ يهوديا مترجماً أو مفسراً مع بعثة سياسية إلى هارون الرشيد . وكان لويس التقى Louis the Pious يميل إلى اليهود لعملهم فى تنشيط التجارة ؛ وعين موظفاً خاصاً للدفاع عن حقوقهم ؛ واستمتع اليهود فى فرنسا فى القرنين التاسع والعاشر بقدر من الرخاء والطمأنينة لم يستمتعوا به بعدئذ قبل أيام الثورة الفرنسية ؛ وذلك رغم ما كان يذاع ضدهم من الأقاصيص ، ومايفرض عليهم من القيود القانونية ، ومايصيبهم أحياناً من الاضطهاد القليل[١٥] . وكانت فى إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها جاليات يهودية منتشرة من ترانى Trani إلى البندقية وميلان ، وكان اليهود كثيرين فى بدوا بنوع خاص ، ولعلهم كان لهم أثر فى نشر فلسفة ابن رشد فى جامعتها . وكان فى سالرنو Salerno ، حيث أنشئت فى البلاد المسيحية اللاتينية أولى مدارس الطب فى

العصور الوسطى ، ستمائة يهودي[١٦] . منهم عدد من مشهوري الأطباء . وكان في بلاط فردريك الثاني في فجيا Foggia طائفة من العلماء اليهود ، وعين البابا الكسندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) عدداً من اليهود في المناصب الكبرى في بيته[١٧] ، ولكن فردريك اشترك مع البابا جريجوري التاسع في اتخاذ إجراءات ظالمة ضد يهود إيطاليا .

وكان يهود أسبانيا يلقبون أنفسهم سفرديم Sephardim ، ويرجعون بأصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية(*) ؛ ولما اعتنق الملك ريكارد Recared الدين المسيحي الأصيل ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين الأقوياء أتباع الكنيسة الأسبانية في مضايقة اليهود وتنغيص حياتهم عليهم ، فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات أو اقتناء أرقاء مسيحيين . وأمر الملك سيزبوت Sisebut جميع اليهود أن يعتنقوا المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، وألغى الملك الذي خلفه على العرش هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذي عقد في عام ٦٣٣ أصدر قراراً ينص على أن اليهود الذين عمدوا ثم عادوا إلى الدين اليهودي يجب أن يفصلوا عن أبنائهم ، وأن يباعوا أرقاء . وأعاد الملك شنتيلا Chintila العمل بمرسوم سيزبوت (٦٣٥) ؛ وحرم الملك إجيكا Egica على اليهود امتلاك الأراضي كما حرم كل عمل مالي وتجاري بين أي مسيحي ويهودي (٦٩٣) . وكانت نتيجة هذا أن ساعد اليهودُ العرب حين جاءوا أسبانيا فاتحين في كل خطوة من خطوات الفتح .

(*) يطلق اسم سفرد Sepharad في سفر عبدية (الكتاب الأول الفصل ٢٠) على إقليم (لعله آسية الصغرى) نقل إليه الملك نابوخذ نصر (٥٩٧ ق . م) بعض اليهود ، ثم أطلق هذا اللفظ بعدئذ على بلاد أسبانيا . وكان يهود ألمانيا يسمون تسمية غير دقيقة أشكنازيم لا نتسابهم المزعوم إلى أشكناز Ashkenaz حفيد يافث بن نوح (سفر التكوين ، الإصحاح العاشر ، الآية ٣) .

وأراد الفاتحون أن يعمروا البلاد فدعوا إلى الهجرة إليها ، وقدم إليها فيمن قدم خمسون ألف يهودى من آسية وأفريقية(١٨) ، وكاد سكان بعض المدن مثل أليسانة أن يكونوا كلهم من اليهود . ولما أن تحرر اليهود فى أسبانيا الإسلامية من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادى انتشروا فى جميع ميادين الزراعة ، والصناعة ، والمال ، والمناصب العامة ؛ ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واتبعوا عاداتهم ، فلبسوا العمامة والأثواب الحريرية الفضفاضة ، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم من بنى عمومتهم الساميين . واستخدم عدد من اليهود أطباء فى بلاط الخلفاء والأمراء وعين أحد هؤلاء الأطباء مستشاراً لأعظم خليفة من خلفاء قرطبة .

فقد كان حسداى بن شبروط (٩١٥ — ٩٧٠) بالنسبة لعبد الرحمن الثالث ما كانه نظام الملك فى القرن التالى لملك شاه . وقد ولد حسداى فى أسرة ابن عزرا المثرية المثقفة ؛ وعلمه أبوه اللغات العبرية ، والعربية ، واللاتينية ؛ ودرس الطب ، وغيره من العلوم فى قرطبة ، وداوى الخليفة من أمراضه ، وأظهر من واسع المعرفة وعظيم الحكمة فى الأمور السياسية ما جعل الخليفة يعينه فى الهيئة الدبلوماسية للدولة ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره كما يلوح . ثم عهدت إليه تباعاً أعمال أخرى ذات تبعات متزايدة فى حياة الدولة المالية والتجارية . على أنه لم يكن له لقب رسمى لأن الخليفة تردد فى منحه رسمياً لقب وزير خشية أن يثير عليه النفوس . ولكن حسداى قام بمهام منصبه الكثيرة بكياسة أكسبته محبة العرب ، واليهود ، والمسيحيين على السواء ، وقد شجع العلوم والآداب ، ومنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلا ثمن ، وجمع حوله ندوة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ؛ فلما مات تنافس المسلمون واليهود فى تكريم ذكراه .

وكان ثمة رجال غيره فى أنحاء أخرى من أسبانيا الإسلامية وإن لم يبلغوا ما بلغه . ففى أشبيلية دعا المعتمد إلى بلاطه إسحق بن بروك العالم والفلكى، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاخاماً أكبر لكل المجامع اليهودية فيها(١٩) ؛ وفى غرناطة نافس شمويل هلوى ابن نجــدلا Samuel Halevi ibn Naghdela حسداى ابن شبروط فى سلطانه وحكمته وفاقه فى علمه . وقد ولد شمويل فى قرطبة عام ٩٩٣ ونشأ فيها ، وجمع بين دراسة التلمود والأدب العربى ، وجمع بين هذين وبين الاتجار فى التوابل . ولما أن سقطت قرطبة فى أيدى البربر ، انتقل إلى مالقة ، وفيها زاد دخله القليل بكتابة العروض إلى ملك غرناطة . وأعجب وزير الملك بما كانت عليه هذه العروض من جمال الخط وحسن الأسلوب فزار شمويل ، وصحِبَه إلى غرناطة ، وأسكنه فى قصر الحمراء ، وجعله أمين سره . وما لبث شمويل أن أصبح أيضاً مستشاره ، وكان مما قاله الوزير نفسه أنه إذا أشار شمويل بشىء فإن صوت الله يسمع فيما يشير به(٢٠) . وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه شمويل ، وبذلك أصبح شمويل فى عام ١٠٢٧ اليهودى الوحيد الذى شغل منصب وزير فى دولة إسلامية وحظى بهذا اللقب . ومما يسر هذا الأمر فى غرناطة أكثر منه فى أى بلد آخر أن نصف سكان هذه المدينة فى القرن الحادى عشر كانوا يهوداً(٢٠) . وسرعان ما رحب العرب بهذا الاختيار ، لأن الدولة الصغيرة ازدهرت فى عهد شمويل من النواحى المالية ، والسياسية ، والثقافية . وكان هو نفسه عالماً ، وشاعراً ، ونابغة فى الفلك ، والرياضة ، واللغات ، يعرف سبعاً منها ؛ وقد ألَّف عشرين رسالة فى النحو (معظمها بالعبرية) وعدة مجلدات فى الشعر والفلسفة ، ومقدمة للتلمود ، ومجموعة من الأدب العبرى . وكان يقتسم ماله مع غيره من الشعراء ، وأنجد الشاعر والفيلسوف ابن جبيرول ، وأمد بالمال طائفة من شباب الطلاب ، وأعان الجماعات اليهودية فى قارات ثلاث . وكان وهو وزير الملك حاخاماً لليهود ، يحاضر عن التلمود . ولقبه بنو ملته — اعترافاً منهم

بفضله — بالنجيذ — الأمير (فى إسرائيل) . ولما توفى عام ١٠٥٥ خلفه فى الوزارة ، والنجادة ابنه يوسف بن نجدلا .

وكانت هذه القرون الثلاثة — العاشر ، والحادى عشر ، والثانى عشر — هى العصر الذهبى ليهود أسپانيا ، وأسعد عصور التاريخ العبرى الوسيط ، وأعظمها ثمرة . ولما أن افتدى موسى بن شنوك (المتوفى عام ٩٦٥ وأحد المهاجرين من بارى) من الأسر فى قرطبة ، أنشأ فيها بمعونة حسداى مجمعاً علميا ، ما لبث أن أصبحت له الزعامة الفعلية على يهود العالم كله . وافتتحت مجامع مثله فى أليسانة ، وطليطلة ، وبرشلونة ، وغرناطة . . . ؛ وبينا كادت المدارس اليهودية فى الشرق تقصر نشاطها على التعليم الدينى ، كانت هذه المدارس الأسپانية تعلّم فيا تعلّمه الأدب : والموسيقى ، والرياضيات ، والهيئة ، والطب ، والفلسفة[٢١] . وبفضل هذا التعليم نالت الطبقات العليا من يهود أسپانيا فى ذلك الوقت سعة وعمقاً فى الثقافة والظرف لم ينلهما إلا معاصروهم من المسلمين ، والبيزنطيين ، والصينيين . وكان مما يسربل الرجل المؤثر أو صاحب المركز السياسى بالعار ألا يلم بالتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والشعر[٢٢] . ونشأت فى ذلك الوقت أرستقراطية يهودية تزدان بمن فيها من النساء الحسان ؛ ولعلها قد أفرطت فى الاعتداد بتفوقها على غيرها ، ولكن كان يقابل هذا الاعتداد ويخفف من وقعه اعتقادها أن شرف المحتد وكثرة الثراء يفرضان على صاحبهما واجبات من السخاء والفضل .

ويمكننا أن نؤرخ بداية تدهور يهود أسپانيا من سقوط يوسف بن نجدلا . ذلك أنه كان يخدم الملك بكفاية لا تكاد تقل عن كفاية أبيه ، ولكنه لم يكن له ما كان لأبيه من تواضع وكياسة جعلتا سكان البلاد — ونصفهم من المسلمين الأندلسيين — يرتضون أن يتولى أمورهم يهودى . من ذلك أنه جمع السلطة كلها فى يده ، وتشبه بالملك فى لباسه . وسخر من القرآن . وتحدث الناس بأنه لا يؤمن

بالله . ولهذا ثار العرب والبربر فى عام ١٠٦٦ وصلبوا يوسف ، وذبحوا أربعة آلاف من يهود غرناطة ، ونهبوا بيوتهم ، وأرغم الباقون من اليهود على بيع أراضيهم ومغادرة البلاد . وجاء المرابطون من أفريقية بعد عشرين عاما من ذلك الوقت متأججة صدورهم بالحماسة الدينية ومتمسكين بأصول السنة ، وانتهى بقدومهم عصر أسبانيا الإسلامية الزاهر الطويل الأمد . ونادى أحد رجال الدين من المسلمين أن اليهود قد وعدوا النبي بأن يعتنقوا الإسلام بعد خمسمائة عام من الهجرة ، إذا لم يظهر فى ذلك الوقت مسيحهم المنقذ المنتظر ، وأن هذه الأعوام الخمسمائة تنتهى بالحساب الهجرى فى عام ١١٠٧ ؛ وطلب الأمير يوسف إلى جميع يهود أسبانيا أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنه أعفاهم من هذا الأمر حين أدوا لبيت المال مبالغ طائلة [٢٣] . ولما خلف الموحدون المرابطين فى حكم مراكش وبلاد الاندلس الإسلامية (١١٤٨) ، خيروا اليهود والمسيحيين كما خير الملك سيز بوت اليهود قبل خمسمائة وخمسة وثلاثين عاما من ذلك الوقت بين الارتداد عن دينهم أو الخروج من البلاد . وتظاهر كثيرون من اليهود باعتناق الإسلام ، وهاجر كثيرون منهم مع المسيحيين إلى شمالى أسبانيا .

وهنا وجد اليهود في بادئ الأمر من التسامح العظيم ما لا يقل جلالا عما ظلوا يلقونه مدى أربعة قرون تحت حكم المسلمين . وأحسن الفنسو السادس والسابع ملكا قشتاله (الأذفونش) معاملة اليهود ، وجعلاهم هم والمسيحيين سواء أمام القانون ، ولما قامت حركة مناهضة للسامية (١١٠٧) فى طليطلة ، حيث كان ٧٢٫٠٠٠ يهودى ، قمعها بصرامة[٢٤] . وحدث فى أرغونة مثل هذا التآلف بين الديانتين ، الأم والابنة ، وبلغ من هذا التآلف أن دعا الملك چيمس الأول اليهود أن يستوطنوا ميورقة ، وقطلونية ، وبلنسية ، وكثيراً ما كان يمنح المستوطنين اليهود بيوتا وأرضين من غير ثمن[٢٥] . وكانت لهم فى برشلونة السيطرة على التجارة فى القرن الثانى عشر ، كما كان لهم نصف أراضيها الزراعية[٢٦] . نعم إن يهود

أسبانيا قد فرضت عليهم ضرائب باهظة ، ولكنهم مع ذلك أثروا ، واستمتعوا فيها بالاستقلال فى شئونهم الداخلية . وكانت التجارة تتبادل بحرية بين المسيحيين واليهود والمسلمين الأندلسيين ، وكان بنو الأديان الثلاثة يتبادلون الهدايا فى الأعياد ، وكان بعض الملوك من حين إلى حين يشترك بالمال فى بناء المعابد اليهودية(٢٧) ، وكان فى وسع الإنسان أن يجد بين عامى ١٠٨٥ و ١٤٩٢ نفسها يهودا يشغلون المناصب الكبرى فى دول أسپانيا المسيحية .منهم القائمون على شئون المال ومنهم الدبلوماسيون ، ومنهم الوزراء أحياناً (٢٨) . واشترك رجال الدين المسيحيون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى هذه الألفة المسيحية(٢٩) .

وكانت بداية عدم التسامح الدينى بين اليهود أنفسهم . ذلك أن يهودا ابن عزرا المتولى شئون قصر ألفنسو السابع ملك ليون وقشتالة وجه فى عام ١١٤٩ قوة حكومة مليكه ضد اليهود القرائين فى طليطلة . ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث وقتئذ ، ولكن اليهود القرائين الأسپان الذين كانوا إلى ذلك الحين طائفة كبيرة لم يعد يسمع لهم خبر (٣٠) . ودخل بعض الصليبيين أسپانيا فى عام ١٢١٢ ليساعدوا أهلها على طرد المسلمين منها ، وكانوا فى أغلب الأحوال يحسنون معاملة اليهود ، ولما أن اعتدت طائفة منهم على يهود طليطلة وقتلت كثيرين منهم ، هب أهل المدينة المسيحيون للدفاع عن مواطنيهم ، ووضعوا حداً لاضطهادهم(٣١) ، وأدخل ألفنسو العاشر ملك قشتالة بعض المواد المجحفة باليهود فى قانونه الصادر عام ١٢٦٥ ، ولكن هذا القانون لم يطبق حتى عام ١٣٤٨ ، وكان ألفنسو فى ذلك الوقت يستخدم طبيباً وخازناً لبيت المال يهودياً ، وأهدى إلى يهود أشبيلية ثلاثة من مساجد المسلمين ليجعلوها معابد لهم(٣٢) ، واستمتع بما خلعه العلماء اليهود والمسلمون على حكمه اللطيف من مجد . ولما احتاجت مغامرات بدرو الثالث pedro ملك أرغونة إلى فرض الضرائب الفادحة على رعاياه ، كان وزير ماليته وعدد آخر من موظفيه يهودا ، ولما ثار أعيان البلاد ومدنها على الملكية ، اضطر الملك

إلى إقصاء أعوانه اليهود عن مناصب الدولة ، وتوقيع قرار أصدره مجلس الكورتيز Cortes (١٢٨٣) بألا يعين بعد ذلك الوقت أى يهودى فى المناصب الحكومية .

وكانت خاتمة عهد التسامح الدينى حين أصدر مجلس زمورا Zamora الدينى (١٣١٣) قراراً بأن يلبس اليهود شارة تميزهم من غيرهم ، وألا يختلط اليهود بالمسيحيين ، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود وعلى اليهود أن يكون لهم خدم مسيحيون(٣٣) .

الفصل الثالث

الحياة اليهودية فى البلاد المسيحية

١ — الحكومة

لم تحتم المدن المسيحية فى العصور الوسطى — إذا استثنينا بالرم وقليلا ن المدن الأسبانية — أن يعيش من فيها من اليهود منعزلين عن سائر السكان . لكن اليهود كانوا فى العادة يعيشون فى عزلة اختيارية عن غيرهم من الأهلين لتيسر لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية وسلامتهم الجسمية ووحدتهم الدينية . وكان كنيسهم مركز الحى اليهودى الجغرافى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، يجتذب إليه معظم مساكن اليهود ، ولهذا ازدحمت المساكن حوله ازدحاماً كبيراً ، وأضر ذلك الازدحام بالصحة العامة والخاصة . وكانت الأحياء اليهودية فى أسبانيا تحتوى على مساكن جميلة وعمارات كما تحتوى على أكواخ قذرة ، أما فى غيرها من بلاد أوربا فكادت المساكن أن تكون أحياء قذرة وبيئة مزدحمة بالسكان(٣٤) .

وكانت الجماعات اليهودية طوائف منعزلة شبه دمقراطية وسط عالم ملكى مطلق ، إذا استثنينا من هذا التعميم ما للثراء من أثر فى الانتخابات وفى الاختيار للوظائف فى جميع أنحاء العالم . وكان دافعوا الضرائب من الجماعات اليهودية يختارون أحبار الكنيس وموظفيه . وكانت فئة قليلة العدد من الكبار المنتخبين تكوّن بيت الدين أو المحكمة الشعبية ؛ وهذه المحكمة هى التى كانت تجبى الضرائب ، وتحدد الأثمان ، وتتولى القضاء ، وتصدر القرارات الخاصة بالطعام ، والرقص ، والأخلاق ، والملبس ، ولم تكن هذه القرارات تطاع على الدوام . وكان من حقها

أن تحاكم من يعتدون على القانون اليهودى من اليهود أنفسهم ، وكان لها موظفون ينفذون أوامرها ، وكانت العقوبات التى توقعها تختلف من الغرامات إلى الحرمان الدينى أو النفى ، وقلما كان الحكم بالإعدام من اختصاص بيت الدين أو كان من العقوبات التى توقعها ؛ وكانت المحكمة اليهودية تستعيض عن هذا الإعدام بالحرمان التام ؛ يصدر فى احتفال فخم مرعب توجه فيه التهم ، وتصب فيه اللعنات ، وتطفأ فيه الشموع واحدة بعد واحدة رمزاً إلى موت المجرم الروحى . وكان اليهود يسرفون فى استخدام الحرمان ، كما كان يفرط فيه المسيحيون ، ولهذا فقدت هذه العقوبة ما كان لها من رهبة وتأثير . وكان رؤساء اليهود الدينيون — كما كان رؤساء الكنيسة المسيحيون — يضطهدون الملاحدة ، ويحرمونهم من حماية القانون ، ويحرقون كتبهم فى حالات نادرة[٣٥].

ولم تكن الجماعات اليهودية فى الأحوال العادية خاضعة للسلطات المحلية وكان سيدها الوحيد هو الملك ، تؤدى إليه المال بسخاء لتبتاع منه الميثاق الذى يحمى حقوقها الدينية والاقتصادية ؛ وكانت فيما بعد تؤدى المال إلى الحكومات المحلية المحررة لتؤيد استقلال اليهود الذاتى بشؤنهم الداخلية . إلا أن اليهود مع ذلك ، كانوا يخضعون لقوانين الدولة ، وجعلوا طاعة هذه القوانين مبدأ من مبادئهم الواجبة الطاعة : وقد ورد فى التلمود أن « قانون البلد شريعة »[٣٦] ، وتقول إحدى فقراته : « صلوا لسلامة الحكومة ، فلولا خوف الناس منها لابتلع بعضهم بعضاً »[٣٧] .

وكانت الدولة تجبى من اليهود « الفرضة » أو ضريبة الرءوس ، وعوائد الأملاك ، وكانت تصل أحياناً إلى ٣٣٪ من قيمتها ، وضرائب على اللحم ، والخمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ، فضلا عن التبرعات «الاختيارية» للمساعدة على تمويل الحروب ، أو تتويج الملوك ، أو «مقدمهم» أو رحلاتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم فى القرن الثانى عشر ١/٤ ٪ فى المائة من السكان

يؤدون للدولة ٨ ٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم رُبع ما جمع من المال لحرب رتشارد الأول الصليبية ، وأدوا فيما بينهم ٥٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما أدته مدينة لندن[٣٨] . كذلك كانت الهيئات اليهودية تفرض ضرائب أخرى على اليهود ، كما كان يطلب إليهم من حين إلى حين صدقات وإعانات للتعليم ولمساعدة اليهود المضطهدين فى فلسطين . وكان الملك فى أى وقت من الأوقات يصادر أملاك « يهوده » بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ؛ ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعاً بمقتضى قانون الإقطاع « رجال » الملك . وكان الملك إذا مات ينتهى العهد الذى قطعه بحماية اليهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى بأن يجدد العهد إلا إذا قدم إليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ فى بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود فى الدولة[٣٩] . من ذلك مافعله ألبرخت الثالث Albrecht III مارجريف برندنبرج Margrave of Brandenburg فى عام ١٤٦٣ إذ أعلن أن كل ملك ألمانى جديد « يجوز له ، عملا بالسنن القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقذ حياتهم ، ويأخذ ثلث أملاكهم »[٤٠] ولقد لخص براكتن Bracton كبير المشترعين اليهود فى القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : « ليس من حق اليهودى أن يكون له ملك خاص ، لأن ما يحصل عليه أيا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك »[٤١] .

٢ — الشئون الاقتصادية

وكانت هناك فضلا عن هذه المتاعب السياسية قيود اقتصادية . نعم إن اليهود لم يكونوا يمنعون بحكم القانون من تملك العقار ، ولم يكونوا يمنعون من تملكه بوجه عام ، وقد كانوا فى أوقات مختلفة فى العصور الوسطى يمتلكون أراضى واسعة فى بلاد الأندلس الإسلامية وأسبانيا المسيحية ، وفى صقلية ، وسيليزيا ، وبولندة ،

وإنجلترا ، وفرنسا[٤٢] ؛ ولكن ظروف الحياة جعلت هذا التملك أمراً غير ميسر من الوجهة العملية يزداد صعوبة على مر الأيام . ذلك أن اليهودى ، وقد حرمت عليه الشريعة المسيحية أن يستأجر أرقاء مسيحيين ، وحرمت عليه الشريعة اليهودية أن يستأجر أرقاء من اليهود ، لم يكن أمامه إلا أن يفلح أرضه باستئجار عمال أحرار يصعب الحصول عليهم ويتطلب الاحتفاظ بهم نفقات طائلة . يضاف إلى هذا أن الشريعة اليهودية تحرم على اليهودى أن يعمل فى يوم السبت ، وأن الشريعة المسيحية كانت عادة تمنعه من العمل فى يوم الأحد ، وكان هذا التعطل عقبة كبيرة فى سبيله ؛ وكانت العادات أو القوانين الإقطاعية تجعل من المستحيل على اليهودى أن يكون له منزلة فى النظام الاقتصادى لأن هذه المنزلة تتطلب منه أن يقسم يمين الولاء للمسيحية ، وأن يقوم بالخدمة العسكرية ، مع أن شرائع الدول المسيحية كلها تقريباً تحرم على اليهود حمل السلاح[٤٣] . ولما حكم القوط الغربيون أسپانيا ألغى الملك سيزبوت جميع ما منحه أسلافه من الأرض لليهود ، « وأمم » الملك إجيكا جميع أملاك اليهود التى كانت ملكا للمسيحيين فى أى وقت من الأوقات ، وفى عام ١٢٩٣ حرم مجلس الكورتيز فى بلد الوليد بيع الأراضى لليهود ؛ وفوق هذا كله فإن ما كان يتعرض له اليهود فى كل وقت من الأوقات من احتمال طردهم من البلاد ، أو مهاجمتهم ، قد أقنعهم بعد القرن التاسع أن يتجنبوا امتلاك الأرضين أو العيش فى الريف . كل هذه الصعاب ثبطت همة اليهود فى الاشتغال بالزراعة ومالت بهم إلى حياة الحضر ، وإلى العمل فى الصناعة والتجارة والشئون المالية .

ونشط اليهود فى الشرق الأدنى وجنوبى أوربا فى الصناعة ، والحق أن اليهود كانوا فى معظم الأحوال هم الذين أدخلوا الفن الصناعى الراقى من بلاد الإسلام إلى بيزنطية وإلى البلاد الغربية ، ولقد وجد بنيامين التطيلى **Benjamin of Tudela** مئات من صانعى الزجاج فى أنطاكية ، وصور ؛ واشتهر اليهود فى مصر وبلاد

اليونان بجمال منسوجاتهم المصبوغة والمطرزة وتفوقها على سائر المنسوجات من نوعها ، وكان فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر لا يعد يستقدم إلى بلاده الصناع اليهود ليشرفوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة فى صقلية ؛ وكان اليهود فى تلك الجزيرة وفى غيرها من البلاد يشتغلون فى الصناعات المعدنية وبخاصة فى الصباغة وصناعة الحلى ، وظلوا يعملون فى مناجم القصدير فى كورنوول إلى عام ١٢٩٠[٤٤] . وانتظم الصناع العبرانيون فى أوربا الجنوبية فى طوائف للحرف قوية ، وكانوا ينافسون الصناع المسيحيين منافسة شديدة ، أما فى أوربا الشمالية فقد احتكرت طوائف أرباب الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات ؛ وأخذت الدول المختلفة واحدة فى إثر واحدة تحرم على اليهود الاشتغال حدادين ، ونجارين ، وخياطين ، وحذائين ، وطحانين ، وخبازين ، وأطباء ؛ كما حرمت عليهم بيع الخمور ، والدقيق ، والزبد ، والزيت فى الأسواق[٤٥] ، وابتياع مساكن لأنفسهم فى أى مكان خارج عن الأحياء اليهودية .

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة وكان رب Rab ، العالم التلمودى البابلى ، قد وضع لبنى ملته شعارا يدل على ثاقب فكره : « تاجر بمائة فلورين تحصل على لحم وخمر ؛ أما إن استغللت هذا القدر نفسه فى الزراعة فأكبر ما تحصل عليه هو الخبز والملح »[٤٦] . وكان البائع اليهودى الجائل معروفا فى كل مدينة وبلدة ، والتاجر اليهودى معروفا فى كل سوق ومولد ؛ وكانت التجارة الدولية عملا تخصصوا فيه ، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادى عشر ، فكانت أحمالهم ، وقوافلهم ، وسفائنهم تجتاز الصحراوات ، والجبال ، والبحار ، وكانوا فى معظم الحالات يصحبون بضائعهم . وكانوا هم حلقة الاتصال التجارى بين بلاد المسيحية والإسلام ، وبين أوربا وآسية ، وبين الصقالبة والدول الغربية ؛ وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الرقيق[٤٧] ؛ وكان يعينهم على النجاح فى التجارة مهارتهم فى تعلم اللغات ، وقدرة الجماعات اليهودية البعيدة بعضها عن بعض على

فهم اللغة العبرية ، وتشابه عادات اليهود وقوانينهم ، واستضافة الحى اليهودى فى كل مدينة لأى يهودى غريب . ولهذا استطاع بنيامين التطيلى أن يجتاز نصف العالم وأن يجد له أينما حل موطنا . ويحدثنا ابن خرداذبة صاحب البريد فى الدولة العباسية عام ٨٧٠ فى كتابه المسالك والممالك عن التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والفرنجية ، والأسپانية ، والصقلبية ، ويصف المسالك البرية والبحرية التى ينتقلون بها من أسپانيا وإيطاليا إلى مصر ، والهند ، والصين[٤٨] . وكان هؤلاء التجار يحملون الخصيان ، والعبيد ، والحرير المطرز ، والفراء ، والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ، ويعودون منها بالمسك ، والند ، والكافور ، والتوابل ، والمنسوجات الحريرية[٤٩] . ثم كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوى على بلاد البحر المتوسط ، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود ، وقضى فى القرن الحادى عشر على زعامة اليهود التجارية . وكانت مدينة البندقية قد حرمت حتى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها ، ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى أغلقت عصبة المدن الهنسية The Hansatic League موانيها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطى فى وجه التجارة اليهودية[٥٠] ، وقبل أن يحل القرن الثانى عشر أضحى الجزء الأكبر من التجارة اليهودية تجارة محلية ، وكانت هذه التجارة حتى فى هذا المجال الضيق تحددها القوانين التى تحرم على اليهود أن يبيعوا عدة أنواع من السلع[٥١] .

ـــ فلم يكن لهم بد من العودة إلى شئون المال . ذلك أنهم وجدوا أنفسهم فى بيئة معادية لهم معرضين لأن يتلف عنف الجماهير أملاكهم الثابتة . أو أن يصادرها الملوك الجشعون ، فأرغمتهم هذه الظروف على أن يجعلوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك ؛ فعمدوا أولا إلى ذلك العمل السهل وهو مبادلة النقد ، ثم انتقلوا منه إلى تلقى المال لاستثماره فى التجارة ، ثم إلى إقراض المال بالربا .

وكانت أسفار موسى(٥٢) والتلمود(٥٣) قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم ولكنها لم تحرمه بين اليهودى وغير اليهودى . ولما أضحت الحياة الاقتصادية أشد تعقيداً مما كانت قبل ، وصارت الحاجة إلى تمويل المشروعات أشد إلحاحا نظراً لاتساع نطاق التجارة والصناعة ، أخذ اليهود يقرض بعضهم بعضا المال عن طريق وسيط مسيحى(٥٤) أو عن طريق جعل صاحب المال شريكا موصيا(*) فى المشروع وأرباحه — وهى وسيلة أجازها أحبار اليهود ، وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين(٥٥) . وإذ كان القرآن وكانت الكنيسة المسيحية يحرمان الربا ، وكان المقرضون المسيحيون لهذا السبب نادرى الوجود قبل القرن الثالث عشر ، فإن المقترضين المسلمين والمسيحيين — ومنهم رجال الدين المسيحيون ، والكنائس والأديرة(٥٦) — كان هؤلاء المقترضون يلجأون إلى اليهود ليقرضوهم ما يحتاجونه من المال . وحسبنا دليلا على هذا أن هارون اللنكلنى Aaron of Lincoln هو الذى قدم ما يلزم من المال لبناء تسعة أديرة سترسيه Cistercian ، وبناء دير سانت أولبنز St. Albans(٥٧) العظيم . ثم غزا رجال المصارف المسيحيون هذا الميدان فى القرن الثالث عشر ، واستعانوا بالوسائل التى أوجدها وسار عليها اليهود ، وما لبثوا أن تفوقوا عليهم الثراء واتساع نطاق الأعمال . « ولم يكن المرابى المسيحى أقل صرامة » من مثيله اليهودى « وإن لم يكن أولهما فى حاجة إلى حماية نفسه بالقدر الذى يحتاجه الثانى من خطر القتل والسلب والنهب »(٥٨) فكان كلاهما يشدد النكير على المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة ، وكان الملاك يستغلونهم جميعاً لمصلحتهم الخاصة .

فكان المرابون جميعاً تفرض عليهم ضرائب باهظة ، وكان اليهود منهم يتعرضون من حين إلى حين إلى مصادرة أموالهم بأجمعها . وقد سار الملوك على سنة

(*) الشريك الموصى هو الذى يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم تربح ، ويسميه أهل الريف فى مصر الشريك المرفوع . (المترجم)

السماح للمرابين بأن يتقاضوا رِباً فاحشاً ، ثم يلجأون من حين إلى حين إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال . وكان المرابون يتحملون نفقات كبيرة فى سبيل الحصول على أموالهم ، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشا للموظفين لكى يسمحوا له بالحصول على ما ماله[٥٩] . وحدث فى عام ١١٩٨ حين كانت أوربا تستعد للحرب الصليبية الرابعة أن أمر البابا إنوسنت الثالث Innocent III جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التى يطالب بها اليهود مدينيهم المسيحيين[٦٠] ؛ وأعفى لويس التاسع ، ملك فرنسا القديس ، جميع رعاياه من ثلث ما كانوا مدينين به لليهود لكى « يستنزل الرحمة على روحه وروح أسلافه »[٦١] . وكان ملوك الإنجليز فى بعض الظروف يصدرون خطابات إعفاء — يلغون بمقتضاها فائدة الدين أو رأس المال أو كليهما — لرعاياهم المدينين لليهود . ولم يكن من النادر أن يبيع الملوك هذه الخطابات ، وأن يدوّنوا فى سجلاتهم المبالغ التى حصلوا عليها نظير وساطتهم فى هذا البر بالإنسانية[٦٢] . وكانت الحكومة البريطانية تطلب أن ترسل إليها صورة من كل تعاقد على قرض ، وأنشأت ديواناً خاصاً باليهود يجمع هذه العقود ، ويراقبها ، ويستمع إلى القضايا الخاصة بها ؛ فإذا ما عجز صاحب مصرف يهودى عن أداء الضرائب أو المطالب المفروضة عليه ، رجعت الحكومة إلى ما لديها من سجلات عن قروضه ، وصادرتها كلها أو بعضها ، وأنذرت مدينيه بأن يؤدوا إليها هى لا إليه ما عليهم من الديون[٦٣] . ولما أن فرض هنرى الثانى على سكان إنجلترا ضريبة خاصة فى عام ١١٨٧ ، أرغم اليهود على أداء ربع أملاكهم ، والمسيحيون على عشرها ، وبذلك أدى اليهود وحدهم ما يقرب من نصف الضريبة كلها[٦٤] . وكان اليهود فى بعض الأحيان « هم الذين يمولون المملكة »[٦٥] . وأمر الملك يوحنا فى عام ١٢١٠ أن يزجّ فى السجون يهود إنجلترا على بكرة أبيهم — رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا — ثم جمعت منهم ضريبة للملك بلغت ٦٦٫٠٠٠ مارك[٦٦] .

وعذّب الذين ظنوا أنهم لم يبوحوا بكل ما كان لديهم من أموال مكنوزة بأن اقتلعت سن من أسنانهم كل يوم حتى يقروا بحقيقة مدخراتهم(٦٧) . وفى عام ١٢٣٠ اتهم هنرى الثالث اليهود بقطع جزء من عملة الدولة (ويبدو أن بعضهم قد فعل ذلك حقاً) ، فصادر ثلث ما يمتلكه يهود إنجلترا من ثروة منقولة ، ولما تبين أن هذه الوسيلة مربحة ، أعيدت فى عام ١٢٣١ ؛ وبعد عامين من ذلك التاريخ انتزع من اليهود ٢٠,٠٠٠ مارك فضى ، ثم انتزع منهم فى عام ١٢٤٤ ستون ألف مارك(*) — وهو مبلغ يوازى مجموع إيرادات التاج البريطانى السنوية . ولما أن استدان هنرى الثالث ٥٠٠٠ مارك من دوق كرنوول رهن له جميع يهود إنجلترا ضماناً لدينه(٦٨) . وتوالت على اليهود فيما بين عامى ١٢٥٢ و ١٢٥٥ سلسلة من القروض المالية دفعتهم إلى حال من اليأس لم يروا معها بدأ من أن يطلبوا أن يؤذن لهم بمغادرة إنجلترا جملة ، ولكن طلبهم هذا لم يلق قبولا(٦٩) . وحرم إدورد الأول فى عام ١٢٧٥ التعامل بالربا تحريماً باتاً ، ولكن الاقتراض لم ينقطع رغم هذا التحريم ، وإذ كان خطر ضياع المال قد ازداد بسببه ، فقد ارتفع سعر الفائدة ، ولذلك أمر إدورد بالقبض على جميع اليهود ومصادرة جميع أملاكهم ؛ وقبض كذلك على كثيرين من المرابين المسيحيين وشنق ثلاثة منهم . أما اليهود فإن مائتين وثمانين منهم قد شنقوا ، وطيف بجثثهم فى شوارع لندن ثم مزقت ، وقتل عدد آخر منهم فى المقاطعات الإنجليزية . وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة(٧٠) .

وأثرى أصحاب المصارف اليهود فى الفترات القلقة التى تخللت أوقات المصادرة ، وظهرت علائم الثراء المفرط على بعضهم أكثر مما يجب أن تظهر ؛ فلم يقتصروا على تقديم المال اللازم لبناء القصور ، والكنائس الكبرى ، والأديرة ،

(*) كان المارك نصف رطل من الفضة ، أما قيمته الشرائية فأكبر الظن أنها كانت تعدل قيمته فى هذه الأيام خمسين مرة (٨,٤٠ دولار أمريكى) .

بل شادوا لأنفسهم فوق ذلك بيوتاً فخمة ، فكانت تلك البيوت فى إنجلترا من أول ما بنى من البيوت بالحجارة . وكان بين اليهود أغنياء وفقراء على الرغم من قول العزر : « الناس كلهم أكفاء عند الله — النساء والعبيد ، والأغنياء والفقراء » (٧١) . وحاول رجال الدين أن يخففوا الفقر ، وأن يمنعوا الاستغلال الجشع للمال بوضع عدة نظم اقتصادية مختلفة ، فأخذوا يؤكدون ما على الجماعة من تبعات لجميع أفرادها ، وخففوا آلام الشدائد بالصدقات المنظمة ؛ نعم إنهم لم يندّدوا بالغنى ، ولكنهم أفلحوا فى رفع مكانة العلم حتى ساوت مكانة الثراء ؛ ووسموا الاحتكار والائتمار على التحكم فى الأسعار بميسم الخطايا (٧٢) ، وحرموا على بائع الأشتات أن يكسب أكثر من سدس ثمن الجملة (٧٣) ؛ وكانوا يراقبون الموازين والمقاييس ، ويحددون أقصى الأثمان وأقل الأجور ؛ لكن كثيراً من هذه النظم قد عجزت عن تحقيق الغرض المقصود منها ، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود الاقتصادية عن حياة جيرانهم فى البلاد الإسلامية أو المسيحية ، ووجد قانون العرض والطلب فى السلع والخدمات له طريقاً ينفذ منها حول جميع التشريعات .

٣ — الأخلاق

وحاول الأغنياء أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات الكثيرة ، فكانوا يقرون بما على الثراء من واجبات اجتماعية ، ولعلهم أيضاً قد خافوا ثورة الفقراء أو لعنهم ، فلم يعرف قط أن يهودياً مات من الجوع وهو يعيش فى بيئة يهودية (٧٥) . ومن بداية القرن الثانى المسيحى كان مشرفون رسميون يفرضون فى فترات محددة على كل فرد من أفراد العشيرة اليهودية مهما يكن فقيراً أن يكتتب بشىء من ماله « لصندوق العشيرة » الذى يعنى بالشيوخ ، والفقراء ، والمرضى ، وبتعليم اليتامى وزواجهم . وكانت واجبات الضيافة تقدم بالمجان وبخاصة للعلماء الجائلين . وفى

بعض الجماعات كان المسافرون اليهود إذا قدموا على بلد آواهم موظفون من الجماعات اليهودية فى بيوت الأفراد اليهود . وزاد عدد الجمعيات الخيرية اليهودية زيادة كبيرة كلما تقدمت العصور الوسطى ، فلم تكن هناك فقط كثير من المستشفيات ، وملاجىء للأيتام وبيوت للفقراء والطاعنين فى السن ، بل كانت هناك أيضاً منظمات تؤدى أموال الفداء للمسجونين ، وبائنات للعرائس الفقيرات ، وأجور الأطباء للمرضى ، وتعنى بالأرامل المعدمات ، وتدفن الموتى من غير أجر(٧٧) . وكان المسيحيون يشكون من شره اليهود ويحاولون أن يثيروا حماسة المسيحيين للصدقة بأن يضربوا لهم أمثلة من كرم اليهود(٧٨) .

وكانت الفروق بين الطبقات عند اليهود تظهر فى ثيابهم ، وطعامهم ، وحديثهم وفى مائة أخرى من أساليب حياتهم . فكان اليهودى البسيط يلبس قفطاناً طويل الكمين فوقه حزام ، وكان أسود اللون فى العادة ، كأنه رمز للحزن على هيكله المهدم وعلى بلاده ، لكن أثرياء اليهود فى أسپانيا كانوا يظهرون ثراءهم بلبس الثياب الحريرية ، وطالما حذرهم الفقراء دون جدوى من أثر هذا التظاهر فى إثارة البغضاء والأحقاد . ولما أن حرم ملك قشتالة هذا التجمل فى الملبس أطاع الرجال اليهود أمره ولكنهم ظلوا يلبسون أزواجهم أفخر الثياب ؛ ولما أن سألهم الملك فى ذلك أكدوا له أن الشهامة الملكية لم تكن تقصد قط أن يطبق هذا القيد على النساء(٧٩) ، وظل اليهود طوال العصور الوسطى يجملون نساءهم بفاخر الثياب ، ولكنهم حرموا عليهن أن يظهرن أمام الجماهير عاريات الرأس ، وأنذروهن بأن مخالفة هذا الأمر تصبح سبباً للطلاق ، وأمير اليهودى ألا يصلى فى حضرة امرأة يرى الناس شعرها(٨٠) .

وكانت نواحى التلمود المتصلة بالقوانين الصحية مما خفف من آثار الازدحام فى أحياء المدن ؛ فعملية الختان ، والاستحمام كل أسبوع ، وتحريم الخمر وأكل اللحم الفاسد ، كلها وسائل وقت اليهود شراً الأمراض المنتشرة فى البيئات المسيحية

المجاورة لهم أكثر من غيرهم من السكان[٨١] . مثال ذلك أن الجذام كان منتشراً بين فقراء المسيحيين الذين يأكلون اللحم أو السمك المملح ، ولكنه كان نادر الحدوث بين اليهود ؛ ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت إصابة اليهود بالكوليرا وما شابهها من الأوبئة أقل من إصابة المسيحيين[٨٢] . لكن اليهود والمسيحيين على السواء كانوا يعانون الأمرين من الملاريا في أحياء رومة القذرة الموبوءة بالبعوض من مناقع كمبانيا Campagna .

وكانت حياة اليهودي تنعكس عليها من الناحية الأخلاقية تراثه الشرقي والقيود التي يفرضها عليه الأوربيون ؛ ففي كل مناحي الحياة حقوق له مهضومة ، وأمواله معرضة للنهب وحياته للخطر والإذلال ، يتهم بجرائم ليست له يد فيها ، ولهذا كله لجأ كما يلجأ الضعيف الجسم في كل مكان إلى الدهاء يتقي به الأذى . نعم إن أحبار اليهود كانوا ينادون في كل حين أن « خداع غير اليهودي شر من خداع اليهودي نفسه[٨٣] » ؛ ولكن بعض اليهود كانوا يخالفون هذه النصيحة[٨٤] ؛ ولعل المسيحيين أيضاً كانوا يخادعون بكل ما يعرفونه من خداع . فرجال المصارف اليهود منهم والمسيحيون لم يكونوا يرحمون مدينيهم بل كانوا يتقاضون منهم كل ما عليهم من ديون ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في العصور الوسطى ، كما كان في القرن الثامن عشر ، دائنون لا يقلون أمانة وإخلاصاً عن ماير أنسلم من آل روتشيلد . وكان بعض اليهود والمسيحيين ينحتون النقود ، أو يقبلون البضائع المسروقة[٨٥] ، ولكن كثرة استخدام اليهود في المناصب المالية الكبرى توحي بأن من يستخدمونهم من المسيحيين كانوا يثقون بأمانتهم واستقامتهم ؛ وقلما كان اليهود يرتكبون جرائم العنف — كالقتل ، والسطو ، والسلب — ، وكان السكر أقل انتشاراً بينهم في البلاد المسيحية منه في البلاد الإسلامية ؟

وكانت حياتهم الجنسية عفيفة إلى حد عجيب على الرغم من أخذهم بمبدإ تعدد

الزوجات ، وكانوا أقل ميـلا للواط من غيرهم من الشعوب الشرقية الأصل(*) . وكانت نساؤهم عذارى ذوات خفر وحياء ، وأزواجاً عاملات مجدات ، وأمهات مخصبات ذوات ضمائر حية ، وكان من أثر التبكير بالزواج أن قلت الدعارة بينهن إلى أقل حد يستطاع الوصول إليه عند بنى الإنسان(٨٦) . وكان العزاب نادرى الوجود بين رجالهم ، وكان من القواعد التى وضعها الحاخام آشير بن يحيال أن من حق الحاكم أن ترغم الأعزب على الزواج إذا بلغ العشرين من العمر ، ولم يكن منهمكاً فى دراسة الشريعة(٨٧) . وكان الآباء هم الذين ينظمون أمور الزواج ، وتقول إحدى الوثائق اليهودية الباقية من القرن الحادى عشر إنه كان يندر وجود فتيات « يبلغن من قلة الذوق أو من الوقاحة ما يجرأن معه على أن يبدين هواهن أو خيارهن » فى هذه الناحية(٨٨) . ولكن الزواج لا يكون قانونياً إلا برضاء الزوجين(٨٩) . وكان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهى صغيرة السن حتى وإن كانت فى السادسة من عمرها ؛ ولكن زواج الأطفال على هذا النحو لم يكن يتم إلا إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وكان من حق الفتاة أن تلغى هذا الزواج إذا شاءت(٩٠) . وكانت الخطبة إجراء رسمياً تجعل الفتاة زوجة للرجل من الوجهة القانونية ، ولا يمكن التفرقة بعدها بين الزوجين إلا بوثيقة طلاق قضائية . وكان عقد يوقع عند الزواج (كتوبة) يحدد فيه بائنة الزوجة ومهر الزوج . وكان هذا المهر مبلغاً من المال يُجَنَّب من مال الزوج ويؤدى للزوجة إذا طلقها أو مات عنها . وبغير هذا المهر الذى لم يكن يقل عن مائتى زوزا Zuza (وهو قدر يكفى لشراء بيت تسكنه أسرة واحدة) لا يصبح الزواج بعذراء صحيحاً من الوجهة القانونية .

(*) لسنا نعتقد أن المؤلف يريد أن يتهم الشرقيين بأنهم يميلون إلى اللواط أكثر من غيرهم من الشعوب . فقد سبق أن وصف اللواط عند اليونان وصفا لانرى موجبا لإعادته ، ونظن أنه إنما يريد أن يقارن اليهود — وهم شرقيون فى الأصل — بغيرهم من شعوب الشرق فيقول إن هذا الداء كان أقل انتشارا عند بعض الشعوب الشرقية . (المترجم)

وكان تعدد الزوجات سنّة جرى عليها أغنياء اليهود فى البلاد الإسلامية ولكنها كانت نادرة بينهم فى البلاد المسيحية[٩١] . وتشير الآداب الدينية التى وصلت إلينا من عهد ما بعد التلمود ألف إشارة وإشارة إلى « زوج » الرجل ، ولا تشير قط إلى « أزواجه » . وأصدر جرشم بن يهوذا حاخام مينز فى عام ١٠٠٠ م أمراً بحرمان كل يهودى يتزوج أكثر من واحدة ، وما لبث تعدد الزوجات بعد هذا القرار أن انقرض أو كاد بين اليهود فى جميع أنحاء أوربا ما عدا أسبانيا . على أن حالات من هذا التعدد ظلت تحدث من حين إلى حين إذا ظلت الزوجة عقيما بعد عشر سنين من زواجها وسمحت هى للرجل أن يتخذ له حظية أو زوجة ثانية[٩٢] ، ذلك أن الأبوة كانت مسألة حيوية عند اليهود . وقد ألغى هذا القرار نفسه — قرار جرشم — ما كان للزوج قديما من حق طلاق زوجته بغير رضاها ومن غير جريمة ارتكبتها ؛ وأكبر الظن أن الطلاق بين اليهود فى العصور الوسطى كان أقل منه فى أمريكا فى هذه الأيام .

وكانت الأسرة أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية وإن لم تكن رابطة الزواج قوية محكمة من الوجهة القانونية . ذلك أن الخطر المحدق باليهود من خارجهم قد قوى وحدتهم الداخلية ، ويشهد أعداؤهم أنفسهم بما كانت تمتاز به الأسرة اليهودية ، وما تمتاز به الآن ، من « حرارة ، وكرامة ... وتفكير ، وتدبر ، وحب أبوى وأخوى »[٩٤] . فقد كان الزوج الشاب يشترك مع زوجته فى العمل ، وفى السرّاء والضرّاء ؛ وكان شديد الحب لها لأنه يراها جزءا من نفسه الكبرى ؛ وإذا أصبح أبا وكبر أطفاله من حوله أثاروا فيه قواه المدخرة وبعثوا فيه أعمق الوفاء . وأكبر الظن أنه لم يكن قبل الزواج قد مس جسم امرأة غير زوجته دون الشعار ، ولم تكن تتاح له فى تلك البيئة الصغيرة الوثيقة الصلات إلا أقل الفرص للخيانة الزوجية بعد الزواج . ويكاد منذ ولادة أطفاله يبدأ بادخار بائنات لبناته ومهور لأولاده ، وكان من البدائه عنده أن من واجبه أن يساعد البنين والبنات بماله فى

السنين الأولى من حياتهم وحياتهن الزوجية . وكان ذلك يبدو له أكثر حكمة من ترك الشاب يستعد لقيود الزواج المفرد بفترة من الاختلاط الجنسى الطليق . وكثيراً ما كان العريس يعيش مع عروسه فى بيت أبيها — وقلما كان ذلك سببا فى ازدياد سعادة الأسرة . وكان سلطان الأب الأكبر فى البيت سلطانا مطلقا لايكاد يقل فى ذلك عن سلطانه فى رومه الجمهورية . فكان من حقه أن يحرم أبناءه دينيا ، وأن يضرب زوجته ضربا غير مفرط ، فإذا ما أصابها بأذى جسيم فرضت عليه العشيرة غرامة تتناسب مع موارده ؛ وكان فى العادة يمارس سلطانه بصرامة لا تطغى قط على عاطفة الحب القوية .

وكان مركز المرأة منحطاً من الوجهة القانونية ، عاليا من الناحية الأخلاقية . ولكن الرجل اليهودى يحمد الله ، كما يحمده أفلاطون ، لأنه لم يولد أنثى ، وكانت المرأة تجيب عن ذلك فى تواضع جم : « وأنا أحمد الله الذى خلقنى كما أراد »[٩٥] .وكان للنساء فى المعبد موضع منعزل فى الرواق أو خلف الرجال — وتلك تحية سمجة لمفاتنهن التى تلهى العابدين عن العبادة ، ولم يكن يحسبن فى العدد الواجب اكتماله لأداء الصلاة . وكانت الأغانى التى يمتدح بها جمال المرأة تعد عملا غير لائق وإن كان التلمود قد أباحها[٩٦] . أما التغازل — إذا وجد — فلم يكن إلا عن طريق المراسلة ؛ ولقد نهى الأحبار عن التخاطب بين الرجال والنساء — حتى بين الزوجين — أمام الناس[٩٧] ، وقد أبيح الرقص ولكنه كان مقصوراً على رقص المرأة مع المرأة والرجل مع الرجل[٩٨] .

وكان القانون يجعل الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته ، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها ، فإذا مات حصلت على قيمة بائنتها ، ومهر الزواج ؛ أما فيما عدا هذا فقد كانت تعتمد على أبنائها الذكور ، ورثة أبيهم الطبيعيين ؛ فى أن ييسروا لها سبل الحياة الطيبة . ولم تكن البنات يرثن آباءهن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور ؛ فإذا كان له اعتمدن على حبهم الأخوى ، وقلما كان يخيب فيهم

وجلاوهن[٩٩] . ولم تكن البنات يرسلن إلى المدارس ؛ فقد كان العلم مهما قل يعد بالنسبة إليهن أمراً شديد الخطورة . على أنهن رغم هذا كن يسمح لهن بأن يدرسن فى بيوتهن ؛ فنحن نسمع عن عدد من النساء يلقين محاضرات عامة فى الشريعة — وإن كانت صاحبة المحاضرة تستتر أحياناً عن المستمعين[١٠٠] . ولكن المرأة اليهودية الجديرة بالتكريم والإخلاص ، كانت تلقى بعد زواجها كل ما هى خليقة به منهما رغم ما كان يحيط بها من إجحاف مادى وقانونى ، وقد نقل يهوذا بن موسى بن تيبون Tibbon عن حكيم مسلم قوله : « لا يكرم النساء إلا الكريم ، ولا يحقرهن إلا الحقير »[١٠١] .

وكانت صلات الأب بأبنائه أقرب إلى الكمال من الصلات الزوجية . فقد كان اليهودى بما عرف عن الرجل الساذج العادى من كبرياء ، يفخر بأبنائه وبقدرته على إنجاب الأبناء . وكان يقسم أغلظ أيمانه بأن يضع يده على خصيتى من يتلقى منه اليمين ، ومن هنا اشتقت كلمة testimony الأوربية(*) ، ومعناها الشهادة أو البيِّنة أو الشاهد نفسه . وكان كل رجل يؤمر بأن يكون له طفلان على الأقل ، وكان له فى العادة أكثر من اثنين . وكان الطفل يلقى الإجلال الذى يليق بزائر قدم من السماء ، ومن مَلَك تجسد ؛ وكان الأب يلقى من التبجيل ما يكاد يجعله رسولا من عند الله ، فكان الولد يقف فى حضرة أبيه حتى يأمره بالجلوس ، ويطيعه طاعة جزعة قلقة تتناسب مع كبرياء الشباب . وكان الولد أثناء الاحتفال بالختان يكرس إلى يهوه بمقتضى عهد أبراهام ، وكانت كل أسرة تشعر بأن تعد واحداً من أبنائها على الأقل ليتولى المناصب الدينية . وكان الولد ، إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره ، يدخل ميدان الرجولة ، ويفرض عليه كل ما تفرضه الشريعة على الرجال ، ويحدث ذلك فى حفل رهيب يثبت فيه هذا ويؤكد .

(*) من كلمة Testes ومعناها الخصيتان . (المترجم)

وكان الدين يخلع رهبته وقداسته على كل مرحلة من مراحل نموه ، ويخفف بذلك من واجبات الآباء .

٤ — الدين

كذلك كان الدين رقابة روحية فى كل ناحية من نواحى القانون الأخلاقى . لا ريب إنه كانت فى الشريعة ثغرات ، وأن الحيل القانونية كانت تتلمس لكى تعاد إلى الشعب حرية التطبيق التى لا غنى عنها لكل شعب مغامر . ولكن يلوح أن الرجل اليهودى فى العصور الوسطى كان يقبل الشريعة بوجه عام ويتخذها درعاً لا يقيه اللعنة الأبدية فحسب ، بل يقيه فوق ذلك وبصفة أظهر للعيان تفكك جماعاته وانحلالها . نعم إنها كانت تضيق عليه فى جميع مناحى الحياة ، ولكنه كان يعظمها لأنها موطن نشأته ومدرسة تربيته والوسيلة التى لا بد منها لحياته .

وكان كل بيت فى بلاد اليهود كنيساً ، وكل مدرسة معبداً ، وكل أب كوهناً . فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مثيلات موجزة فى البيت . وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية تربط الماضى بالحاضر والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد . وكان من عادة الأب فى مساء يوم الجمعة أى ليلة السبت من كل أسبوع أن يجمع حوله زوجته ، وأولاده ، وخدمه ، ويباركهم فرداً فرداً ، ويؤمهم فى الصلاة ، وفى القراءة من الكتب الدينية ، والأغانى المقدسة . وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة (مزوزا) محتوية على ملف من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنيه الاشتراع (الآيات ٤ — ٩ من الأصحاح السادس ، ١٣ — ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) تذكر اليهودى أن إلهه « واحد يجب عليه أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوّته » . وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطبع

الدين فى نفسه فى أكثر السنين تأثيراً فى تكوينه .

ولم يكن الكنيس معبداً دينيا فحسب ، بل كان فوق ذلك المركز الاجتماعى للعشيرة اليهودية ؛ والمعنى الحرفى للفظ سناجوج ، وإكليزيا ، وسينود ، وكلية هو مجتمع ؛ ولقد كان الكنيس قبل المسيحية مدرسة ولا يزال يسمى شوله Schule عند اليهود الإشكنازيين ، ثم أخذ على عاتقه فى عهد التشتت عدداً كبيراً من الواجبات العجيبة المختلفة ، فكان من عادة بعضها أن ينشر فى كل سبت ما يصدره بيت الدين من قرارات خلال الأسبوع المنصرم ، وأن يجبى الضرائب ، وأن يعلن عن الأمتعة المفقودة ، وأن ينظر فى شكاوى بعض الأفراد من البعض الآخر ، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل موعده حتى يستطيع من اه حقوق فى هذه الأملاك أن يعترض عليه . وكان الكنيس يوزع الصدقات العامة ، وكان فى بلاد آسية مسكناً لأبناء السبيل . وكان مبناه على الدوام أجمل المبانى فى الحى اليهودى ؛ وكان فى بعض الأحيان وبخاصة فى أسبانيا وإيطاليا آية من آيات العمارة ، مزداناً أعظم زينة وأجملها ؛ وكثيراً ما كان ولاة الأمور المسيحيون يحرمون على اليهود إقامة معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية فى المدينة ، وأمر البابا هونوريوس الثالث فى عام ١٢٢١ بهدم معبد بهذا الوصف فى بورج Bourges[١٠٣] .

وكان فى أشبيلية فى القرن الرابع عشر ثلاثة وعشرون كنيساً ، وفى طليطلة وقرطبة بما لا يكاد يقل عن هذا العدد ، منها واحد شيد فى قرطبة عام ١٣١٥ تحتفظ به الحكومة الأسبانية على أنه أثر قومى .

وكان بكل كنيس مدرسة (بيت الدرس Beth ha midrash) بالإضافة إلى المدارس الخاصة والمعلمين الخصوصيين ، وأكبر الظن أن نسبة من كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين يهود العصور الوسطى كانت أكبر منها بين المسيحيين[١٠٤] وإن كانت أقل منها بين المسلمين . وكانت أجور المدرسين تؤديها الجماعات اليهودية عامة أو يؤديها الآباء ، ولكنهم كلهم كانوا خاضعين لرقابة

الجماعة المشتركة . وكان الأولاد يخرجون إلى المدارس مبكرين – قبل مطلع الفجر فى الشتاء ؛ ثم يعودون إلى بيوتهم بعد بضع ساعات لتناول الفطور ، ثم يرجعون إلى المدرسة حيث يبقون حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم يأتون إلى المنزل للغداء ، ويعودون إلى المدرسة ظهراً ، ثم يستريحون بين الساعة الثانية والثالثة ، ثم يذهبون مرة أخرى إلى المدرسة ويبقون فيها إلى المساء ، ثم يطلق سراحهم أخيراً ليعودوا إلى بيوتهم ليتعشوا ، ويصلوا ، وينامو ؛ وكذلك كانت حياة الغلام اليهودى حياة جدية شاقة(١٠٥) .

وأول ما كان يدرسه الغلام اليهودى هو اللغة العبرية وأسفار موسى الخمسة ؛ فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا ، وفى الثالثة عشرة يأخذ فى دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود ، ومن شاء منهم أن يكون من العلماء واصل دراسة المشنا والجمارا من الثالثة عشرة إلى العشرين من عمره أو ما بعدها . وكان الطالب يتعلم عن طريق دراسته لموضوعات التلمود المختلفة مقداراً قليلا من العلوم المختلفة تبلغ عشرة أو تزيد ، ولكنه لا يكاد يدرس شيئاً من تاريخ اليهود(١٠٦) . وكان أكثر ما يتعلمه عن طريق التكرار ، وكانت التلاوة الجماعية قوية عالية إلى حد جعل بعض البيئات تمنع وجود المدارس فيها(١٠٧) . أما التعليم العالى فكان مكانه اليشيبة أو المجمع العلمى ، وكان خريج هذا المجمع يسمى تلميذ حاخام أى عالما بالشريعة ؛ وكان يعفى عادة من الضرائب المفروضة على سائر أفراد العشيرة ، وكان ينتظر من غير العلماء أن يهبوا واقفين إذا أقبل أو أدبر وإن لم يكن حتما من الأحبار الرسميين(١٠٨) .

أما الحبر الرسمى فكان معلماً وقاضياً ، وكاهناً . وكان يطلب إليه أن يتزوج ، ولم يكن يتقاضى نظير القيام بواجباته الدينية إلا القليل من الأجر إذا تقاضى شيئاً منه على الإطلاق ؛ وكان العادة يكسب عيشه بعمل من الأعمال التى لا تمت بصلة إلى الدين ؛ وقلما كان يعظ ، لأن الوعظ كان متروكا لوعاظ متنقلين (مجديم)

يدربون على فنون البلاغة المرهبة ذات الأصوات المنغمة الطنانة الرنانة .
وكان فى مقدور كل فرد من المصلين أن يؤم الجماعة ، ويقرأ فقرات من الكتاب المقدس ، ويعظ ؛ ولكن هذا الشرف كان يختص به فى العادة أحد اليهود البارزين أو الذين لهم يد طولى فى الصدقات والأعمال الخيرية .
وكانت الصلاة عند اليهود المتمسكين بالدين عملا شديد التعقيد ، لا تؤدى على الوجه الصحيح إلا إذا غطى المصلى رأسه دليلا على الخشوع ، وربط على ذراعيه وجبهته علباً صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الخروج (الآيات ١ — ١٦ من الأصحاح الثالث عشر) وتثنية الاشتراع (الآيات ٤ — ٩ من الأصحاح السادس ، و ١٣ — ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) ، وثبت فى أطراف ثيابه أهدابا نقشت عليها أهم وصايا الرب . وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لابد منها لتذكر اليهود بوحدانية الله ، ووجوده ، وشرائعه . أما السذج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها تمائم سحرية ذات قوى معجزة خارقة للطبيعة . وكانت الصلاة تختم بقراءة من ملف الشريعة الموضوع فى تابوت صغير فوق المذبح .

وكان اليهود فى المنفى لا يوافقون على إدخال الموسيقى فى الشعائر الدينية ، ويرون أنها قلما تتفق مع حزنهم على وطنهم الضائع ، ولكن الواقع أن بين الموسيقى والدين من الصلات القوية مثل ما بين الشعر والحب . ذلك أن التعبير المتحضر عن أقوى العواطف وأكثرها عمقاً يتطلب أشد الفنون إثارة للانفعالات النفسية ، ولقـــد عادت الموسيقى إلى الكنيس عن طريق الشعر ؛ ذلك أن البيتانيم Paitanim أو « الشعراء الجدد » العبرانيين شرعوا يكتبون أشعاراً دينية مثقلة بالزخرف الصناعى كالأبيات المتجانسة أولى حروفها أو التى إذا جمعت الحروف الأولى منها كونت اسماً خاصاً أو جملة بعينها ، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة نغماتها وامتلاؤها بالحماسة الدينية التى أضحت عند اليهودى وطنية وديناً معاً . ولا تزال ترانيم إلعزر بن قلير (من القرن الثامن) الفجة القوية

تجد لها مكاناً فى طقوس بعض المعابد اليهودية . ولقد ظهرت أشعار مثلها عند يهود أسپانيا وإيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، منها واحدة يترنم بها كثيرون من اليهود يوم عيد الكفارة :

إذا أقبلت ملكوتك تشققت التلال عن أناشيد .
وضحكت الجزائر متهللة لأنها تنتسب إلى الله .
وتغنى كل من فيها من المصلين بأعلى أصواتهم يثنون عليك .
حتى إذا سمعتها أبعد الشعوب نادت بك ملكاً متوجاً عليها[١٠٩] .

ولما أن أدخلت هذه القصائد المقدسة (الپيوطيم) فى الصلوات التى تقام فى المعابد ، كان ينشدها مرتل القداس ، وبذلك عادت الموسيقى إلى الشعائر الدينية . يضاف إلى هذا أن تلاوة الكتاب المقدس والأدعية كان ينشدها فى كثير من المعابد رئيس فرقة المرتلين أو ينشدها المرتلون إنشاداً ترتجل معظم نغماته ارتجالا ، ولكنها تتبع فى بعض الأحيان نماذج النغمات البسيطة الموضوعة للترانيم المسيحية[١١٠] . من ذلك أن النغمات المعقدة للأغنية العبرانية الذائعة الصيت المعروفة باسم كل نيدرى Kol Nidre (جميع الأيمان)[١١١] ، قد أخذت من مدرسة ديرسنت جول St. Gail الغنائية بسويسرا فى وقت ما قبل بداية القرن الحادى عشر .

على أن الكنيس اليهودى لم يحل فى قلب اليهودى محل الهيكل بكل معانى الحلول ، بل ظل أمله فى أن يقدم القربان ليهوه فى يوم من الأيام أمام قدس الأقداس على تل صهيون ، يلهب خياله ، ويتركه عرضة لخداع « المسيح الكذاب » فى مختلف الأوقات . من ذلك ما حدث فى عام ٧٢٠ حين أعلن شيريم Sereme وهو رجل سورى ، أنه هو المنقذ المنتظر ، وسيّر حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين . وغادر اليهود مواطنهم فى بابل وأسبانيا ليشتركوا فى هذه المغامرة ، ولكن القائم بها أسر ، وعرضه الخليفة يزيد الثانى على الجماهير على أنه مهرج دجال ، ثم أمر به فقتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تزعم عوبديا بن

عيسى بن إسحق الأصفهانى ثورة أخرى مثلها امتشق فيها عشرة آلاف يهودى الحسام ، واستبسلوا فى الحرب بقيادته ، ولكنهم هزموا ، وقتل ابن عيسى فى المعركة وعوقب جميع يهود إصفهان بلا تمييز بينهم لانضمامهم إليه . ولما أثارت الحملة الصليبية الأولى ثائرة أوربا حسبت الجماعات اليهودية أن انتصار المسيحيين سيعيد فلسطين إلى اليهود[١١٢] ، ولكنهم أفاقوا من أحلامهم على سلسلة من المذابح المدبرة . وفى عام ١١٦٠ أثار داڤيد الروئى يهود العراق إذ نادى فيهم أنه هو المسيح المنتظر وأنه سيعود بهم إلى أورشليم ويرد إليهم حريتهم ؛ لكن حماه خشى أن يحيق الهلاك باليهود بسبب هذه الأفكار فما كان منه إلا أن ذبحه وهو نائم . ثم ظهر مسيح آخر فى جنوبى جزيرة العرب عام ١٢٢٥ وأثار اليهود إثارة حمقاء . وكتب ابن ميمون « رسالة إلى الجنوب » ذائعة الصيت فند فيها مزاعم هذا الداعى ، وذكّر يهود العرب بما أعقب هـــذه المحاولات الطائشة فى ماضى الأيام من هلاك ودمار[١١٣] ، ولكنه رغم هذا ارتضى الأمل فى المسيح المنتظر ، على أنه دعامة لا بد منها للروح اليهودية فى تشتتهم ، وجعل هذا الأمل إحدى العقائد الثلاث عشرة الأساسية فى الديانة اليهودية[١١٤] .

الفصل الرابع

كراهيـــة اليهود

ترى ما هو منشأ العداء القائم بين غير اليهود واليهود ؟

لقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداء أسباباً اقتصادية ، ولكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سبباً فى زيادة المنافسات الاقتصادية وستاراً لها ؛ فالمسلمون المؤمنون برسالة محمد يغضبهم من اليهود عدم إيمانهم بهذه الرسالة ، والمسيحيون الذين يؤمنون بألوهية المسيح يؤلمهم أن يجدوا شعبه نفسه لا يؤمن بهذه الألوهية . ولم يكن كثيرون من المسيحيين الصالحين يرون أن مما يخالف تعاليم دينهم أو يخالف التعاليم الإنسانية بوجه عام.أن يلقوا على شعب بأسره ، خلال القرون الطوال ، تبعة أعمال فئة قليلة العدد من يهود أورشليم فى آخر أيام المسيح . ويحدثنا إنجيل لوقا أن جماعات من اليهود رحبت بدخول المسيح أورشليم (الآية ٣٧ من الأصحاح ٢٩) وكيف حل صليبه بيلاطس : « تبعه جمهور كبير من الشعب والنساء اللائى كن يلطمن وينحن عليه » (الآية ٢٧ من الأصحاح ٢٣) ، وكيف أن كل الجموع الذين « كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم » (الآية ٤٨ من الأصحاح ٢٣) ، ولكن هذه الشواهد القاطعة بعطف اليهود على عيسى كانت تنمحى.ذكراها حين تتلى على المسيحيين قصة الآلام المريرة كل أسبوع مقدس من فوق ألف منبر ومنبر ، فكانت نيران الحقد تضطرم فى قلوب المسيحيين ، وكان بنو إسرائيل فى تلك الأيام يحبسون أنفسهم فى أحيائهم وبيوتهم خشية أن تثور عواطف السذج من الناس فتؤدى إلى المذابح .

ونشأت حول هذا السبب الرئيسى من أسباب سوء التفاهم عشرات المئات

من أسباب الريبة والعداء : وتحمل رجال المصارف اليهود أكبر آثار العداء الناشئ من أسعار فائدة القروض ، وهي أسعار ترتفع كلما قلّت ضماناتها . ولما أن نمت الشئون الاقتصادية المسيحية ، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل ، أثارت المنافسة الاقتصادية الأحقاد فى الصدور ، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية[١١٥] . وكان اليهود الذين يشغلون مناصب رسمية وبخاصة فى المصالح المالية للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما : وتأصلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية فى الصدور فأصبح كل ما هو يهودى بغيضاً لبعض المسيحيين ، وكل ما هو مسيحى بغيضاً لبعض اليهود ، فأخذ المسيحيون يعيبون على اليهود عزلتهم ، ولم يغفروا لهم هذه العزلة التى كانت رد فعل لتمييز غيرهم عليهم . وما كان يوجه إليهم من اعتداء فى بعض الأحيان ، وبدت ملامح اليهود ، ولغتهم ، وآدابهم ، وأطعمتهم ، وشعائرهم ، بدت هذه كلها فى أعين المسيحيين غريبة كريهة . ثم إن اليهود كانوا يطعمون حين يصوم المسيحيون ، ويصوم أولئك حين يفطر هؤلاء ، وظل يوم راحتهم وصلواتهم يوم السبت كما كان فى قديم الأيام ، على حين أن يوم الراحة والصلوات عند المسيحيين قد تبدل فأصبح يوم الأحد ؛ وكان اليهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر فى عيد فصح قريب قرباً يراه المسيحيون غير لائق من يوم الجمعة الذى يحزنون فيه لموت المسيح . ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح لليهود أن يأكلوا طعاماً مسته يد غير يهودية ، أو يشربوا خمراً عصرته ، أو يستعملوا آنية لمستها[١١٦] ، أو أن يتزوجوا إلا من يهوديات[١١٧] . وكان المسيحى يفسر هذه القواعد القديمة — التى وضعت قبل نشأة المسيحية بزمن طويل — بأن اليهود يرون أن كل شىء مسيحى نجس ؛ ويرد على هذا بأن الإسرائيلى نفسه لم يكن فى أغلب الأحيان يمتاز بنظافة جسمه أو أناقة ثيابه . ونشأت من عزلة هؤلاء وأولئك بعضهم عن بعض أقاصيص

سخيفة محزنة انتشرت بين كلا الطرفين . وكان الرومان قبل ذلك الوقت يتهمون المسيحيين بأنهم يذبحون أطفال الوثنيين ليقدموا دماءهم فى السر قرباناً لإله المسيحيين ، ثم أخذ المسيحيون فى القرن الثانى عشر يتهمون اليهود باختطاف أطفال المسيحيين ليقدموهم قرباناً إلى يهوه ، أو ليتخذوا دماءهم دواء ، أو يستعملوه فى صنع الخبز الفطير لعيد الفصح . واتهم اليهود بأنهم يسممون الآبار التى يشرب منها المسيحيون ويسرقون الرقاق المقدس ليثقبوه ويخرجوا منه دم المسيح[١١٨] . ولما أن تباهى عدد قليل من تجار اليهود بثرائهم وأظهروا هذا الثراء بارتداء الملابس الغالية الثمن اتهم الشعب اليهودى على بكرة أبيه بأنه يستنزف أموال المسيحيين جملة ويضعها فى أيدى اليهود . واتهمت اليهوديات بأنهن ساحرات ، وقيل إن كثيرين من اليهود من حزب الشيطان[١١٩] . ورد اليهود على هذه الأقاصيص بأخرى مثلها عن المسيحيين ، وبقصص مهينة عن مولد المسيح وشبابه . وكان التلمود ينصح بأن تشمل الصدقات اليهودية غير اليهود[١٢٠] ، وكان بحيا Bahya يثنى على الرهبنة المسيحية ، وكتب ابن ميمون يقول إن تعاليم المسيح والنبى محمد تنزع بالإنسانية إلى الكمال[١٢١] ، ولكن اليهودى العادى لم يكن يستطيع فهم هذه المجاملات الفلسفية ، وبادل أعداءه حقداً بحقد .

وكانت هناك فترات صفاء بين أوقات الجنون السالفة الذكر ، فكثيراً ما كان اليهود يختلطون بالمسيحيين اختلاط الأصدقاء متجاهلين قوانين الدولة والكنيسة التى تحرم هذا الاختلاط ، وكانوا أحياناً يتزاوجون وبخاصة فى أسبانيا وجنوبى أوربا . وكان العلماء المسيحيون واليهود يتعاونون فيما بينهم ، ميكائيل اسكت Michael Scot مع أناتولى Anatoli ، ودانتى مع عمونيل[١٢٢] ؛ وكان المسيحيون يقدمون الهبات للمعابد اليهودية ، وفى مدينة وورمز Worms كانت هناك حديقة يهودية كبرى ينفق عليها من هبة وهبتها امرأة مسيحية[١٢٣] . وبُدِّل يوم السوق فى ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً لليهود ؛ ووجدت الحكومات غير

الدينية أن اليهود عنصر نافع فى الأعمال التجارية والمالية فأولتهم حمايتها فى بعض الأوقات ، وإذا كانت دولة من الدول قد قيدت حركات اليهود أو أخرجتهم من بلادها فقد كان سبب ذلك فى بعض الأحيان أنها لم يعد فى مقدورها أن تحميهم من التعصب والعدوان[١٢٤] .

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . فنى إيطاليا كانت تحمى اليهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة فى العهد القديم وبوصفهم شهدوا أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » ؛ لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية ، وكثيرا ما كان يصدر عنها ذلك بحسن نية ، وقلما كانت تعتمد فى عملها هذا على ما لها من سلطان عام : من ذلك أن قانون ثيوذوسيوس Thedosian Code (٤٣٩) ، ومجلس كليرمنت Clermont (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعيين اليهود فى المناصب التى من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين . وأمر مجلس أورليان Orleans (٥٣٨) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الأمر كان يقصد به حمايتهم ، وحرم استخدامهم فى المناصب العامة . وحرم مجلس لاتران Lateran الثالث (١١٧٩) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وندد مجلس بزيير Beziers (١٢٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود ، ورد مجلس أفنيون Avigon (١٢٠٩) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير « اليهود والعاهرات » من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ، وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود الخدم المسيحيين ، وحذر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود ، وأمر بتجنبهم لنجاستهم[١٢٥] . وأعلنت بعض المجالس إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ، وأحرق شماس فى عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين

اليهودى وتزوج بيهودية[١٢٦] . وحُرمت أرملة يهودية فى عام ١٢٣٤ من بائنتها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحى قبل وفاته وأن هذا يلغى زواجهما[١٢٧] . وأصدر مجلس لاتران الرابع فى عام ١٢١٥ قراراً يحتم « على اليهود والمسلمين — ذكوراً كانوا أو إناثاً — فى كل ولاية مسيحية وفى جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم فى أعين الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحياناً فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات » . ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى جاوزوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بلون خاص — ويكون ذلك بالنسبة للرجال فى غطاء الرأس أو الجبة ، وبالنسبة للنساء فى أقنعتهن . وكان من أسباب صدور هذه الأوامر أنها رد على قوانين قديمة مماثلة لها أصدرها المسلمون ضد اليهود أو المسيحيين . وكان من نوع الشارة المميزة تعينه محلياً حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت فى العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر ، طول قطرها نحو ثلاث بوصات تخاط فى مكان ظاهر فوق الملابس . ونفذ هذا القرار فى إنجلترا عام ١٢٧٩ ؛ أما فى أسبانيا وإيطاليا وألمانيا فلم ينفذ إلا فى أوقات متباعدة قبل القرن الخامس عشر حين أخذ نيقولا القوزاوى Nickolas of Cusa وسان چيوڤنى داكپسترانو San Giovanni de Capistrano يدعوان إلى التشدد فى تنفيذه بأكمله . وكان من أثر تلك الدعوة أن هدد يهود قشتالة فى عام ١٢١٩ بمغادرة البلاد جملة إذا نفذ هذا القانون ؛ ووافق ولاة الأمور الدينيون على إلغائه ، وكثيراً ما كان الأطباء والعلماء ، ورجال المال ، والرحالة اليهود يعفون منه ، ثم أخذ العمل به يضعف قبل القرن السادس عشر وامتنع نهائياً حين قامت الثورة الفرنسية .

ويمكن القول بوجه عام إن البابوات كانوا أكثر رجال الدين تسامحاً فى العالم المسيحى . مثال ذلك أن جريجورى الأول ، نهى عن إرغام اليهود على

اعتناق الدين المسيحى رغم تحمسه الشديد لنشر هذا الدين ، وحافظ على ما لهم من حق المواطنية الرومانية فى البلاد الخاضعة لحكمه[١٢٨] ؛ ولما أن استولى الأساقفة فى طرشونة Terracina وبالرم على معابد اليهود لكى ينتفع بها المسيحيون أرغمهم جريجورى على أن يردوها إليهم كاملة[١٢٩] ، وكتب إلى أسقف نابلى يقول : « لا تسمح بأن يضيق على اليهود فى أداء صلواتهم ، ودع لهم الحرية الكاملة فى مراعاة أعيادهم وأيامهم المقدسة والاحتفال بها ، كما كانوا هم وآباؤهم يفعلون من زمن بعيد »[١٣٠] . وحث جريجورى السابع الحكام المسيحيين على إطاعة قرارات مجلس الكنيسة التى تحرم استخدام اليهود فى المناصب ؛ ولما قدم إنچنيوس الثالث إلى باريس عام ١١٤٥ ، وسار فى موكب حافل إلى الكنيسة الكبرى التى كانت وقتئذ فى الحى اليهودى ، بعث اليهود إليه بوفد ليهدى إليه التوراة أو ملف الشريعة ، فباركهم وعادوا إلى بيوتهم مغتبطين ، وطعم البابا حمل عيد الفصح مع الملك[١٣١] . وكان البابا إسكندر الثالث على وئام مع اليهود واستخدم واحداً منهم فى إدارة شئونه المالية[١٣٢] ؛ وتزعم إنوسنت Innocent الثالث مجلس لاتران الرابع فيما طلبه من أن يكون لليهود شارة خاصة ، ووضع هو المبدأ القائل بأن اليهود على بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية لأنهم صلبوا عيسى[١٣٣] ، ثم كرر فى ساعة كان فيها أرق مزاجاً الأوامر البابوية التى تحرم إرغام اليهود على ترك دينهم وقال : « لا يحق لمسيحى أن يؤذى اليهود فى أجسامهم . . . أو يسلبهم أملاكهم . . . أو يتسبب فى إقلاقهم أثناء الاحتفال بأعيادهم . . . أو يبتز منهم المال بتهديدهم بإحراق موتاهم[١٣٤] . وأعفى جريجورى التاسع منشئ محكمة التفتيش(*) اليهود من إجراءاتها أو اختصاصها إلا إذا حاولوا تهديد المسيحيين ، أو ارتدوا إلى الدين اليهودى بعد أن تنصروا[١٣٥] ،

(*) أو ديوان التحقيق Inqusition كما يسميها بعض المترجمين . (المترجم)

ونبذ إنوسنت الرابع (١٢٤٧) القصة القائلة بأن من شعائر اليهود ذبح أطفال المسيحيين وقال :

لقد ابتدع بعض القساوسة ، والأمراء ، والنبلاء وكبار الأشراف ... أساليب تتنافى مع الدين ضد اليهود خداعاً منهم وتضليلا ، فحرموهم بلا حق من أملاكهم قوة واقتداراً ، واستولوا عليها لأنفسهم ، واتهموهم زوراً وبهتاناً بأنهم يقتسمون فيما بينهم فى يوم عيد الفصح اليهودى ، قلب غلام مذبوح . . . والحق أنهم فى حقدهم يعزون إلى اليهود كل حادث قتل أيا كان المكان الذى يقع فيه . وبسبب هذه التهم المختلفة وأمثالها تمتلئ قلوبهم غلا على اليهود ، فينهبون أموالهم . . . ويضطهدونهم بتجويعهم ، وسجنهم ، وتعذيبهم ، وإيذائهم بغير تلك الوسائل ، ويقضون عليهم أحياناً بالإعدام ، وبذلك أصبحت حال اليهود أسوأ مما كان عليه آباؤهم تحت حكم الفراعنة ، وإن كانوا يعيشون الآن تحت حكم أمراء مسيحيين . وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التى عاش فيها آباؤهم من أقدم العهود التى يذكرها الإنسان . وإذ كان يسرنا ألا يلحقهم أذى ، فإنا نأمركم أن تعاملوهم معاملة ودية رقيقة ؛ فإذا وصل إلى علمكم نبأ اعتداء ظالم وقع عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل هذا الظلم فى المستقبل[١٣٧] .

غير أن هذه الدعوة النبيلة لم تلق إلا أذناً صماء ، واضطر جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٢ أن يكرر ما جاء فيها من تنديد بقصة قتل أطفال المسيحيين استجابة لبعض الشعائر الدينية اليهودية ؛ وأراد أن يزيد أقواله قوة وتأثيراً .فقرر ألا تقبل شهادة مسيحى على يهودى إلا إذا عززها يهودى . وإن ما أصدره البابوت بعد هذا العهد حتى عام ١٧٦٣ من أوامر مماثلة لهذا الأمر ليشهد بما كانت تمتلئ به قلوب البابوات من شفقة وإنسانية كما تشهد بأن هذا الشر لم تجتث جذوره . ومما يدل على أن البابوات كانوا مخلصين فى دعوتهم ما كان يستمتع به اليهود

فى الدويلات البابوية من طمأنينة إذا قيست حالهم بحال بنى دينهم فى غير هذه الدويلات ، ونجاتهم النسبية من الاضطهاد . ذلك أنهم لم يطردوا قط من رومة أو من أفنيون البابوية مثل ما طردوا فى أوقات مختلفة من كثير من البلاد ؛ وفى ذلك يقول مؤرخ يهودى عالم : « لولا الكنيسة الكاثوليكية لما بقى لليهود وجود فى أوربا بعد العصور الوسطى »[١٣٩] .

وكان اضطهاد اليهود بقوة فى أوربا أثناء العصور الوسطى متقطعاً ؛ فقد جرى الأباطرة البيزنطيون مائتى عام على خطة العسف التى جرى عليها جستنيان ضد اليهود ، وطردهم هرقل من أورشليم عقاباً لهم على ما قدموا للفرس من معونة ، وبذل كل ما فى وسعه لإبادتهم ؛ وحاول ليو الإسورى Leo the Isaurian أن يفند الإشاعة القائلة بأنه يهودى بقرار أصدره عام ٧٢٣ يخير فيه اليهود البيزنطيين بين اعتناق الدين المسيحى أو النفى ؛ فمن اليهود من خضع لهذا القرار ومنهم من أحرقوا أنفسهم فى معابدهم مفضلين هذا على الخضوع له . وواصل باسيل الأول Basil I (٨٦٧ — ٨٨٦) الحملة القاضية بإرغام اليهود على التعميد ؛ وطالب قسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩) اليهود بأن يقسموا أمام المحاكم المسيحية يميناً مذلة ظلت باقية فى أوربا حتى القرن التاسع عشر[١٤١] .

ولما دعا البابا إربان Urban الثانى إلى الحرب الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٥ ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا يهود أوربا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك فى أورشليم ؛ فلما قبل جدفرى البويونى Godfrey of Bouillon قيادة الحملة أعلن أنه سيثأر لدماء المسيح من اليهود ولن يترك واحداً منهم حياً ؛ وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لا يعتنق المسيحية من اليهود . وقام أحد الرهبان يثير حماسة المسيحيين أكثر من هذا فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس فى أورشليم يجعل تنصير جميع اليهود فريضة أخلاقية على جميع المسيحيين[١٤٢] . وكانت خطة الصليبيين أن يزحفوا جنوباً بمحاذاة نهر الرين حيث توجد أغنى

مواطن اليهود فى أوربا الشمالية ، وكان يهود ألمانيا قد اضطلعوا بدور رئيسى فى إنماء تجارة نهر الرين وانتهجوا خطة جيدة من الصلاح وضبط النفس أكسبتهم احترام المسيحيين عامتهم ورجال دينهم على السواء . وكان الأسقف رودجر الأسپيرى Rüdiger of Speyer ذا صلة وثيقة بيهود أبرشيته : وقطع لهم عهداً يضمن لهم استقلالهم وسلامتهم ؛ وأصدر الإمبراطور هنرى الرابع فى عام ١٠٩٥ عهداً مماثلا لهذا العهد لجميع اليهود المقيمين بمملكته(١٤٣) ؛ لذلك وقعت أنباء الحرب الصليبية ، والطريق الذى قررت اتباعه ، وتهديدات زعمائها ، وقع الصاعقة على تلك الجماعات اليهودية الآمنة المسالمة ، فتملكهم الرعب حتى شل تفكيرهم . ودعا أحبارهم إلى الصوم والصلاة عدة أيام .

ولما وصل الصليبيون إلى أسپير جروا أحد عشر يهودياً إلى إحدى الكنائس وأمروهم أن يقبلوا التعميد ، فلما أبوا قتلوهم عن آخرهم (٣ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ ولجأ غيرهم من يهود المدينة إلى الأسقف چوهنسن Johannsen . فلم يكتف هذا الأسقف بحمايتهم . بل أمر بقتل عدد من الصليبيين الذين اشتركوا فى مقتلة الكنيسة . ولما اقترب بعض الصليبيين من تريير Trier استغاث من فيها من اليهود بالأسقف إجلبرت Egilbert . فعرض عليهم أن يحميهم على شريطة أن يعمدوا ، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط ، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقين بأنفسهن فى نهر الموزل Moselle (أول يونية سنة ١٠٩٦) . وفى ميئز خبأ روثارد Ruthard كبير الأساقفة ١٣٠٠ يهودى فى سراديبه ؛ ولكن الصليبيين اقتحموها عليهم وقتلوا منهم ١٠١٤ ، واستطاع الأسقف أن ينقذ عدداً قليلا منهم بإخفائهم فى الكنيسة الكبرى (٢٧ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ وقبل التعميد أربعة من يهود ميئز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولونى Cologne . خبأ المسيحيون اليهود فى منازلهم ، وأحرق الغوغاء الحى اليهودى ، وقتلوا من وقع فى أيديهم من اليهود القلائل . فما كان من الأسقف هرمان

Hermann إلا أن نقل اليهود سراً من مخابئهم عند المسيحيين إلى منازل المسيحيين فى الريف وعرض بذلك حياته هو لأشد الأخطار . وكشف الحجاج الصليبيون هذه الحيلة ، وصادوا فريستهم فى القرى وقتلوا كل من عثروا عليه من اليهود (يونية سنة ١٠٩٦) وكان عدد من قتلوا فى إحدى القرى مائتى يهودى ؛ وحاصر الغوغاء اليهود فى أربع قرى أخرى ، فقتل اليهود بعضهم بعضاً ، مفضلين هذا على التعميد ؛ وذبحت الأمهات من ولدن من الأطفال فى أثناء هذه الاعتداءات وقت مولدهم . وفى وورمز أخذ الأسقف ألبرانشز Allebranches من استطاع أن يأخذهم من اليهود إلى قصره وأنقذ حياتهم ، أما من لم يستطع أخذهم فقد هاجمهم الصليبيون هجوماً خالياً من كل رحمة ، فقتلوا الكثيرين منهم ، ثم نهبوا بيوت اليهود وأحرقوها ، وفيها انتحر كثيرون من اليهود مفضلين الموت على ترك دينهم . ثم حاصرت جماعة من الغوغاء مسكن الأسقف بعد سبعة أيام ، وأبلغ الأسقف اليهود أنه لم يعد فى وسعه أن يصد أولئك الغوغاء ، وأشار عليهم بقبول التعميد ؛ وطلب إليه اليهود أن يتركوا وشأنهم لحظة قصيرة ، فلما عاد الأسقف وجدهم جميعاً إلا قليلا منهم قد قتل بعضهم بعضاً ، ثم اقتحم المحاصرون الدار وقتلوا الباقين أحياء ؛ وبلغ مجموع من قتل فى مذبحة وورمز (٢٠ أغسطس سنة ١٠٩٦) نحو ثمانمائة من اليهود . وحدثت مذابح مثلها فى متز Metz ورنجزبرج Regensburg وبراهة Prague[١٤٤] .

وأنذرت الحرب الصليبية الثانية بأنها ستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية ؛ فقد أشار بطرس المبجل Peter The Venerable ، القديس رئيس دير كلونى Cluny على لويس السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود الفرنسيين ، وقال له : « لست أطالبك بأن تقتل أولئك الخلائق الملاعين . . . لأن الله لا يريد محوهم من الوجود ، ولكنهم يجب أن يقاسوا أشد ألوان العذاب كما قاساه قابيل قاتل أخيه ، ثم يبقوا ليلاقوا هواناً أقسى من العذاب ، وعيشاً أمر من الموت »[١٤٥] .

واحتج سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St. Denis على هذا الفهم الخاطئ للمسيحية ، واكتفى لويس التاسع ، بفرض ضرائب باهظة على أغنياء اليهود ؛ غير أن اليهود الألمان لم يخرجوا من هذه المحن بالمصادرة وحدها ، فقد خرج راهب فرنسي يدعى رودلف من ديره بغير إذن ، وأخذ يدعو إلى ذبح اليهود فى ألمانيا . وفى كولونى قُتل شمعون « التقى » وبتّرت أطرافه ، وفى اسپير عذبت امرأة على العذراء لكى يقنعوها باعتناق المسيحية . وبذل الرؤساء الدينيون مرة أخرى كل ما فى وسعهم لحماية اليهود ، فأعطاهم الأسقف آرنلد أسقف كولونى قصراً حصيناً يجتمعون فيه وأجاز لهم أن يتسلحوا ؛ وامتنع الصليبيون عن مهاجمة الحصن ، ولكنهم قتلوا كل من فى أيديهم من اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية . وأدخل هنرى كبير أساقفة مينز فى بيته يهودا كان الغوغاء يطاردونهم ، ولكن الغوغاء اقتحموا البيت وقتلوهم أمام عينيه . واستغاث كبير الأساقفة بالقديس برنارد St. Bernard أعظم المسيحيين سلطاناً فى أيامه ، وأجاب برنارد بأن ندد برودلف تنديداً شديداً وطلب أن يوضع حد لأعمال العنف الموجهة إلى اليهود . ولما واصل رودلف حملته عليهم جاء برنارد بنفسه إلى ألمانيا وأرغم الراهب على العودة إلى الدير . ولما أن وجدت جثة أحد المسيحيين بعد ذلك بقليل مشوهة فى ورزبرج Wurzburg ، اتهم المسيحيون اليهود بأنهم هم الفاعلون ، وهاجموهم رغم احتجاج الأسقف أمبيكو Embicho وقتلوا عشرين منهم ، وعنى المسيحيون بكثيرين غيرهم أصابتهم جروح فى هذا العدوان (١١٤٧) ، ودفن الأسقف القتلى فى حديقته(١٤٦) . وعادت إلى فرنسا فكرة بدء الحرب الصليبية فى بلاد المسيحيين قبل انتقالها إلى الشرق ، وذبح اليهود فى كارنتان Carentan ، ورامرو Rameru ، وسلى Sully . وفى بوهيميا ذبح الصليبيون ١٥٠ يهودياً ؛ ولما أن انتهت موجة الذعر بذل رجال الدين المسيحيون المحليون كل ما فى وسعهم لمساعدة من بقوا أحياء من اليهود ؛ وأجيز لمن قبلوا التعميد مرغمين أن يعودوا إلى الدين

اليهودى ، دون أن توقع عليهم عقوبات الردة القاسية[١٤٧] .

وكانت هذه المذابح إيذانا بسلسلة من الهجمات الطويلة العنيفة لا تزال باقية إلى هذه الأيام . من ذلك أن حادثة قتل وقعت فى بادن Baden عام ١٢٣٥ ولم يعرف مرتكبها اتهم بها اليهود ، فأدى ذلك إلى مذبحة منهم ؛ وفى عام ١٢٤٣ حرق جميع اليهود سكان بلتز Beltz القريبة من برلين وهم أحياء بحجة أن بعضهم قد دنسوا خبزاً للتقدمة مقدساً[١٤٨] . وفى عام ١٢٨٣ أثيرت فى مينز فكرة ذبح أطفال المسيحيين فى بعض الشعائر اليهودية ، وقتل عشرة من اليهود ونهبت البيوت اليهودية على الرغم مما بذله ورنر كبير الأساقفة من جهود . وفى عام ١٢٨٥ أهاجت مثل هذه الشائعة أهل ميونخ Munich ، ولجأ ١٨٠ يهودياً إلى كنيس لهم ، فأشعل فيه الغوغاء النار ، واحترق المائة والثمانون بأجمعهم . وبعد عام من ذلك الوقت قتل أربعون يهوديا فى أبرويزل Oberwesel بحجة أنهم امتصوا دماء مسيحى ؛ وفى عام ١٢٩٨ حرق كل يهودى فى روتنجن Rottingen حتى قضى نحبه بحجة أن بعضهم قد دنس الخبز المقدس . ونظم رندفلشخ Rindfleisch وهو بارون متمسك بدينه جماعة من المسيحيين الذين أقسموا أن يقتلوا جميع اليهود وأمدهم بالسلاح . وأبادوا جميع الجالية اليهودية فى ورزبرج ، وذبحوا ٦٩٨ يهوديا فى نورمبرج Nuremberg ؛ ثم انتشرت موجة الاضطهاد فلم يمض إلا نصف عام حتى محى ١٤٠ كنيسا يهودياً[١٤٩] . وملأ اليأس بعد هذه الاعتداءات المتكررة قلوب يهود ألمانيا ، وكانوا قد أعادوا تنظيم جماعاتهم مراراً وتكراراً ، فغادرت أسر يهودية كثيرة مينز ، وورمز ، واسپير ، وغيرها من المدن الألمانية وهاجرت إلى فلسطين لتعيش فى بلاد المسلمين . وإذ كانت پولندا ولتوانيا تطلبان الهجرة إليها ، ولم تكن قد حدثت فيهما مذابح حتى ذلك الوقت ، فقد بدأت هجرة بطيئة من يهود بلاد الرين إلى بلاد الصقالبة فى شرق أوربا .

وأضحي اليهود فى إنجلترا تجاراً ورجال مال بعد أن حرم عليهم تملك الأرض والانضمام إلى نقابات الصناع . ومنهم من أثروا من الربا.وأصبحوا على بكرة أبيهم موضع الكراهية لأكله . وقد استعان الأشراف ملاك الأرض وأتباعهم على التسلح للحروب الصليبية بالمال المقترض من اليهود ، ورهنوا لهم فى نظير هذا المال ربع أرضهم ، واستشاط الزارع المسيحى غيظاً لرؤيته المرابين يثرون من كدحه . وحدث فى عام ١١٤٤ أن وجد الشاب وليم من أهل نردج Norwich قتيلا ، واتهم اليهود بقتله لاستعمال دمه ، وهوجم الحى اليهودى فى المدينة ونهب وأحرق(١٥٠) . وحمى الملك هنرى الثانى اليهود ، وحذا حذوه هنرى الثالث ، ولكنه جمع منهم ٤٢٢٫٠٠٠ جنيه ضرائب وقروضاً أخرى على رؤوس أموالهم فى سبع سنين . وحدثت فى الاحتفال بتتويج رتشرد الأول فى إنجلترا (١١٩٠) مشاحنة تافهة شجعها الأشراف الذين يريدون أن يتخلصوا مما عليهم من ديون لليهود(١٥١) ، فتطورت إلى مذبحة امتدت إلى لنكولن Lincoln ، واستامفورد Stamford ، ولن Linn . وقتل الغوغاء ٣٥٠ منهم فى مدينة يورك فى العام نفسه وكان يقودهم رتشرد ده ملابستيا Richard de Malabestia ، وكان مستغرقاً فى الدين لليهود . ثم قام مائة وخمسون من يهود يورك بتزعمهم الحبر توم طوب Tom Tob بقتل أنفسهم(١٥٢) . وفى عام ١٢١١ غادر ثلثمائة من أحبار اليهود إنجلترا وفرنسا ليبدءوا حياة جديدة فى فلسطين ، وبعد سبع سنين من ذلك العام هاجر كثيرون من اليهود حين نفذ هنرى الثالث أمر الشارة اليهودية . وفى عام ١٢٥٥ راجت شائعة فى أنحاء لنكولن تقول إن غلاماً يدعى هيو Hugh قد أغرى بدخول الحى اليهودى ، ثم جلد ، وصلب ، وطعن بحربة ، بحضور جمع من اليهود المبتهجين . وعلى أثر هذه الشائعة هاجمت عصابات مسلحة مقر اليهود ، وقبضت على الكوهن الذى قيل إنه كان على رأس الاحتفال ، وشدوه إلى ذيل جواد ، وجروه فى الشوارع ، ثم شنقوه . ثم قبض على واحد وتسعين

يهودياً وشنق منهم ثمانية عشر ، ونجا كثير من المسجونين بفضل تدخل جماعة من الرهبان الدمنيكيين البواسل(*)(١٥٤) .

وأفلتت الجماهير من أيدى ولاة الأمور فى أثناء الحرب الأهلية التى نشرت الاضطراب فى إنجلترا بين عامى ١٢٥٧ ، ١٢٦٧ ؛ وكادت المذابح أن تمحو من الوجود يهود لندن ، وكنتربرى Canterbury ، ونورثمبتن Northampton ، وونشستر Winchtester ، وورسستر Worcester ، ولنكولن ، وكيمبردج ، فنهبت بيوتهم ودمرت ، وأحرقت العقود ، والسفاتج ، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لايملكون شروى نقير(١٥٥) . وكان ملوك الإنجليز وقتئذ يقترضون المال من أصحاب المصارف المسيحيين فى فلورنس وكاهورس Cahors ، وأصبحوا فى غير حاجة إلى اليهود ، ومن ثم وجدوا أن من الصعب عليهم حمايتهم . ولهذا أمر إدورد الأول من كان باقياً فى إنجلترا من اليهود وكانوا حوالى ١٦٠٠٠ يهودى أن يغادروا البلاد قبل أول نوفمبر من ذلك العام ، وأن يتركوا وراءهم جميع أملاكهم الثابتة وما يمكن استرداده من الديون . وغرق الكثيرون منهم فى القناة الإنجليزية التى أرادوا أن يعبروها فى قوارب صغيرة ، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالهم ، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا أبلغتهم الحكومة الفرنسية أن عليهم أن يغادروا البلاد قبل بداية الصوم الكبير من عام ١٢٩١(١٥٦) .

وفى فرنسا أيضاً تبدلت الحالة النفسية بالنسبة لليهود حين قامت الحروب

(*) ولا تزال بكنيسة لنكولن آثار مزار أقيم فيها فى الماضى « لهيو الصغير » مصحوبة بالعبارة الآتية : « إن فى القصة حوادث كثيرة تلقى الشك على صحتها ، وإن وجود قصص مثلها فى إنجلترا وغيرها من البلاد ليدل على أن منشأها هو الحقد الناشئ من التعصب على اليهود فى العصور الوسطى ، والخرافة المنتشرة وقتئذ ، والتى لا يصدقها أحد قط فى هذه الأيام ، بأن قتل الأطفال كان من الشعائر الدينية فى عيد الفصح اليهودى . وقد قامت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر بمحاولات لحماية اليهود من كراهية الغوغاء ومن هذه التهم بنوع خاص » .

الدينية على الأتراك فى آسية ، والملاحدة الألبجنسيين Albigensian فى لنجويدك Languedoc . فقام الأساقفة يلقون الخطب الدينية المثيرة للنفوس ؛ وكان من الشعائر المعتادة فى بزيير أيام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحى اليهودى ؛ وأخيراً دعا أحد رجال الدين المسيحيين فى عام ١١٦٠ بالكف عن هذه المواعظ الدينية ، ولكنه طلب إلى الجالية اليهودية أن تؤدى ضريبة خاصة فى أحد السعف من كل عام(١٥٧) . وفى طلوشه (طولوز) أرغم اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة فى يوم الجمعة الحزينة من كل عام ليتلقى صفعة على أذنه لتكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيئتهم الأبدية(١٥٨) . وفى عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود فى بلوا Blois بحجة استخدامهم دماً مسيحيا فى شعائر عيد الفصح اليهودى(١٥٩) . ورأى الملك فليب أغسطس الفرصة سانحة ليبتز منهم المال محتجا بالدين ، فأمر بأن يسجن جميع من فى مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين(١٦٠) ، ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد أن افتدوا أنفسهم بمال كثير (١١٨٠) ، غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد ، وصادر جميع أملاكهم الثابتة ، وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفى عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهوديا فى أورنج Orange لأن ولاة الأمور فى المدينة شنقوا أحد عماله لقتله أحد اليهود(١٦١) ، ثم استدعى اليهود إلى فرنسا عام ١١٩٨ ونظم أعمالهم المصرفية تنظيما يضمن به لنفسه أرباحاً طائلة(١٦٢) . وفى عام ١٢٣٦ دخل الصليبيون المسيحيون الأحياء اليهودية فى أنجو Anjou وبواتو Poitou — وبخاصة ما كان منها فى بوردو Bordeaux وأنجوليم Angoulême — وأمروا بأن يعمد اليهود جميعاً ، فلما أبوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف منهم حتى قضوا نحبهم(١٦٣) . وندد البابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ، ولكنه لم ينج اليهود من الموت . وأشار القديس لويس على رعاياه بألا يجادلوا اليهود فى أمور الدين ، وقال لجوانفيل Joinville إن من واجب كل شخص من غير رجال الدين : « إذا سمع إنساناً يذكر الدين المسيحى بما لا يليق

أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه فى بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه(١٦٤) . وفى عام ١٢٥٤ نفى اليهود من فرنسا ، وصادر أملاكهم ومعابدهم ، ثم عاد فسمح بدخولهم إياها ، وردُّ إليهم معابدهم ، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فليب الجميل Philip the Fair (١٣٠٦) بسجنهم ، وصادر ما كان لهم من ديون ، وجميع ما كان لهم من متاع لم يستثن إلا ما كان عليهم من الثياب ، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من الطعام يوماً واحداً . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدراً أغراه بأن يهدى معبداً يهودياً إلى سائق عربته(١٦٥) .

وهكذا تجمعت طائفة متقاربة من الحوادث الدموية دامت نحو مائتى عام تكونت منها صورة ذات وجه واحد . ولم يقع على اليهود فى پروڤانس Provence ، وإيطاليا ، وصقلية ، والإمبراطورية البيزنطية بعد القرن التاسع إلا حوادث اضطهاد صغرى ، واستطاعوا وقاية أنفسهم منها بالالتجاء إلى أسپانيا المسيحية . وكانت فترات الطمأنينة حتى فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا طويلة ، وكان اليهود يكثرون مرة أخرى ويثرى بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم . غير أن قصصهم كانت تنقل إليها ما كان لهذه الفترات المحزنة من ذكريات مُرّة ، وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذى لا ينفك يهددهم ، وكان على كل يهودى أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه فى ساعة الاستشهاد(١٦٦) . وكانت حمى السعى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لابسو الشارة الصفراء يقابلون فى الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز فى نفوسها ويذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودّة ، ويترك فى أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود Judenschmerz التى تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات ألا ما أكثر من صلبوا انتقاما لحادث صلب وحيد !

الباب السابع عشر

عقل اليهودى وقلبه

٥٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

الأدب

لقد ظلت روح اليهودى يتنازعها عاملان هما اعتزامه أن يشق طريقه فى عالم معاد له وشغفه بثمار العقل . فالتاجر اليهودى عالم فقده العلم ؛ يحسد الرجل الذى نجا من حمى الثراء ، والذى شغف فى هدوء واطمئنان بحب العلم وضرب بسهم فى آفاق الحكمة ، ولكنه لا يحسده فحسب بل يكرمه كذلك . وشاهد ذلك أن التجار ورجال المصارف الذاهبين إلى أسواق ترويس Troyes ، كانوا يقفون فى طريقهم ليستمعوا إلى راشى العظيم وهو يشرح التلمود[1] . وبفضل هذه الروح ظل يهود العصور الوسطى وهم فى غمار المشاغل التجارية ، والفقر المذل ، والازدراء القاتل ، ظلوا ينتجون النحويين ، وفقهاء الدين ، والمتصوفة ، والشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ، ولم يضارعهم فى آدابهم الواسعة وثرائهم العقلى إلا المسلمون فيما بين ١١٥٠ و ١٢٠٠[2] . وكان مما يسر لهم أسباب هذا النبوغ أنهم يعيشون بين المسلمين أو على اتصال بهم ، وأن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية ، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثرى بأجمعه فى العصور الوسطى مفتوحاً أمامهم يغترفون من بحره الطامى فى العلوم والطب ، والفلسفة ، وبفضل وساطتهم أثاروا

عقل العالم الغربي المسيحي بما بثوا فيه من تفكير المسلمين .

وكان اليهود فى بلاد الإسلام يستخدمون اللغة العربية فى حديثهم ونثرهم المكتوب ، أما شعراؤهم فقد استمسكوا فى شعرهم باللغة العبرية ولكنهم استخدموا فيه الأوزان العربية والصور الشعرية ؛ وفى البلاد المسيحية كان اليهود يتحدثون بلغة الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها ، ويكتبون فى آدابهم ، ويعبدون يهوه بلسانهم القديم . وأخذ يهود أسبانيا بعد ابن ميمون يكتبون أدبهم باللغة العبرية بدل العربية بعد فرارهم من اضطهاد الموحدين . وقد استطاع اليهود بفضل جهود فقهاء لغتهم وإخلاصهم أن يحيوا اللغة العبرية من جديد ؛ وكان قد تعذر عليهم فهم نصوص العهد القديم لعدم وجود الحركات المستقلة وعلامات الترقيم فى اللغة العبرية ، ولكن علماءهم استطاعوا بعد دراسة دامت ثلاثة قرون أن يضعوا النص المسورتى Masoretic (الذى قدسته التقاليد) وذلك بإضافة علامات للحركات ، وإشارات للنبر ، وعلامات للترقيم ، وفواصل للشعر ، وشروح فى الهوامش ؛ وبفضل هذا العمل أصبح فى مقدور كل يهودى بعد ذلك الوقت أن يقرأ كتبه الدينية .

واضطرتهم هذه الدراسات إلى وضع النحو العبرى والمعجمات العبرية . ولفت شعر مناشة بن سروق (٩١٠ — ٩٧٠) وعلمه نظر حسداى بن شبروط ، فاستدعاه الوزير العظيم إلى قرطبة وشجعه على وضع قاموس لألفاظ الكتاب المقدس العبرية . ووضع يهوذا بن داود حيوج (حوالى عام ١٠٠٠ م) النحو العبرى على أساس علمى ، فى ثلاثة كتب باللغة العربية فى لغة الكتاب المقدس . وبزه فى هذا العمل تلميذه يونا بن جناح (٩٩٥ — ١٠٥٠) السرقسطى حين وضع بالعربية كتابه فى النقد الذى تقدم به النحو العبرى والمعجمات العبرية خطوات واسعة . ووضع يهوذا بن قريش علم فقه اللغات السامية المقارن بدراسته للغات العبرية ، والآرامية ، والعربية ؛ وتقدم أبراهام الفاسى (حوالى عام ٩٨٠) اليهودى

القرائى خطوة أخرى على هذا العمل بوضعه معجما أرجع فيه جميع ألفاظ كتاب العهد القديم إلى أصولها ورتبها على الحروف الأبجدية . وبز ناثان بن يحيل من علماء رومة (المتوفى عام ١١٦٠) سائر علماء المعاجم اليهود بوضعه معجما للتلمود . وفى نربونة ظل يوسف قمحى وولداه موسى وداود (١١٦٠ — ١٢٣٥) يعملون عدة أجيال فى هذه الميادين ؛ وظل مخلول أو موجز Michlol داود قروناً عدة المرجع المعترف به فى النحو العبرى ، وطالما أعان مترجمى الملك جيمس للكتاب المقدس(٣) . تلك كلها أسماء اخترناها من بين ألف اسم من أدباء اليهود .

وأفاد الشعر اليهودى من هذه الدراسات الواسعة فتحرر من الصيغ العربية ، وأنشأ أشكاله وموضوعاته الخاصة به ، وأنتج فى أسپانيا وحدها ثلاثة رجال يضارعون أى ثلاثة غيرهم من الأدباء المسلمين أو المسيحيين فى عصرهم . وأول هؤلاء الثلاثة هو سليمان بن جبيرول المعروف فى العالم المسيحى باسم الفيلسوف أفسبرون Avicebron . وقد هيأته مأساته الشخصية لأن يكون هو المعبر عن مشاعر إسرائيل . وكان مولد هذا « الشاعر بين الفلاسفة والفيلسوف بين الشعراء » على حد قول هينى فى مالقة حوالى عام ١٠٢١ . وتوفى أبواه وهو صغير السن فنشأ فى جو من الفقر نزع به إلى التفكير المكتئب . وأعجب بشعره يقوتيايل ابن حسان وهو رجل كان يشغل منصباً رفيعاً فى دولة — مدينة سرقسطة الإسلامية . وفى هذه المدينة وجد ابن جبيرول الحماية والمناعة إلى حين ، وأخذ يتغنى بمباهج الحياة . ولكن بعض أعداء الأمير قتلوا يقوتيايل فاضطر ابن جبيرول إلى الفرار من المدينة وظل عدة سنين يهيم على وجهه فى بلاد الأندلس الإسلامية ، فقيراً عليلا ، هزيلا إلى حد « يسهل معه على ذبابة أن تحملنى » . وأولاه صمويل بن نجدلا ، وهو شاعر مثله ، حمايته وآواه فى غرناطة وفيها كتب سليمان كتبه الفلسفية وخص الحكمة بشعره :

وكيف أتخلى عن الفلسفة ؟
لقد عقدت معها عهداً .
فهى أمى وأنا أعز أبنائها ؛
لقد طوقت عنقى بجواهرها . . . :
وستظل روحى تصبوا إلى
مراقيها السماوية ، ما دمت حيا . . .
ولن يقر لى قرار حتى أكشف منبعها(٥) :

وربما كان كبرياؤه قد أدى إلى الشقاق بينه وبين صمويل ؛ فعاد ، وهو لا يزال شاباً فى أخريات العقد الثالث من عمره ، إلى الفقر والتجوال ، حتى أذلت النكبات نفسه ، فهجر الفلسفة إلى الدين :

رباه ، ما الإنسان ؟ إنه جيفة دنسة تطؤها الأقدام .
إنه مخلوق كريه ، يفيض مكراً وخداعاً ،
إنه زهرة ذواية ، تذبل إذا مسها الحر(٦) .

وينجو شعره فى بعض الأحيان منحى عظمة المزامير المكتئبة الحزينة :
أنشر علينا السلام يا الله ،
وأسبغ علينا نعمتك السرمدية ؛
ولا تجعلنا ممن يحل عليهم غضبك ،
يا من نسكن إليه .
وسواء كنا نطوف بالأرض جيئة وذهاباً .
أو نقيم مكبلين بالأغلال فى المنفى الموحش .
فسنظل نجهر أينما ذهبنا قائلين .
هاهنا مجدك يا رباه(٧) .

وخير كتبه كلها هو كيثير ملخوت (التاج الملكى) الذى ينادى فيه بعظمة الله كما كانت قصائده الأول تنادى بعظمته هو :

أفر منك إليك لأجد
مكاناً ألجأ إليه ؛ وفى ظلك
أختبيء من غضبك
إلى أن تهدأ سورتك ،
وأتعلق بأسباب رحمتك
حتى تستمع إلىّ وترثى لى ،
ولن أفك قبضتى
حتى تهبط علىّ نعمتك[٨] .

وقد اجتمع فى أسرة ابن عزرا بغرناطة ما كان للثقافة اليهودية فى أسبانيا الإسلامية من ثراء متعدد المناحي : وكان يعقوب ابن عزرا يشغل منصباً رفيعاً تحت رياسة شمويل بن نجدلا فى بلاط الملك : وكان بيته ندوة للآداب والفلسفة ونبغ ثلاثة من أولاده الأربعة الذين نشأوا فى هذا الجو العلمى ؛ فكان إسحق شاعراً ، وعالماً طبيعياً ، ومتبحراً فى التلمود ؛ وكان موسى ابن عزرا (١٠٧٠ — ١١٣٩) عالماً وفيلسوفاً ، وكان أعظم شعراء اليهود قبل هلوى . وقد انتهت سعادة شبابه حين أحب بنت أخ له حسناء زوّجها أبوها إسحق أخوه الأكبر بأخيه الأصغر أبراهام . فما كان من موسى إلا أن هاجر من غرناطة ، وهام على وجهه فى بلاد نائية يغذى بالشعر عواطفه المكبوتة البائسة : « ألا فعيشى ، وإن كانت شفتاك يسيل منهما الشهد ليمتصه غيرى ، وتنفسى بالند يستنشقه سواى . وسأظل وفياً لك حتى تستعيد الأرض الباردة وديعتها ، وإن لم تكونى أنت وفية لى . إن قلبى ليطرب لغناء العندليب ، وإن كان المغنى يعلو على وينأى عنى »[٩] . ووجّه قيثارته آخر الأمر ، كما وجهها ابن جبيرول ، إلى الأغانى الدينية ، وأخذ ينشد مزامير من الاستسلام الصوفى .

وكان أبراهام بن مإبر بن عزرا — الذى يتعمّده براوننج Browning

المعبر عن فلسفة العصر الفكتورى — يمت بصلة القرابة البعيدة لموسى بن عزرا ، ولكنه كان من أصدقائه المقربين . وقد ولد فى طليطلة عام ١٠٩٣ ، وعرف فى شبابه الفقر والجوع ، ولكنه كان شديد التعطش إلى العلم فى كل ميادينه . وأخذ هو أيضاً يتنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن مهنة إلى مهنة ، ولازمه سوء الحظ فى كل مهنة وكل مدينة ، وقال فى هذا بسخرية اليهودى المريرة : « لو اتجرت فى الشمع لما غربت الشمس ، ولو بعت أكفان الموتى لعاش الناس إلى أبد الدهر » . وسافر إلى إيران مجتازاً مصر والعراق ، ولعله قد ذهب أيضاً إلى الهند ، ثم عاد إلى إيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، وانجلترا . وبينا كان عائداً إلى أسپانيا فى الخامسة والسبعين من عمره إذ وافته منيّته ، وكان لا يزال فقيراً ولكنه ذو شهرة واسعة بين اليهود أجمعين لبلاغة شعره ونثره . وكانت مؤلفاته لا تقل تنوعاً عن البلاد التى طاف بها — ألف فى العلوم الرياضية ، والفلكية ، وفى الفلسفة ، والدين ، وكانت قصائده تختلف من الحب إلى الصداقة ، ومن مناجاة الله إلى مناجاة الطبيعة ، والفصول ، ومن الحديث عن الشطرنج إلى التغنى بجمال النجوم . وقد صاغ فى صور شعرية أفكاراً لم يكن يخلو منها مكان ما فى عصر الإيمان ، واستبق نيومن Newman بهذه الترنيمة العبرية :

يا إله الأرض والسماء ، منك الروح والجسد !

لقد وهبت الإنسان بعظيم حكمتك ما فى الإنسان من ضياء قدسى . . .

إن أيامى بين يديك ، وأنت تعرف الخير لى

وتهبنى بقوّتك خير عون لى حيث أخشى الوقوف

وسترك يحجب عن العيون آثامى ورحمتك درعى الواقى

ولست تريد جزاء على نعمك وأفضالك(١٠)

وخير ما يشتهر به عند معاصريه هو تعليقه على كل كتاب من كتب العهد

القديم . وقد دافع عن صدق الكتب العبرية المقدسة ، وأنها موحى بها من عند الله ، ولكنه فسر العبارات الممجدة للخالق تفسيراً مجازياً . وكان أول من قال أن سفر إشعيا لم يكتبه نبي واحد بل كتبه اثنان من الأنبياء ؛ ويعده اسپنوزا واضع أساس النقد العقلي للكتاب المقدس(١١) .

وكان أعظم شعراء عصره على بكرة أبيهم يهودا هليڤي (١٠٨٦ — ١١٤٧) . وقد ولد في طليطلة بعد عام من استيلاء الفنسو السادس ملك قشتالة عليها . فنشأ فيها آمناً في كنف أعظم الملوك المسيحيين استنارة وتسامحاً في أيامه . وأعجب ابن عزرا بإحدى قصائده الأولى فدعاه إلى الإقامة معه في غرناطة ، حيث استضافه موسى وإسحق ابني عزرا في منزلها . وأخذ شعره ينتشر ونكاته تذيع في جميع الأوساط اليهودية في أسپانيا . وكان ينعكس على شعره مزاجه المرح ، وشبابه الموفق السعيد ؛ وأخذ يتغنى بالحب ، بكل ما عرف من الشعراء الجوالين المسلمين أو البروڤنساليين ، وبكل ما في نشيد الأنشاد من قوة ورنين : وقد حوت « حديقة بهجته » مقطوعة من الشعر الملتهب حماسة تعد أمرح الفقرات في هذه الطرفة الغزلية الرائعة :

ادن منها أيها الحبيب ، لِمَ تتوانى عن أن تطعم بين حدائقها ؟
انثن إلى مخدع الحب لتقطف سوسنها .
إن تفاحتي صدرها المحجوبتين ليفوح شذا عطرها ،
وهي تخبئ لك في قلائدها ثماراً شهية تتلألأ كالنور . . . .
ولولا قناعها ، لاستحت منها نجوم السماء(١٢)

وترك هليڤي ضيافة ابني عزرا وسخاءهما وذهب إلى أليسانة وواصل الدرس عدة سنين في المجمع العلمي اليهودي بهذه المدينة ؛ فدرس الطب ، وأصبح من الأطباء غير النابهين ؛ ثم أسس معهداً للغة العبرية في طليطلة وأخذ يحاضر فيه عن الكتاب المقدس . ثم تزوج وأنجب أربعة أبناء . فلما تقدمت به السن طغى

شعوره بما حل باليهود من نوائب على ما كان يرفل فيه من نعيم ، فأخذ يتغنى بشعبه ، وبأقرانه ، ودينه ؛ وكان يتوق كما يتوق غيره من اليهود لأن يختم حياته فى فلسطين :

أى مدينة الدنيا (أورشليم) يا ذات الجمال والجلال والكبرياء !
ليت لى جناحى نسر أطير بهما إليك حتى أبلل بدمعى ثراك !
إن قلبى فى الشرق ، وإن كنت مقيما فى الغرب[١٣] .

ولم يكن يهود أسبانيا المنعمون فيما يرون فى هذه الأشعار أكثر من ألفاظ مقفاة موزونة ، ولكن هليفى كان مخلصاً فى أقواله . فقد استودع أسرته فى أيد أمينة عام ١١٤١ م ، وبدأ رحلة شاقة إلى أورشليم . وأتت الرياح بمالا تشتهى سفينته فحولتها عن طريقها ودفعتها إلى الإسكندرية حيث استقبلته الجالية اليهودية ، ورجته ألا يجازف بالذهاب إلى أورشليم وكانت وقتئذ فى أيدى الصليبيين . وبعد أن أقام فى الإسكندرية وقتا ما غادرها إلى دمياط ومنها إلى صور ، ثم انتقل منها لسبب لا نعلمه إلى دمشق حيث اختفى ذكره من التاريخ . وتقول إحدى الأقاصيص أنه ذهب إلى أورشليم ، فلما وقعت عينه عليها أول ما وقعت خرّ راكعا ، وقبّل الأرض ، فداسته حوافز جواد يركبه أعرابى وقضت على حياته[١٤] . ولكننا لا نعرف هل وصل حقا إلى مدينة أحلامه ؛ وكل الذى نعلمه علم اليقين أنه كتب فى دمشق « أغنية لصهيون » ولعله كتبها فى آخر سنة من حياته ، وكان جوت الشاعر الألمانى يعدها من أعظم القصائد فى أدب العالم كله[١٥] :

ألا ترغبين يا صهيون فى أن تبعثى بتحياتك من صخورك المقدسة
إلى شعبك الأسير الذى يحييك لأنه البقية الباقية من أبنائك ؟ ...

ألا ما أجش صوتى وأنا أندب أحزانك ولكنى حين أبصر حريتك فى

أوهام أحلامى تنساب من صوتى النغمات حلوة شجية كنغمات القيثارة المعلقة على شاطئ نهر بابل . . . ألا ليتنى أستطيع أن أصب روحى حيث صبت روح الله فى أبنائك القديسين فى الأزمان السابقة ! لقد كنت منزل الملوك وعرش الله ، ولست أدرى كيف يحتل العبيد الآن العرش الذى جلس عليه أبناؤك من قبل ؟

• • •

منذا الذى يرشدنى للبحث عن الأماكن التى أطل منها الملائكة بجلالهم على رسلك وأنبيائك فى الأزمان القاصية ؟

ومنذا الذى يهب لى جناحين أطير بهما لأضع حطام قلبى بين خرائبك وأستريح من تجوالى ؟

سأولى وجهى نحو أرضك وأمسك بحجارتك أعتز بها كما يعتز الناس بالذهب الثمين . . .

إن هواءك يبعث الحياة فى نفسى ، وذرات ترابك هى المسك الشذى ، وأنهارك تفيض بالعسل المصفى

وما أعظم بهجتى إذا استطعت أن أجىء إلى معابدك المخربة عارياً حافى القدمين ! حيث احتفظ بالتابوت ، وحيث سكن الملائكة المكرمون فى المخابئ المظلمة . . .

يا صهيون يا ذات الجمال الذى ليس بعده جمال ، لقد اجتمع فيك الحب والبهاء ، إن أرواح أبنائك تتجه فى حنان نحوك ، وكانت أفراحك بهجتها ومسراتها ، وها هى ذى الآن تبكى فى منفاها البعيد أسى وحسرة على خرائبك ، وتتوق لرؤية مرتفعاتك المقدسة ، وتسجد فى صلواتها خاشعة نحو أبوابك ، إن

الرب ليحب أن يختارك لتكونى مسكنه الأبدى ، وطوبى لمن اختاره الرب وأنعم عليه بالراحة فى داخل أبهائك :

وما أسعد من يرقبك وهو يقترب منك حتى يرى أضواءك المجيدة تنتشر ، ومن يطلع عليه فجرك الوضاء كاملا صافياً من سماء المشرق :

وأسعد من هذا وذاك من يشهد بعينيه المتهللتين نعيم أبنائك المحررين ، ويرى شبابك يتجدد كعهدنا به فى قديم الزمان[١٦] .

الفصل الثانى

مغامرات التلمود

لقد بلغ رخاء يهود العصر الذهبى فى أسپانيا مبلغاً يمنعهم أن يكونوا شديدى التمسك بالدين كما كان شعراؤهم فى سنى الاضمحلال ؛ فقد كانوا يقرضون شعراً مطرباً ، حسياً ، رقيقاً ؛ وينطقون بفلسفة توفق فى ثقة بين الكتاب المقدس والتفكير اليونانى . ولقد ظل اليهود يزدادون رخاء حتى بعد أن طردهم الموحدون المتشددون فى دينهم من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أسپانيا المسيحية ؛ وازدهرت المجامع العلمية اليهودية فى ظل التسامح المسيحى فى طليطلة وبرشلونة خلال القرن الثالث عشر . لكن اليهود لم يكن حظهم فى فرنسا وألمانيا كما كان حظ يهود أسپانيا ؛ فقد كانوا يزدحمون فى أحيائهم الضيقة وهم وجلون ، ويبذلون خير مواهبهم فى دراسة التلمود ؛ ولم يكونوا يهتمون بتبرير عقائدهم للعالم غير المتدين ؛ ولم يشكوا قط فى أصوله ، بل انهمكوا فى دراسة الشريعة .

وأضحى المجمع العلمى الذى أنشأه جرشوم فى ميتز من أوسع المدارس نفوذاً فى ذلك العصر ، اجتمع فيه مئات من طلاب العلم واشتركوا مع جرشوم فى نشر نصوص التلمود وتوضيحها بعد أن ظلوا يكدحون فى هذا العمل جيلين من الزمان . وقام بمثل هذا العمل فى فرنسا الحاخام شلومو بن يصحق (١٠٤٠ — ١١٠٥) ، ويسميه بنو ملته راشى تدليلا له وقد أخذوا هذا الاسم من الحروف الأولى من لقبه واسمه . وقد ولد راشى فى تروى من أعمال شمپانيا ، وتعلم فى المدارس اليهودية فى ورمز ، وميتز ، واسپير ، ثم عاد إلى تروى وأخذ يعول أسرته ببيع الخمور ، ولكنه خص الكتاب المقدس والتلمود بكل ساعة من ساعات فراغه . وقد أنشأ مجمعاً علمياً فى تروى مع أنه لم يكن حاخاما رسمياً ، وظل يعلم فيه أربعين

سنة ، ووضع بالتدريج شروحا للعهد القديم والمشنا ، والجمارا ولم يحاول ، كما حاول بعض العلماء الأسبان ، أن يجد فى النصوص الدينية آراء فلسفية ، بل كل ما فعله أن فسر هذه النصوص تفسيراً اغترفه من بحر علمه الصافى الخضم ، بلغ من تقدير بنى دينه أن طبع هذا التفسير مع التلمود نفسه . وقد أكسبته طهارة حياته مضافة إلى تواضعه احترام شعبه فرفعوه إلى مقام القديسين ، وأخذت الجماعات اليهودية فى جميع أنحاء أوربا يرسلون إليه يستفتونه فى المسائل الدينية والشرعية ، وجعلوا لأجوبته الصفة القانونية . وأحزنته فى شيخوخته مذابح الحملة الصليبية الأولى . وواصل عمله بعد وفاته أحفاده شموئيل ، ويعقوب ، وإسحق أبناء مإير ، وكان يعقوب أول « التوسافيت » ، وظل علماء التلمود الفرنسيون والألمان خمسة أجيال من بعد وفاته يراجعون ويعدلون شروحه بما يضيفون إليها من توسافوت أو « إضافات » .

وما كاد التلمود يتم حتى أصدر جستنيان قراراً بتحريمه (٥٥٣) لأنه «خليط من الصغائر ، والخرافات ، والمظالم ، والإهانات ، والسباب ، والكفر ، والتجديف»(١٧) . ويلوح أن الكنيسة قد نسيت بعدئذ وجود التلمود ، ذلك أنه قلما كان يوجد من رجال الكنيسة اللاتينية من يستطيع قراءة اللغة العبرية أو الآرامية اللتين كتب بهما ، وظل اليهود سبعمائة عام كاملة يقرءون ويدرسون مجلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم — يقرءونه بجد يخيل إلينا معه أنهم قد نسوا معه الكتاب المقدس . لكن حدث فى عام ١٢٣٩ أن رفع نقولاس دونين Nicholas Donin ، وهو يهودى اعتنق المسيحية ، إلى البابا جريجورى التاسع معروضاً يتهم فيه التلمود بأنه يحتوى على إهانات فاضحة للمسيح والعذراء ، وتحريض على الغش والخداع فى معاملة المسيحيين . وما من شك فى أن بعض هذه التهم صحيح ، لأن جامعى الكتاب فى جدهم المتواصل قد عظموا التنائيم والأمورائم تعظيما جعلهم يضمون إلى الأجزاء الشعبية من الجمارا وفى أجزاء

متفرقة منها ملاحظات يرد بها الأحبار الغضاب على نقد المسيحيين للدين اليهودى[١٨] . ولكن دونين ، وقد صار أكثر مسيحية من البابا نفسه ، أضاف من عنده عدة تهم أخرى ، لايمكن إثباتها : منها أن التلمود يجيز غش المسيحى ، ويحبذ قتله ، مهما بلغ من صلاحه ؛ وأن أحبار اليهود يجيزون لهم أن ينكثوا عهودهم التى أقسموا على الوفاء بها ، وأن يقتلوا كل مسيحى يدرس الشريعة اليهودية . فما كان من جريجورى إلا أن أمر بأن يرسل إلى الرهبان الدومنيك أو الفرنسيس كل ما يمكن العثور عليه من نسخ التلمود فى فرنسا ، وإنجلترا ، وأسبانيا ، ثم أمر أولئك الرهبان بأن يفحصوا تلك الكتب بدقة وعناية ، فإذا تبينوا أن هذه التهم صحيحة فليحرقوها . ولم نعثر فيما وصل إلينا من المعلومات المسجلة على ما حدث بعد هذا الأمر ، ولكننا نعرف أن لويس التاسع أمر يهود فرنسا بأن يسلموا كل ما لديهم من نسخ التلمود وإلا كان جزاؤهم الإعدام ، ثم استدعى أربعة من أحبارهم إلى باريس ليدافعوا عن الكتاب فى نقاش علنى أمام الملك ، والملكة بلانش Blanche ، ودونين ، واثنين من الفلاسفة المدرسيين — وليم الأوفرنى William of Auvergne ، وألبرتس مجنس Albertus Magnus[١٩] . ودام البحث ثلاثة أيام أمر بعدها الملك أن تحرق جميع نسخ التلمود (١٢٤٠) ؛ وشفع ولتر كرنوتس Walter Cornutus كبير أساقفة سان Sens لليهود فأمر الملك بإعادة كثير من نسخ التلمود إلى أصحابها ؛ فلما مات كبير الأساقفة بعد ذلك بقليل اعتقد بعض الرهبان أن موته هو حكم الله على لين الملك . واقتنع الملك برأيهم هذا فأمر بمصادرة جميع نسخ التلمود ، فجيء بها إلى باريس محملة على أربع وعشرين عربة وألقيت فى النار (١٢٤٢) . ثم صدر أمر بابوى فى عام ١٢٤٨ يحرم تملك التلمود فى فرنسا ، وضعفت بعد ذلك دراسة التلمود والآداب العبرية فى جميع أنحاء فرنسا عدا پرڤانس .

وحدث مثل هذا النقاش فى برشلونة عام ١٢٦٣ ؛ ذلك أن ريمند الپنيافورتى

Rayond of Penafort وهو راهب دومنيكي يشرف على محكمة التفتيش في أرغونة وقشتالة أخذ على عاتقه أن ينصر يهود هاتين المقاطعتين . وأراد أن يعد واعظيه لهذا الغرض فنظم دراسات فى اللغة العبرية فى معاهد اللاهوت بأسبانيا المسيحية ، وساعده فى هـــذا يهودى متنصر يدعى پول المسيحى Paul the Christian ، وأمدا فيما بينهما ريمند بكثير من المعلومات عن الدينين المسيحى واليهودى فنظم الراهب نقاشاً بين پول والحاخام موسى بن نحمان الجيرونى أمام چيمس الأول ملك أرغونة . وجاء ابن نحمان إلى النقاش على كره منه ، لأنه كان يخشى النصر بقدر ما كان يخشى الهزيمة . ودام الجدل أربعة أيام كان الملك فى أثنائها مبتهجاً ، ويبدو أن الطرفين قد حافظا على آداب المناظرة . وفى عام ١٢٦٤ أمرت لجنة دينية بجمع كل ما فى أرغونة من نسخ التلمود ، ومحت كل ما فيها من فقرات تطعن فى الدين المسيحى ثم ردت الكتب إلى أصحابها(٢٠) ؛ وتحدث ابن نحمان عن الدين المسيحى فى تقريره الذى كتبه للمعابد اليهودية فى أرغونة يصف فيه المناظرة بعبارات خيل إلى ريمند أن فيها طعناً شديداً على هذا الدين(٢١) ؛ فاحتج الراهب لدى الملك على هذا العمل ، ولكن چيمس لم يحرك ساكناً إلا عام ١٢٦٦ حين خضع لإلحاح البابا فنفى ابن نحمان من أسبانيا . وتوفى ذلك الحبر فى فلسطين بعد عام من نفيه .

الفصل الثالث

العلوم عند اليهود

تكاد العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود أن تنحصر كلها فى بلاد الإسلام ؛ ذلك أن المقيمين فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى كانوا بمعزل عن جيرانهم معرضين للاحتقار وإن كانوا متأثرين بأولئك الجيران ، ولهذا لجأوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجىء مسيح ينقذهم مما هم فيه . وتلك كلها ظروف هى أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم . غير أن الدين اليهودى كان يشجع على دراسة الفلك ، لأن تحديد أيام الأعياد تحديداً دقيقاً إنما يعتمد على هذه الدراسة . وبفضل هذه الدراسة استبدل علماء الهيئة اليهود فى بابل فى القرن السادس التقديرات الفلكية بالأرصاد المباشرة للقبة السماوية . وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس ، والشهور على أوجه القمر ؛ وسموا الشهور بأسماء بابلية ، وجعلوا بعض الشهور « كاملة » عدة كل منها ثلاثون يوماً ، وبعضها « ناقصة » عدة كل منها تسعة وعشرون ، ثم وفقوا بين التقويمين القمرى والشمسى بإضافة شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثالثة ، وسادسة ، وثامنة ، وحادية عشرة ، ورابعة عشرة ، وسابعة عشرة ، وتاسعة عشرة فى كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً . وكان يهود فى الشرق يؤرخون الحوادث على أساس التقويم السلوقى الذى يبدأ فى عام ٣١٢ ق . م . أما فى أوربا فقد اتخذوا فى القرن التاسع « التاريخ اليهودى » الحالى المعروف باسم « سنة العالم Anno mundi والذى يبدأ بتاريخ خلق الدنيا كما يظنون فى عام ٣٧٦١ ق . م . وبهذا كله أصبح التقويم اليهودى لا يقل سخفاً وقدسية عن تقويمنا نحن(*) .

(*) يريد التقويم المسيحى . (المترجم)

وكان من أوائل علماء الهيئة اليهود فى بلاد الإسلام العالم ما شاء الله (المتوفى حوالى عام ٨١٥) . وقد ترجم چيرار القريمونى Gerard of Cremona كتابه فى الفلك من العربية إلى اللاتينية واستقبل أحسن استقبال العالم المسيحى : ورسالته فى الأثمان هى أقدم مؤلف علمى موجود الآن باللغة العربية : وكانت أعظم رسالة فى العلوم الرياضية فى ذلك العصر(٢٢) هى رسالة أبراهام بن حيا البرشلونى (١٠٦٥ — ١١٣٦) فى الجبر ، والهندسة ، وحساب المثلثات وهى المعروفة باسم هيورها مشيحه . وقد ألف أيضاً موسوعة مفقودة فى علوم الرياضة ، والهيئة ، والبصريات ، والموسيقى ، كما ألف فى التقويم أقدم رسالة باللغة العبرية باقية إلى الآن . ولم يجد أبراهام ابن عزرا ، فى الجيل التالى ، تعارضاً بين كتابة الشعر ، والتبحر فى التحليل التركيبى . وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية باللغة العبرية لا العربية . وبفضل هذه الكتب ، وفيض من الكتب الأخرى التى ترجمت من العربية إلى العبرية غزت العلوم والفلسفة الإسلامية المجتمعات اليهودية فى أوربا ووسعت نطاق حياتها الذهنيـــة إلى ما وراء المعارف الدينية الخالصة .

وأفاد يهود ذلك العهد إلى حد ما من علوم المسلمين الطبيعية ، وإن كانوا قد عادوا أيضاً إلى تقاليدهم القديمة الخاصة بفن العلاج ، فكتبوا عدة رسائل قيمة فى الطب ، وأصبحوا هم أعظم الأطباء إجلالا فى أوربا المسيحية . ولقد ذاعت شهرة إسحق إسرائيلى (٨٥٥ — ٩٥٥ ؟) فى طب العيون بمصر ذيوعاً عين بسببه الطبيب الخاص للأغالبة فى القيروان . وكانت مؤلفاته الطبية ، بعد أن ترجمت من العربية إلى العبرية واللاتينية ، تعد أهم المراجع الطبية فى أوربا بأجمعها ، وكانت تستعمل كتباً للدراسة فى سالرنو . وباريس ، ونقل عنها بيرتن Burton ، بعد حياة دامت سبعمائة عام : فيما كتبه عن تشريح السوداء (١٦٢١) . وتصف الروايات المتواترة إسحق بأنه لم يكن يأبه بالمال ، وبأنه عازب عنيد فى

عزوبته ، وبأنه عاش مائة عام كاملة . وأكبر الظن أنه كان من معاصريه آساف ها يهودى ، وهو المؤلف الخامل الذكر لمخطوط كشف منذ وقت قريب ، ويعد أقدم مؤلف طبى باللغة العبرية باق إلى الآن من الزمن القديم ؛ ويشتهر هذا الكتاب بما جاء فيه من أن الدم يجرى من الشرايين إلى الأوردة ؛ ولو أنه طافت بعقله وظيفة القلب لاستبق بذلك هارف Harvey [٢٣] إلى كشف الدورة الدموية بأكملها :

وسيطر على فن الطب فى مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها (١١٦٥) الأطباء اليهود والمؤلفات اليهودية : فكتب أبو الفداء عن علماء القاهرة أهم رسالة فى الرمد فى القرن الثانى عشر ، وألف الكوهين العطار (١٢٧٥ ؟) كتاباً فى الأقراباذين لا يزال يستعمل حتى الآن فى العالم الإسلامى : وكان الأطباء اليهود فى جنوبى إيطاليا وفى صقلية إحدى المسالك التى انتقل بها الطب العربى إلى سالرنو . ذلك أن شباتاى بن أبراهام (٩١٣ — ٩٧٠) المعروف باسم ونولو والمولود أترانتو وقع أسيراً فى يد المسلمين ، فدرس الطب العربى فى پالرم ، ثم عاد ليمارس مهنته فى إيطاليا . ودرس بنفنوتس جراسس ، أحد يهود أورشليم ، فى سالرنو ، وأخذ يعلم فيها وفى منپلييه وكتب رسالة فى طب العيون (١٢٥٠ ؟) كان العالم الإسلامى والعالم المسيحى على السواء يريانها أهم رسالة فى أمراض العين : وقد اختيرت هذه الرسالة بعد ٢٢٤ عاما من نشرها أول كتاب يطبع فى موضوعها .

وكانت مدارس الأحبار اليهود وبخاصة فى جنوبى فرنسا تدرس منهاجا فى الطب ، وكان من بين الأغراض التى تبتغيها من هذه الدراسة أن تمكن رجال الدين من كسب المال من غير طريق الدين . وقد ساعد الأطباء اليهود الذين تدربوا فى منپلييه على إقامة مدرسة منپلييه الطبية الشهيرة ؛ ولما عين يهودى مديرا لتلك الكلية فى عام ١٣٠٠ جر ذلك على الشعب اليهودى حقد الأطباء فى جامعة

باريس ، واضطرت جامعة منپلييه أن تغلق أبوابها فى وجه اليهود (١٣٠١) ونفى الأطباء العبرانيون فيمن نفى من اليهود من فرنسا فى عام ١٣٠٦ . غير أن الطب المسيحى كان فى ذلك الوقت قد حدث به انقلاب عظيم بتأثير الأطباء اليهود والمسلمين وما ضربوه لغيرهم من مثل طيبة . ذلك أن الأطباء الساميين كانوا قد نبذوا من زمن بعيد النظرية التى تقول إن المرض ينشأ من حلول الشياطين بالجسم ، وكان نجاح تشخيصهم للمرض تشخيصا قائما على العقل وعلاجهم إياه قد أضعف إيمان الناس بقوة مخلفات الأولياء والصالحين وغيرها من وسائل العلاج المبنية على خوارق الطبيعة .

وكان من أصعب الأشياء على الرهبان والقساوسة الذين تضم أديرتهم وكنائسهم تلك المخلفات والتى تجتذب إليها الحجاج أن يرضوا بهذا الانقلاب ، فحرمت الكنيسة استقبال الأطباء اليهود فى داخل بيوت المسيحيين ، فقد كانت ترتاب فى أن طب هؤلاء الناس أقوى من عقيدتهم ، وكانت تخشى تأثيرهم فى العقول المريضة . وفى عام ١٢٤٦ حرم مجلس بزيير على المسيحيين استخدام أطباء يهود ؛ وفى عام ١٢٦٧ حرم مجلس ڤينا على الأطباء اليهود أن يعالجوا مسيحيين ؛ غير أن هذه الأوامر وأمثالها لم تمنع بعض كبار المسيحيين من الانتفاع بمهارة اليهود ؛ مثال ذلك أن البابا بنيفاس Boniface الثامن حين مرض بعينيه استدعى لعلاجه إسحق بن مردخاى [٢٤] ؛ وكان ريمند للى Raymond Lullys يشكو من أن بكل دير طبيبا يهوديا ، وهال مبعوث بابوى أن يجد أن هذه هى الحال أيضا فى كثير من أديرة النساء ؛ وكذلك ظل ملوك أسبانيا المسيحيون يستمتعون بعناية الأطباء اليهود حتى أيام فرديناند وإزبلا ؛ وكتب ششت بنڤنيست Sheshet Benveniste البرشلونى طبيب جيمس الأول ملك أرغونة (١٢٣١ — ١٢٧٦) أهم رسالة فى أمراض النساء فى زمانه ؛ ولم يفقد اليهود زعامتهم الطبية فى البلاد المسيحية إلا بعد أن استخدمت الجامعات المسيحية فى القرن الثالث عشر الأساليب الطبية القائمة على العقل .

ولم يفد علم الجغرافية إلا قليلا من الشعب اليهودى ، وكان من حقه أن يفيد منه لسعة انتشاره وكثرة تنقله . بيد أن اثنين من اليهود كانا أعظم الرحالة فى القرن الثانى عشر . وهذان هما پتاحيا الراتسبونى Petschya of Ratisbcn وبنيمين التطيلى ، وقد كتبا قصصاً عبرية قيمة عن رحلاتهما فى أوربا والشرق الأدنى . فقد غادر بنيمين سرقسطة فى عام ١١٦٠ ، وطاف على مهل ببرشلونة ، ومرسيلية ، وچنوا ، وپيزا ، ورومة ، وسالرنو ، وبرنديزى ، وأترنتو ، وكورفو ، والقسطنطينية ، والجزائر الإيچية ، وأنطاكية ، وكل مدينة هامة فى فلسطين ، وبعلبك ، ودمشق ، وبغداد ، وبلاد الفرس . ثم عاد بطريق البحر مجتازاً المحيط الهندى ، والبحر الأحمر إلى مصر . وصقلية ، وإيطاليا ومنها براً إلى أسپانيا . ووصل إلى موطنه فى عام ١١٧٣ حيث مات بعد قليل . وكان أكثر ما يهتم به هو الجماعات اليهودية ولكنه وصف المظاهر الجغرافية لكل بلد مر به والخصائص الجنسية لسكانه وصفاً يمتاز بكثير من الدقة والموضوعية . وقصته أقل طرافة ومتعة من قصص ماركو پولو التى كتبها بعد مائة عام من ذلك الوقت ، ولكنها فى أغلب الظن أقرب منها إلى الحقيقة . وقد ترجمت هذه الرحلة إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً ، ولاتزال إلى يومنا هذا من الكتب المحببة إلى اليهود[٢٥].

الفصل الرابع

نشأة الفلسفة اليهودية

حياة العقل مزيج من قوتين أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة . والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم . وتكون إرادة الإيمان هي المسيطرة على العقل فى عهود الفقر والفوضى لأن الشجاعة فى تلك العصور هي كل ما يحتاجه الناس ، أما فى عهود الثراء فإن القوى الذهنية تبرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرق والتقدم ؛ وعلى هذا فإن الحضارة فى انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بين العقل والإيمان ، « والصراع بين العلم والدين » . وفى هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على التوفيق بين الاضداد وإيجاد سلام وسط لأن وظيفتها هي أن ترى الحياة فى كليتها ؛ ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين . وفى عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل ، تميل الفلسفة إلى الدين ، وتستخدم العقل فى الدفاع عن الإيمان ، وتصبح ديناً متنكراً . وإذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة التى اقتسمت فيما بينها حضارة البيض فى العصور الوسطى رأينا ذلك القول أقل انطباقاً على المسلمين أكثر الناس ثراء ، ورأيناه أكثر انطباقا على المسيحيين وهم أقل من المسلمين ثراء ، وأشد ما يكون انطباقاً على اليهود أقل أصحاب الأديان الثلاثة ثراء . وأكثر ما ابتعدت الفلسفة اليهودية عن الدين عند اليهود الأثرياء فى بلاد الأندلس الإسلامية .

وللفلسفة الإسلامية فى العصور الوسطى مصدران هما الدين العبرانى ، والتفكير الإسلامى . وكانت كثرة المفكرين اليهود ترى أن الدين والفلسفة متشابهان فى محتوياتهما ونتيجتهما ، وأن كل ما يختلفان فيه هو الوسيلة والصورة : فالذى يعلمه الدين بوصفه عقيدة موحى بها من عند الله تعلمه الفلسفة على أنه حقيقة يثبتها

العقل ؛ وقد قام معظم المفكرين اليهود من سعديا إلى ابن ميمون بهذه المحاولة فى بيئة إسلامية ، وأخذوا معلوماتهم عن الفلسفة اليونانية من التراجم العربية ، ومن شروح المسلمين ؛ وكتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء . وكما أن الأشعرى وجه سلاح العقل ضد المعتزلة ، وأنقذ بذلك العقيدة السنية فى الإسلام ، كذلك فعل سعديا الذى غادر مصر إلى بابل فى نفس العام (٩١٥) حين تحول الأشعرى من الشك إلى اليقين ، وأنقذ الدين العبرانى بطول جداله ومهارته فيه ، ولم يستخدم سعديا أساليب المتكلمين المسلمين فحسب ، بل استخدم كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها(٣٦) .

وكان لانتصار سعديا من الأثر فى الدين اليهودى ببلاد المشرق ، ما كان لانتصار الغزالى فى الإسلام ببلاد الشرق ، فقد عمل هذا الانتصار ، مضافاً إلى الاضطراب السياسى والاضمحلال الاقتصادى ، على خنق روح الفلسفة العبرانية فى الشرق . وكملت القصة فى أفريقية وأسپانيا ، ففى القيروان وجد إسحق إسرائيلى بين مشاغله فى الطب والكتابة متسعاً من الوقت يؤلف فيه كتباً فلسفية ذات تأثير كبير . فقد وضع رسالة فى التعاريف أفاد منها منطق المدرسيين مصطلحات جمة ، وعرّفت رسالته فى العناصر التفكير العبرانى بكتاب أرسطو فى الطبيعة ، وأحل كتابه فى النفس والروح نظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلهى التقدمى من الله إلى العالم المادى ، أحل هذه النظرية محل قصة الخلق كما وردت فى سفر التكوين ؛ وكان هذا من مصادر القبّلة اليهودية .

وكان أثر ابن جبيرول فيلسوفاً أكبر من أثره شاعراً . ولقد كان من الطرف التاريخية أن المدرسيين كانوا ينقلون أقواله فى هالة من الإجلال والتقدير ويسمونه أفسبرون ويحسبونه مسلماً أو مسيحياً . ولم يعرف الناس أن ابن جبيرول وأفسبرون رجل واحد إلا حين كشف ذلك سلومون منك Salomon Munk فى عام ١٨٤٦(٢٧) . وكاد ابن جبيرول نفسه أن يهيئ الناس لهذا الخلط إذ حاول

أن يكتب الفلسفة بعبارات بعيدة كل البعد عن الدين اليهودى . فقد أخذ كل مقتبساته فى مجموعة أمثاله المسماه مختار اللآلى من مصادر غير يهودية إذا استثنينا عدداً قليلا من هذه المقتبسات ، وإن كانت القصص الشعبية اليهودية تحتوى على ثروة كبيرة من الحكم القوية التى تعد من جوامع الكلم . ومن هذه اللآلئ لؤلؤة كنفوشية إلى أبعد حد : «كيف يستطيع الإنسان أن يثأر من عدوه ؟ بزيادة صفاته الطيبة »(٢٨) . وتكاد هذه الحكمة أن تكون خلاصة رسالته فى إصلاح الصفات الخلقية التى ألفها ابن جبيرول كما يلوح وهو فى سن الرابعة والعشرين حين تكون الفلسفة موضوعاً غير لائق بالإنسان . وقد اشتق الشاعر الشاب بأساليب فى الاشتقاق اصطناعية جميع الفضائل والرذائل من الحواس الخمس ، فأدى به هذا إلى نتائج غاية فى السخف . ولكن الذى يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع فى عصر الإيمان قانوناً للأخلاق لا يعتمد على العقيدة الدينية(٢٩) .

وبهذه الجرأة عينها امتنع جبيرول عن أن يقتبس فى أهم كتبه كلها وهو كتاب « مقور حايم » من الكتاب المقدس ، أو التلمود ، أو القرآن . وكان هذا البعد عن القومية هو الذى جعل الكتاب بغيضاً لأحبار اليهود ، كما جعله فى ترجمته اللاتينية المسماة « منبع الحياة Fous Vitae » عظيم الأثر فى العالم المسيحى . وقد قبل ابن جبيرول فى هذا الكتاب أصول الأفلاطونية الحديثة التى تسرى فى الفلسفة الإسلامية كلها ، ولكنه فرض على هذه الأصول الفلسفية مبدأ الاختيار الذى يؤكد عمل الإرادة عند الله والإنسان . ويقول ابن جبيرول فى كتابه إن علينا أن نفترض وجود الله بوصفه الهيولى الأول ، والجوهر الأول ، والإرادة الأولى إذا شئنا أن نفهم وجود الحركة فى أى شىء على الإطلاق ، ولكننا لا نستطيع قط معرفة صفات الله . ولم يخلق الله الكون فى زمان معين ، بل هو ينساب فى فيض متصل متدرج من ذات الله . وكل شىء فى الكون ، ما عدا

الله وحده يتكون من مادة وصورة ، وهما تظهران مجتمعتين على الدوام ، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى إلا فى الفكر وحده[٣٠]. وقد رفض أحبار اليهود هذه الآراء الكونية الشبيهة بآراء ابن سينا ، وقالوا إنها هى المادية المقنعة ، ولكن الكسندر الهاليسى Alexander of Hales ، والقديس بونافنتور St. Bonaventure ودنز اسكوتس Duns Scotus قبلوا فكرة كونية المادة تحت سيطرة الله وأوّلية الإرادة . وقال وليم الأوفرونى عن ابن جبيرول إنه « أنبل الفلاسفة أجمعين » ، وظنه مسيحياً صالحاً .

أما يهودا هليفى فقد رفض كل تفكير فلسفى وقال عنه إنه من عبث العقل ، وكان يخشى كما يخشى الغزالى أن تقوض الفلسفة دعائم الدين ؛ وليس هذا لأنها تشك فى عقائده ، أو لأنها فوق ذلك تتجاهله ، أو أنها تفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فحسب ، بل لأنها فوق هذا وأكثر منه تستبدل الجدل بالخشوع والإيمان . وقد قاوم هذا الشاعر غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودى ، وتسرُّب الآراء الإسلامية إلى اليهود ، وهجمات اليهود القرائين المتواصلة على التلمود ، نقول قاوم الشاعر هذا كله بتأليف كتاب فى الفلسفة يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها ، ونعنى به كتاب الخزرى (١١٤٠ ؟) الذى عرض فيه آراءه فى صورة قصة شبيهة بالمسرحيات تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين اليهودى . وكان من حسن حظ هليفى أن الكتاب قد استخدمت فيه الحروف العبرية وإن كان قد كتب باللغة العربية ، وبذلك لم يقرؤه غير اليهود المتعلمين ؛ ذلك أن القصة تجمع أمام الملك أسقفاً ، وملاً ، وكوهنا ؛ ثم تتخلص من الإسلام والمسيحية بعد قليل . فحين يقتبس المسلم والمسيحى من كتاب اليهود المقدس ويقران أنه كلام الله يصرفهما الملك ويستبقى الكوهن اليهودى ، ويصبح معظم الكتاب حديثاً للكوهن يعلم فيه ملكا مطواعا مختتناً أصول الدين اليهودى وشعائره . ويقول التلميذ الملكى لمعلمه : « لم يجد جديد منذ نزل دينكم اللهم

إلا تفاصيل عن الجنة والنار »[٣١] . ويشجع هذا القول الكوهن فيقول إن اللغة العبرية لغة الله ، وإن الله لم يتحدث بنفسه إلا لليهود ، وإن أنبياء اليهود وحدهم هم الملهمون من عند الله ويسخر هليفي من الفلاسفة الذين ينادون بتفوق العقل ويخضعون الله والسموات لقياسهم المنطقي ومقولاتهم ، مع أن العقل البشرى لايعدو أن يكون جزءاً من عالم المخلوقات المعقد وهو جزء هش متناه فى الصغر . . والعاقل (وليس حتما أن يكون متعلماً) هو الذى يقر بضعف العقل وعجزه عن إدراك الشئون غير الدنيوية ، ويستمسك بالعقيدة التى جاءه بها الكتاب المقدس ، ويؤمن ويصلى ببساطة الطفل[٣٢] .

ولكن افتتان الناس بالعقل قد بقى على الرغم من هليفى ، وظلت آراء أرسطو تغزو الدين اليهودى . فلقد كان أبراهام بن داود (١١١٠ — ١١٨٠) مستمسكا بدينه استمساك هليفى ، يدافع عن التلمود ضد اليهود القرائين ويقص بكبرياء وفخار تاريخ الملوك اليهود فى الدولة الثانية ، ولكنه كان يتطلع ، كما تطلع العدد الذى يخطئه الحصر من المسيحيين ، والمسلمين ، واليهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلى استخدام الفلسفة لإثبات أصول دينه . وقد ولد كما ولد هليفى فى طليطلة ، وكان يكسب عيشه من مهنة الطب . وقد رد على هليفى فى كتابه العربى كتاب العقيدة الرفيعة بمثل ما رد به أكويناس فيما بعد على أعداء الفلسفة المسيحيين ، فقال إن الدفاع السلمى عن الدين ضد غير المؤمنين يتطلب المحاجة المنطقية ، ولا يمكن أن نعتمد هذا الدفاع على الإيمان بهذا الدين ، وقد فعل ابن داود ما فعله ابن رشد بعده بزمن قليل (١١٢٦ — ١١٩٨) ، وما فعله ابن ميمون بعده بجيل من الزمان (١١٣٥ — ١٢٠٤) ؛ والقديس تومس أكويناس بعده بمائة عام (١٢٢٤ — ١٢٧٤) ، فبذل كل ما وسعه من جد للتوفيق بين دين آبائه وبين فلسفة أرسطو . ولو أن الفيلسوف اليونانى شهد ذلك لسره أن يتلقى هذه التحية الثلاثية ، أو أن يعرف أن الفلسفة اليهودية لم تعرفه

إلا من ملخصات الفارابى وابن سينا اللذين لم يعرفاه إلا عن طريق الترجمة المشوهة والأفلاطونية الحديثة المزورة . وكان ابن داود أكثر من القديس تومس إخلاصاً لمصدرهما الأرسطاطيلي المشترك فقال كما قال ابن رشد إن النفس الكلية وحدها ، لا النفس الفردية ، هى الخالدة[٣٣] . وهنا كان يحق لهليفى أن يشكو من أن أرسطو قد انتصر على التلمود ، .فلقد بدأت الفلسفة اليهودية ، كما بدأت فلسفة العصور الوسطى بوجه عام ، بالأفلاطونية الحديثة وبالتقوى ، وها هى ذى تبلغ ذروتها بفلسفة أرسطو وبالشك . وسيبدأ ابن ميمون فلسفته من هذا الموقف الأرسطاطيلي الذى وقفه ابن داود ، ويواجه فى شجاعة ومهارة جميع مشكلات العقل فى صراعه مع الدين .

الفصل الخامس

ابن ميمون ١١٣٥ - ١٢٠٤

ولد أعظم عظماء اليهود فى العصور الوسطى بمدينة قرطبة لأب من أكابر العلماء الممتازين هو الطبيب والقاضى ميمون بن يوسف . وسمى الغلام موسى ، وكان من الأقوال المأثورة بين اليهود قولهم : « لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلى موسى » . وقد عرف بين الناس باسم موسى بن ميمون أو باسم أقصر من هذا وهو ميمونى . ولما أن أصبح من أحبار اليهود الذائعى الصيت جمعت الحروف الأولى من لقبه واسمه فصارت رمبم ، وعبر العالم المسيحى عن أبوته بتسميته ميمونيدس Maimonides . وتقول إحدى القصص التى يغلب على الظن أنها من الخرافات الذائعة إن الغلام أظهر عدم الميل للدرس ، وإن أباه الذى خاب فيه رجاؤه سماه « ابن الجزار » وبعثه ليعيش مع معلمه السابق الحاخام يوسف ابن مجاشن[٣٤] . ومن هذه البداية الفقيرة برع موسى الثانى فى آداب الدين وآداب الكتاب المقدس ، والطب ، والعلوم الرياضية ، والهيئة ، والفلسفة . وكان ثانى اثنين هما أعلم أهل زمانه ؛ ولم يكن يضارعه فى علمه إلا ابن رشد . ومن أغرب الأشياء أن هذين المفكرين البارزين اللذين ولدا فى مدينة واحدة ولم يكن بين مولدهما إلا تسع سنين لم يجتمع أحدهما بالآخر كما يلوح ، ويبدو أن ابن ميمون لم يقرأ لابن رشد إلا حين بلغ هو سن الشيخوخة وبعد أن ألف كتبه[٣٥] .

واستولى البربر على قرطبة فى عام ١١٤٨ وهدموا الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، وخيروا المسيحيين واليهود بين الإسلام والنفى ؛ فغادر ابن ميمون أسبانيا فى عام ١١٥٩ هو وزوجته وأبناؤه ، وأقاموا فى فاس تسع سنين مدعين أنهم مسلمون[٣٦] ، لأن المسيحيين واليهود لم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك أيضاً .

وبرر ابن ميمون تظاهره بالإسلام بين اليهود المهددين بالخطر فى مراكش. بقوله إنهم لم يكن يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداء عملياً بل كل. ما كان يطلب إليهم أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها ، وإن المسلمين أنفسهم. يعرفون أنهم غير مخلصين فى النطق بها وإنما يفعلون ذلك ليخادعوا جماعة من المتعصبين[٣٧] . لكن كبير أحبار اليهود فى فاس لم يوافقه على هذا القول ، وكان جزاؤه أن قتل فى ١١٦٥ . وخشى ابن ميمون أن يلقى هذا المصير نفسه فسافر إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية (١١٦٥) ومصر القديمة حيث عاش حتى وافته منيته . وسرعان ما عرف المصريون أنه من أعظم أطباء زمانه ، فاختير طبيباً خاصاً لنورالدين على أكبر أبناء صلاح الدين ، وللقاضى الفاضل البيسانى وزير صلاح الدين . واستخدم ابن ميمون نفوذه فى بلاط السلطان لحماية يهود مصر ، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد[٣٨] . وفى عام ١١٧٧ عين ابن ميمون نجيداً أو زعيما لليهود فى القاهرة ، ثم أفهمه أحد الفقهاء المسلمين (١١٨٧) بأنه مرتد عن الإسلام وطالب بأن توقع عليه عقوبة القتل التى هى جزاء المرتدين . ولكن الوزير أنقذ ابن ميمون إذ قال إن الرجل الذى أرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعد مسلماً بحق[٣٩] .

وفى سنى العمل المتواصل التى أقامها بالقاهرة ألف معظم كتبه . ومن هذه المؤلفات عشرة كتب فى الطب باللغة العربية نقل فيها آراء أبقراط ، وجالينوس ، وديسقوريدس ، والرازى وابن سينا . وقد اختصر فى كتاب الأمثال الطبية كتاب جالينوس إلى ألف وخمسمائة عبارة قصيرة تشمل كل فرع من فروع الطب ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغتين العبرية واللاتينية ، وكثيراً ما كان ينقل عنه فى أوربا ويصدر ما ينقل بتلك العبارة : « قال الحبر موسى » . ووضع مقالة فى تدبير الصحة للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛ ومقالة أخرى فى الجماع لسلطان حماة الملك المظفر تقى الدين أبى سعيد عمر

ابن نور الدين تحدث فيها عن الجماع من الوجهة الصحية ، وعن عجز القوة الجماعية ، وعن الانتصاب الدائم ، وعن الأدوية المقوية للباه .

وقد أضاف ابن ميمون إلى هذه الرسائل عدة مقالات كل منها فى موضوع واحد منها مقالة فى السموم والتحرز من الأدوية القتالة(*) ، ومقالة فى الربو(**) ، وأخرى فى البواسير ، ورابعة فى السوداء — ومقالة جامعة فى شرح العقار . وتحتوى هذه الكتب الطبية ، كما تحتوى سائر الكتب ، على أقوال لا تتفق مع عقائد هذا الزمان السريعة التبدل — المعصومة من الخطأ — كقوله إنه إذا كانت الخصية اليمنى أكبر من اليسرى كان المولود الأول ذكراً [٤١] ؛ ولكنها تمتاز برغبة صادقة فى مساعدة المرضى ، ببحثها الذى يمتاز بالتسامح والمجاملة فى الآراء المتعارضة ، وبما يسرى فيها من طابع الحكمة والاعتدال فى النصح ووصف الدواء . ولم يكن ابن ميمون يصف العقاقير إذا ما أغنى عنها تنظيم الغذاء[٤٢] . وقد حذر الناس من كثرة الطعام بقوله إن المعدة يجب ألا تنتفخ كأنها خراج[٤٣] . وكان يظن أن الخمر تفيد الصحة إذا شربت باعتدال[٤٤] ، ونصح بدرس الفلسفة لأنها تدرب على الاتزان العقلى والخلق وعلى الهدوء وهما الصفتان اللتان تؤديان إلى صحة الجسم وطول العمر[٤٥] .

وبدأ ابن ميمون فى الثالثة والعشرين من عمره شرحاً للمشنا ، وظل يكدح فى هذا العمل عشر سنين بين مشاغله التجارية ، والطبية ، والأسفار الخطرة براً وبحراً . ولما نشر هذا الشرح فى القاهرة عام ١١٥٨ باسم **كتاب السراج** رفع ابن ميمون من فوره — وكان لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره — إلى منزلة بين شراح التلمود لا تسمو عليها إلا منزلة راشى ، وذلك

(*) تعرف بالمقالة الفاضلة لأنها موجهة إلى القاضى الفاضل . (المترجم)

(**) وضعت لمريض نبيل . (المترجم)

بفضل ما يمتاز به من الوضوح ، وغزارة المادة ، وصدق الأحكام : وبعد عشرين سنة من ذلك الوقت نشر أعظم كتبه كلها باللغة العبرية الجديدة وسماه متحدياً مستثيراً « مشنا التوراة » ، وقد رتب فيه فى نظام منطقى ، وإيجاز واضح ، كل ما حوته أسفار موسى الخمسة من القوانين وجميع قوانين المشنا والجمارا ما عدا النزر اليسير . ويقول فى مقدمة الكتاب : « لقد سميت هذا الكتاب مشنا التوراة (تكرار الشريعة) لأن من يقرأ الشريعة المسطورة (الأسفار الخمسة) لأول مرة ، ثم يقرأ هذه المجموعة ، يعرف الشريعة الشفوية جميعها من غير أن يحتاج فى ذلك إلى الرجوع إلى أى كتاب آخر »[٤٦] ، وقد أغفل فيه بعض ماورد فى التلمود من قواعد خاصة بالفأل والطيرة ، والتمائم ، والتنجيم ، فكان بذلك من بين مفكرى العصور الوسطى القلائل الذين لم يؤمنوا بالتنجيم[٤٧] . وقد قسم الأوامر الواردة فى الشريعة والبالغ عددها ٦١٣ أربعة عشر قسما وضع لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان « بكتاب » . ولم يكتف بشرح كل قانون بل أخذ على نفسه بيان ضرورته المنطقية أو التاريخية . ولم يترجم إلى الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلا كتاب واحد ، وهو مجلد ضخم نستطيع به أن نتبين ضخامة الكتاب الأصلى كله .

ويتضح من هذا الكتاب ومن كتابه الآخر الذى صدر بعده وهو : « دلالة الحائرين » ، أن ابن ميمون لم يكن من الذين يجهرون بالإلحاد . بل إنه قد حاول جهده لكى يرجع المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس إلى علل طبيعية ، ولكنه كان يدعو إلى الاعتقاد بأن كل لفظ فى أسفار موسى الخمسة موحى به من الله ، وإلى العقيدة الدينية القائلة بأن الشريعة الشفوية قد نقلها موسى إلى كبار رجال إسرائيل[٤٨] . ولعله كان يشعر بأن اليهود لايستطيعون أن يكون اعتقادهم فى الكتاب المقدس أقل شأناً من اعتقاد المسيحيين والمسلمين فيه ، ولعله هو أيضا كان يرى أن لا قيام للنظام الاجتماعى بغير الاعتقاد فى قدسية أصل القانون

الأخلاق . وكان ابن ميمون وطنيا شديد الحب لوطنه لا يقبل فى عقيدته جدلا « يجب على جميع بنى إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد فى التلمود البابلى ، وعلينا أن نرغم اليهود فى جميع أنحاء الأرض على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التى قررها حكماء التلمود »(٤٩) . وكان أكثر حرية إلى حد ما من معظم المسلمين والمسيحيين فى أيامه ، فكان يعتقد أن غير اليهودى المتمسك بأهداب الفضيلة ، المؤمن بوحدانية الله ، يدخل الجنة ، ولكنه لم يكن يقل قسوة على كفرة اليهود من سفر التثنية أو التركمادا ؛ ويقول إن اليهود الذين ينبذون الشريعة اليهودية يجب أن يقتلوا ؛ و « من رأيى أن جميع أفراد العشيرة اليهودية التى بلغت من القحة والجرأة ما جعلها تخالف أمراً من أوامر الله يجب أن يعدموا »(٥٠) . وقد استبق أكويناس فى الدفاع عن القتل جزاء للإلحاد بحجة « أن القسوة على من يضلون الناس سعياً وراء الزهو والخيلاء إنما هى رحمة بالعالم »(٥١) ، وارتضى دون عناء عقوبة الإعدام التى يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر ، والقتل ، ومضاجعة المحارم ، وعبادة الأوثان ، والسرقة بالإكراه ، وخطف الأشخاص ، وعصيان الأبناء للآباء ، وخرق حرمة السبت(٥٢) . ولعل أحوال اليهود حين هاجروا من مصر القديمة ، وحاولوا أن يؤسسوا لهم دولة من جماعة معدمة لا وطن لها ، نقول لعل أحوال هؤلاء اليهود كانت تبرر وضع هذه القوانين . ولقد كانت حالة اليهود المزعزعة المضطربة فى أوربا المسيحية أو أفريقية المسلمة كانت تتطلب قانوناً صارماً يخلق فيهم النظام والوحدة ؛ ولكن الآراء المسيحية ، والعادات اليهودية أيضاً فى أغلب الأحيان ، كانت أرحم من القوانين اليهودية فى هذه الأمور (قبل أيام محكمة التفتيش) .

وإن فى نصيحة ابن ميمون التى يسديها إلى يهود زمانه لجانباً من هذه الروح أفضل من الجانب الصارم السالف الذكر : « إذا قال الكفرة لبنى إسرائيل :

أسلمونا أحدكم لنقتله وجب عليهم أن يتحملوا جميعاً آلام القتل ولا يسلموا إليهم واحداً من أبناء إسرائيل »[٥٣] .

وأظرف من هذه الصورة صورة هذا العالم وهو ينحدر إلى الشيخوخة ، فقد أيد فى هذه السن قول أحبار اليهود إن « اللقيط العالم (بالشريعة) يسبق الكوهن الأكبر الجاهل » . وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث ساعات فى كل يوم لكسب العيش وتسعا لدراسة التوراة . وكان يعتقد أن البيئة أقوى أثراً من الوراثة ، ولذلك أشار على طالب العلم أن يسعى إلى صحبة الصالحين العقلاء من الناس . وينصح طالب العلم بألا يتزوج حتى يكتمل علمه ، ويتخذ له حرفة ، ويشترى له منزلا[٥٥] ، وعندئذ يصح له أن يتزوج أربع نساء ، ولكنه لا يصح له أن يباشرهن إلا مرة واحدة كل شهر .

« نعم إن مباشرة الإنسان لزوجته مسموح به على الدوام ، ولكن من واجب العالم أن يصطنع القداسة فى هذه العلاقة أيضاً ، فعليه ألا يكون على الدوام مع زوجته كما يفعل الديك ، بل يجب عليه أن يؤدى الواجب الزوجى فى ليلة الجمعة . . . ويجب على الزوج والزوجة وقت المضاجعة ألا يكونا فى حالة سكر ، أو فتور ، أو حزن ، وألا تكون الزوجة نائمة فى ذلك الوقت[٥٦] » .

وهكذا ينشأ آخر الأمر الحكيم الذى :

« يتصف بالتواضع الجم ، ولا يكشف رأسه أو جسمه . . . ولا يرفع صوته فوق الحد الواجب إذا تكلم ، حديثه مع الناس جميعاً ظريف . . . يتجنب المبالغة والتصنع فى الحديث ، يعدل فى حكمه على الناس ، يؤكد فضائل غيره ، ولا يتحدث عن أحد بسوء[٥٧] » .

ولا يذهب إلى المطاعم إلا عند الضرورة القصوى : « فالرجل الحكيم لا يأكل إلا فى بيته ومن مائدته »[٥٨] . وهو يدرس التوراة فى كل يوم حتى

يموت ، ويحذر ألا يخدعه أحد بأنه المسيح ، ولكنه لن يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتى ويعيد إسرائيل إلى صهيون ، ويقود العالم كله إلى الدين الحق ، وإلى الوفرة ، والأخوة ، والسلام : « تفنى جميع الأمم أما اليهود فباقون إلى أبد الدهر »[٥٩] .

وغضب أحبار اليهود من مشنا التوراة ، فقلما كان فى وسع أحد منهم أن يعفو عما يرمى إليه من إحلال كتابه محل التلمود مع ما فى هذا من جرأة ، وقد استاء كثيرون من اليهود مما عزى إلى ابن ميمون من القول بأن من يدرس الشريعة أعلى مقاماً ممن يعمل بها . ولكن الكتاب رغم هذا كله قد جعل صاحبه أعظم اليهود جميعاً فى عصره ، فارتضاه جميع يهود الشرق مستشاراً لهم وبعثوا إليه بمسائلهم ومشاكلهم ، وخيل إلى الناس فى جيل من الزمان أن الجاوئية قد عادت إلى الوجود : ولكن ابن ميمون لم ينتظر حتى يستمتع بهذا الصيت ، بل شرع من فوره يؤلف كتابه التالى ؛ فبعد أن قنن الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين ، وجّه جهوده للعمل على أن يعيد إلى حظيرة الدين اليهودى من أغرتهم الفلسفة أو أغوتهم جماعات الملاحدة من اليهود القرائين فى مصر ، وفلسطين ، وشمالى أفريقية ؛ وأصدر إلى العالم اليهودى بعد عشر سنين من الكد أشهر كتبه كلها وهو : *دلالة الحائرين* (١١٩٠) ، وقد كتبه باللغة العربية بحروف عبرية ثم ترجم إلى اللغة العبرية وسمى : *موره نبوخيم* ، ثم ترجم كذلك إلى اللاتينية وأثار عاصفة من أشد العواصف الذهنية فى القرن الثالث عشر .

ويقول فى مقدمة الكتاب إن غرضه الأول من وضعه أن يشرح بعض الألفاظ الواردة فى الكتب المتنبئة ، أى فى العهد القديم . ذلك أن كثيراً من ألفاظ الكتاب المقدس وفقراته ذات معان متعددة : حرفية ، ومجازية ، ورمزية . فمنها ما إذا أخذ بمعناه الحرفى كان عقبة كؤوداً فى سبيل المخلصين لدينهم ،

ولكنهم إلى هذا يحترمون العقل أعظم مواهب الإنسان . أولئك ينبغى ألا يخيروا بين الدين بلا عقل أو العقل بلا دين . وإذ كان العقل قد غرسه الله فى الإنسان ، فإنه لا يمكن أن يتعارض مع الوحى الإلهى ، فإذا ما حدث هذا التعارض فسبب هذا — فى رأى ابن ميمون — أننا نأخذ بمعناها الحرفى بعض العبارات المواتمة للعقلية الخيالية التصويرية التى هى من خصائص السذج غير المتعلمين الذين وجه إليهم الكتاب المقدس . ولقد قال أحبارنا إن من المحال أن نصف خلق الإنسان وصفاً كاملاً . . . ولقد وردت قصة هذا الخلق بعبارات مجازية حتى يستطيع فهمها غير المتعلمين كل بقدر ماله من مواهب ، وما عليه إدراكه من ضعف . أما المتعلمون فيفهمونه فهماً مختلفاً عن فهم هؤلاء[٦١] .

ثم ينتقل ابن ميمون من هذه النقطة الأولى إلى البحث فى الذات الإلهية فيستنتج مما فى الكون من شواهد التنظيم المحكم أن عقلا سامياً يسيطر على هذا الكون ، ولكنه يسخر من الرأى القائل إن الأشياء جميعها قد صنعت من أجل الإنسان[٦٢] ، فالأشياء لم توجد إلا لأن الله ، وهو مصدرها وحياتها ، موجود : « ولو أمكننا أن نفترض أنه غير موجود لاستتبع هذا أن لا شىء غيره ممكن الوجود » . وإذ كان لابد بهذه الطريقة من وجود الله ، فإن وجوده متلازم مع جوهره . و « الشىء الذى يحتوى فى ذاته على ضرورة وجـوده ، لا يمكن أن يكون لوجوده علة أيا كانت(*) »[٦٣] . وإذ كان الله عاقلا ، فلابد أن يكون غير ذى جسم ، وعلى هذا فكل ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شىء من أعضاء الجسم أو أية صفة من صفاته يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً . والحق ، كما يقول ابن ميمون (ولعله يحذو فى قوله هذا حذو المعتزلة) ، أننا لا نستطيع

(*) ولقد صاغ ابن سينا هذه القضايا المنطقية ، وأخذها عنه القديس توماس آكويناس ثم كيفها اسبينوزا حتى توائم فكرة الهيولى الذاتى الوجود .

معرفة شيء عن الله إلا أنه موجود ، بل إن الصفات غير الجسمية التي نصفه بها — كالعقل ، والقدرة على كل شيء ، والرحمة ، والحب ، والوحدة ، والإرادة — كلها من نوع الجناس فهي إذا وصف بها الله كان لها معنى غير معناها إذا ما وصف بها الإنسان . ولن نستطيع قط أن نعرف معناها بالضبط إذا وصف بها الله ، وليس في وسعنا أن نعرفه ، ولا ينبغي لنا أن نعزو إليه خواص أو صفات أو أن نثبت له شيئاً من أي نوع كان . فإذا قيل في الكتاب المقدس إن الله أو الملائك « كلم » الأنبياء ، فليس لنا أن نتخيل لفظاً أو صوتاً ، والنبوة هي تنمية المخيلة إلى أقصى درجات النماء » ، وهي فيض « الذات الإلهية » عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية ، فالذي يقصه الأنبياء لم يحدث في الواقع وإنما حدث في هذه الرؤيا أو الحلم ، وعلينا أن نفسره في معظم الأحوال تفسيراً مجازياً[٦٤] « ولقد قال بعض حكمائنا في وضوح إن أيوب لم يكن له قط وجود ، وإنما خلقه الشعراء خلقاً . . . ليكشفوا بهذا عن أهم الحقائق »[٦٥] . وهذا الإلهام التنبوئي في مقدور أي إنسان إذا نمَّى مواهبه إلى أقصى حدود النماء ، ذلك بأن العقل البشري إلهام مستمر ، لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن بصيرة الأنبياء الواضحة الساطعة .

وبعد فهل خلق الله العالم في زمان معين ، أو أن الكون ذا المادة والحركة ، كما يظنه أرسطو ، أزلي ؟ يقول ابن ميمون إن هذا ما يحتار فيه العقل ؛ فليس في وسعنا أن نثبت أزلية العالم أو خلقه ؛ وإذن فلنستمسك بعقيدة آبائنا القائلة بخالقه[٦٦] ، ثم ينتقل من هذا إلى تفسير قصة الخلق الواردة في سفر التكوين تفسيراً مجازياً رمزيا : فآدم عنده هو الصورة الفعالة أو الروح ، وحواء هي المادة المنفعلة وهي مصـــدر كل شر ، والأفعى هي الخيال[٦٧] . ولكن الشر ليس له وجود ذاتي موجب ، وإنما هو انتفاء الخير ؛ وترجع معظم مصائبنا إلى ما ترتكبه من أخطاء ؛ ومن الشرور ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإنسان أو وجهة النظر الضيقة ؛ وقد تكشف النظرة الكونية في كل شر ما هو خير للكل أو ما هو في

حاجة إليه(٦٨) . وقد أباح الله للإنسان الإرادة الحرة التى تجعل منه إنساناً بحق ؛ وقد يختار الإنسان الشر أحياناً ؛ والله يعلم مقدماً بهذا الاختيار ، ولكن ليس هو الذى يقرره ويحتمه .

وهل الإنسان مخلد ؟ هنا يستخدم ابن ميمون كل ما وهب من قدرة للتعمية على قرائه ، فهو يتجنب هذا السؤال فى كتاب دلالة الحائرين ، ولا يشير إليه إلا بقوله « إن النفس التى تبقى بعد الموت ليست هى النفس التى تعيش فى الإنسان حين يولد »(٦٩) .. وهذه النفس أو العقل « المنفعل » وظيفة من وظائف الجسم تموت بموته ؛ أما الذى يبقى فهو « العقل المكتسب » أو « العقل الفعال » الذى وجد قبل الجسم ، وليس وظيفة من وظائفه على الإطلاق(٧٠) . وهذه النظرة نظرة أرسطو وابن رشد تنكر كما يبدو الخلود الفردى . ولقد أنكر ابن ميمون فى مشنا التوراة فكرة بعث الجسم وسخر من تصوير المسلمين للجنة تصويراً جسمانياً أبيقوريا ، وقال إن تصويرها على هذا النحو فى الإسلام واليهودية ليس إلا تمثيلا لها بما يناسب خيال جمهرة الناس وحاجاتهم(٧١) . وأضاف فى دلالة الحائرين إلى قوله هذا أن : الموجودات غير الجسمية لا يمكن إحصاؤها إلا حين تكون قوى كائنة فى الجسم(٧٢)(*) ؛ وينطوى قوله هذا ، كما يبدو ، على أن الروح غير المادية التى تبقى بعد فناء الجسم ليست بذات إدراك فردى . وقد أثارت هذه الإشارات المتشككة كثيراً من الاحتجاجات لأن بعث الأجسام كان قد أصبح من العقائد الأساسية فى الإسلام واليهودية . ولما كتب دلالة الحائرين بالحروف العربية أثار عقول العلماء فى العالم الإسلامى ؛ فقام عبد اللطيف ، وهو عالم من علماء المسلمين ، يسفهه لأنه « يهدم أركان جميع الأديان بنفس الوسائل التى يخيل إلى الناس أنه يدعمها بها »(٧٣) . وكان صلاح الدين وقتئذ منهمكا فى حرب حياة أو موت من الصليبيين ؛ وكان السلطان من المستمسكين طول حياته بأصول

(*) وقد استمد أكويناس من هذا فكرته القائلة إن المادة هى « أصل الانفرادية » !

الدين ، وكان فى هذا الوقت ، بنوع خاص ، أكثر بغضاً للإلحاد منه فى أى وقت آخر لأن الإلحاد فى ذلك الوقت يهدد الروح المعنوية الإسلامية ، والمسلمون منهمكون فى حرب مقدسة ، بأشد الأخطار . ولهذا أمر فى عام ١١٩١ بإعدام السهروردى ، وهو صوفى زنديق ؛ ونشر ابن ميمون فى الشهر نفسه مقالته فى بعث الموتى عبّر فيها مرة أخرى عن تشككه فى عقيدة الخلود الجسمى ولكنه أعلن أنه يؤمن بها على أنها من قواعد الدين فحسب .

وسكنت هذه الزوبعة إلى حين ؛ وانصرف هو إلى عمله الطبى وإلى كتابة فتاوى دينية أو أخلاقية وصلت إليه من العالم اليهودى . ولما عرض عليه شمويل ابن يهوذا بن تبون ، وكان وقتئذ يترجم *دلالة الحائرين* إلى اللغة العبرية ، أنه يرغب فى زيارته حذره من أن يظن أنه سيحدثه فى أى موضوع علمى ولو مدة ساعة واحدة بالليل أو بالنهار لأن عمله اليومى يجرى على النحو الآتى : « فأنا أقيم فى الفسطاط بينا يقيم السلطان فى القاهرة على بعد مسيرة يومى سبت(*) (ميل واحد ونصف ميل) . وواجباتى نحو نائب السلطان جد ثقيلة ؛ فعلى أن أزوره فى كل يوم فى الصباح الباكر ، وإذا ما كان هو ، أو أحد أبنائه ، أو أى فرد فى داخل حريمه ، منحرف المزاج ؛ فلن أجرؤ على مغادرة القاهرة بل علىّ أن أقيم معظم النهار فى القصر . . . ولا أعود إلى الفسطاط إلى ما بعد الظهر . . . وأكون وقتئذ قد أوشكت أن أموت من الجوع . ولكنى أجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالناس ، من رجال الدين ، وموظفى الدولة ، والأصدقاء ، والأعداء . . . فأنزل عن دابتى ، وأغسل يدى ، وأرجو مرضاى أن يصبروا علىّ حتى أتناول بعض المرطبات — وتلك هى الوجبة الوحيدة التى أتناولها كل أربع وعشرين ساعة . ثم أستقبل مرضاى . . . وأظل كذلك إلى أن يحل الليل ،

(*) مسيرة السبت مسافة يبلغ مقدارها ألفى ذراع وهى التى يصرح لليهودى أن يمشيها فى يوم السبت وتعادل المسافة بين النهاية القصوى للمعسكر والتابوت (الآية الرابعة من الأصحاح الثالث من سفر يشوع) . (المترجم) .

وقد أستمر على ذلك فى بعض الأحيان حتّى تمضى من الليل ساعتان أو أكثر من ساعتين ، فأصف لهم الدواء وأنا مستلق على ظهرى من فرط التعب ، حتّى إذا جن الليل تكون قواى قد خارت حتّى لا أستطيع الكلام . ولهذا لن يستطيع إسرائيلى أن يجتمع بى على انفراد إلا فى يوم السبت . فنى ذلك اليوم يقبل علىّ جميع المصلين ، أو الكثرة الغالبة منهم على أقل تقدير ، بعد صلاة الصبح ، ليتلقوا علىّ بعض العلم . . . ونظل ندرس معاً حتّى الظهر ثم نفترق[٧٤] .

وقد أنهك هذا الجهد قواه قبل الأوان . وقد طلب إليه رتشرد الأول ملك إنجلترا أن يكون طبيبه الخاص ، ولكن ابن ميمون لم يستطع تلبية طلبه .

وأدرك وزير صلاح الدين ما حل به من الضعف فسمح له أن يعتزل منصبه ورتب له معاشاً ، ثم توفى عام ١٢٠٤ فى التاسعة والستين من عمره ، ونقلت رفاته إلى فلسطين ولا يزال قبره قائما فى طبرية .

الفصل السادس

الحرب الميمونية

لقد أحسّ العالم الإسلامى والعالم المسيحى بتأثير ابن ميمون كما أحسّ به العالم اليهودى ، فقد أخذ الفلاسفة المسلمون يدرسون دلالة الحائرين بإشراف معلمين من اليهود ؛ وكانت تراجم لاتينية للكتاب تدرس فى جامعتى منبلييه وپدوا ، وكثيراً ما كان ألكسندر الهاليسى ووليم الأوفرنى يقتبسان منه فى جامعة باريس . واقتفى ألبرنس ماجنس أثر ابن ميمون فى كثير من المسائل ، وكثيراً ما كان القديس تومس ينظر فى آراء الحبر موسى ليفندها إن لم يكن لغرض آخر. وكان اسپنوزا ينتقد التفسير المجازى للكتاب المقدس الذى يقول به ابن ميمون ويصفه بأنه محاولة غير شريفة للمحافظة على منزلة الكتاب المقدس ، ولعله وهو يفعل هذا كان ينقصه الإدراك السليم للتاريخ ؛ ولكنه مع ذلك كان يصف الحبر العظيم بأنه « أول من جهر بأن الكتاب المقدس يجب أن يواءم بينه وبين العقل »(٧٥) ، وقد أخذ عن ابن ميمون بعض آرائه عن النبوءات والمعجزات وصفات الله(٧٦) .

أما فى الدين اليهودى نفسه فقد كان تأثير ابن ميمون تأثيراً انقلابياً ، وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهوداً : فقد خلفه ابنه أبراهام ابن موسى فى منصب النجيد وطبيب البلاط عام ١٢٠٥ ؛ وخلفه أيضاً حفيده داود بن أبراهام ، وابن حفيده سليمان بن أبراهام فى زعامة يهود مصر. واحتفظ هؤلاء الثلاثة كلهم بتقاليد ابن ميمون فى الفلسفة ، وأتى على الناس حين من

الدهر أصبح فيه تطبيق آراء أرسطو على الكتاب المقدس واستخدام المجاز والاستعارة فى تفسيره استخداماً يبلغ حد الشعوذة ، ورفض ما جاء فيه من القصص والقول بأنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية ، نقول أصبح هذا كله هو الطراز الحديث . فقيل مثلا إن قصة إبراهيم وسارة ليست إلا خرافة تمثل المادة والصورة ، وإن قواعد الطقوس اليهودية ليس لها إلا غرض رمزى وحقيقة رمزية(٧٧) . وبدا أن صرح الدين اليهودى كله يوشك أن ينهار على رأس أحبار اليهود . وقاوم بعضهم هذه النزعة مقاومة عنيفة : قاومها شمويل الفلسطينى ، وأبراهام بن داود البسكويبرى of Posqières ، ومایر بن تادرس هليفى أبو العافيـــة الطليطلى ، ودون أستروك اللونلى Don Astruc of Lunell ، وسليمان بن أبراهام من يهود منبلييه ، وجناح بن أبراهام چيروندى الأسپانى ، وكثيرون غيرهم . واحتج هؤلاء وأمثالهم على ما سموه « بيع الكتاب المقدس للإغريق » ، وشنوا الغارة على المحاولة التى تهدف إلى إحلال الفلسفة محل التلمود ، ونددوا بتشكك ابن ميمون فى عقيدة الخلود ، ورفضوا فكرته عن الإله غير المعروف وقالوا إنها تجديد مجازى لايحرك أية نفس نحو التقى والصلاح . وانضم أتباع القبلة الصوفية إلى المهاجمين ودنسوا قبر ابن ميمون(٧٨) .

وفرقت الحرب الميمونية شمل الجماعات اليهودية فى جنوبى فرنسا فى الوقت الذى أخذت فيه المسيحية الصادقة تشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الزندقة الألبجنسية . وكما أن المسيحية الصادقة قد أخذت تدافع عن نفسها ضد العقلية ، بتحريم كتب أرسطو وابن رشد فى الجامعات ، كذلك خطا الكوهن سليمان ابن أبراهام من يهود منبلييـــه خطوة لم تكن مألوفة من قبل فصب لعنته على كتب ابن ميمون الفلسفية وحرّم من الدين كل اليهود الذين يدرســـون العلوم والآداب النجسة ،

أو يفسرون الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً — ولعله قد استبق بعمله هذا هجوم المسيحيين على الجماعات اليهودية بحجة أنها تحمى جماعة العقليين. ورد على هذا أنصار ابن ميمون بزعامة داود قمحى ، ويعقوب بن مخير تبون بأن أقنعوا يهود لونل ، وبزيير ونربونة فى پروڤانس ، ويهود سرقسطة فى أسپانيا بأن يحرموا سليمان وأتباعه من الدين . فلما فعلوا هذا خطا سليمان خطوة أجرأ من الأولى وأكثر منها إثارة إلى الدهشة : ذلك أنه وشى إلى محكمة التفتيش فى منبلييه بكتب ابن ميمون وقال إن فيها آراء خارجة على الدين شديدة الخطر على المسيحية وعلى اليهودية معاً . ووافقه الرهبان على رأيه وأحرقت جميع الكتب الفلسفية التى أمكن الحصول عليها فى احتفال عام فى منبلييه عام ١٢٣٤ وفى باريس عام ١٢٤٢ ثم أحرق التلمود نفسه فى باريس بعد أربعين يوماً .

وأثارت هذه الحوادث حنق أنصار ابن ميمون ودفعتهم إلى أشد أعمال العنف ، فقبضوا على كبار المشايعين لسليمان فى منبلييـــه ، واتهموهم بالوشاية بأبناء دينهم اليهود ، وحكموا عليهم بقطع ألسنتهم ؛ ويلوح أن سليمان نفسه قد قتل[٧٩] . وندم الكوهن جناح على اشتراكه فى إحراق كتب ابن ميمون فقدم إلى منبلييه ، وكفر عن عمله هذا علناً فى كنيسها ، وحج تائباً إلى قبر موسى بن ميمون : ولكن الدون أستروك واصل الحرب باقتراحه أن يصدر الأحبار قراراً يحرم دراسة أى علم من العلوم النجسة . وأيده فى هذا ابن نحمان وآشر بن يحيل ، حتى إذا كان عام ١٣٠٥ أصدر سليمان بن أبراهام بن أردوط ، الزعيم القوى المبجل ليهود برشلونه ، قراراً بحرمان كل يهودى يعلم أى علم من العلوم غير الدينية ما عدا الطب ، أو أية فلسفة غير يهودية ، أو يجرؤ على دراسة شىء منها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره : وكان رد أحرار منبلييه أن حرموا كل يهودى يمنع

ابنه من دراسة العلوم الطبيعية[٨٠] . ولم يكن لكلا القرارين أثر فى دائرة واسعة ، فقد ظل شبان اليهود فى أماكن متفرقة يدرسون الفلسفة . غير أن ما كان لأردوط وأشر فى أسپانيا من نفوذ ، وازدياد الاضطهاد والخوف فى جميع أنحاء أوربا الخاضعة وقتئذ لمحاكم التفتيش ، دفعا الجاليات اليهودية إلى ما كانت عليه من عزلة عقلية وعنصرية . وضعفت عندهم دراسة العلوم ، وأضحت العلوم الدينية الخالصة هى المسيطرة على المدارس العبرية ، وتوارت الروح اليهودية بعد أن انفصلت عن العقل وانتابها الفزع الدينى والعداء الشامل ، توارت هذه الروح فى الصوفية والتقوى الدينية .

الفصل السابع

القبـــلة

تكتنف بحار الصوفية جزائر العلم والفلسفة أينما كانت ؛ ذلك أن العلم يضيق الآمال ، ولا يستطيع أن يتحمل عباه راضين إلا من أسعدهم الحظ . وقد بسط يهود العصور الوسطى على الحقيقة ، كما بسط عليها المسلمون والمسيحيون ، ستاراً من آلاف الخرافات ، وصوروا التاريخ تصويراً مسرحياً بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذر ، وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين ، ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرقى والتمائم ، وأخافوا أنفسهم وأبناءهم بالحديث عن الساحرات والأغوال ، وأضاءوا ظلمة النوم وغموضه بما وضعوه من تفسير للأحلام ، وتبينوا فى الكتابات القديمة أسراراً خفية باطنية .

والتصوف اليهودى قديم قدم اليهود أنفسهم ، تأثر بالأثنينية الزرادشتية القائلة بالظلمة والنور ، وبالأفلاطونية الحديثة وباستبدالها الفيض الإلهى بعملية الخلق ، وما تقول به الفيثاغورية الحديثة من أن للأعداد قوى خفية وأسراراً ، وبالثيوصوفية الغنوسطية (مذهب الاتصال بالله أو الفناء بالذات والبقاء بالله) السائدة فى سوريا ومصر ، والكتب المسيحية الأولى الدينية المشكوك فى صحتها (الأبوكريفا) ، وبالشعراء والمتصوفة فى الهند ومصر ، وبكنيسة العصور الوسطى المسيحية . لكن مصادرها الأساسية كانت كامنة فى عقلية اليهود أنفسهم وتقاليدهم . ولقد انتشرت بين اليهود قبل مولد المسيح نفسه ، شروح سرية لقصة الخلق الواردة فى سِفر التكوين وفى الأصحاحين الأول والعاشر من سِفر حزقيال ؛ وقد حرّمت المشنا شرح هذه الخفايا إلا لعالم منفرد موثوق به . وكان الخيال حرّاً طليقاً يتصور ما كان قبل خلق آدم ، وما سوف يكون بعد فناء

العالم . وكانت نظرية فيلون القائلة بأن الحكمة الإلهية هى أداة الله الخالقة للكون مثلا سامياً لهذه الأفكار الفلسفية . وكان للإسينيين كتابات سرية ، يحرصون على كتمانها عن سواهم ، وكانت الكتب العبرانية غير المعترف بصحتها كـكتاب الأعياد تنشر بين الناس أقوالا خفية عن خلق العالم ، وجعلت أسماء يهوه التى لا يصح النطق بها ذات قوى خفية ، وكانت حروفه الأربعة — التتر جرام — تهمس فى الآذان على أن لها معنى خفيا ، وتأثيراً معجزاً ، لا تنقل إلا العقلاء ذوى الأفهام الناضجة . وكان عقيبا يقول إن أداة الله فى خلق العالم هى التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، وإن لكل كلمة ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى خفيا وقوة خفية . وكان بعض الجاأونيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية وإلى أسماء الملائكة أمثال هذه القوى الخفية ، فمن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى الطبيعة . وكان العلماء يعبثون بضروب السحر الأسود والأبيض — أى القوى العجيبة التى يحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح بالملائكة أو الشياطين . وكان لا ستحضار الأرواح ومعرفة الحظ بفتح الكتاب المقدس ، والتعاويذ ، والتمائم ، والرقى ، ومعرفة الغيب ، والقرعة ، كان لهذه كلها شأنها فى الحياة المسيحية : وقد شملت كتب اليهود جميع عجائب التنجيم ، فكانت النجوم فى هذه الكتب حروفاً هجائية وكتابات فى السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها (٨١) .

وظهر فى وقت ما فى القرن الأول بعد الميلاد كتاب من هذه الكتب ذات الأسرار الخفية فى بابل يعرف باسم سِفر يصبيرا — أى كتاب الخلق . وكان الأتقياء المتصوفة من اليهود ومنهم يهودا هليفى يقولون إن واضعه هو إبراهيم أو الله نفسه . ومما جاء فيه أن عملية الخلق قد تمت بوساطة عشرة سفروتات Sefiroth — أعداد أو أصول هى : روح الله ، وفيوض ثلاثة منها : الهواء ، والماء ، والنار ،

وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار ، وثلاثة أبعاد إلى اليمين . وهذه الأصول هى التى حددت محتويات العالم ، كما حددت الحروف الهجائية العبرية الثلاثة والعشرون الصور والأشكال التى يستطيع بها العقل البشرى فهم عملية الخلق . وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر .

ونقل أحد أحبار اليهود البابليين حوالى عام ٨٤٠ هذه العقائد الخفية إلى إيطاليا ، ثم انتقلت منها إلى ألمانيا ، وپروڤانس ، وأسپانيا . وأكبر الظن أن ابن جبيرول قد تأثر بها فى نظريته القائلة بوجود كائنات وسطى بين الله والعالم . واتخذ أبراهام بن داود « التقاليد السرية » وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية . وأكبر الظن أن ابنه إسحق الضرير وتلميذه عزرائيل هما مؤلفا سفر بهاهير أو كتاب الضوء (١١٩٠ ؟) ، وهو شروح صوفية للأصحاح الأول من سفر التكوين . وقد استبدلا فى هذا الكتاب فكرة خلق العالم عن طريق الفيض الربانى الواردة فى سفر يصيرا بفكرة الضوء ، والحكمة ، والعقل . وعرض هذا التثليث للعقل الإلهى بوصفه ثالوثاً يهودياً[٨٣] . وعرض العزر من يهود ورمز (١١٧٦ — ١٢٣٨) ، وأبراهام بن شمويل أبو العافية (١٢٤٠ — ١٢٩١) هذه العقيدة السرية على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعاً من التلمود . وقد استخدما فى وصف الصلة بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهوانى والزواج التى كان يستخدمها المتصوفة المسلمون والألمان .

وقبل أن يستهل القرن الثالث عشر كانت كلمة قبلة قد عم استعمالها لوصف العقيدة السرية فى جميع مظاهرها ونتائجها . وفى عام ١٢٩٥ نشر موسى بن شم طوب من علماء ليون الكتاب الثالث من الكتب القبلية الهامة المسمى سفر زوهر أو كتاب المجد وعزا تأليفه إلى شمعون بن يوحاى أحد علماء القرن الثانى ، فقال إن الملائكة قد ألهمت شمعون والسفروت العشرة أن يكشفوا لقرائه المستترين الأسرار التى كانت من قبل محتفظا بها إلى أيام المسيح المنتظر :

وقد جمعت فى الزوهر كل عناصر القبلة : فكرة الإله الشامل لكل شىء الذى لا يعرف إلا عن طريق الحب ، والحروف الأربعة المكونة لاسم يهوه — التتراجوامتون — ، والأوساط الخالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الأفلاطونية الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير ، وتاريخ ظهور المسيح وكيفية ظهوره ، وأزلية الروح وتنقلها ، والمعانى الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد ، والحروف ، والنقط ، والشرط ، واستعمال الكتابات الجفرية ، والحروف الأولى من العبارات التى إذا جمعت كونت اسماً خاصاً ، وقراءة الكلمات عكساً لا طرداً ، والتفسير الرمزى لنصوص الكتاب المقدس ، والقول بأن تمثل المرأة خطيئة وإن كان فيه تجسيد لسر عملية الخلق . وقد شوه موسى الليونى عمله حين جعل شمعون بن يوحاى يشير إلى خسوف حدث فى رومة عام ١٢٦٤ ويقول بعدة آراء لم تكن ، كما يلوح ، معروفة قبل القرن الثالث عشر ، وقد خدع بذلك كثيرين من الناس ؛ ولكنه لم يخدع زوجته ، وقد اعترفت أن زوجها موسى كان يرى فى شمعون خدعة مالية بارعة[٨٣] . وأدى نجاح هذا الكتاب إلى ظهور عدة كتب أخرى مضللة ، وجازى بعض القبليين المتأخرين موسى بمثل أعماله فنشروا آراءهم هم معزوة إليه .

وكان للقبلة أثر شامل واسع المدى ، وظل الزوهر وقتاً ما كتابا يدرسه اليهود كدراستهم للتلمود ، بل إن بعض القبليين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بال قديم ، مفرط فى التقطيع المنطقى ؛ وتأثر بعض علماء التلمود ، ومنهم ابن نحمان العالم النحرير تأثراً شديداً بالمدرسة القبلية . وانتشر الاعتقاد بصدق القبلة ، وبأنها وحى من عند الله انتشاراً واسعاً بين يهود أوربا[٨٤] . وبقدر هذا الانتشار كان أثرها السيئ فى مؤلفاتهم العلمية والفلسفية ، وانقضى عصر ابن ميمون الذهبى فى سنف الزوهر الوضاء . وتعدى أثر القبلة اليهود إلى المسيحيين فافتتن

بها بعض مفكريهم ، فأخذ عنها ريمند للى Raymond Lully (١٢٣٥ ؟ — ١٣١٥) أسرار الأعداد والحروف فى كتابه Ars Magna وحسب بيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola (١٤٦٣ — ١٤٩٤) أنه قد وجد فى القبلة أدلة قاطعة على ألوهية المسيح[٨٥] ، واغتذى براسلسس Pracelsus ، وكورنليوس Cornelius ، وأجريبا Agrippa ، وربرت فلد Robert Fludd وهنرى مور Henry More وغيرهم من المتصوفة المسيحيين ببحوثها ، وأقر يوهانس روشلين Johonnes Rcuchlin (١٤٥٥ — ١٥٢٢) بأنه قد سرق من القبلة بحوثه الدينية ، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم Jakob Böhme (١٥٧٥ — ١٦٢٤) . وإذا كانت نسبة اليهود الذين وجدوا السلوى فى الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين ، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كشرت عن نابها لليهود ، وأرغمتهم فى سبيل الحياة إلى أن يخفوا الحقائق وراء ستار من نسيج الخيال والرغبة ، واليائسون السيئو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قد اصطفاهم لنفسه :

الفصل الثامن

العتق

لقد وجد يهود العصور الوسطى فى عزلة جماعاتهم ، وفيما تسبغه عليهم شعائرهم وعقائدهم من سلوى ، ملجأ لهم من تمجيد الصوفية ، وزوال خداع عقيدة المسيح المنقذ المنتظر ، ومما كان ينتابهم من الاضطهاد حينا بعد حين ، ومن ملل الحياة الاقتصادية الرتيبة . فكانوا يحتفلون بمظاهر التقى بالأعياد التى تذكرهم بتاريخهم ، وبخطوبهم ، وبمجدهم التليد ، وعدلوا فى صبر وأناة احتفالاتهم التى كانت من قبل تقسم السنة الزراعية لتوائم حياتهم الحضرية . فكان القراءون المنقرضون يحتفلون بالسبت فى البرد والظلمة حتى لا يخالفوا الشريعة بإيقاد النار أو إضاءة السراج ، ولكن معظم اليهود كانوا يستقدمون أصدقاء لهم من المسيحيين أو زائرين ليبقوا لهم النار متقدة والمصابيح مضيئة ، وكان أحبارهم يغضون النظر عن هذه المخالفة ، وكانوا يغتنمون كل فرصة لإقامة المآدب يظهرون فيها سخاءهم وأبهتهم : فكانت الأسرة تقيم وليمة يوم ختان ابن لها أو بلوغه سن الرشد ، وفى خطبة ابن أو بنت أو زواجهما ، أو زيارة عالم أو صديق مشهور أو حلول عيد دينى . وأصدر رجال الدين أوامر بتحديد نفقات هذه الحفلات فنهوا من يقيمونها عن أن يدعوا إليها أكثر من عشرين رجلا ، وعشر نساء ، وخمس بنات ، وجميع أقارب الداعى حتى الطبقة الثالثة . وكانت حفلات الزواج تدوم أحياناً أسبوعاً كاملا ، لا يسمحون أن يقطعها يوم السبت نفسه . وكان العروسان يتوجان بالورد ، والريحان ، وأغصان الزيتون ، وينثر فى طريقهما النقل والقمح ، وتنثر فوقهما حبوب الشعير رمزاً للإخصاب ، وكانت الأغانى والنكات تصاحب كل مرحلة من

مراحل هذا الحادث ، وفى أواخر العصور الوسطى كان مهرج ممتهن يستأجر ليتم للحاضرين سرورهم . وكانت نكات هذا المهرج فى بعض الأحيان صادقة إلى حد القسوة ، ولكنه يكاد على الدوام أن يعمل بقول هلل الظريف : « إن كل زوجة جميلة »[٨٦]

وبهذه الطريقة كان الجيل المنقضى يحتفل بانقضائه وحلول جيل آخر مكانه ، ويبتهج بمولد أبناء أبنائه ، ويستكن إلى الشيخوخة المتعبة الرحيمة . ونحن نشاهد وجوه أولئك اليهود الشيوخ فى صور رمبرانت Rembrandt : نشاهد ملامحهم الناطقة بتاريخ الشعب والفرد ، ولحاهم تنفث الحكمة ، وعيونهم قد انطبعت فيها الذكريات الحزينة ، ولكنها قد رققها الحب الحنون : وليس فى صفات المسلمين والمسيحيين الخلقية ما يفوق الحب المتبادل بين الشباب والشيب عند اليهود ، الحب الذى يتغاضى عن جميع الزلات ، وهداية العقول المجربة للعقول غير الناضجة ، والكرامة التى تحمل من عاشوا حياتهم كاملة على أن يرتضوا الموت ويروه النهاية الطبيعية للحياة .

واليهودى إذا مات لا يترك لأبنائه متاع الدنيا فحسب ، بل يترك لهم فوق ذلك نصائحه الروحية : « كن أول من يذهب إلى الكنيس » ، وها هى ذى وصية إلعزر (١٣٣٧) من أهل ميتز تقول : « لا تتكلم فى أثناء الصلاة ، وردد الاستجابات ، واعمل الخير بعد الصلاة » .

وها هى ذى آخر وصايا اليهودى :

غسلونى ، ومشطوا شعرى ، ودرموا أظافرى ، كما كنت أفعل فى حياتى ، كى أسير طاهراً إلى مقرى الأبدى كما كنت أسير إلى الكنيس كل سبت . وضعونى فى الثرى على يد أبى اليمنى ، فإذا ضاق المكان قليلا فإنى واثق من أنه يحبنى حبا يجعله يفسح لى مكاناً بجانبه[٨٧] .

فإذا ما لفظ الشخص نفسه الأخير أقفل الابن الأكبر للميت أو أكبر أبنائه

أو أقربائه مقاماً فاه وأغمض عينه ، ثم تغسل جثته وتضمخ بالأدهان العطرة ، وتلف فى قماش التيل النقى النظيف . ويكاد كل يهودى أن يكون عضواً فى جمعية للدفن ، تأخذ الجثة ، وتعنى بها ، وتقوم بآخر الشعائر الدينية ، وتصحبها إلى قبرها . وكان حملة بساط الرحمة يسيرون فى الجنازة حفاة ، وتسير النساء أمام النعش ، ينشدن نشيداً حزيناً ، ويدققن طبلة . وكان ينتظر من كل غريب تمر به الجنازة أن ينضم إليها ويسير فيها إلى المقبرة . وكان تابوت الميت يوضع عادة بالقرب من توابيت الموتى من أقاربه ، حتى لقد كان معنى الدفن عندهم هو « الرقود مع الآباء » و « الاجتماع بالأهل » . ولم يكن المشيعون يستولى عليهم اليأس ، فقد كانوا يقولون إنه وإن مات الأفراد فإن بنى إسرائيل لن يموتوا .

الكتاب الرابع

العصور المظلمة

٥٦٦ — ١٠٩٥

الحوادث التاريخية فى الكتاب الرابع

التاريخ		الحادثة
٤٨٦ – ٧٥١	:	الأسرة الميروفنجية فى غالة .
٤٩٠ – ٥٤٣	:	القديس بندكت .
٥٢٠ – ٥٦٠	:	نشأة المجامع العلمية الأيرلندية .
٥٢١ – ٥٩٨	:	القديس كولمبا .
٥٤٣ – ٦١٥	:	القديس كولمبان .
٥٦٨ – ٧٧٤	:	مملكة اللمبارد فى إيطاليا .
٥٦٨ وما بعدها	:	تأسيس مدينة البندقية .
٥٨٢ – ٦٠٢	:	موريق إمبراطوراً على الدولة الرومانية الشرقية .
٥٩٠ – ٦٠٤	:	البابا جريجورى الأول العظيم .
٥٩٠ – ٦١٦	:	إثلبرت ملك كنت .
٥٩٧	:	أوغسطين ينشر المسيحية فى إنجلترا .
٦٠٠ – ١١٠٠	:	الترنيمة الجريجورية .
٦٠٢ – ٦١٠	:	اغتصاب فوقاس .
٦١٠ – ٦٤١	:	هرقل يجلس على عرش الدولة الشرقية .
٦٢٥ – ٦٩٠	:	بولس الإيجينى ، الطبيب .
٦٢٩ – ٦٣٨	:	وجوبرت ملك الفرنجة .
٦٤٠	:	الصقالبة يدخلون بلاد البلقان .
حوالى ٦٥٠	:	بيوولف ؛ كيدمون ، الشاعر
٦٥١	:	تأسيس أوتل دييه (فندق الله) فى باريس .
٦٧٣ – ٧٣٥	:	بيد الموقر ، المؤرخ .
٦٨٠ – ٧٥٤	:	بنيفاس ، رسول إلى ألمانيا .
٦٨٧ – ٧١٤	:	ببين الأصغر يحكم الفرنجة .
٦٩٧	:	الدوج الأول فى البندقية .
٧١٣ – ٧١٦	:	أناستيوس الثانى إمبراطور الدولة الشرقية .
٧١٧ – ٧٤١	:	ليو الثالث الإسورى ، إمبراطور الشرق .
٧٢٦ وما بعدها	:	حركة محطمى الصور فى بيزنطية .
٧٣٥	:	مدرسة يورك .
٧٣٥ – ٨٠٤	:	الكوين ، المربى .
٧٥١ – ٧٦٨	:	ببين القصير يحكم الفرنجة .
٧٥١ – ٩٨٧	:	أسرة كرولنجيه من ملوك الفرنجة .
٧٥٦	:	هبة ببين تثبت قوة البابوات الزمنية .
٧٦٨ – ٨١٤	:	شارلمان ملك الفرنجة .

٧٧٢ — ٨٠٤ : حروب شارلمان ضد السكسون .
٧٧٤ : شارلمان يضم تاج لمباردية .
٧٧٤ — ١٢٠٠ : الطراز المعمارى الرومانى .
٧٧٦ — ٨٥٦ : رابانوس موروس ، المربى .
٧٧٨ : شارلمان فى أسبانيا ؛ رولان فى ونسفال .
٧٨٠ — ٧٩٠ : إيرينى وصية على العرش فى القسطنطينية .
٧٨٧ : الدنمرقيون يبدؤون غاراتهم على إنجلترا .
٧٩٥ : الدنمرقيون يبدؤون غاراتهم على أيرلندة .
٧٩٧ — ٨٠٢ : إيرينى « إمبراطور » الشرق .
٨٠٠ : البابا ليو الثالث يتوج شارلمان إمبراطوراً على الدولة الرومانية .
٨٠٢ : بلغاريا تحت حكم خان كروم .
٨١٣ — ٨٢٠ : ليو الخامس إمبراطور الشرق الأرمنى .
٨١٤ — ٨٤٠ : لويس الأول ملك الفرنجة التقى .
٨١٥ — ٨٧٧ : چون اسكوتس أرچينا ، الفيلسوف .
حوالى ٨٢٠ : الفرياجيون يدخلون الروسيا .
٨٢٩ : إجبرت يؤسس الحكومة السباعية الإنجليزية السكسونية ويصبح ملكاً على إنجلترا .
٨٢٩ — ٨٤٢ : ثيوفيلوس الأول إمبراطور الشرق .
٨٤١ — ٩٢٤ : غارات الشماليين على فرنسا .
٨٤٣ : تجزئة فردون ؛ لدفج يصبح أول ملوك ألمانيا .
٨٤٥ — ٨٨٢ : هنكمار أسقف ريمس .
٨٤٨ وما بعدها : مدرسة سلرنو الطبية .
حوالى ٨٥٠ : كتاب كل ؛ ليو السالونيكى ، العالم الرياضى .
٨٥٢ — ٨٨٨ : بوريس الخان والقديس البلغارى .
٨٥٧ — ٨٩١ : فوتيوس بطريق القسطنطينية .
٨٥٨ — ٨٦٧ : البابا نقولاس الأول .
٨٥٩ : روريك أمير الروسيا العظيم .
٨٦٠ — ٩٣٣ : هرلد هارفاجر أول ملوك النرويج .
٨٦٢ : الفرنجياريون فى نوفجرود .
٨٦٣ : بعثة سيريل ومثوديوس إلى المورافيين .
٨٦٧ — ٨٨٦ : باسيل الأول يؤسس أسرة مقدونية .
٨٧١ — ٩٠١ : ألفرد الأكبر .
٨٧٢ : الشماليون يستعمرون أيسلندة .
٨٧٥ — ٨٧٧ : شارل الأصلع ، إمبراطور الغرب .
٨٨٦ : الشماليون يحاصرون باريس .
٨٨٦ — ٩١٢ : ليو السادس الحكيم ، إمبراطور الغرب .

٨٨٧ وما بعدها : السجل الإنجليزى — السكسونى
٨٨٨ : أدو ملك فرنسا .
٨٩٣ — ٩٢٧ : سميون إمبراطور البلغار .
٨٩٩ — ٩٤٣ : المجر يعيثون فى أوروبا فساداً .
٩٠٥ : سانكو الأول يؤسس مملكة نبرة .
٩١٠ : تأسيس دير كلونى .
٩١١ : كنراد الأول ملك ألمانيا ، رُولو دوق نورمنديا .
٩١٢ — ٩٥٠ : قنسطنطين السابع يورفيرو جنتيوس .
حوالى ٩١٧ : الديوان اليونانى .
٩١٩ — ٩٣٦ : هنرى الأول الصياد ملك ألمانيا .
٩٢٥ — ٩٨٨ : القديس دنستان .
٩٢٨ — ٩٣٥ : فنسسلاس الأول ملك بوهيميا .
٩٣٠ : تأسيس الألثنج الأيسلندى .
٩٣٤ — ٩٦٠ : هاكون الصالح ملك النرويج .
٩٣٦ — ٩٧٣ : أتو الأول ملك ألمانيا .
٩٥٠ : أوج الحضارة الأيرلندية فى العصور الوسطى .
٩٥٥ : أتو يهزم المجر على وادى لك .
٩٦١ : دير القديس لافرا على جبل أثوس .
٩٦٢ : أتو الأول إمبراطوراً على الغرب .
٩٦٣ : أتو يخلع البابا يوحنا الثانى عشر .
٩٦٣ — ٩٦٩ : نقفور فوقاس إمبراطور الشرق .
٩٦٥ — ٩٩٥ : هاكون « الإيرل العظيم » ملك النرويج .
٩٦٨ : هرسويزا ، المؤلف المسرحى .
٩٧٣ — ٩٨٣ : أتو الثانى إمبراطور ألمانيا .
٩٧٥ — ١٠٣٥ : سانكو العظيم ملك نبره .
٩٧٦ : معجم سويداس .
٩٧٦ — ١٠١٤ : بريان بورمها ملك منستر .
٩٧٦ — ١٠٢٦ : باسيل الثانى إمبراطور الشرق .
٩٧٦ — ١٠٧١ : كنيسة القديس مرقس فى البندقية .
٩٨٠ — ١٠١٥ : ڤلادمير الأول ملك كيف .
٩٨٣ — ١٠٠٢ : أتو الثالث إمبراطور ألمانيا .
٩٨٧ — ٩٩٦ : هيوكابت يؤسس الأسرة الكابتية من ملوك فرنسا .
٩٨٩ : الروسيا تعتنق المسيحية .
٩٩٢ — ١٠٢٥ : بولسلاف الأول أول ملوك پولندة .
٩٩٤ وما بعدها : الإصلاح الكلونى للأديرة .

٩٩٧ — ١٠٣٨ : القديس اسطيفن ملك المجر .

٩٩٩ — ١٠٠٣ : البابا سلفستر الثانى (جربرت) .

١٠٠٠ : ليف إركسون فى « ڤنلندة » .

١٠٠٢ — ١٠٢٤ : هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا .

١٠٠٧ — ١٠٢٨ : ڤلبرت أسقف شارتر .

١٠٠٩ — ١٢٠٠ : الطراز الرومانسى الألمانى .

١٠١٣ : سوين الدنمرقى يفتح إنجلترا .

١٠١٤ : بريان بورمها يهزم الشماليين فى كلنتارف .

١٠١٥ — ١٠٣٠ : القديس أولاف ملك النرويج .

١٠١٦ — ١٠٣٥ : كنوت ملك إنجلترا .

١٠١٨ — ١٠٨٠ : ميخائيل پسلوس ، المؤرخ .

١٠٢٢ — ١٠٨٧ : قسطنطين الأفريقى ، المترجم .

١٠٢٤ — ١٠٣٩ : كنراد الثانى إمبراطور ألمانيا .

١٠٢٨ — ١٠٥٠ : زوى وثيودورا يحكمان الدولة الشرقية .

١٠٣٣ — ١١٠٩ : القديس أنسلم .

١٠٣٤ — ١٠٤٠ : دنكان الأول ملك اسكتلندة .

١٠٣٥ — ١٠٤٧ : مجنوس الصالح ملك النرويج .

١٠٣٩ — ١٠٥٦ : هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا .

١٠٤٠ — ١٠٥٧ : ماكبث المغتصب ملك اسكتلندة .

١٠٤٠ — ١٠٩٩ : ردريجو ديار السيد .

١٠٤٣ — ١٠٦٦ : إدورد المعترف ملك إنجلترا .

١٠٤٦ — ١٠٧١ : كنيسة القديس أمبروز فى ميلان .

١٠٤٨ وما بعدها : دير چوميچ .

١٠٤٩ — ١٠٥٤ : البابا ليو التاسع .

١٠٥٢ : وفاة إيرل جدون ، السياسى .

١٠٥٤ : انفصال الكنيسة اليونانية عن الكنيسة الرومانية .

١٠٥٥ — ١٠٥٦ : ثيودورا إمبراطورة على الشرق .

١٠٥٦ — ١١٠٦ : هنرى الرابع إمبراطور ألمانيا .

١٠٥٧ — ١٠٥٩ : إسحق كمنينوس إمبراطور الشرق .

١٠٥٧ — ١٠٧٢ : بطرس دميان أسقف أستيا .

١٠٥٨ : ملكلم الثالث ملك اسكتلندة يخلع مكبث .

١٠٥٩ — ١٠٦١ : البابا نقولاس الثانى ، تأسيس مجمع الكرادلة .

١٠٦٠ : روبرت جوسكارد دوق أپوليا .

١٠٦١ — ١٠٩١ : فتح النورمان لصقلية .

١٠٦٣ : الأمير هارولد يفتح ويلز .

١٠٦٣ وما بعدها : كنيسة بيزا الكبرى .

١٠٦٦ : هارولد ملك إنجلترا ، واقعة هيستنجس ، فتح النورمان لإنجلترا .

١٠٧٣ — ١٠٨٥ : البابا جريجورى السابع هلدبراند .

١٠٧٥ : المرسوم المناهض لتولية غير رجال الدين ، حرمان هنرى الرابع .

١٠٧٧ : هنرى الرابع في كنوسا .

١٠٨١ — ١١١٨ : ألكسيوس الأول إمبراطور الشرق .

١٠٨٥ : نهب روبرت جوسكارد لرومة .

الباب الثامن عشر

العالم البيزنطى

٥٦٥ — ١٠٩٥

الفصل الأول

هرقل

إذا حولنا الآن نظرتنا من الجانب الشرقى للنزاع الدائم بين الشرق والغرب ، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تنتابها محنتان فى وقت واحد : تمزقها الانقسامات فى الداخل ، ويهاجمها الأعداء من جميع الجهات فى الخارج . فقد كان الآفار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضى الإمبراطورية وبلدانها ؛ وكان الفرس يستعدون لاجتياح آسية الغربية ؛ وخسر القوط الغربيون أسبانيا ، واستولى اللمبارد بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على نصف إيطاليا (٥٦٨) . وفشا الطاعون فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى عام ٥٤٢ وعاد إليها مرة أخرى فى عام ٥٦٦ ؛ وعمتها المجاعة فى عام ٥٦٩ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل الاتصال ، ووقفت فى سبيل التجارة ، وقضت على الآداب والفنون .

وكان خلفاء جستنيان أباطرة أولى قوة وكفاية ، ولكن المشاكل التى واجهتهم لم يكن فى وسع أحد أن يتغلب عليها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم

بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع . وقاتل جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) الفرس الساعين إلى التوسع قتال الأبطال ؛ ولم تكد الآلهة تضن على تيبيريوس الثانى بكل ما لديها من الفضائل ، ولكنها اختصرته بعد حكم عادل قصير . وهاجم موريق الآفار الغزاة بشجاعة ومهارة ، ولكنه لم يلق من الأمة إلا قليلا من التأييد ، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة فراراً من الخدمة العسكرية ؛ ولما أن نهى موريق الأديرة عن قبول أعضاء جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه . وتزعم فوقاس الذى عمر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامة على الأشراف والحكومة (٦٠٢) ، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيه ؛ وأبى الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تنجيه من القتل بأن تستبدل ابنها هى به ؛ فلما قطع رأسه علقت الرؤوس الستة لتتمتع بها أعين الشعب ، وألقيت جثثهم فى البحر . وذبحت الإمبراطورة قسطنطينة ، وبناتها الثلاث ، وكثير من الأشراف ، وكان مقتلهم مصحوباً فى العادة بضروب من التعذيب ، بعد محاكمة أو بغير محاكمة ، فسملت أعينهم ، واقتلعت ألسنتهم من أفواهم ، وبترت أطرافهم ، وارتكبت الفظائع التى تكررت فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية .

وأفاد كسرى الثانى من هذا الاضطراب ، وجدد الحرب القديمة حرب الفرس واليونان ، وعقد فوقاس الصلح مع العرب ، ونقل الجيش البيزنطى كله إلى آسية ؛ ولكن الفرس هزموه فى كل واقعة التقوا به فيها ، واستولى الآفار على جميع الأراضى الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية إلا قليلا منها ، دون أن يلقوا مقاومة ، واستغاث أشراف العاصمة بهرقل إمبراطور أفريقية اليونانى ، ودعوه لينقذ الإمبراطورية وينجى أملاكهم . لكنه اعتذر محتجا بكبر سنه ، وأرسل إليهم ابنه . وجهز هرقل الأصغر عمارة بحرية ، جاء بها إلى البسفور ،

وخلع فوقاس ، وعرض جثة المغتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب ، ونودى به إمبراطوراً (٦١٠) . .

وكان هرقل خليقاً باسمه ولقبه ، فقد شرع بعزيمة سميه هرقل الأسطورى يعيد تنظيم الدولة المحطمة ، وقضى عشر سنين يعمل لإحياء روح الشعب المعنوية ، ويعيد قوة الجيش ، وينظم موارد الخزانة ، ووهب الأرض للزراع على شريطة أن يؤدى أكبر أبناء الأسرة الخدمة العسكرية : وفى هذه الأثناء استولى الفرس على أورشليم (٦١٤) ، وتقدموا إلى خلقدون (٦١٥) ؛ ولم ينقذ عاصمة الدولة وأوربا إلا الأسطول البيزنطى . ولم يمض بعد ذلك إلا قليل حتى زحفت جحافل الآفار على القرن الذهبى ، وأغاروا على أرباض العاصمة ، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء . وكانت نتيجة خسارة الأراضى الخصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى خسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب عن المدينة ، وأرغمت الحكومة على قطع إعانات الغذاء عن الأهلين (٦١٨) ، وفكر هرقل فى يأس أن ينقل جيشه إلى قرطاجنة ، وأن يحاول منها استرجاع مصر . ولكن الأهلين والقساوسة منعوه من المسير ، ورضى البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة الكنيسة اليونانية بفائدة ، ليمول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشليم[٣] . ولهذا تصالح هرقل مع الآفار ثم زحف آخر الأمر لقتال الفرس .

وكانت الحروب التى أعقبت هذا الزحف آيات فى التفكير والتنفيذ . فقد واصل هرقل الحرب على أعدائه ست سنوات ، هزم فيها كسرى عدة مرار ، وحاصر فى أثناء غيابه جيش من الفرس ، وجحافل من الآفار ، والبلغار والصقالبة مدينة القسطنطينية (٦٢٦) ؛ فسير هرقل جيشاً هزم الفرس فى خلقدون ، ومزقت حامية العاصمة وعامتها بتحريض البطريق جحافل البرابرة . ودق هرقل أبواب طيسفون ، وسقط كسرى الثانى ، وطلبت فارس الصلح ، وردت

كل ما كان كسرى قد استولى عليه من الإمبراطورية اليونانية ، وعاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين .

ولم يكن هرقل خليقاً بمصيره الذى جلله العار فى سن الشيخوخة . فبينا هو يبذل ما بقى لديه من نشاط فى إصلاح شئون الإدارة بعد أن هد المرض قواه إذ انقضت قبائل العرب على بلاد الشام (٦٣٤) ، وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى ، واستولت على بيت المقدس (٦٣٨) ، ثم استولت على مصر بينا كان الإمبراطور يعانى سكرات الموت (٦٤١) . وكانت فارس وبيزنطية قد جرت كلتاهما الخراب على الأخرى بحروبها العوان . وواصل العرب انتصاراتهم فى أيام قنسطانس Constans الثانى (٦٤٢ — ٦٦٨) ، وظن قنسطانس أن لا نجاة للإمبراطورية ، فقضى آخر سنى حياته فى الغرب ثم قتل فى سرقوسة . وكان ابنه قسطنطين الرابع بجنونوتس Pognonotus أقدر منه أو أسعد حظاً . ولما أن حاول المسلمون مرة أخرى فى خلال السنين الخمس الحاسمة (٦٧٣ — ٦٧٨) أن يستولوا على القسطنطينية أنقذت أوربا « النارُ الإغريقية » التى ورد ذكرها وقتئذ لأول مرة . وكان هذا السلاح الجديد ، الذى يعزى اختراعه إلى كلسنيوس Calcinius السورى من نوع قاذفات اللهب المستخدمة فى هذه الأيام ، فهو مزيج حارق من النفط ، والجير الحى ، والكبريت ، والزفت ، يلقى على سفن العدو أو جيوشه فى سهام ملتهبة ، أو يصب عليها من أنابيب ، أو يقذف فى صورة كرات من الحديد مغطاة بالكتان ونسالته المغموسة فى الزيت ، أو يوضع فى قوارب صغيرة وتشعل وتوجه إلى العدو . وأفلحت الحكومة البيزنطية فى الاحتفاظ بسر هذا المزيج مدى قرنين من الزمان ، وكان إفشاؤه يعد خيانة للوطن وإثما دينياً ؛ غير أن المسلمين كشفوا آخر الأمر هذا السر ، واستخدموا « النار الإسلامية » فى حرب الصليبيين . وظل هذا السلاح أكثر ما يتحدث عنه الناس فى العصور الوسطى فى العالم كله إلى أن اخترع البارود .

وهاجم المسلمون العاصمة اليونانية مرة أخرى فى عام ٧١٧ ، فعبر جيش من العرب والفرس عدته ثمانون ألف مقاتل بقيادة مسلمة مضيق البسفور عند أبيدوس وحاصر القسطنطينية من خلفها . ثم جهز العرب فى الوقت نفسه عمارة بحرية مؤلفة من ألف وثمانمائة سفينة ، كانت على ما نظن من السفن الصغيرة ، ودخلت هذه العمارة البحرية البسفور ، وكانت تظلل المضيق ، على حد قول أحد الإخباريين ، كأنها غابة متحركة . وكان من حسن حظ اليونان وقتئذ أن جلس على عرش الإمبراطورية فى هذه الأزمة ، بدل ثيودوسيوس Theodosius الثالث الضعيف العاجز ، قائد محنك هو ليو « الإسورى » Leo The Isaurian ، وشرع ينظم وسائل الدفاع ، فوزع قطع الأسطول البيزنطى بمهارة وحنكة ، وتأكد من أن كل سفينة قد زودت بكفايتها من النار الإغريقية ؛ فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى اشتعلت النار فى كل سفينة من سفن العرب ، فلم تكد تبقى على واحدة منها . ثم هجم الجيش اليونانى على المحاصرين ، وانتصر عليهم نصراً حاسماً ارتد المسلمون على أثره إلى بلاد الشام .

الفصل الثانى

محطمو الصور والتماثيل الدينية

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauris فى قليقية ؛ ويقول ثيوفان Theophanes إنه ولد فى هذا الإقليم من أبوين أرمنيين ، ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية ، وأخذ يربى الضأن ، وأرسل منها خمسمائة رأس مصحوبة بابنه ليو هدية منه إلى الإمبراطور جستنيان الثانى . وأصبح ليو فيما بعد جنديا فى حرس القصر ، ثم قائداً لفيلق الأناضول ، ثم اختاره الجيش إمبراطوراً ، والجيش كما لا يخفى لا يرد له اختيار ؛ وكان ليو رجلا طموحاً ، قوى الإرادة ، مثابراً ، صبوراً ؛ وكان قبل اختياره للجلوس على العرش قد هزم عدة مرار جيوشاً إسلامية تفوق جيوشه ؛ كما كان بعد ذلك سياسيا محنكا ، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشئ من التطبيق العادل للقوانين العادلة ، وأصلح نظام الضرائب ، وخفض من أعباء رقيق الأرض ، ووسع نطاق الملكية الزراعية ، ووزع الأراضى على الفلاحين ، وعمر الأقاليم المهجورة ، وأعاد النظر فى القوانين ، ووضعها على أساس إنشائى حكيم ، ولم يكن يعيبه إلا سلطانه الأوتوقراطى .

ولعله قد تشبعت نفسه وهو فى صباه بآسية بفكرة رواقية متزمتة عن الدين سرت إليه من المسلمين ، واليهود ، والمانيين ، واليعاقبة ، ومن تعاليم القديس بولس ، وكلها تذم عكوف جمهرة المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل ، والحرص الشديد على المراسم والطقوس ، والاعتقاد بالخرافات . ولقد نهى العهد القديم فى صراحة تامة (الآية الخامسة عشرة من الأصحاح الرابع من سفر التثنية) المؤمنين على أن يضعوا : « تمثالا منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى شبه بهيمة ما مما على الأرض .... الخ » . وكانت الكنيسة فى أول أمرها تكره الصور والتماثيل

وتعدها بقايا من الوثنية ، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثنى الذى يهدف إلى تمثيل الآلهة . ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر فى القسطنطينية والشرق الهلنستى ، كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية . ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين ، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم ؛ فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور . ولم يعظم الناس الصور التى يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب ، بل عظموا معها خشبة الصليب — حتى لقد أصبح الصليب فى نظر ذوى العقول الساذجة طلسما ذا قوة سحرية عجيبة . وأطلق الشعب العنان لفطرته فحول الآثار ، والصور ، والتماثيل المقدسة ، إلى معبودات ، يسجد الناس لها ، ويقبلونها ، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ، ويتوجونها بالأزهار ، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفى . وفى البلاد التى تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص ، كنت ترى الصور المقدسة ، فى كل مكان — فى الكنائس ، والأديرة ، والمنازل ، والحوانيت — ، وحتى أثاث المنازل ، والحلى ، والملابس نفسها لم تخل منها . وأخذت المدن التى تتهددها أخطار الوباء ، أو المجاعة ، أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية أو على من فيها من الأولياء والقديسين بدل أن تعتمد على الجهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث ؛ وكم من مرة نادى آباء الكنيسة ، ونادت مجالسها ، بأن الصور ليست آلهة ، بل هى تذكر بها فحسب(٤) ، ولكن الشعب لم يكن يأبه بهذه التفرقة .

وغضب ليو الثالث من هذا الإفراط فى التدين من جانب الشعب . وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة ، وحز فى نفسه ما كان يوجهه المسلمون ، واليهود ، والشيع المسيحية المنشقة من المطاعن للخرافات السائدة عند جماهير المسيحيين المتمسكين بدينهم . وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والحكومة ، ويضمن تأييد النساطرة ، واليعاقبة ،

فعقد مجلساً من الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأذاع بموافقتهم في عام ٧٢٦ مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ، وحرم تصوير المسيح والعذراء ، وأمر بأن يغطى بالجص ما على جدران الكنائس من صور . وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم ، ولكن للرهبان وصغار القساوسة احتجوا عليه ، وثار عليه الشعب ، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة ، لأنهم قد روعهم وأثار غضبهم هذا التدنيس المتعمد لأعز رموز دينهم . ونادت قوات الثوار في بلاد اليونان وخلقيدية بإمبراطور آخر ، وسيرت أسطولا ليستولى على العاصمة . ودمر ليو هذا الأسطول ، وزج زعماء معارضيه في السجون ، وفي إيطاليا ، التي لم تنمح منها في يوم من الأيام أساليب العبادات الوثنية ، أجمع الشعب كله تقريبا على معارضة المرسوم ، وطردت مدائن البندقية ، ورافنا ، وروبة عمال الإمبراطورية ، واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا جريجوري الثاني وصب اللعنة على محطمي الصور والتماثيل المقدسة دون أن يذكر اسم الإمبراطور . وانضم بطريق القسطنطينية إلى الثائرين ، وحاول بانضمامه إليهم أن يعيد إلى الكنيسة الشرقية استقلالها عن الدولة ، فما كان من ليو إلا أن خلعه من منصبه (٧٣٠) ، ولكنه لم يعتد عليه ، وبلغ من رأفة الإمبراطور في تنفيذ المرسوم أن ظلت معظم الكنائس إلى يوم وفاته في عام ٧٤١ تحتفظ بمظلاتها وفسيفسائها سليمة .

وسار ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) على نهجه ولقبه المؤرخون المعادون له بذلك اللقب الظريف « كبرونيموس Copronymus » (المشتق من الدبال) . وجمع الإمبراطور الجديد مجلساً من أساقفة الشرق في القسطنطينية (٧٥٤) ، حرم عبادة الصور والتماثيل ، ووصفها بأنها عمل « ممقوت » ، وقال إن « الشيطان قد أعاد عبادة الأوثان إلى سابق عهدها عن طريق عبادتها » . . ولعن « الفنان الجاهل الذي يشكل بيديه النجستين ما لا يصح أن يؤمن

به الناس إلا بتلويهم »(٥) ، وأمر بأن يمحى أو يدمر كل ما فى الكنائس من صور وتماثيل . ونفذ قسطنطين هذا القرار بلا كياسة أو اعتدال ، فسجن من قاومه من الرهبان أو سلط عليهم ألوان العذاب ، فسملت الأعين ، واقتلعت الألسنة ، وجدعت الأنوف مرة أخرى ؛ وعذب البطريق وقطع رأسه (٧٦٧) . وفعل قسطنطين الخامس ما فعله هنرى الثامن فيما بعد ، فأغلق أديرة الرهبان والراهبات ، وصادر أموالها ، وحول مبانيها إلى أغراض غير دينية ، ووزع أرضها على محاسيبه . وجمع عامل الإمبراطورية فى إفسوس ، بموافقة الإمبراطور ، رهبان الولاية وراهباتها ، وأرغم الرهبان على أن يتزوجوا الراهبات وإلا قتلهم جميعاً (٦) . وظل هذا الاضطهاد يجرى فى مجراه خمس سنين (٧٦٣ — ٧٧١) .

وأرغم قسطنطين ابنه ليو الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) على أن يقسم بالجرى على خطة تحطيم الصور والتماثيل السالفة الذكر . وفعل ليو ما مكنته من فعله بنيته الضعيفة ؛ ولما حضرته الوفاة اختار ابنه قسطنطين السادس البالغ من العمر عشر سنين إمبراطوراً (٧٨٠ — ٧٩٧) ، ورشح أرملته إيرينى وصية على العرش حتى يبلغ ولده القاصر سن الرشد . وحكمت إيرينى الإمبراطورية بمهارة وقوة مجردة من الضمير . وكانت تعطف على مشاعر الشعب الدينية وعلى بنات جنسها ، فأنهت فى هدوء عهد تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والأصنام ، وسمحت للرهبان أن يعودوا إلى أديرتهم ومنابرهم ، ودعت رجال الدين فى العالم المسيحى إلى مجمع نيقية الثانى (٧٨٧) ، حيث أعاد ٣٥٠ من الأساقفة ، بزعامة مندوبى البابا ، تعظيم الصور المقدسة — لا عبادتها — وقالوا إنها تعبيـر مشروع عن التقى والإيمان المسيحيين .

وبلغ قسطنطين السادس سن الرشد فى عام ٧٩٠ ؛ ولما رأى أن أمه لا ترغب فى أن تتخلى له عن سلطانها خلعها ونفاها من البلاد وسرعان ما ندم هذا الشاب الظريف على فعلته ، فأعادها إلى بلاطه ، وأشركها معه فى حكم

الإمبراطورية (٧٩٢) ؛ فلما كان عام ٧٩٧ عملت على سجنه وفقء عينيه ، ثم حكمت الدولة بعدئذ بوصفها « إمبراطوراً » لا إمبراطورة . وظلت خمس سنين تصرف شئون الإمبراطورية بحكمة ودهاء ، فخفضت الضرائب ، ووزعت الهبات على الفقراء ، وأنشأت المؤسسات الخيرية ، وجملت العاصمة . وأحبها الشعب ورحب بها ، ولكن الجيش قد ساءه أن تحكمه امرأة أقدر من معظم الرجال . وخرج عليها فى عام ٨٠٢ محطمو الصور والتماثيل ، وخلعوها ، ونادوا بنقفور وزير ماليتها إمبراطوراً . واستسلمت إيرينى لمصيرها فى هدوء ، ولم تطلب إلى الإمبراطور أكثر من ملجأ أمين يليق بمقامها ، فوعدها أن يجيب طلبها ، ولكنه نفاها إلى لسبوس ، وتركها تكسب قوتها القليل بالاشتغال بالحياطة حتى ماتت بعد تسعة أشهر من ذلك الوقت ، لا تكاد تجد درهماً أو صديقاً . وعفا رجال الدين عن جرائمها لتقواها ، ورفعتها الكنيسة إلى مقام القديسين .

الفصل الثالث

نظرة عامة فى أحوال الإمبراطورية

٨٠٢ — ١٠٥٧

إذا أردنا أن نلقى نظرة شاملة على الحضارة البيزنطية نقدرها بها تقديراً صادقاً تطلّب منا ذلك أن نلم بتاريخ كثير من الأباطرة وبعض الإمبراطورات — ولسنا نقصد بذلك ما دبروه ودبرنه من دسائس القصور، والثورات، والاغتيالات، بل نقصد سياستهم، وتشريعاتهم، وجهودهم الطويلة لحماية الإمبراطورية المتناقصة الرقعة من هجمات المسلمين فى الجنوب، والصقالبة والبلغار فى الشمال. وتمثل هذه الصورة من بعض نواحيها البطولة الصادقة: فقد حافظت الإمبراطورية خلال صروف تاريخها، وتقلباته، ومن ظهر على عرشها ومن اختفى عنه من أشخاص، على القسط الأكبر من التراث اليونانى: احتفظت بالنظام الاقتصادى ثابتاً متصلا، وظلت الحضارة قائمة كأن من ورائها دافعاً قوياً غير منقطع من الجهود القديمة لبركليز وأغسطس، ودقلديانوس وقسطنطين. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فهى صورة مؤسية لقواد يرقون إلى السلطة الإمبراطورية على أشلاء منافسيهم، ثم لا يلبثون أن يقتلوا مثلهم، ولمظاهر الأبهة والترف، والعيون المسمولة، والأنوف المجدوعة، والبخور والتقى والغدر، ومن أباطرة وبطارقة لا ضمير لهم يناضلون ليقرروا هل تحكُمُ الإمبراطوريةَ القوّةُ أو الأساطيرُ، السيف أو الكلام. وهكذا نمرّ بنقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١) وحروبه مع هارون الرشيد، وميخائيل الأول (٨١١ — ٨١٣) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلغار هزموه، وليو الخامس الأرمنى (٨١٣ — ٨٢٠) الذى حرم مرة أخرى عبادة الصور والتماثيل والذى اغتيل وهو ينشد ترنيمة للكنيسة، وميخائيل

الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) الأمى « المتلجلج » الذى عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يتزوجها[٧] ، وثيوفيلس (٨٢٩ — ٨٤٢) المشرّع المصلح ، والملك البناء ، والإدارى الحى الضمير الذى أحيا سنّة اضطهاد محطمى التماثيل وقضى عليه الزحار ، وأرملته ثيودورا التى حكمت البلاد نيابة عنه حكما قديراً (٨٤٢ — ٨٥٦) وأنهت عهد الاضطهاد ، وميخائيل الثالث « السكّير » (٨٤٢ — ٨٦٧) الذى أسلم الإمبراطورية بعجزه اللطيف إلى أمه أولا ثم إلى قيصر بارداس Caesar Bardas عمه المثقف القدير بعد وفاتها . ثم تظهر على المسرح على حين غفلة شخصية فذة لم تكن منتظرة تخرج على كل سابقة عدا سابقة العنف ، وتؤسس الأسرة المقدونية القوية .

فقد ولد باسيل المقدونى (٨٦٢ ؟) بالقرب من هدريانوبل Hadriaople من أسرة أرمنية من الزراع . وأسره البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب فى البلاد التى كانت وقتئذ معروفة باسم مقدونية . ثم فرمنهم وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، واتخذ سبيله إلى القسطنطينية ، واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائسا لخيوله لأنه أعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه . وصحب سيده فى بعثة إلى بلاد اليونان ، وهناك استلفت نظر الأرملة دنيليس Danielis وحصل على بعض ثروتها . ولما رجع إلى العاصمة روض جوادا جموحا يملكه ميخائيل الثالث ، فأدخله الإمبراطور فى خدمته ، وظل يرتقى فيها حتى صار رئيس التشريفات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة . وكان باسيل على الدوام قديرا فيما يوكل إليه من الأعمال ، سريع الاستجابة لها ؛ فلما أن طلب ميخائيل زوجا لعشيقته ، طلق باسيل زوجته القروية ، وأرسلها إلى تراقية مع بائنة طيبة ، وتزوج يودوسيا Eudocia التى ظلت فى خدمة الإمبراطور . وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقته ، ولكن المقدونى ظن أنه يستحق العرش جزاء له على فعلته ، فأقنع ميخائيل بأن بارداس يأتمر به ليخلعه ، ثم قتل بارداس بيديه الضخمتين (٨٦٦) ، وكان

ميخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل إمبراطوراً وترك له جميع شئون الحكم . ولما هدده ميخائيل بعزله ، دبر باسيل اغتياله وأشرف على هـذا الاغتيال بنفسه ، وانفرد هو بالإمبراطورية (٨٦٧) . وهكذا كانت المناصب مفتحة الأبواب لذوى الكفاية حتى فى عهد الملكيات الوراثية المطلقة ، وهكذا أنشأ ابن الفلاح الأمى غير المثقف بتذلله وجرائمه أطول الأسر الحاكمة البيزنطية عهدا ، وبدأ حكما دام تسع عشرة سنة امتاز بالإدارة الحازمة ، والقوانين الصالحة ، والقضاء العادل ، والخزانة الغاصة بالمال ، وببناء الكنائس والقصور الجديدة فى المدينة التى استولى عليها . ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته ؛ ولما أن مات بسبب حادث وقع له أثناء الصيد ، انتقل الملك من بعده بهدوء غير معهود إلى ولده .

وكان ليو السادس (٨٨٦ – ٩١٢) مكملا لما فى أبيه من نقص : كان متعلما ، كثير القراءة ، ميالا لعدم الحركة ، دمث الأخلاق ؛ ويقول الثرثارون المغتابون إنه كان ابن ميخائيل لا ابن باسيل ، ولعل يودوسيا نفسها لم تكن متأكدة من أبوته . ولم يكسب لنفسه لقب « الحكيم » بشعره ولا برسالته فى الدين ، والإدارة ، والحرب ، بل كسبه بإعادته تنظيم شئون الحكم الإقليمى والكنسى ، وصياغة القوانين البيزنطية ؛ وتنظيمه الدقيق للصناعة . ومع أنه كان تلميذا للبطريق العالم فوتيوس Photius معجبا به ، وكان هو نفسه خاشعاً تقيا ، فقد هز مشاعر رجال الدين ، وسلى الشعب ، بأربع زيجات ، ماتت منها الأوليان دون أن تنجبا أبناء ؛ وأصر ليو على أن يكون له ولد لأن هذا هو السبيل الوحيدة لوقاية الدولة من حرب الوراثة ، وحرمت المبادئ الأخلاقية الدينية للكنيسة الزواج الثالث ، وأصر ليو على رأيه ، وتوَّجت زوى Zoe زوجته الرابعة إصراره بولد .

وسمى قسطنطين السابع (٩١٢ – ٩٥٨) البرفيروچنتس – « المولود

الأرجون » — أى فى الشقة المبطنة بالبرفيرى المخصصة لأن تستخدمها الإمبراطورات الحاملات . وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبى ، ولكنه لم يرث عنه كفايته الإدارية . وألف لابنه كتابين فى فن الحكم : أحدهما فى ولايات الدولة وثانيهما كتاب فى الاحتفالات يصف فيه ما يطلب إلى الإمبراطور من المراسم وآداب اللياقة . وأشرف على جمع مؤلفات فى الزراعة ، والطب ، والطب البيطرى ، وعلم الحيوان ، ووضع « تاريخا للعالم مستمدا من المؤرخين » بجمع مختارات من كتب المؤرخين والإخباريين ، وازدهرت الآداب البيزنطية بفضل تشجيعه ومناصرته ، ولكنه كان ازدهار على طريقتها المصقولة الهزيلة .

وربما كان رومانوس الثانى (٩٥٨ — ٩٦٣) كغيره من الأطفال يقرأ كتب أبيه . وقد تزوج بفتاة يونانية تدعى ثيوفانو Theophano ؛ وظن أنها دست السم لحميها وعجلت موت رومانوس ؛ وقبل أن يموت زوجها البالغ من العمر أربعا وعشرين سنة أغوت إلى أحضانها القائد الزاهد نقفور الثانى فوقاس ، واغتصب القائد العرش وغضت هى النظر عن ذلك الاغتصاب . وكان نقفور قد أخرج المسلمين من حلب وإقريطش (كريت) (٩٦١) ؛ ثم أخرجهم من قبرص فى عام ٩٦٥ ، ومن أنطاكية فى عام ٩٦٨ ؛ وكانت هذه الانتصارات هى التى زلزلت أركان الخلافة العباسية . وطلب نقفور إلى البطريق أن يعد كل من يقتلون من الجنود فى حرب المسلمين بكل ما يوعد به الشهداء من جزاء وتكريم ؛ ولكن البابا لم يجبه إلى طلبه بحجة أن جميع الجنود قد دنسوا من قبل بما أراقوه من الدماء ؛ ولو أنه فعل لكان محتملا أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايتها الحقيقية بمائة عام . وفقد نقفور مطامعه وآوى إلى قصره ليعيش فيه معيشة المتعبدين الزاهدين . وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشبيهة بحياة الأديرة فاتخذت لها خليلا القائد تزيميسيس Tzimisces . وقتل هذا القائد نقفور (٩٦٩) واستولى

بعد قتله على العرش وغضت النظر عن هذا الجرم ، ولكن القاتل ندم على فعلته ، ونبذ خليلته ، ونفاها من البلاد ، وخرج هو ليكفر عن جرائمه بانتصارات وقتية غير حاسمة على المسلمين والصقالبة .

وكان الإمبراطور الذى خلفه على العرش من أقوى الشخصيات فى تاريخ بيزنطية . وقد ولد باسيل الثانى لرومانوس وثيوفانو فى عام ٩٥٨ ، وكان إمبراطوراً بالاشتراك مع نقفور فوقاس وتزيمبسيس ؛ ثم بدأ (٩٧٦) وهو فى الثامنة عشرة من عمره حكما منفرداً دام خمسين عاما . واكتنفته فى بداية حكمه المتاعب من كل جانب : فأخذ كبير وزرائه يأتمر به ليغتصب عرشه ، وأمد سادة الإقطاع الذين اعتزم أن يفرض عليهم الضرائب المتآمرين عليه بالمال ، وخرج عليه بارداس اسكلروس Badas Sclerus قائد جيش الشرق ، فأخمد بارداس فوقاس ثورته ، ثم عمل هذا القائد المنتصر على أن يختاره جنوده إمبراطوراً ؛ وكان المسلمون وقتئذ يستردون معظم ما استولى عليه منهم تزيميسيس فى بلاد الشام ، وبلغت قوة البلغار أوجها ، وأخذوا يعتدون على بلاد الإمبراطورية من الشرق والغرب . وقلم باسيل أظفار الفتنة ، واسترد أرمينية من المسلمين ، وحطم قوة البلغار بعد حرب طاحنة دامت ثلاثين عاماً . وبعد أن تم له النصر على البلغار فى عام ١٠١٤ وسمل عيون ١٥٫٠٠٠ أسير ، ولم يترك إلا عينا واحدة لكل مائة واحد منهم ليقود هذه الجموع المنكودة فى عودتها إلى صمويل قيصر البلغار ؛ وأطلق عليه اليونان اسم قاتل البلغار (بلغاراكتونوس Bulgaroctonus) ولعل ذلك كان منهم رهبة له لا إعجاباً به . ووجد بين هذه الحروب وقتاً يشن فيه حرباً شعواء على « الذين أثروا على حساب الفقراء » . فحاول بما سنه من القوانين فى عام ٩٩٦ أن يجزئ بعض الضياع الكبيرة ويشجع انتشار الفلاحين الأحرار . وكان يوشك أن يقود حملة بحرية على المسلمين فى صقلية حين وافته المنية فجاءة وهو فى الثامنة والستين من عمره . ولم تبلغ الإمبراطورية منذ أيام هرقل ما بلغته فى

فى أيامه من السعة ، ولم يكن لها منذ عهد چستنيان مثل ما كان لها فى عهده من القوة .

ودب الضعف مرة أخرى فى جسم الإمبراطورية فى عهد أخيه الشيخ قسطنطين الثامن (١٠٢٥ - ١٠٢٨) . ولم يكن لقسطنطين هذا من الأبناء إلا ثلاث بنات ، فأقنع رمانوس أرجيروس Romanus Argyros أن يتزوج زوى Zoe كبراهن ، وكانت سنها وقتئذ تقرب من الخمسين . وحكمت زوى بمساعدة أختها ثيودورا الدولة بوصفها نائبة عن الإمبراطور طوال عهد رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤) ، وميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤٢) ، وميخائيل الخامس (١٠٤٢) ، وقسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٥) ؛ ولم تشهد الإمبراطورية قبل أيامها حكماً أصلح من حكمها . فقد شنت الأختان حرباً شعواء على الفساد فى الدولة والكنيسة ، وأرغمتا الموظفين على أن يردوا ما اغتصبوه من الأموال ؛ ومن هؤلاء واحد كان رئيس وزراء رد إلى الدولة ٥٣٠٠ رطل من الذهب (٢٢٦,٠٠ ر٢ ريال أمريكى) كان قد خبأها فى حوض ماء ؛ ولما أن مات البطريق ألكسيس Alexis ، وُجد فى حجراته مخبأ يحتوى مائة ألف رطل من الفضة (٢٧,٠٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى)[٩] . ووقف بيع المناصب الحكومية فترة قصيرة ، وجلست الأختان زوى وثيودورا قاضيتين فى أعلى محكمة فى الدولة ، ووزعتا العدالة الصارمة بالقسطاس المستقيم . ولم يكن أحد يضارع زوى فى نزاهتها ؛ من ذلك أنها لما تزوجت قسطنطين التاسع وهى الثانية والستين من عمرها ، وكانت تعرف أن براعتها فى تزيين نفسها بالأصباغ لا تكاد تحتفظ لها إلا بالشىء القليل من جمالها الظاهرى ، سمحت لزوجها الجديد أن يأتى بعشيقته اسكلرينا لتعيش معه فى القصر الإمبراطورى . واختار الإمبراطور حجراته بين حجراتهما ، ولم تكن زوى تزوره قط إلا بعد أن تتأكد أنه بمفرده[١٠] . ولما ماتت زوى (١٠٥٠) آوت ثيودورا إلى دير للراهبات ؛

وحكم قسطنطين التاسع بعد ذلك خمس سنين راعى فيها الحكمة وسلامة الذوق ، فاختار لمعاونته رجالا من ذوى الكفاية والثقافة ، وأعاد تجميل كنيسة أياصوفيا ، وشاد المستشفيات والملاجئ للفقراء ، وناصر الآداب والفنون . ولما مات (١٠٥٥) تزعم أنصار الأسرة المقدونية ثورة شعبية أخرجت العذراء ثيودورا من مأواها فى الدير ، وتوجتها على الرغم منها إمبراطورة . وحكمت مع وزرائها الدولة حكماً صالحاً حازماً على الرغم من أنها كانت وقتئذ فى الرابعة والسبعين من عمرها ؛ ولكنها ماتت فى عام ١٠٥٦ ميتة مفاجئة ، وضربت الفوضى على أثر موتها أطنابها فى البلاد ، فنادى الأشراف بميخائيل السادس إمبراطوراً ، ولكن الجيش فضل عليه القائد إسحق كمنينوس ، وكانت معركة واحدة كافية لحسم النزاع ، فترهب ميخائيل ، ودخل كمنينوس العاصمة فى عام ١٠٥٧ إمبراطوراً . وهكذا قضى على الأسرة المقدونية بعد حكم دام مائة وتسعين عاماً ، كان قوامه العنف ، والحرب ، والزنى ، والتقى ، والإدارة الممتازة .

واعتزل إسحق كمنينوس الملك بعد عامين ، ورشح خلفاً له قسطنطين دوكاس Constantine Ducas ، وآوى هو إلى دير ؛ ولما توفى قسطنطين (١٠٦٧) حكمت أرملته يودوسيا الدولة أربع سنين بوصفها إمبراطورة بالنيابة ، ولكن مطالب الحرب كانت تحتاج إلى قائد أعظم منها قوة ، وأشد حزماً ؛ ولهذا تزوجت رومانوس الرابع وتوجته إمبراطوراً . وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (١٠٧١) ، فعاد إلى القسطنطينية يجلله العار ؛ ثم خلع ، وسجن ، وسملت عيناه ، وترك ليموت من جروحه التى لم يعن بها أحد . ولما جلس على العرش كمنينوس الأول (١٠٨١) ابن أخى إسحق كمنينوس خيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة على الانهيار ، فقد استولى الأتراك على بيت المقدس (١٠٧٦) وأخذوا يزحفون على آسـيـة الصغرى ، وكانت قبائل البتزيناك Patzinak والكومان Cuman تقترب من القسطنطينية من الشمال ، والنورمان يهاجمون

الحصون البيزنطية الأمامية فى البحر الأدرياوى . وكان الجيش والحكومة يفت فى عضدهما الخيانة ، والعجز ، والفساد ، والجبن . وواجه ألكسيوس ذلك الموقف بشجاعة ودهاء ، فوجّه عملاءه إلى إيطاليا الخاضعة للنورمان ليثيروا فيها الفتن ، ومنح البندقية ميزات تجارية على أن تعينه بأسطولها على النورمان ، وصادر كنوز الكنيسة ليعيد بها إنشاء الجيش ، ونزل إلى ميدان القتال بنفسه ، وانتصر فى عدة معارك بفضل مهارته فى الفنون الحربية لا بما سفكه من الدماء ، ووجد بين هذه المشاغل الخارجية وقتاً استطاع أن يعيد فيه تنظيم الدولة ووسائل الدفاع عنها ، ووهب بهذا كله الإمبراطورية المتداعية حياة دامت مائة عام أخرى. فلما كان عام ١٠٩٥ لجأ إلى حيلة دبلوماسية بارعة كان لها أثر بعيد . ذلك أنه استغاث بالغرب لمساعدة الشرق المسيحي ؛ وعرض فى مجلس پياسنزا أن تعود الكنيستان اليونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوربا ضد المسلمين ؛ وكانت هذه الاستغاثة هى وغيرها من العوامل التى أطلقت أولى تلك الحروب المسرحية المعروفة بالحروب الصليبية ، والتى قدر لها أن تنقذ بيزنطية ثم تقضى آخر الأمر عليها .

الفصل الرابع

الحياة فى بيزنطية (٥٦٦ — ١٠٩٥)

وصلت الإمبراطورية اليونانية مرة أخرى فى بداية القرن الحادى عشر إلى ما كانت عليه من القوة والثروة والثقافة فى أوج مجدها أيام جستنيان ، وذلك بفضل ما كان للأسرتين الإسورية والمقدونية من قوة حربية وحنكة سياسية ، فانتزعت من المسلمين آسية الصغرى ، وبلاد الشام الشمالية ، وقبرص ، ورودس ، وخلقيدية ، وإقريطش (كريت) ؛ وعاد جنوبى إيطاليا فأصبح بلاد اليونان الكبرى Magna Grecia تحكمه القسطنطينية ، واستردت بلاد البلقان من البلغار والصقالبة ، وسيطرت التجارة والصناعة البيزنطيتان مرة أخرى على أسواق بلاد البحر المتوسط ، وانتصر المذهب المسيحى اليونانى فى البلقان والروسيا ، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتعان بنهضة مقدونية جديدة ، وبلغ إيراد الدولة فى القرن الثالث عشر ما يوازى ٢ر٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار من نقود هذه الأيام[١١] .

وكانت القسطنطينية نفسها فى أوج عزها ، تفوق رومة القديمة والإسكندرية وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها فى التجارة والثروة ، والترف والجمال ، والرقة والفن . وكان معظم سكانها البالغ عددهم نحو مليون من الأنفس[١٢] من الأسيويين والصقالبة — الأرمن ، والكبدوكيين ، والسوريين ، واليهود ، والبلغار ، واليونان أنصاف الصقالبة ، يمتزج بهم ويلونهم تجار وجنود من الإسكنديناويين ، والروس ، والطليان ، والمسلمين ، وتغشيهم طبقة رقيقة من الأشراف اليونان . وكان فى داخل الإطار الخارجى المكون نصفه من الذهب ونصفه من الوحل ، والذى تدور فيه الحياة المنتجة الخصيبة فى العاصمة البيزنطية

ألف نوع ونوع من المنازل - ذات السقوف الهرمية والسطوح أو القباب - ذات شرفات ، وبوائك ، وحدائق أو عرائش ؛ وأسواق غاصة بحاصلات العالم كله ، وألف شارع وشارع ضيق موحل تحف به المساكن والحوانيت ، وكثير من الشوارع الواسعة تكتنفها القصور الفخمة ، والأروقة الظليلة ، مليئة بالتماثيل تتخللها أقواس النصر ؛ وتتصل المدينة بالريف من خلال أبواب محروسة فى أسوار حصينة ؛ وقصور ملكية معقدة كقصر ثيوفيلس ذى الثلاثة الأجنحة ، وقصر باسيل الأول الجديد ، وقصر نقفور فوقاس الريفى المؤدى بدرج من الرخام إلى رصيف تقوم عليه التماثيل على شاطئ بحر مرمرة ؛ وكنائس « بعدد ما فى السنة من أيام » كما يقول أحد الرحالة » ، بعضها تحف فنية غاية فى الإبداع ، ومذابح تضم أثمن ما فى العالم المسيحى من مخلفات وأكثرها تعظيما وإجلالا ؛ وأديرة لا يستحى من فيها من فخامة مظهرها ، تضطرب من داخلها بالقديسين ذوى الكبرياء ، وكنيسة أياصوفيا التى تجدد زينتها على الدوام ، تتلألأ فيها الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد فى جنباتها الترانيم الرنانة التى لا تترك شكا فى النفوس .

وكان فى داخل قصور الأشراف وكبار التجار بالمدينة ، وبيوت الريف المقامة فى مؤخرتها على شاطئ البحر ، كل ما يستطيع ذلك العصر أن يصل إليه من مظاهر الترف والزينة التى لا تحرمها العادات والتقاليد السامية : رخام من كل صنف ولون ، وصور على الجدران وفسيفساء ، وتماثيل وخزف جميل ، وسجف تنزلق على عصى من الفضة ، وأقمشة مصورة على الجدران ، وطنافس ، وحرائر ، وأبواب مطعمة بالفضة والعاج ، وصحاف من الفضة والذهب ؛ فى هذه البيئة يتحرك المجتمع البيزنطى ، رجال ونساء حسان الوجه والقوام ، عليهن أثواب من الفراء والحرير الجميل اللون الموشى بالمخرمات ، لا ينقصن فى رشاقتهن ، ومغامراتهن الحبية ، ودسائسهن عن أهل باريس وفرساى فى عهد آل بوربون . ولم تعرف

النساء قبل ذلك العهد مساحيق أبهى أو عطوراً أذكى أو جواهر أثمن أو تصفيفاً للشعر أجمل مما عرفته نساء ذلك العصر . وكانت النار تبقى متقدة في القصور الإمبراطورية طوال أيام العام لتطبخ عليها العطور التي يتطلبها تعطير الملكات والأميرات[١٣] . ولم تكن الحياة في أي وقت من الأوقات السابقة أكثر زينة وأشد تكلفاً ، وأكثر حفلات ، واستقبالات ، ومناظر ، وألعاباً ، واستمساكا بالمراسم ، وأشد مراعاة لآداب اللياقة منها في ذلك الوقت . وكان الأرستقراط المتأصلون في أرستقراطيتهم إذا خرجوا إلى مضمار السباق ، أو وجدوا في بلاط الإمبراطور ، يتباهون بأثوابهم الجميلة ، وإذا ساروا في الطرق العامة اندفعوا بعرباتهم الفخمة لا يبالون بالراجلين الفقراء فكسبوا بذلك عداوتهم ؛ وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا من أجله لعنة رجال الدين الذين كانوا يخدمون الله في آنية وعلى مذابح من الرخام ، والمرمر ، والفضة ، والذهب . ويقول ربرت الكلارى Robert of Clari إن القسطنطينية في ذلك الوقت كانت تحتوى على « ثلثى ثروة العالم كله » ؛ « وحتى العامة أنفسهم » كما يقول بنيمين التطلى « من السكان اليونان وكأنهم كلهم أبناء ملوك »[١٥] .

ووصفها أحد كتاب القرن الثانى عشر فقال : « إذا كانت القسطنطينية تفوق سائر المدن في ثرائها ، فإنها تفوق هذه المدن أيضاً في رذائلها »[١٦] . ذلك أن جميع رذائل المدن الكبرى قد وجدت لها مكانا فيها بين أغنيائها وفقرائها على السواء . فالقسوة الوحشية والتقوى كانتا تتبادلان الاستحواذ على نفوس الأباطرة ، وفي نفوس العامة كان يمكن التوفيق بين الحاجة الشديدة إلى الدين ومفاسد السياسة والحرب أو عنفهما ، وظل إخصاء الأطفال لاتخاذهم خصياناً في بيوت الحريم وأعمال الإدارة ، واغتيال المطالبين بالعرش أو الذين يخشى أن يكونوا مطالبين به أو سمل عيونهم ، ظلت هذه الجرائم تسير سيرها خلال حكم الأسر المختلفة ، وخلال التغيرات الرتيبة المملة التى لا تنقطع . وكانت جماهير

الشعب التي أفسدت نظامها وسخرتها الانقسامات العنصرية ، والطائفية ، والدينية ، كانت هذه الجماهير متقلبة لا يقر لها قرار ، متعطشة للدماء ، تضطرب وتثور من آن إلى آن ، ترشـــوها الدولة بوجبات الطعام المكونة من الخبز والزيت والخمر بلا ثمن ؛ ويسليها سباق الخيل ، ومصارعة الوحوش ، والرقص على الحبال ، والتمثيليات الصامتة الفاحشة البذيئة في الملاهي ، والمراكب الإمبراطورية أو الكنسية في الشوارع . وكانت قاعات الميسر لا يخلو منها مكان ، وتكاد بيوت العاهرات توجد في كل شارع ، بل كانت في بعض الأحيان « تلاصق أبواب الكنائس »[١٧] . واشتهرت نساء بيزنطية بدعارتهن وورعهن ، كما اشتهر رجالها بحدة الذكاء والطموح والتجرد من الضمير . وكانت كل الطبقات من سكانها تؤمن بالسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، والعرافة ، والاتصال بالشياطين ، والتمائم ذات القوة المعجزة . وكانت الفضائل الرومانية القديمة قد اختفت حتى قبل اختفاء اللغة اللاتينية . وقضى على الصفات الرومانية واليونانية سيل من الشرقيين فقدوا هم أيضاً مبادئهم الأخلاقية ، ولم يستعيضوا عنها إلا بالألفاظ الجوفاء . ومع هذا فإن الكثرة الغالبة من الرجال والنساء في هذا المجتمع المتطرف في دينه وشهواته كانوا مواطنين ومؤدبين وآباء محتشمين يسكنون بعد لهو الشباب إلى حياة الأسر وما فيها من متع وأحزان ، ويؤدون الأعمال الدنيوية وهم كارهون . وهؤلاء الأباطرة الذين كانوا يسملون عيون منافسيهم يغدقون الصدقات على المستشفيات وملاجئ الأيتام ، والعجزة ، ونزل المسافرين المجانية[١٨] . وكانت طبقة الأشراف ، التي يخيل إلى الناس أن الترف والراحة ديدنها وشغلها الشاغل كل يوم ، تضم مئات من الرجال يقبلون على أعمال الإدارة والسياسة بغيرة يختلط بها الطمع في الكسب والإنشاء ، واستطاعوا بطريقة ما ، وبالرغم مما يتعرضون له من الانقلابات وما يحاك حولهم من الدسائس ، أن ينقذوا الدولة من كل كارثة تلم بها ، وأن

يقيموا فيها نظاماً اقتصادياً أغدق عليها من الرخاء أكثر ما شهده العالم المسيحى فى العصور الوسطى .

وكانت البيروقراطية التى أنشأها دقلديانوس وقسطنطين قد صارت فى مدى سبعة قرون أداة قوية فعالة فى إدارة شئون الحكم ؛ وصلت إلى كل إقليم من أقاليم الدولة . وكان هرقل قد استعاض عن تقسيم الدولة القديم إلى ولايات تقسيمها إلى وحدات عسكرية على رأسها حاكم عسكرى (استراتيجوس Strategos) ، وكان هذا التقسيم وسيلة من مائة وسيلة عدلت بها الأنظمة البيزنطية لمواجهة الغزو الإسلامى . واحتفظت الوحدات الجديدة بقسط كبير من الحكم الذاتى وعمها الرخاء تحت إشراف الإدارة المركزية ، فقد حباها هذا النوع من الحكم استمراراً فى النظام دون أن يلقى على كاهلها العبء المباشر للنزاع والعنف اللذين كانت تضطرب بهما العاصمة ؛ فبينا كانت العاصمة يحكمها الإمبراطور والبطريق ، والغوغاء ، كانت الوحدات العسكرية يحكمها القانون البيزنطى . وبينا كانت البلاد الإسلامية توحد بين القانون والدين ، وبينا كان غرب أوربا يتعثر فى فوضى عدد كبير من قوانين القبائل الهمجية ، كان العالم البيزنطى يعض بالنواجذ على تراث چستنيان ويوسع نطاقه ؛ فكانت قوانين چستين الثانى Justin II وهرقل « الجديدة » ، والقوانين « المختارة » التى سنها ليو الثالث ، والمراسيم الملكية التى نشرها ليو السادس ، وقوانين هذا الإمبراطور الجديدة الأخرى ، كانت كل هذه قد كيفت مجموعات قوانين چستنيان كى تتفق مع الحاجات المتغيرة لقرون خمسة . ووهبت كتب القوانين العسكرية ، والكنسية ، والبحرية ، والتجارية ، والريفية ، الأحكام القضائية فى الجيش والكنيسة ، والأسواق والثغور ، والضياع ، والبحار ، نظاماً وثقة بين الناس ، وجعلتها خليقة بأن يعتمد عليها ؛ وكانت مدرسة القانون فى القسطنطينية فى القرن الحادى عشر المركز الثقافى للشئون غير الدينية فى العالم المسيحى . وهكذا احتفظ البيزنطيون بأعظم ما وهبته لهم رومة — ألا وهو

القانون الرومانى — خلال ألف عام من الأخطار والتغيرات ، حتى إذا ما بعث بعثا جديداً فى بولونيا Bologna فى القرن الثانى عشر أحدث انقلاباً عظيما فى القانون المدنى لأوربا اللاتينية والقانون الكنسى للكنيسة الرومانية . وكان القانون البحرى البيزنطى الذى سنه ليو الثالث والمستمد من الأنظمة البحرية لرودس القديمة أول مجموعة من القوانين التجارية فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى ؛ وقد أصبح فى القرن الحادى عشر مصدراً لقوانين أخرى من نوعه فى جمهوريتى ترانى Trani وأملفى Amalfi الإيطاليتين ، ومن هذا الطريق سرى إلى التراث القانونى فى عالمنا الحاضر .

أما القانون الريفى فكان محاولة صادقة جديرة بالثناء للوقوف فى وجه الإقطاع وإنشاء طبقة من الفلاحين الأحرار . فقد وهب هذا القانون قطعاً صغيرة من الأرض إلى الجنود المتقاعدين ؛ وكانت أرض واسعة من أملاك الدولة يزرعها الجند على أن يكون عملهم فيها نوعاً من الخدمة العسكرية ، وكانت مساحات واسعة تزرعها الطوائف الخارجة على الدين المنقولة من آسية إلى تراقية وبلاد اليونان . وكانت أقاليم أوسع رقعة من هذه وتلك تستقر فيها جماعات البرابرة ، ترغمهم على ذلك الحكومة أو تبسط حمايتها عليهم لأنها ترى أن وجودهم فى داخل الإمبراطورية أقل خطورة من وجودهم فى خارجها ؛ وعلى هذا النحو استقر القوط فى تراقية وإليريا ، واللمبارد فى پانونيا ، والصقالبة فى تراقية ومقدونية وبلاد اليونان ؛ ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كان الجنس الصقلبى هو الجنس الغالب فى الپلوپونيز ، وحتى كثر عدد الصقالبة فى أتكا وتسالیا . وتعاونت الدولة والكنيسة على إنقاص عدد الأرقاء ؛ فحرمت الشرائع الإمبراطورية بيع الأرقاء الذين ينضمون إلى الجيش أو رجال الدين أو يتزوجون من شخص حر . وكان عمل العبيد فى القسطنطينية مقصوراً فى الواقع على العمل فى المنازل ، أما فى غيرها من المدن فكانت تجارة الرقيق رائجة .

بيد أن من قوانين التاريخ الصادقة الأكيدة التى لا تكاد تفترق عن قانون نيوتن فى الجاذبية أن الملكيات الزراعية الكبيرة كلما تقاربت واتسعت رقعتها اجتذبت إليها الملكيات الصغيرة ، وأنها بعد فترات من الزمن تجمع هذه الملكيات الصغيرة إلى ضياع كبيرة عن طريق الشراء أو غيره من الطرق ؛ ثم لا يلبث هذا التركيز على مر الزمن أن يتفجر ، فتوزع الأرض مرة أخرى عن طريق الضرائب أو الثورة ، ثم تبدأ عملية التركيز من جديد .

ولقد كانت معظم الأراضى الزراعية فى بلاد الشرق البيزنطية ضياعاً واسعة يمتلكها كبار الملاك المعروفون باسم الديناتوى dynatoi أى « الرجال الأقوياء » ، أو الكنائس ، أو الأديرة ، أو المستشفيات التى ينفق عليها من أرضين أوصى بها إليها الأتقياء الصالحون من الناس . وكانت هذه الأراضى يفلحها رقيق الأرض ، أو فلاحون أحرار من الوجهة القانونية ، ولكنهم مكبلون بالأغلال من الناحية الاقتصادية . وكان ملاك الأرض تحيط بهم بطانة من الموالى ، والحراس ، وعبيد المنازل ، ويحيون حياة الترف المنعم فى بيوت الريف أو قصور المدن . وترى ما فى حياة أولئك الملاك من خير وشر فى قصة السيدة دنييلس Danielis محسنة باسيل الأول . ذلك أنها حين جاءت لزيارته فى القسطنطينية كان ثلثمائة من العبيد يتناوبون على حمل هودجها الذى جاءت فيه من بتراس Patras . وحملت معها لمحسوبها الإمبراطورى هدايا أثمن مما بعث به ملك من الملوك إلى الإمبراطور البيزنطى : منها أربعمائة شاب ، ومائة خصى ، ومائة عذراء . ومنها أربعمائة قطعة من النسيج المنقوش نقشاً فنياً ، ومائة قطعة أخرى من التيل الرفيع (تبلغ كل منها من الرقة درجة تسمح لها بأن توضع فى عقلة غاب) ، ومجموعة من صحاف المائدة مصنوعة من الفضة والذهب . وقد تخلت هذه السيدة فى أثناء حياتها عن كثير من ثروتها ، فلما دنت منيتها أوصت بما بقى لديها منها إلى ابن باسيل ، ووجد ليو السادس أنه قد وُهب ثمانين بيتاً ومزرعة فى الريف ، وأكداساً من النقود

والجواهر والصحاف والأثاث الثمين ، والمنسوجات الغالية ، وما لا يحصى من الماشية ، وآلافاً من العبيد[١٩] .

ولم يكن الأباطرة يسرون كل السرور بهذه الهدايا اليونانية ؛ ذلك بأن هذا الثراء المجتمع من لحوم ملايين الناس ودمائهم كان يكسب أصحابه سلطانا ، وأنهم إذا اجتمعوا كانوا خطراً شـديداً على أى ملك أو إمبراطور . ولهذا كان الأباطرة يعملون بدافع مصالحهم الشخصية وحب الإنسانية على وقف تركيز الثروة على هذا النحو . من ذلك أن شتاء ٩٢٧ - ٩٢٨ القارس قد أعقبه قحط ووباء ، فباع الفلاحون أرضهم إلى كبار الملاك بأثمان منخفضة إلى أقصى حد ، ومنهم من تخلى عنها نظير لقمة العيش . ولهذا أصدر رومانوس نائب الإمبراطور « مرسوماً جديداً » يندد فيه بالملاك ويصفهم بأنهم « أظهروا أنهم أشد قسوة من القحط والوباء » ؛ وطالبهم بأن يردوا كل الأملاك التى ابتاعوها من أصحابها بأقل من نصف « الثمن المجزئ » ؛ وأجاز لكل من باع أرضه أن يشترى فى خلال ثلاث سنين ما باعه منها بالثمن الذى باعه به ، ولكن هذا المرسوم لم تكن له نتيجة تستحق الذكر ؛ وظل تركيز الملكية يجرى فى مجراه . ، وزاد الطين بلة أن كثيرين من الفلاحين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن - إلى القسطنطينية إن استطاعوا - وإلى المعيشة من الإعانات الحكومية . وجدد باسيل الثانى النضال بين الأباطرة والأعيان ، فأصدر فى عام ٩٩٦ مرسوماً يبيح للبائع أن يستعيد فى أى وقت ما باعه من الأرض بالثمن الذى باعه به ؛ وألغى عقود الأراضى التى استولى عليها الملاك بطريقة تخالف قانون عام ٩٣٤ ، وأمر بأن تعود هذه الأراضى من فورها إلى ملاكها السابقين ومن غير ثمن . واستطاعت كثرة الملاك أن تحتال على التملص من هذه القوانين ، ونشأ من ذلك فى الشرق البيزنطى فى أزمنة غير متصلة ، قبل بداية القرن الحادى عشر ، نظام معدل من أنظمة الإقطاع : لكن جهود الأباطرة لم تذهب

كلها أدراج الرياح ، ذلك أن من بقوا من الزارع الأحرار مدفوعين بغريزة التملك قد غطوا الأرض بالمزارع ، والبساتين ، والكروم ، والمناحل ، والمراعى ، ونشأت فى ضياع كبار الملاك الزراعة العلمية إلى أقصى ما وصلت إليه فى العصور الوسطى ، وكان تقدم الزراعة البيزنطية بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر يضارع تقدم الصناعة فى تلك البلاد .

واصطبغت الإمبراطورية الشرقية فى ذلك العصر بصبغة حضرية نصف صناعية تختلف كل الاختلاف عن الصبغة الريفية الغالبة على أوربا اللاتينية الواقعة فى شمال جبال الألب ، فكان عمال المناجم وصناع المعادن يعملون بجد فى الكشف عن مناجم الرصاص ، والحديد ، والنحاس ، والذهب واستغلالها . وكانت القسطنطينية ومائة مدينة غيرها — أزمير ، وطرسوس ، وإفسوس ، ودورزو ، ورراجوسا ، وپتراس ، وكورنثة ، وطيبة ، وسلانيك ، وهدريانوپل ، وهرقلية ، وسليمبريا — تتردد فيها أصوات دابغى الجلود ، وصانعى الأحذية ، والسروج ، والأسلحة والصياغ ، وصناع الحلى ، وطارقى المعادن ، والنجارين ، والحفارين على الخشب ، وصانعى العجلات ، والخبازين ، والصباغين ، والنساجين ، والفخرانيين ، وصانعى الفسيفساء ، والنقاشين . وكانت القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة فى القرن التاسع مراكز للصناعة والتبادل التجارى تكاد تضارع فى سرعة حركتها وجنونها أية حاضرة من الحواضر فى هذه الأيام : وظلت العاصمة اليونانية ، بالرغم من المنافسة الفارسية تتزعم العالم الأبيض فى إنتاج المنسوجات الرفيعة والحريرية ، ويليها فى هذا أرجوس ، وكورنثة ، وطيبة . ونظمت صناعة النسيج أحسن تنظيم ، وكانت تستخدم كثيراً من العبيد ، أما غيرها من الصناعات فكانت تستخدم صناعاً أحراراً . وكان صعاليك القسطنطينية وسلانيك يحسون

بسوء حالهم ، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها . وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد ، محبة للكسب ، متصدقة ، مجدة ، ذكية ، محافظة أشد المحافظة . وانتظمت الصناعات الكبرى بصنّاعها ، وفنّانيها ، ومديريها ، وتجارها ، ومحاميها ، ورجال مالها فى جماعات نقابية — سسماتا Sytemata — تحدرت من الجماعات القديمة المعروفة بالكوليجيا والأرتيس ، وتشبه الوحدات الاقتصادية الكبيرة فى الدول الحديثة ذات الصناعات الجماعية . وكانت كل جماعة نقابية منها تحتكر عملاً من الأعمال يتفق مع تكوينها ، ولكنها كانت مقيدة أشد التقييد بأنظمة خاصة بمشترياتها ، وبأثمانها ، وأساليب صناعتها ، وشروط البيع ؛ وكان مفتشون حكوميون يراقبون أعمالها وحساباتها ، وكانت القوانين فى بعض الأحيان تحدد أقصى الأجور . أما الصناعات الصغرى فكانت تُترك للصناع الأحرار وللنشاط الفردى . وقد أفادت الصناعة البيزنطية من هذا نظاماً ، ورخاء ، واتصالا ، ولكن نظامها حال دون الابتكار والاختراع ، ومال بها إلى الجمود وركود الحياة[٢٠] .

وكانت الحكومة تشجع التجارة بتعضيدها ، وبمراقبة الأهوسة ، والموانى وتنظيم التأمينات والقروض بضمان السفن ، وتَشِنُ حرباً شعواء على القرصنة ، وكانت العملة البيزنطية أكثر عملات أوربا ثباتاً . وكان للحكومة البيزنطية إشراف واسع شامل متغلغل فى جميع الأعمال التجارية — فكانت تحرم تصدير بعض المواد والسلع ، وتحتكر تجارة الحبوب والحرير ، وتفرض عوائد على الصادرات والواردات ، وضرائب على المبيعات[٢١] . وكادت هى تدعو غيرها من الدول إلى أن تحل محلها فى سيادتها التجارية القديمة على بحر إيجة والبحر الأسود بسماحها إلى التجار الأجانب — الأرمن ، والسوريين ، والمصريين ، والأملفيين والبيزيين ، والبنادقة ، والجنويين ، واليهود ، والروس ، والقطلانيين — بنقل

معظم بضائعها هي ، وبإنشاء وكالات شبه مستقلة في العاصمة أو بالقرب منها : وكان الربا مباحاً ، ولكن القانون كان يحدد سعر الفائدة باثني عشر أو عشرة ، أو ثمانية عشر في المائة ، أو بأقل من ذلك في بعض الأحيان . وكان رجال المصارف كثيري العدد ، ولعل المرابين في القسطنطينية لا المرابين الطليان هم الذين أوجدوا نظام السفاتج القابلة للتحويل[٢٢] ، ووضعوا أوسع نظام للائتمان عرفه العالم المسيحي قبل القرن الثالث عشر .

الفصل الخامس

النهضة البيزنطية

ونشأ من كدح الشعب وحذقه ، ومن أموال الأغنياء الزائدة على حاجتهم ، إحياء عجيب للآداب والفنون فى القرنين التاسع والعاشر . ذلك أن الدولة وإن ظلت إلى آخر أيام حياتها تسمى نفسها الدولة الرومانية ، فإن ما فيها من العناصر اللاتينية إلا القليل منها كان قد اختفى كله تقريباً ما عدا القانون الرومانى . فأضحت اللغة اليونانية فى الشرق البيزنطى من أيام هرقل هى لغة الحكومة ، والأدب ، والشعائر الدينية ، ولغة الحديث اليومى . وأصبح التعليم كله يونانيا ، وكان كل حر من الذكور ، وكثير من النساء ، بل وكثير من الأرقاء ، يتلقى قدراً ما من التعليم ؛ وأحيا قيصر بارداس Caesar Baradas (٨٦٣) جامعة القسطنطينية التى تركت لتضمحل وتموت ، كما تركت الآداب بوجه عام ، خلال ما حدث من الأزمات فى عهد هرقل ، وذاعت شهرة هذه الجامعة بما كانت تدرسه من المناهج فى فقه اللغة ، والفلسفة ، وعلوم الدين ، والهيئة ، والرياضة ، والأحياء ، والموسيقى ، والآداب ؛ وحتى ليبانيوس الوثنى ولوشيان الكافر كانا متعنمين . وكان التعليم فى العادة من غير أجر للطلاب ذوى المؤهلات ، وكانت الدولة تتكفل بمرتبات المدرسين . وكثرت فى البلاد دور الكتب العامة والخاصة ، وظلت تحتفظ بروائع المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة التى جر عليها النسيان ذيوله فى الغرب المضطرب .

وكان انتقال التراث اليونانى فى هذا النطاق الواسع منبها للعقول ومقيداً لها معاً . فقد كان من جهة مقوياً للتفكير وموسعاً لمداه ، ومشجعاً على الخروج من

أساليب البلاغة الوعظية الرتيبة القديمة ، والجدل الدينى . ولكن ثراءه نفسه كان عائقاً له من الابتكار ، لأن الابتكار أيسر على الجاهل منه على المتعلم . وكان أهم ما تهدف إليه الآداب البيزنطية أن توائم النساء المثقفات ذوات الفراغ ؛ والرجال المثقفين الذين لايعملون . وكانت هذه الآداب هلنستية لا يونانية ؛ ولهذا كانت تطفو على ظاهر الحياة البشرية ولا تتعمق إلى قلبها . وقد اقتصر التفكير بتأثير العادات التى كسبها فى مراحله الأولى على دائرة المتمسكين بالدين القويم ، وكان محطمو الصور والتماثيل الدينية أتقى من القساوسة وإن كان رجال الكنيسة فى ذلك العهد شديدى التسامح إلى حد عجيب .

وشهدت الإسكندرية عصراً آخر من عصور النهضة العلمية شبيها بعصرها القديم أخذ فيه العلماء يحللون اللغة ، ويبحثون ويلخصون فى علم العروض ، ويؤلفون الكتب المجملة ، والتواريخ العالمية ، ويجمعون المعاجم والموسوعات والدواوين . ففيه (٩١٧) جمع قسطنطين كفالاس Constantine Cephalas الديوان اليونانى . وفيه (٩٧٦) جمع سويداس معجمه الكبير الغزير المادة . وألف ثيوفانيس (حوالى ٨١٤) وليو الشماس (المولود فى عام ٩٥٠) تاريخين قيمين لأيامهما والأيام القريبة منها ، وألف بولس الإيجينى Paul of Aegina (٨١٥ — ٨٩٠) موسوعة فى الطب جمعت بين نظريات المسلمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأرباسيوس Oribasius ، وتتحدث بلغة تكاد تشبه لغة هذه الأيام عن جراحات لسرطان القلب ، وعن البواسير ، وعن قنطرة المثانة ، واستخراج الحصاة منها ، والإخصاء ؛ ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتى الأطفال فى حمام حار[٢٣] .

وكان أعظم العلماء البيزنطيين فى هذه القرون الثلاثة معلماً خامل الذكر معدماً يدعى ليو السلانيكى (حوالى ٨٥٠) ، لم تأبه القسطنطينية لوجوده حتى دعاه أحد الخلفاء إلى بغداد . ذلك أن أحد تلاميذه أسره المسلمون فى حرب من

الحروب وأصبح عبداً لأحد عظماء المسلمين ، وسرعان ما دهش هذا العظيم من علم هذا الشاب بالهندسة . وعرف المأمون خبره فأغراه بالاشتراك فى نقاش مسائل هندسية فى قصره . وأعجب الخليفة بعلمه ، واستمع بشغف عظيم إلى ما قاله عن معلمه ، وأرسل من فوره يدعو ليو إلى بغداد وإلى الثراء والجاه . واستشار ليو فى ذلك موظفاً بيزنطياً ، ثم استشار هذا الموظف الإمبراطور ، ثيوفيلس ، فأسرع هذا إلى تعيين ليو أستاذاً . وكان ليو ملماً بكثير من العلوم فكان يؤلف فى الرياضة والهيئة ، والتنجيم ، والطب ، والفلسفة ويعلّمها . وعرض عليه المأمون عدة مسائل فى الهندسة والهيئة وسُرّ من إجابته عنها سروراً جعله يعرض على ثيوفيلس صلحاً أبدياً وألفى رطل من الذهب إذ أعاره ليو إلى أجل قصير . ورفض ثيوفيلس هذا العرض وعين ليو كبيراً لأساقفة سلانيك لكي يبعده عن متناول يد المأمون(٢٤) .

وكان ليو ، وفوتيوس Photius ، وبسلوس Psellus كواكب ذلك العصر المنيرة . فأما فوتيوس (٨٢٠ ؟ — ٨٩١) أعلم أهل زمانه فقد ارتقى فى خلال ستة أيام من رجل عادى إلى بطريق ، فكان بذلك من رجال التاريخ الدينى ، وأما ميخائيل بسلوس (١٠١٨ ؟ — ١٠٨٠) فكان من رجال هذا العالم ومن حاشية الإمبراطور ، مستشاراً للملوك والملكات ، وكان فلتير عصره إلا أنه كان دمث الأخلاق مستمسكاً بالدين ، فى وسعه أن يبهر الناس فى كل موضوع ؛ ولكنه كان يرسو على قرار مكين بعد كل نقاش دينى وكل ثورة فى القصر . ولم يكن يسمح بحبه الكتب أن يطغى على حبه الحياة ؛ وكان يعلّم الفلسفة فى جامعة القسطنطينية ، ومنح فيها لقب أمير الفلاسفة ؛ ثم دخل ديراً ، فلما وجد حياة الأديرة أهدأ من أن تطاق عاد إلى الدنيا ، وكان رئيساً للوزراء من ١٠٧١ إلى ١٠٧٨ ؛ ووجد من وقته متسعاً للكتابة فى السياسة ، والعلوم ، والنحو ، واللاهوت ، وفقه القانون ، والموسيقى والتاريخ . ويسجل كتابه المعروف

باسم كرونوغرافيا Chronographia أو سجل الزمان الدسائس والمخازى التى حدثت فى مائة عام (٩٧٦ — ١٠٧٨) بصراحة ، وحماسة وكبرياء (فقال عن قسطنطين التاسع إنه كان « رهين إشارة بسلوس »[٢٥]) . وها هى ذى فقرة من وصفه للثورة التى أعادت ثيودورا إلى العرش فى عام ١٠٥٥ نضربها مثلا لما قلناه :

وكان كل (جندى فى الجمع) مسلحاً : فكان واحد منهم يحمل بلطة قصيرة اليد ، وآخر يحمل بلطة حربية ؛ وثالث يحمل قوساً ، ورابع يحمل حربة . وكان بعض الغوغاء يحملون حجارة ثقيلة ، وأخذوا جميعاً يهرولون ، اضطراب عظيم . . . إلى مسكن ثيودورا . . . ولكنها لجأت إلى كنيسة صغيرة ، وأصمت أذنيها عن سماع صياحهم . وترك الغوغاء النصح ولجأوا معها إلى العنف ، فاستل بعضهم خناجرهم ، وألقوا بأجسادهم على ثيودورا كأنهم يريدون أن يقتلوها ، ثم اختطفوها بقوة من مأواها المقدس ، وألبسوها ثياباً فخمة ، وأركبوها جواداً ، وأحاطوا بها ، وقادوها إلى كنيسة أيا صوفيا ، حيث قدم لها جميع السكان عظماؤهم وسوقتهم فروض الطاعة والولاء ، ونادوا كلهم بها ملكة عليهم[٢٦] .

وتكاد رسائل بسلوس الشخصية تبلغ من السحر والبلاغة ما بلغته رسائل شيشرون ، وكانت خطبه ، وأشعاره ، وكتبه حديث الناس فى زمانه ؛ وكانت ملحه الخبيثة ونكاته القاتلة حافزاً مثيراً وسط علم معاصريه الجم الثقيل . وإذا ما وازناه هو وفوتيوس وثيوفانيس بأبناء الكوين Alcuin ، وبرابانى Rabani وأبناء جربرت Gerbert الذين كانوا يعيشون فى الغرب فى أيامه ، بدا هؤلاء وكأنهم ضعاف مهاجرون من الهمجية إلى بلاد العقل .

وكان الفن أبرز نواحى النهضة البيزنطية . ذلك أن حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية قد حرمت فى خلال الفترة الواقعة بين ٧٢٦ و٨٤٢ تمثيل الكائنات المقدسة بالنحت المجسم أو بالصور وإن كانت فى الثانية أقل صرامة

منها فى الأولى.. ولكنها عوضت الفنان عن هذا التحريم بأن حررته من الاقتصار الممل على الموضوعات الكنسية ، ونبهته إلى ملاحظة الحياة الدنيوية وتصويرها وتزيينها. فقد اتخذ موضوعات لفنه بدل الآلهة الأسرة الإمبراطورية، والأشراف المناصرين لها ، والحادثات التاريخية ، ووحوش الغاب ؛ ونبات الحقول وفاكهها ، وما يجرى فى البيوت من حوادث تافهة . وأنشأ باسيل الأول فى قصره النيا Nea أو الكنيسة الجديدة ، « وزينها كلها » على حد قول كاتب معاصر « باللآلئ الجميلة ، والذهب ، والفضة البراقة ، والفسيفساء، والحرير ، والرخام مما لا تحصى أنواعه »[٢٧] .

ومن أعمال القرن التاسع كثير من النقوش التى أزيح عنها الستار حديثاً فى كنيسة أياصوفيا . وقد أعيد بناء قبتها الوسطى فى عام ٩٧٥ بعد أن دمرها زلزال ثم وضعت فيها الصورة العظيمة المصنوعة من الفسيفساء والتى تمثل المسيح جالساً على قوس قزح، ثم وضعت فيها نقوش أخرى بالفسيفساء فى عام ١٠٢٨ . وكانت هذه الكنيسة الضخمة تنبعث فيها الحياة الدائمة ، كما تنبعث فى الكائنات الحية ، بموت أجزائها وتجديدها . واشتهرت أبوابها البرنزية التى وضعت فيها عام ٨٣٨ بجمالها الممتاز شهرة جعلت ذوى الشأن يأمرون بأن تصنع فى القسطنطينية أبواب مثلها للدير مونتى كازينو Monte Casino ، وكنيسة أملفى ، وباسلقا سان پولو القائمة فى خارج أسوار رومة . ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع فى القسطنطينية عام ١٠٧٠ قائماً حتى الآن يشهد بعظمة الفن البيزنطى .

وكان القصر الملكى أو « القصر المقدس » الذى كانت النيا مُصَلاَّه مجموعة متزايدة من الحجرات ، وأبهاء الاستقبال ، والكنائس والحمامات ، والأجنحة المنعزلة ، والحدائق ، والدهاليز ذات العمد ، والأبهاء . وقلما جلس إمبراطور على العرش إلا أضاف إليه شيئاً جديداً. وخلع ثيوفياس على هذه المجموعة مسحة شرقية جديدة بأن أضاف إليها حجرة للعرش تعرف باسم التريكنكوس Triconchos

وهو اسم مشتق من المحاريب الشبيهة بالأصداف والتى تكوّن ثلاثة من جوانبها — وذلك طراز أخذ من بلاد الشام وأدخل عليه بعض التحسين . وقد شاد فى الجهة الشمالية من هذه الحجرة قاعة اللؤلؤة وفى الجهة الجنوبية منها عدة من البلياقا Beliaka أو حجرات الشمس ، والكاملات وهى حجرات ذوات سقف من الذهب ، وعمد من الرخام الأخضر ، وفسيفساء غاية فى الرونق تمثل على أرضية من الذهب رجالا ونساء يجمعون الفاكهة . وهذا النقش نفسه قد فاقه نقش آخر على جدران بناء مجاور له يمثل بالفسيفساء الزرقاء أشجاراً بارزة من ورائها سماء من الفسيفساء الذهبية ، وتفوقه كذلك أرض بهو التوافق الذى تحسبه مرجاً مليئاً بالأزهار . وأطلق ثيوفيلس العنان لذوقه الغريب الشاذ وافتتانه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان فى قصره بمجنورا Magnaura ، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها وعلى العرش نفسه طيور من الذهب ، وترقد على جانبى المقعد الملكى حيوانات خرافية مجنحة ذهبية ، وعلى الأرض آساد أقدامها تحت قدميه : فإذا ما مثل بين يديه سفير أجنبى قامت الحيوانات الخرافية ، ووقفت الآساد الذهبية ، وهزت أذيالها ، وزأرت ، وغنت الطيور أغانى آلية[٢٨] . وكانت هذه السخافات كلها صور مطابقة من مثيلاتها التى كانت فى قصر هارون الرشيد ببغداد .

وكان المال الذى ينفق فى تزيين القسطنطينية يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة ومن الوحدات العسكرية فى الدولة . ولكن ما بقى من هذا المال كان يكفى لتزيين عواصم الولايات زينة أقل من زينة العاصمة الكبرى . فقد قامت الأديرة ، بعد أن عاد إليها الثراء ، فخمة كثيرة العدد ، وعاد إليها ثراؤها : ففى القرن العاشر أنشئ دير لفرا Lavra ودير إفرون Iviron فى آثوس Athos وفى القرن الحادى عشر أقيم دير دافنى Daphni للراهبات بالقرب من اليوسيس Eleusis . وتعد فسيفساؤه التى لا تكاد تفترق عن الفسيفساء اليونانية والرومانية القديمة أجمل مثل للطراز البيزنطى

الأوسط . واشتركت بلاد الكرج ، وأرمينية ، وآسية الصغرى فى هذه الحركة ، وأمست مراكز أمامية للفن البيزنطى . واستثارت المبانى العامة فى أنطاكية إعجاب المسلمين ، وأنشئت فى بيت المقدس كنيسة الضريح المقدس ، ولما يمض على انتصارات هرقل إلا قليل ؛ وفى مصر شاد الأقباط المسيحيون قبل الفتح العربى وبعده كنائس ذات قباب متواضعة فى حجمها ولكنها مزدانة أجمل زينة فنية بكل ما وصل إلى أهلها من مصر الفرعونية ، والبطليموسية ، والرومانية ، والبيزنطية من حذق فى أشغال المعادن ، والعاج ، والخشب ، والنسيج لم ينتقص منه شئ . وأخرج اضطهاد محطمى الصور والتماثيل آلاف الرهبان من الشام ، وآسية الصغرى ، والقسطنطينية إلى جنوبى إيطاليا حيث بسط عليهم البابوات حمايتهم ؛ وبفضل هؤلاء اللاجئين ، والتجار الشرقيين ازدهر الطراز المعمارى والزخرفى البيزنطى فى بارى ، وأترنتو ، وبنفنتو ، ونابلى ، ورومة نفسها . وظلت رافنا يونانية فى فنها ، وأخرجت فى القرن السابع الفسيفساء الضخمة التى نشاهدها فى سانت أپوليناريس St. Appolinaris فى كلاس Classe . وظلت سلانيك بيزنطية ، وزينت كنيسة أياصوفيا بصور مقبضة للقديسين من الفسيفساء نحيلة كالقديسين الذين صورهم الجريكو El Greco .

وأخرجت النهضة البيزنطية فى جميع هذه الأراضى والمدن ، كما أخرجت فى العاصمة نفسها ، سيلا من الروائع الفنية فى الفسيفساء والنقش الدقيق ، والفخار ، والميناء ، والزجاج ، والخشب ، والعاج ، والبرنز ، والحديد ، والجواهر ، والأقمشة المنسوجة ، والمصبوغة ، والمنقوشة ، بمهارة يفخر بها العالم كله . وكان الفنانون البيزنطيون يصنعون أكوابا من الزجاج الأزرق ، نقشت عليها تحت سطحها ؛ أغصان وأوراق أشجار ، وطيور ، وصور آدمية ؛ وآنية زجاجية ، ذات رقاب مطلية بالميناء عليها زخارف عربية الطراز وأزهار ؛ وأشكال أخرى من الزجاج بلغت من الدقة حدا جعلها هى خير ما أهداه الأباطرة البيزنطيون إلى

رؤساء الدول الأجنبية . وكان أعظم قيمة من هذه الهدايا السابقة ثمين الثياب والشيلان ، والحبريات ، والجبب الدلماشية(*) التى تبرز مفاخر فن النسيج البيزنطى . وكانت « عباءة شارلمان » فى كنيسة متز والحرير الرقيق الذى وجد بآخن Aachen فى تابوت ذلك الملك من هذا الطراز . وكان مصدر نصف الفخامة التى تحيط بالإمبراطور البيزنطى ، وكثير من الرهبة التى ترفع من مقام البطريق ، وبعض الأبهة التى تكسو « المُخَلّص » والعذراء والشهداء فى شعائر الكنيسة ؛ كان مصدر هذا كله هو الثياب الفخمة التى أنفقت فيها حياة عدد من الصناع ، وازدانت بفن القرون الطوال ، وخير ما أخرجه البر والبحر من أصباغ . واحتفظ صائغو الحلى الذهبية وقاطعو الجواهر بذروة مجدهم الفنى حتى القرن الثالث عشر ، ولا تزال كنوز كنيسة القديس مرقس بالبندقية مليئة بثمار فنهم .

ومن مخلفات ذلك العصر الفسيفساء الواقعية النزعة المدهشة الصنع التى وجدت فى كنيسة القديس أوقا والمحفوظة فى كلية الدراسات العليا Collège de Hautes Etudes فى باريس ؛ ورأس المسيح المتوهج المنقوش فى فسيفساء ديسيز فى كنيسة أياصوفيا ؛ والفسيفساء الكبيرة الحجم التى تغطى أربعين ياردة مربعة ، والتى استخرجت فى اسطنبول عام ١٩٣٥ من خرائب قصر الأباطرة المقدونيين [٢٩]. ولما خفت حدة محطمي الأصنام ، وفى الأماكن التى لم تصل إليها حركتهم ، غذت الكنيسة تقوى الناس بالصور المنقوشة على الخشب بالطلاء المائى الفردى ، والتى تكتنفها أحياناً أطر منقوشة بالميناء أو الجواهر . وليس فى تاريخ العالم كله صور دقيقة تفوق صورة « رؤيا حزقيال » التى يحتويها مجلد من عظات جريجورى نزيانزين محفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس [٣٠] ، أو الصور الإيضاحية الأربعمائة التى يحتويها مخطوط « المناجاة » (Monologus) المحفوظ فى الفاتكان (حوالى

(*) نوع من الجبب يلبسها شمامسة الكنيسة الكاثوليكية وأساقفتها أحياناً والاسم مشتق من مقاطعة دلماشيا على البحر الأدرياوى . (المترجم)

عام ١٠٠٠) ؛ أو صور داود فى كتاب التراتيل المحفوظ بباريس (حوالى عام ٩٠٠) . نعم إن هذه الصور لا تراعى فن المنظور ، ولا تعنى بإبراز الأشكال بطريق الضوء والظل ، ولكنها تعوض هذا بالتلوين القوى البراق ، وبالخيال الحى ، وبالعلم الحديث بأصول التشريح البشرى والحيوانى ، وبالعدد الجم المؤتلف من الوحش والطير ، والنبات والزهر ، تتخلل القديسين والأرباب ، وبالفساق ، والعقود والإيوانات — فيها طيور تنقر الفاكهة ، ودببة ترقص ، ووعول وعجول تتشابك قرونها فى النضال ، وفهد يرفع ساقه الخبيثة ليمثل بها الحرف الأول من جملة دينيه[٣١] .

ولقد عرف صانعو الفخار البيزنطيون من زمن بعيد فن التطعيم بالميناء ، وذلك بأن يضعوا على الطين المحروق والقاعد المعدنى أكسيداً معدنيا إذا أدخل النار امتزج بالقاعد وأكسبه بريقا ووقاية . وكان هذا الفن قد وصل من الشرق إلى بلاد اليونان القديمة ، حيث اختفى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم عاد إلى الظهور فى القرن الثالث بعده . وكانت هذه الفترة البيزنطية الوسطى غنية بأعمال الميناء من رصائع للصور ، ومن صور للقديسين ، وصلبان ، ومن علب لحفظ المخلفات ، وأكواب ، وكؤوس للقرابين ، وجلود كتب ، وزينات للسروج وغيرها من العدد . وقد أخذت بيزنطية من فارس الساسانية منذ ذلك العهد البعيد وهو القرن السادس ، فن الميناء المقسم : وذلك بأن تصب العجينة الملونة فى السطح المقسم إلى مساحات محاطة بأسلاك رفيعة أو قطع رقيقة من المعدن ؛ وهذه الحواجز الملتحمة بقاعدة معدنية تكون النقش الزخرفى . ومن أعظم الأمثلة لفن الميناء المقسم وأوسعها شهرة علبة لحفظ المخلفات صنعت (حوالى عام ٩٤٥) لقسطنطين برفيروجنتس محفوظة الآن فى لمبورج Lemburg وهى بيزنطية بنوع خاص فى دقة صنعها وفى أمانة صانعها ، وفى نقوشها الزخرفية الموفورة .

وليس ثمة فن من الفنون تغلب عليه الصبغة الدينية أكثر مما تغلب على الفن

البيزنطى وليس أدل على هذا من أن مجلساً للكنائس عقد فى عام ٧٨٧ قد وضع القانون القائل بأن : على المصورين أن ينفذوا ، وعلى رجال الدين أن يقرروا ، الموضوعات ويشرفوا على عمليات تنفيذها »[٣٢] . ومن ثم كانت النزعة الجدية المكتئبة لهذا الفن ، وضيق دائرة موضوعاته ، والتكرار الممل فى أساليبه وأنماطه ، وندرة مغامراته فى عالم الواقعية ، والفكاهة ، والحياة الشعبية ؛ ولم يكن لهذا الفن نظير فى تنميقه ولألائه ، ولكنه لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه الفن القوطى الناضج من تنوع وقوة ، ومن نزعة دنيوية شائنة . ومن أجل هذا النقص عينه تزيد دهشتنا من انتصاراته وتأثيره ، فقد كان العالم المسيحى على بكرة أبيه من كيف إلى فارس يقر له بالزعامة ، ويتملقه بتقليده ؛ وحتى الصين نفسها كانت بين الفينة والفينة تنحنى له إجلالا وتكريما . ولقد كان فى أشكاله السورية نصيب مع الفن الفارسى فى تكوين موضوعات الفن الإسلامى فى العمارة ، والفسيفساء ، والزخرف . وشكلت البندقية فنها على صورة فن القسطنطينية ، كما حذا الفن فى كنيسة القديس مرقس حذو كنيسة الرسل فى تلك المدينة ؛ وظهر فن العمارة البيزنطية فى فرنسا ، ثم اتخذ طريقه نحو الشمال حتى بلغ آخن . وكانت المخطوطات المزخرفة فى كل مكان شاهداً على ما للفن البيزنطى من أثر فيه ، وأخذ البلغار عن بيزنطية دينها وزخارفها ؛ ولما اعتنق فلادمير مذهب الكنيسة المسيحية اليونانية فتح بذلك أكثر من عشر سبل واسعة دخل منها الفن البيزنطى إلى الحياة الروسية .

وظلت الحضارة البيزنطية من القرن الخامس إلى القرن الثانى عشر هى السائدة فى أوربا المسيحية فى النظم الإدارية والدبلوماسية ، وجباية الأموال ، وفى الأخلاق ، والثقافة ، والفن . وأكبر الظن أنه لم يوجد قبل أيامها مجتمع يماثلها فى فخامة زينتها ، كما لم يوجد قبل أيامها دين به من المظاهر الفخمة مثل ما فى دينها . وكانت هذه الحضارة ، كما كانت كل حضارة أخرى ، تعتمد على كدح رقيق الأرض والعبيد ، وكان ما فى محاريبها وقصورها من ذهب ورخام هو

عرق العمال الذين يكدحون فى الأرض قد تبدل وتجسم : وكانت ثقافتها ، ككل ثقافة سواها فى زمانها ، قاسية؛ وكان فى وسع الرجل الذى يخر راكعاً أمام صورة العذراء أن يذبح أطفال موريق أمام عينى أبيهم . وكان فى هذه الثقافة شىء من الضحالة ، وكان عليها طلاء من الرقة الأرستقراطية يغطى بناء ضخماً من الخرافات الشعبية ، ومن التعصب ، ومن الجهل يتصف به غير الأميين ، وكان نصف(*) هذه الثقافة يوجه إلى تأييد ذلك الجهل ، ولم يكن يسمح لعلم أو فن أن ينمو أو فلسفة أن تنشأ إذا كانت تتعارض مع هذا الجهل ، وظلت الحضارة اليونانية مدى ألف عام لا تضيف شيئاً جديداً إلى علم الإنسان بالعالم . فليس ثمة كتاب فى الأدب البيزنطى أثار خيال بنى الإنسان ، أو خلده على مدى الزمان . ذلك أن العقل اليونانى فى العصر الوسيط قد أثقله عبء التراث العظيم الذى انحدر إليه من الأيام الخالية ، وسجن فى المتاهة الدينية التى فقدت فيها بلاد اليونان المحتضرة مسيحية المسيح ، فعجز عن أن ينهض فينظر نظرة واقعية ناضجة إلى الإنسان وإلى العالم . وسبب هذا أنه مزق المسيحية شيعا لاختلافه على حرف واحد من حروف الهجاء أو على كلمة واحدة ، وحطم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لأنه رأى فى كل خروج على الدين خيانة للدولة .

لكننا لانزال يدهشنا أن هذه الحضارة قد عمرت ذلك الزمن الطويل ، ترى ما هى الموارد الخفية ، وما هى القوة الحيوية الكامنة ، التى أمكنتها من أن تبقى حية بعد أن انتصر عليها الفرس فى آسية ، وبعد أن انتزع منها المسلمون بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا ؟ لعل العقيدة الدينية التى أضعفت الدفاع عن الدولة باعتماد أهلها على مخلفات القديسين ومعجزاتهم قد بثت بعض النظام والتأديب فى شعب ديدنه الصبر ، وإن انتابته فى فترات نوبات من

(*) طلب جيش « الوحدة » العسكرية الشرقية فى عام ٦٦٩ أن يكون للإمبراطورية ثلاثة أباطرة فى وقت واحد ليتفق هذا مع الثالوث الدينى(٣٧)

الاضطراب ، وأحاطت الأباطرة والدولة بهالة من القداسة يرهبها التبديل . وقد أكسبتها البيروقراطية الخالدة بهيئتها الجامعة استمراراً واستقراراً لم تنل منهما جميع الحروب والثورات ، وحافظت على السلام فى الداخل ، ونظمت اقتصادياتها ، وجبيت الضرائب التى أمكنت الإمبراطورية من أن توسع رقعتها مرة أخرى حتى كادت تبلغ ما بلغته أيام جستنيان . وأكبر الظن أن موارد الخلافة الإسلامية كانت أقل من موارد الدولة البيزنطية وإن كانت أملاك الخلفاء أوسع رقعة من أملاك الأباطرة ، ولقد كان ضعف نظام الحكومة الإسلامية ، وقصور وسائل الاتصال ودولاب الإدارة عن الوفاء بحاجات الدولة ، سبباً فى تفككها بعد ثلاثة قرون من قيامها ، على حين أن الإمبراطورية البيزنطية عاشت ألف عام .

وقد قامت الحضارة البيزنطية بثلاث مهام حيوية : أولها أنها ظلت ألف عام حصناً حصيناً وقى أوروبا هجمات الفرس والدولة الإسلامية فى المشرق ، وثانيها أنها احتفظت فى أمانة بالنصوص التى أعيد فيها تسجيل آداب اليونان الأقدمين وعلومهم وفلسفتهم ، وأسلمتها كاملة إلى أوروبا حيث بقيت حتى نهبها الصليبيون فى عام ١٢٠٤ . وجاء الرهبان الفارون من وجه محطمى الصور والتماثيل المقدسة بالمخطوطات اليونانية إلى جنوبى إيطاليا ، وأعادوا إلى هذه البلاد علمها القديم بالآداب اليونانية ؛ وغادر الأساتذة اليونان مدينة القسطنطينية فراراً من المسلمين والصليبيين على السواء ، واستقروا أحياناً فى إيطاليا ، وكانوا هم الحاملين لبذور الآداب القديمة ؛ وهكذا أخذت إيطاليا عاما بعد عام تستكشف بلاد اليونان من جديد ، وظل الناس يغترفون من ينبوع الحضارة الذهنية حتى ثملوا . وثالثها وآخرها أن بيزنطية هى التى أخرجت البلغار والصقالبة من دياجير الهمجية إلى المسيحية ، وضمت قوة الجسم الصقلبى التى لا حد لها إلى روح أوربا وحياتها ومصائرها .

الفصل السادس

البلقان (٥٥٨ – ١٠٥٧)

على بعد بضعة أميال لا أكثر فى شمال القسطنطينية بحر مضطرب من خلائق يحتقرون الآداب ويحبون الحرب بنصف قلوبهم . ولم تكد موجة الهون تتراجع حتى أقبلت من التركستان خلائق أخرى جديدة تمت إليهم بصلة الدم يدعون الآفار مخترقين جنوبى الروسيا (٥٥٨) واسترقوا جموعا من الصقالبة ، وأغاروا على ألمانيا حتى نهر الإلب (٥٦٢) ، ودفعوا اللمبارد أمامهم إلى إيطاليا (٥٦٨) ، وعاثوا فى بلاد البلقان فساداً حتى كاد ينمحى منها سكانها الذين ينطقون باللغة اللاتينية . وبسط الآفار سلطانهم فى وقت ما على البلاد الممتدة من البحر البلطى إلى البحر الأسود ، وحاصروا القسطنطينية فى عام ٦٢٦ وكادوا يستولون عليها ؛ وكان عجزهم عن ذلك بداية اضمحلالهم ؛ فغلبهم شارلمان على أمرهم فى عام ٨٠٥ ، وما لبثوا أن امتصهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئا .

وكان البلغار ، وهم فى أصلهم خليط من الدم الهونى ، والأجرى Ugrian والتركى ، يكونون قبل ذلك الوقت جزءاً من إمبراطورية الهون فى الروسيا ؛ وأقام فرع منهم بعد موت أتلا Atilla مملكة لهم — « بلغاريا القديمة » — على ضفاف نهر الفلجا Volga حول مدينة قازان الحالية . وأثرت عاصمتهم بلغار Bolgar من التجارة النهرية ، وظلت مزدهرة حتى خربها التتار فى القرن الثالث عشر . وهاجر فرع آخر منهم فى القرن الخامس نحو الجنوب الغربى إلى وادى الدن Don ، وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع ، وهى قبيلة الميونجر Uligurs ، نهر الدانوب (٦٧٩) ، وأسست مملكة بلغارية ثانية فى موئيزيا

Moesia واسترقّوا من فيها من الصقالبة ، وأخذوا عنهم لغتهم وأنظمتهم ، وامتصهم آخر الأمر العنصر الصقلبي . وبلغت الدولة الجديدة أوجها فى عهد الخاقان أو الخان (الرئيس) كروم Krum (٨٠٢) ، وهو رجل جمع إلى شجاعة الهمج دهاء المتحضرين . وغزا الخاقان مقدونية — إحدى ولايات الدولة الرومانية الشرقية — ونهب ١١٠٠ رطل من الذهب ، وأحرق مدينة سرديقا Sardica المسماة الآن صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية . وكال له الإمبراطور نقفور الصاع صاعين وأحرق بلسكا Pliska عاصمة كروم (٨١١) ؛ ولكن كروم أوقع الجيش اليونانى فى كمين نصبه له فى أحد ممرات الجبال ، وقتل نقفور ، واتخذ من جمجمة الإمبراطور قدحاً لشرابه . ثم حاصر القسطنطينية فى عام ٨١٣ ، وأحرق أرباضها ، وضرب تراقية ، وفعل بها ما فعلته الجيوش التى غزتها فى عام ١٩١٣ . وبينا هو يعدّ العدة لهجوم آخر إذ انفجر أحد أوعيته الدموية وقضى على حياته . وعقد ابنه أمورتاج Omurtag الصلح مع اليونان وأسلموه بمقتضاه نصف تراقية ، واعتنق البلغار المسيحية فى عهد الخان بوريس Boris (٨٥٢ — ٨٨٨) . وآوى بوريس نفسه بعد حكم طويل إلى أحد الأديرة ، ثم خرج منه بعد أربع سنين ليخلع ابنه الأكبر ڤلادمير ، ويُجلس على العرش ابناً آخر أصغر من أخيه يدعى سميون Simeon (٨٩٣ — ٩٢٧) ؛ وعاش بوريس حتى عام ٩٠٧ ، وأصبح هو أول قديس قومى لبلغاريا . وكان سميون من أعظم ملوك زمانه ، فقد وسّع رقعة أملاكه حتى شملت بلاد الصرب والبحر الأدرياوى ، ولقب نفسه « إمبراطوراً وحاكما مطلقا لجميع البلغار واليونان » ، وشن الحرب عدة مرار على بيزنطية ، لكنه حاول أن يدخل الحضارة إلى بلاده بتراجم الآداب اليونانية ، وأن يجمّل عاصمته فى أقاليم الدانوب بروائع الفن اليونانى . ويصف أحد معاصريه مدينة برسلاف Breslav بأنها « من أعجب ما تقع عليه العين » ، مليئة « بالقصور والكنائس الشامخة » الكثيرة الزخرف ؛ ولقد كانت فى القرن الثالث عشر أكبر مدينة

فى بلاد البلقان كلها ؛ ولا تزال خربات قليلة باقية منها . وأضعفت المنازعات الداخلية بلغاريا بعد موت سميون . وحول ملاحدة بجوميل Bogomil نصف الفلاحين خلائق مسالمين شيوعيين ؛ واستردت بلاد الصرب استقلالها فى عام ٩٣١ ؛ وأعاد الإمبراطور يوحنا تزيمسيس بلغاريا الشرقية إلى أحضان الإمبراطورية اليونانية فى عام ٩٧٢ ؛ وفتح باسيل الثانى بلغاريا الغربية فى عام ١٠١٤ ، وبذلك أضحت بلغاريا (١٠١٨ — ١١٨٦) مرة أخرى ولاية تابعة لبيزنطية .

وفى أثناء هذه الأحداث أقبل على الإمبراطورية القلقة زائرون من أقوام همج جدد يدعون المجر . والراجح أن المجر كانوا ، كما كان البلغار ، من تلك القبائل التى يطلق عليها ذلك الاسم غير الدقيق الأجرى Ugri أو الإيجور Igurs (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Ogre المرادفة لكلمة غول) ، والتى كانت تضرب فى البلاد المصاقبة لحدود الصين الغربية . وكان هؤلاء أيضاً قد سرى إليهم دم هونى وتركى كثير لطول اختلاطهم بهذين العنصرين . وكانوا يتكلمون لغة وثيقة الصلة بلغتى الفين (أهل فنلندة) والسمويد Somoyeds . وقد هاجروا فى القرن التاسع الميلادى من سهوب الأورال وبحر الخزر (قزوين) إلى الأراضى المجاورة لنهرى الدن والدنيبر Dneiper والبحر الأسود ، حيث كانوا يعيشون بفلح الأرض فى الصيف ، وصيد السمك فى الشتاء ، واقتناص الصقالبة وبيعهم عبيداً إلى اليونان فى جميع فصول العام . وبعد أن أقاموا فى أكرانيا ستين عاماً أو نحوها تحركوا مرة أخرى فى اتجاه الغرب . وكانت أوربا وقتئذ فى الدرك الأسفل من حياتها ؛ فلم تكن فيها حكومة قوية غرب القسطنطينية ، ولم يقف فى وجههم جيش قوى . لهذا اجتاح المجر بسرابيا Bessarabia وملدافيا Mcldavia (البغدان) فى عام ٨٨٩ ، وشرعوا فى عام ٨٩٥ فى فتوحهم الدائمة لبلاد هنغاريا (المجر) بقيادة زعيمهم أرپاد Arpad . وفى عام ٨٩٩ عبرت جموعهم جبال الألب وانقضت على إيطاليا ، وأحرقوا پاڤيا Pavia وكنائسها الثلاث والأربعين

جميعها ، وذبحوا أهلها ، وظلوا عاماً كاملا يعيثون فى شبه الجزيرة فساداً ، ثم فتحوا پنونيا Pannonia ، وأغاروا على باڤاريا Bavaria (٩٠٠ — ٩٠٧) ، وحربوا كارنثيا Carinthia (٩٠١) ، واستولوا على موراڤيا Moravia (٩٠٦) ، ونهبوا سكسونيا ، وثورنجيا Thüringia ، وسوابيا Swabia (٩١٣) ، وألمانيا الجنوبية ، والألساس Alsace (٩١٧) ، وانقضوا فجاءة على الألمان المقيمين على ضفاف نهر اللك Lech أحد روافد الدانوب (٩٢٤) . وارتجفت لذلك قلوب الأوربيين وتوجهوا إلى خالقهم بالدعاء والصلاة ، لأن هؤلاء المغيرين كانوا لا يزالون أقواماً وثنيين ، ولاح أن العالم المسيحى مقضى عليه لا محالة . ولكن المجر هُزِموا عند جوثا Gotha فى عام ٩٣٣ ، ووقف زحفهم على أثر هذه الهزيمة ، ثم غزوا إيطاليا مرة أخرى فى عام ٩٤٣ ، ونهبوا برغنديا فى عام ٩٥٥ . وانتهى الأمر فى ذلك العام نفسه بأن هزمتهم جيوش ألمانيا المتحدة بقيادة أتو Otto الأول فى معركة حاسمة فى لكفلد Lechfeld أو وادى اللّك بالقرب من مدينة أوجزبرج Augsburg ، واستطاعت أوربا عقب هذه الهزيمة أن تتنفس الصعداء بين خرباتها بعد أن حاربت فى قرن واحد (٨٤١ — ٩٥٥) النورمان فى الشمال ، والمسلمين فى الجنوب ، والمجر فى الشرق .

وبعد أن خضع المجر أضحت أوربا أكثر أمناً مما كانت لاعتناقهم الدين المسيحى (٩٧٥) . ذلك أن الأمير جيزا Geza خشى اندماج بلاد هنغاريا فى الإمبراطورية البيزنطية التى عادت وقتئذ توسع رقعتها ، ولهذا اختار المذهب المسيحى اللاتينى لكى يسالمه الغرب ، وزاد على ذلك بأن زوج ابنه استيفن من جزيلا Gisela ابنة هنرى الثانى دوق باڤاريا . وأمسى استيفن الأول (٩٩٧ — ١٠٣٨) شفيعاً لهنغاريا وراعيها وأعظم ملوكها ؛ فقد نظم شئون المجر على غرار النظام الإقطاعى الألمانى ، وقوى الأساس الدينى الذى أقام عليه المجتمع الجديد بأن قبل مملكة هنغاريا وتاجها من البابا سلفستر Sylvester الثانى (١٠٠٠) .

وهرع الرهبان البندكتيون إلى بلاده ، وأنشأوا الأديرة والقرى وأدخلوا فيها فنون الغرب الزراعية والصناعية ؛ وبهذا انتقلت هنغاريا بعد حروب دامت مائة عام من ظلمات الهمجية إلى نور الحضارة ؛ ولما أن أهدت الملكة جزيلا صليباً إلى صديق لها ألمانى كان هذا الصليب آية رائعة من فن الصياغة الذهبية .

وكان أقدم موطن معروف للصقالبة إقليم من روسيا كثير المناقع تحيط به كيف ، ومهيلف Mohilev ، وبرست لتوفسك Brest Litovsk ، وكانوا من عنصر هندى أوربى يتكلمون لغات ذات صلة باللغتين الألمانية والفارسية . وكانت أقوام من البدو تجتاح بلادهم من آن إلى آن ، وكثيراً ما كانوا يُسْتَرَقُّون ، وكانوا على الدوام يعانون مرارة الفقر والظلم ، ولهذا طبعوا على الصبر وجعلتهم الصعاب وخشونة العيش الدائمة صلابا أشداء ، وفاقت خصوبة نسائهم نسبة الوفيات العالية بينهم المسببة من المجاعات ، والأمراض والحروب ، التى لم ينطفئ لها سعير . وكانوا يسكنون كهوفاً أو أكواخاً من الطين ، ويعيشون من صيد الحيوان ، ورعيه ، وصيد السمك ، وتربية النحل ؛ وكانوا يبيعون العسل ، والشمع ، والجلود ؛ ثم استسلموا آخر آخر الأمر لحياة الزراعة والاستقرار . وكانوا هم أنفسهم يطارَدُون ويُدفعون إلى المناقع والغابات التى يتعذر الوصول إليها ، ثم يؤسرون بوحشية ، ويباعون بلا رحمة ؛ ولهذا تخلقوا بأخلاق زمانهم ، فكانوا يستبدلون السلع بالرجال ؛ وإذ كانوا يعيشون فى أقاليم باردة رطبة ، فقد اعتادوا أن يدفئوا أجسامهم بالمشروبات الكحولية القوية ؛ ومن أجل هذا وجدوا أن المسيحية خير لهم من الإسلام الذى يحرم الخمور[٣٤] . وكانت أبرز عيوبهم هى السكر ، والقذارة ، والقسوة ، وحب السلب والنهب . وكان الادخار ، والحذر ، وسعة الخيال تتذبذب فيهم بين الفضيلة والرذيلة ؛ ولكنهم كانوا إلى ذلك طيبى القلوب ، أسخياء ، حسنى العشرة ، مولعين بالألعاب ، والرقص والموسيقى ، والغناء . وكان زعماؤهم كثيرى الازواج ، أما الفقراء فكانوا يقتصرون على واحدة ، وكانت النساء

ـ اللاتى يشترين بالمال أو يؤسرن فى الحروب ليتخذن زوجات ـ وفيات مطيعات على غير ما كان ينتظر منهن[٣٥] . وكانت الأسر الخاضعة لسلطان الأب تنتظم انتظاما غير وثيق العرى فى عشائر ثم تنتظم العشائر فى قبائل . ولربما كان للشعائر أملاك مشتركة فى مراحل الرعى الأولى[٣٦] ، ولكن قيام الزراعة ـ التى تثمر فيها الدرجات المختلفة من النشاط ، والكفاية فى التربة المختلفة الخصوبة : ثماراً غير متساوية ـ أدى إلى نشأة الملكية عند الأفراد أو الأسر وكثيراً ما كان الصقالبة يتفرقون بسبب الهجرة أو الحروب الداخلية ، ولهذا نشأت بينهم عدة لغات صقلبية : البولندية والونديشية Wendish ، والتشكية ، والسلوفاكية فى الغرب ، والسلوفينية والصربيكرواتية Serbo-Croat ، والبلغارية فى الجنوب ، والروسية الكبرى ، والروسية البيضاء ، والروسية الصغرى (الروثينية والأكرانية Rurhenian & Ukrainian) فى الغرب . على أن الذين يتكلمون أية لغة من هذه اللغات قدظلوا يفهمون كل واحدة منها ؛ وكانت جامعة اللغة والعادات بين الصقالبة ، مضافة إلى سعة بلادهم ، وكثرة مواردهم ، وحيويتهم الناشئة من قسوة الظروف المحيطة بهم ، والانتقاء الصارم ، والطعام البسيط الخشن ، كانت هذه كلها سبباً فى ازدياد قوة الصقالبة الآخذة فى الانتشار .

ولما أن زحفت القبائل الألمانية جنوبا وغربا فى هجرتها إلى إيطاليا وغالة خلفت وراءها رقعة من الأرض قليلة السكان فى شمالى ألمانيا ووسطها . وانجذب الصقالبة نحو هذا الفراغ ، ودفعهم إليه دفعاً الهون الغزاة ، فانتشروا غربا وعبروا نهر الفستيولا Vistula ، ونهر الإلب نفسه ؛ وكانوا فى هذه الأرض هم الوند Wend ، والبولنديين ، والتشك ، والفلاخ Vlache ، والسلوفاك الذين نعرفهم فيما بعد . وحدث فى أواخر القرن الثالث تيار جارف من الهجرة الصقلبية غمر ريف اليونان ، وأغلقت المدن بابها دونه ، ولكن دما صقلبيا غزيراً امتزج بالدم الهليني . وجاءت حوالى عام ٦٤٠ قبيلتان صقلبيتان ذواتى قربى هما الصربى Srbi ،

والكزوبانى Chrobati ، واستوطنتا بانونيا وإليركم Illyricum من جديد . واعتنق الصرب المذهب اليونانى المسيحى ، واعتنق الكروات المذهب الرومانى . وأضعف هذا الانقسام الدينى ، الذى عاق الوحدة الجنسية واللغوية ، الأمة أمام جيرانها ، ولهذا أخذت بلاد الصرب تتأرجح بين الاستقلال تارة ، والخضوع لبيزنطية أو بلغاريا تارة أخرى ، إلى أن كان عام ٩٨٩ فهزم صمويل قيصر البلغار يوحنا فلادمير الصربى ، وأسره ، ثم زوجه بابنته كسارا Kossara وسمح له بالعودة إلى عاصمته زيتا Zita ، على أن يكون فيها أميراً من قبل ڤلدمير . ذلك هو موضوع أقدم الروايات القصصية الصربية ڤلدمير وكسارا التى ألفت فى القرن الثالث عشر . واحتفظت المدن الساحلية فى دلماشيا القديمة — زارا ، واسپالاتو Spalato ، وراجوسا Ragusa بلغتها وثقافتها اللاتينيتين ، أما بقية بلاد الصرب فأضحت صقلبية . وحرر الأمير ڤواسلاف صربياً فى عام ١٠٤٢ ولكنها عادت فاعترفت بسيادة بيزنطية فى القرن الثانى عشر .

ولما أن بلغت هذه الهجرة الصقلبية الرائعة العجيبة تمامها فى أواخر القرن الثامن أمست أوربا الوسطى ، وبلاد البلقان ، والروسيا بأجمعها بحراً صقلبياً تصطدم أمواجه بحدود القسطنطينية ، وبلاد اليونان ، وألمانيا .

الفصل السابع

مولد الروسيا (٥٠٩ – ١٠٥٤)

لم يكن الصقالبة إلا آخر الأقوام الكثيرين الذين كانوا يمرحون ويطربون فى تربة الروسيا الخصبة ، وسهوبها الرحبة ، وأنهارها الكثيرة الصالحة للملاحة ؛ ويأسون لمناقعها العفنة ، وغاباتها المانعة ، وافتقارها إلى المعاقل الطبيعية التى تصد الأعداء الغازين ، وصيفها الحار ، وشتائها البارد . فلقد أنشأ اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد لا بعد على أقل سواحلها جدباً آى على شاطئ البحر الأسود الغربى والشمالى نحو عشرين بلدة – ألبيا Albia ، وتانيس Tanais ، وثيودوسيا Theodocia ، وپنتيكپيوم Panticapium (كرتش Kerch) . واقتتلوا مع السكوذيين الضاربين وراء هذه البلاد أو ناصروهم . وسرت إلى هؤلاء الأقوام – وأكبر الظن أنهم من أصل إيرانى – بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية ، بل إنهم قد خرج من بينهم فيلسوف – أناخارسيس Anacharsis ٦٠٠ ق . م – قدم إلى أثينة وتناقش مع صولون .

ثم أقبلت فى القرن الثانى قبل الميلاد قبيلة إيرانية آخرى هى قبيلة السرماتيين ، هزمت السكوذيين وسكنت ديارهم ؛ واضمحلت المستعمرات اليونانية فى هذا الاضطراب . ودخل البلادَ القوطُ من الغرب فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وأنشأوا مملكة القوط الشرقيين ، ثم قضى الهون على هذه المملكة حوالى عام ٣٧٥ ؛ ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة ، بل شهدت هجرات متتابعة من أقوام بدو – هم البلغار ، والآفار ، والصقالبة ، والخزر ، والمجر ، والپتزيناك Patzinaks ، والكومان Cumans ، والمغول . وكان الخزر من أصل تركى زحفوا فى القرن السابع مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبى الروسيا ، وأنشأوا

مُلْكا منظما امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر) ، وشيدوا عاصمة لهم هى مدينة إتيل Itil على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أستراخان الحاضرة ، واعتنق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودى. وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية ، ولكنهم فضلوا فى أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة منهما غضباً يعرضهم للخطر ، وأطلقوا فى الوقت عينه الحرية الكاملة لأصحاب العقائد المختلفة ، فكانت لهم سبع محاكم توزع العدالة بين الناس — اثنتان للمسلمين ، واثنتان للمسيحيين ، واثنتان لليهود ، وواحدة للكفرة الوثنيين . وكان يسمح باستئناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميتين ، إذ كانوا يرون أنهما أكثر عدالة من المحاكم الأخرى(٣٧) . واجتمع التجار على اختلاف أديانهم فى مدن الخزر تشجعهم على ذلك هذه السياسة المستنيرة ، فنشأت هناك من ذلك تجارة منتعشة بين البحر البلطى وبحر قزوين ، وأصبحت إتيل فى القرن الثامن من أعظم مدن العالم التجارية . وهاجم الأتراك البدو خزاريا Khazaria فى القرن التاسع ، وعجزت الحكومة عن أن تحمى مسالكها التجارية من اللصوصية والقرصنة ، وذابت مملكة الخزر فى القرن العاشر وعادت إلى الفوضى العنصرية التى نشأت منها .

وجاءت من جبال الكربات فى القرن السادس هجرة من القبائل الصقلبية إلى هذا الخليط الضارب فى روسيا الجنوبية والوسطى . واستقرت هذه القبائل فى وادى الدنيبر والدن ، ثم انتشرت انتشاراً أرق إلى بحيرة إلمن Ilmen فى الشمال ، وظل أفرادها عدة قرون يتضاعفون ، وهم فى كل عام يقطعون الغابات ويجففون المستنقعات ، ويقتلون الوحوش البرية ، وينشئون بلاد أكرانيا . وانتشروا فوق السهول بفضل حركة من الإخصاب البشرى لا يضارعهم فيها إلا الهنود والصينيون . ولقد كان هؤلاء الأقوام طوال التاريخ المعروف لا يقرّ لهم قرار — يهاجرون إلى بلاد القفقاس والتركستان ، وإلى أقاليم أورال وسيبيريا ، ولا تزال

عملية الاستعمار هذه فى مجراها فى هذه الأيام ؛ ولا يزال البحر الصقلبي العجاج يدخل كل عام فى خلجان عنصرية جديدة .

وأقبلت على العالم الصقلبي فى بداية القرن التاسع غارة بدت وقتئذ أنها لا يؤبه بها . ذلك أن أهل الشمال الإسكنديناويين كان فى وسعهم أن يوفروا بعض الرجال وبعض النشاط يقتطعونهما من هجماتهم على اسكتلندة ، وأيسلندة ، وأيرلندة ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وأسپانيا ؛ وأن يوجهوا إلى روسيا الشمالية عصابات مؤلفة من مائة أو مائتين من الرجال ، ينهبون بها الجماعات الضاربة حول البحر البلطى ، والفنلنديين ، والصقالبة ، ثم يعودون بجر الحقائب بالغنائم . وشاء هؤلاء الفيرنج چار Vaerinjar أو الفرنجيون Varangians (« أتباع » الزعيم) أن يحموا تلصصهم بالقانون والنظام فأقاموا مراكز محصنة فى طرقهم ، ثم استقروا بالتدريج وكانوا أقلية اسكنديناوية من التجار المسلحين بين زراع خاضعين لهم . واستأجرتهم بعض المدن ليكونوا حماة للأمن والنظام الاجتماعى . ويبدو أن أولئك الحراس قد أحالوا أجورهم جزية ، وأضحوا سادة من استخدموهم(٣٨) ؛ ولم يكد ينتصف القرن التاسع حتى أضحوا هم حكام نفجورود « الحصن الجديد » ، وبسطوا ملكهم حتى وصلوا إلى كيف فى الجنوب . وارتبطت الطرق والمحلات التى كانوا يسيطرون عليها برباط غير وثيق فتألفت منها دولة تجارية وسياسية ، سميت روس Ros أو Rus وهى كلمة لا يزال اشتقاقها مثاراً للجدل الشديد . وربطت الأنهار العظيمة التى تخترق البلاد البحرين الأبيض فى الشمال والأسود فى الجنوب بالقنوات والطرق البرية القصيرة ، وأغرت الفرنجيين بأن يوسعوا تجارتهم ويبسطوا سلطانهم نحو الجنوب . وسرعان ما أخذ هؤلاء التجار المحاربون البواسل يبيعون بضائعهم أو خدماتهم فى القسطنطينية نفسها . ثم حدث ما يناقض هذا ، حدث أنه لما أضحت التجارة على أنهار الدنيبر ، والفلخوف Volkhov ، ودوينا الغربى أكثر انتظاماً مما كانت قبل ، أقبل

التجار المسلمون من بغداد وبيزنطية ، وأخذوا يستبدلون الفراء ، والكهرمان ، وعسل النحل ، وشمعه ، والرقيق ، بالتوابل ، والخمور ، والحرير ، والجواهر ، وهذا منشأ ما نجده من النقود الإسلامية والبزنطية الكثيرة العدد على ضفاف تلك الأنهار وفى اسكنديناوة نفسها . ولما حالت سيطرة المسلمين على البحر المتوسط الشرقى دون وصول الحاصلات الأوربية مجتازة المسالك الفرنسية والإيطالية إلى ثغور البلاد الواقعة فى شرق هذا البحر ، واضمحلت مرسيليا ، وجنوا وبيزا فى القرنين التاسع والعاشر ، وازدهرت فى مقابل هذا فى الروسيا مدائن نفجورود ، واسمولنسك Smolensk ، وشرنيجوف Shernigov ، وكيف ، ورستوف Rostov بفضل التجارة الاسكنديناوية ، والصقلبية ، والإسلامية ، والبزنطية .

وخلع السجل القديم الروسى (القرن الثانى عشر) على هذا التسرب الاسكنديناوى شخصية تاريخية بقصته عن « الأمراء الثلاثة » : وخلاصتها أن السكان الفنلنديين والصقالبة فى نفجورود وما حولها أخذوا يتقاتون فيما بينهم بعد أن طردوا سادتهم الفرنجيين ، وبلغ من هذا التناحر أن دعوا الفرنجيين أن يرسلوا لهم حاكما أو قائداً (٨٦٢) ، فجاءهم ، كما تروى القصة ، ثلاثة إخوة — روريك Rurik ، وسنيوس Sinues ، وتروفور Truvor — وأنشأوا الدولة الروسية . وقد تكون هذه القصة صادقة رغم تشكك المتأخرين فيها ، وقد تكون طلاء وطنيا لفتح نفجورود على يد الاسكنديناويين . ويضيف السجل بعد ذلك أن روريك أرسل اثنين من أعوانه هما أسكولد Ascold ودير Dir ليستوليا على القسطنطينية ، وأن هذين الشماليين وقفا فى طريقهما ليستوليا على كيف ، ثم أعلنا استقلالهما عن روريك والخزر جميعاً .

وبلغت كيف فى عام ٨٦٠ من القوة مبلغاً أمكنها أن تسير عمارة بحرية من ألف سفينة تهاجم القسطنطينية ، وأخفقت الحملة فى مهمتها ، ولكن كيف بقيت كما كانت مركزاً لروسيا التجارى والسياسى ، وجمعت تحت سلطانها بلاداً

واسعة ممتدة خلفها . وفى وسعنا أن نقول بحق إن حكامها الأولين — أسكولد Ascoled ، وأولج Oleg ، وإيجور Igor لاروريك حاكم نفجورود — هم الذين أنشأوا الدولة الروسية . ووسع أولج ، وإيجور ، وأبلجا Oelga — الأميرة القديرة أرملة أولج — وابنها المحارب اسفياتسلاف Sivatoslav (٩٦٢ — ٩٧٢) مملكة كيف حتى انضوت تحت لوائها القبائل الصقلبية كلها تقريباً ، ومدائن بولوتسك Polotsk ، واسمولنسك ، وشرنجوف ، ورستوف . وحاولت الإمارة الناشئة بين عامى ٨٦٠ ، ١٠٤٣ ست مرات أن تستولى على القسطنطينية . ألا ما أقدم زحف الروس على البسفور ، وتعطش الروس إلى مخرج أمين إلى البحر المتوسط .

واعتنقت روس ، كما سميت الإمارة الجديدة نفسها ، تحت حكم ڤلديمير الخامس (٩٧٢ — ١٠١٥) « دوق كيف الأكبر » ، الدين المسيحى (٩٨٩) . وتزوج ڤلاديمير أخت الإمبراطور باسيل الثانى ، وظلت الروسيا من ذلك الوقت إلى عام ١٩١٧ ابنة للدولة البيزنطية فى دينها ، وحروفها الهجائية ، وعملتها ، وفنها . وشرح القساوسة اليونان لڤلاديمير منشأ الملوك وحقهم الإلهيين ، وما لهذه العقيدة من نفع فى تثبيت النظام الاجتماعى واستقرار الملكية المطلقة(٣٩) . وبلغت دولة كيف أوج عزها فى عهد يروسلاف Yaroslav (١٠٣٦ — ١٠٥٤) بن ڤلاديمير ، واعترفت بسلطانها اعترافاً غير أكيد كل البلاد الممتـــدة من بحيرة لدوجا Ladoga والبحر البلطى إلى بحر قزوين ، وجبال القفقاس ، والبحر الأسود ، وكانت الضرائب تجبى إليها من هذه البلاد . وامتصت فى جسمها الغزاة الاسكنديناويين وغلب على هؤلاء الدم الصقلبى واللغة الصقلبية . وكان نظامها الاجتماعى أرستقراطياً صريحاً ، فكان الأمراء يعهدون بمهام الإدارة والدفاع إلى طبقة عليا من النبـــلاء ، وطائفة أخرى مثلهم ولكنها أقل منهم مقاماً يعرفون بالديتسكى dietski أو الأوتروكى Otroki أى الخدم أو الأتباع . ويلى هؤلاء فى المنزلة طبقة

التجار ، وأهل المدن ، ثم الزراع نصف العبيد ، ثم العبيد أنفسهم . وأقر كتاب القانون المعروف باسم الرسكايا پراڤدا Raskaya Pravda أو الحق الروسى ، الثأر الشخصى والمبارزة القانونية ، وتبرئة المتهم بناء على أيمان الشهود ؛ ولكنه أوجد نظام المحاكمة على أيدى اثنى عشر محلفين من المواطنين(٤٠) . وأنشأ ڤلاديمير مدرسة للأولاد فى كيف ، وأنشأ ياروسلاف مدرسة أخرى فى نفجورود . وكانت كيف وهى ملتقى السفن النهرية الآتية من أنهار يلخوف ، ودڤينا ، ودنيبر الأدنى تجبى الضرائب على جميع المتاجر المارة بها ، وسرعان ما بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تشيد أربعمائة كنيسة ، وكاتدرائية كبيرة — تضارع أياصوفيا — على الطراز البيزنطى . وجىء بالفنانين اليونان ليزينوا هذه المبانى بالفسيفساء ، والمظلمات وغيرها من ضروب الزينة البيزنطية ؛ ودخلت فيها الموسيقى اليونانية تمهد السبيل إلى نصرة الأغانى الروسية الجماعية . وأخذت الروسيا ترفع نفسها على مهل من غمار الأوحال والتراب ، وتبنى القصور لأمرائها ، وتقيم القباب فوق أكواخ الطين ، وتستعين بقوة أبنائها وجلدهم على بناء جزائر صغرى من الحضارة فى بحر لم يخرج بعد من ظلمات الهمجية .

الباب التاسع عشر

اضمحلال الغرب

٥٦٦ — ١٠٦٦

بينا كان الإسلام يشق طريقه فى أنحاء العالم ، وبينا كانت بيزنطية تفيق من الضربات التى بدت قاصمة لظهرها ، كانت أوربا تكافح للخروج من دياجير « العصور المظلمة » . وهذا تعبير غير دقيق فى وسع كل إنسان أن يعرِّفه كما يهوى ؛ أما نحن فسنقصره تعسفاً منا على أوربا غير البيزنطية فى الفترة الواقعة بين موت بوئيثيوس Boethius عام ٥٢٤ ومولد أبيلار Abelard فى عام ١٠٧٩ . وظلت الحضارة البيزنطية مزدهرة خلال هذه الفترة رغم ما خسرته الدولة من أملاكها ومهابتها ؛ أما أوربا الغربية فكانت فى القرن السادس الميلادى مسرحاً لفوضى الفتوح ، والانحلال ، والعودة إلى الهمجية . نعم إن قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية والرومانية القديمة قد بقى فيها ، وإن كان معظمه صامتاً مخبوءاً فى عدد قليل من الأديرة والأسر ، ولكن مصادر الأسس الجسمية والنفسية التى يقوم عليها النظام الاجتماعى كانت قد اضطربت اضطراباً لا تعود معه هذه الأسس إلى الاستقرار إلا بعد قرون طوال . ذلك أن الولع بالآداب ، والإخلاص للفن ، ووحدة الثقافة واتصالها ، وتجاوب العقول بعضها مع بعض تجاوباً يشحذها ويخصبها ، كل هذه الأسس قد انهارت أمام ضربات الحرب وويلاتها ، وأخطار طرق النقل ، والأساليب الاقتصادية فى البيئات الفقيرة ، ونشأة اللغات القومية ، واختفاء اللغة اللاتينية من بلاد الشرق واللغة اليونانية من الغرب . وعجلت فى القرنين التاسع والعاشر سيطرةُ المسلمين على البحر المتوسط ، وغارات النورمان ،

والجر ، والمسلمين على السواحل الأوربية نزعة التخصص فى أساليب الحياة.
ووسائل الدفاع وبداثية الفكر والكلام . وكانت ألمانيا وأوربا الشرقية ملتقى
تيارات متعارضة من الهجرات ، واسكنديناوة معششاً للقراصنة ، وبريطانيا
تجتاحها قبائل الإنجليز ، والسكسون ، والجوت ، والدنمرقيين ؛ وغالة يهاجمها
الفرنجة ، والنورمان ، والبرغنديون ، والقوط ؛ وأسپانيا يتنازعها القوط
الغربيون والمسلمون ؛ وكانت إيطاليا قد حطمتها الحروب الطوال التى
دارت رحاها بين القوط والبيزنطيين ؛ وظلت البلاد التى وهبت نصف
العالم الأمن والنظام تعانى خمسة قرون طوال مساوئ الانحلال فى الأخلاق
والاقتصاد ، وأنظمة الحكم .

ومع هذا فإن شارلمان ، وألفرد Alfred ، وأتو الأول قد وهبوا فرنسا ،
وإنجلترا وألمانيا فترات من النظام ، وكانوا حافزاً على السير إلى الأمام ؛
وأحيت إرچينا Erigena موات الفلسفة ، وجدد ألكوين Alcuin وغيره
نشاط التعليم ، وأدخل جربرت Gerbert علوم المسلمين إلى بلاد المسيحية ؛
وأصلح ليو التاسع وجريجورى السابع نظم الكنيسة وبعثا فيها القوة ، ونشأ
فى فن العمارة طراز الزخرف الرومانى ؛ وبدأت أوربا فى القرن الحادى
عشر رقيها البطىء إلى ما وصلت إليه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر
أى إلى أعظم ما بلغته فى العصور الوسطى بأجمعها .

الفصل الأول

إيطاليا

١ — اللمبارد : ٥٦٨ — ٧٧٤

انطفأ سراج الحكم البيزنطى فى إيطاليا الشمالية بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على أثر غارات اللمبارد على تلك البلاد .

ويظن پولس الشماس — وهو واحد منهم — أن اللمبارد أو اللنجوباردى Longobardi قد سموا بهذا الاسم لطول لحاهم[١] ، وهم أنفسهم يعتقدون أن موطنهم الأصلى كان فى اسكنديناوة[٢] ، ولهذا فإن دانتى ، وهو من نسلهم[٣] ، يوجه الخطاب إليهم بهـذا الوصف[٤] . ونراهم على ضفاف نهر الإلب الأدنى فى القرن الأول الميلادى ، وعلى ضفاف الدنواب فى القرن السادس ، ويستخدمهم نارسيس Narses فى حروبه الإيطالية التى دارت رحاها عام ٥٥٢ ، ثم يعيدهم إلى پانونيا بعد أن يحرز النصر . ثم يشتد ضغط الآقار على اللمبارد من الشمال والشرق ، فيتحرك مائة وثلاثون ألفاً منهم فى عناء — رجالهم ونساؤهم وأطفالهم ، ومتاعهم — ويعبرون جبال الألب إلى « لمبارديا » سهول الپو الخصيبة . ولعل نارسيس كان يستطيع وقف سيرهم ، ولكنه كان قد خلع وجلله العار قبل عام من ذلك الوقت ؛ كذلك كانت بيزنطية مشغولة عنهم بالآقار والفرس ؛ ولم يكن لديها من المال ما تنفقه فى أعمال البطولة التى يفيد منها غيرها . ولهذا فإنه لم يحل عام ٥٧٣ حتى استولى اللمبارد على ڤيرونا ، وميلان ، وفلورنس ، وپاڤيا — وقد أصبحت هذه المدينة الأخيرة عاصمة ملكهم ؛ وفى عام ٦٠١ استولوا على پدوا ، وفى ٦٠٣

على كرمونا Cremona ومنتوا Mantua ؛ وفى ٦٤٠ على جنوا . وانتزع ليوتبراند Liutprand أعظم ملوكهم (٧١٢ — ٧٤٤) راڤنا فى شرقى إيطاليا ، واسپوليتو Spoleto فى وسطها ، وبنفنتو فى جنوبها ، وكان يطمح إلى جمع كلمة إيطاليا كلها تحت سلطانه . غير أن البابا جرجورى الثالث لم يكن يرضى أن تصبح البابوية أبرشية لمباردية ؛ فاستغاث بالبنادقة الذين لم يخضعوا للمبارد ، وأعاد هؤلاء راڤنا إلى بيزنطية . ولم ير ليوتبراند بُدّاً من أن يقنع بحكم شمالى إيطاليا ووسطها أصلح حكم مرّ عليهما منذ أيام ثيودريك القوطى ، وكان هو مثل ثيودريك يجهل القراءة والكتابة[٥] .

وأنشأ اللمبارد حضارة خطت فى مدارج الرقى . وكانوا يختارون ملكهم ؛ وكان هذا يستشير فى شئون الحكم مجلساً من الأعيان ، ويعرض شرائعه عادة على جمعية شعبية مؤلفة من جميع الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية . ونشر مليكهم راثارى Rathari (٦٤٣) كتاب قوانين جمعت بين البدائية والتقدمية : فكانت تبيح أداء الدية المالية جزاء للقتل ؛ وأرادت أن تحمى الفقراء من الأغنياء ، وكانت تسخر من السحر والشعوذة ، وتبيح حرية العبادة للكاثوليك ، والأريوسيين ، والوثنيين على السواء[٦] . وامتص الدم الإيطالى الغزاة الألمان عن طريق الزواج ، واتخذوا اللسان اللاتينى لغة لهم ، وترك اللمبارد آثارهم فى أماكن متفرقة : فى العيون الزرقاء ، والشعر الأشقر ، وفى قليل من الكلمات التيوتونية فى اللغة الإيطالية . ولما أن خبت حدة الفتوح واستقر القانون ، عادت التجارة — وهى العمل الطبيعى فى وادى نهر البو — سيرتها الأولى ؛ ولم يكد ينتهى عصر اللمبارد حتى أثرت مدائن شمالى إيطاليا وقويت واستعدت لتلقى الفنون وخوض الحروب عندما بلغت ذروتها فى العصور الوسطى . أما الأدب فكانت سوقه راكدة ؛ فلم يبق الدهر من أدب ذلك العصر وتلك الدولة إلا كتاباً واحداً ذا شأن — هو كتاب تاريخ اللمبارد لبولس الشماس (حوالى عام ٧٤٨) ؛

وهو كتاب ممل ، مشوه الترتيب ، ليس فيه مثقال ذرة من الفلسفة . ولكن لمبارديا طبعت اسمها على فن العمارة وشئون المال ؛ وكانت حرف البناء قد احتفظت بشيء مما أخذته عن بيزنطية من تنظيم وحذق قديمين . وكان لإحدى الجماعات ، وهي جماعة سادة كومو ، السبق في صياغة طراز « لمباردى » في العمارة جمعته من أصول متعددة ، وازدهر فيما بعد حتى أصبح هو الطراز الرومانسى .

ولم يمض جيل واحد على حكم ليوتبراند حتى تحطمت المملكة اللمباردية على صخرة البابوية . ثم استولى الملك إيستلف Aistulf على راقنا في عام ٧٥١ ، وأنهى بذلك تبعيتها لبيزنطية ، وإذ كانت دوقية رومة قبل ذلك الوقت تابعة من الوجهة القانونية للولى المقيم في راقنا فإن أيستلف طالب بحقه في ضم رومة إلى مملكته الآخذة في الاتساع . واستغاث البابا استيفن الثانى بقسطنطين كبرونيموس فبعث الإمبراطور اليونانى بمذكرة غير ذات خطر إلى أيستلف ؛ فما كان من استيفن إلا أن استغاث ببيبين القصير Pepin the Short ملك الفرنجة . وكان لهذه الاستغاثة نتائج ذات شأن لم تقف عند حد . ولاح لبيبين الأمل في بناء إمبراطورية له فعبر جبال الألب ، ونكل بإيستلف ، وجعل لمبارديا إقطاعية للفرنجة ، وأعطى جميع إيطاليا الوسطى للبابوية . وظل البابوات يقرون بالسيادة الرسمية لأباطرة الشرق ؛ أما إيطاليا الشمالية فقد قضى فيها على سلطان بيزنطية قضاء نهائياً . وقد حاول دسيدريوس Desiderius الملك اللمباردى التابع أن يسترد استقلال لمبارديا وفتوحها ؛ ولكن البابا هدريان الأول استدعى لمعونته فرنجيا جديداً ، وانقض شارلمان على پاقيا ، وأرسل دسيدريوس إلى أحد الأديرة وقضى على مملكة اللمبارد وجعلها ولاية تابعة للفرنجة .

٢ — النورمان فى إيطاليا (١٠٣٦ — ١٠٨٥)

وتركت إيطاليا الآن تعانى الانقسام والحكم الأجنبى مدى ألف عام ، لن نعنى بتسجيل تفاصيل حوادثها . وحسبنا أن نقول إن النورمان شرعوا فى ١٠٣٦ يفتحون إيطاليا الجنوبية وينتزعونها من الدولة البيزنطية . ذلك أنه كان من عادة أشراف نورمنديا أن يوزعوا أراضيهم على أبنائهم بالتساوى كما يفعل الفرنسيون فى هذه الأيام ، وكانت نتيجة هذا القانون فى نورمنديا أن تجزأت أملاك الأسر فى العصور الوسطى إلى ملكيات صغيرة على حين أن نتيجته فى فرنسا هى وجود أسر صغيرة . ولم يكن النورمان راغبين فى حياة الفقر الهادئة ، وكانوا إلى هذا لا يزالون يذكرون ما طبع عليه آباؤهم أهل الشمال من حب المغامرة والسلب والنهب ، ولهذا أجَّر بعض شداد النورمان أنفسهم إلى أدواق إيطاليا الجنوبية المتنافسين المتنازعين ، وأظهروا ضروباً من البسالة فى حروبهم إلى جانب بنفنتو ، وسالرنو ، ونابلى ، وكپوا ، وإلى جانب أعدائها ، وأعطوا مدينة أفرسا Aversa جزاء لهم على أعمالهم . وترامى إلى مسامع غيرهم من شباب النورمان المتحمسين أن الأراضى تكسب بضربة أو ضربتين من سواعدهم ، فغادروا نورمنديا إلى إيطاليا . وسرعان ما أصبح من فيها من النورمان كثرة تستطيع أن تقاتل لحسابها ؛ ولم يحل عام ١٠٥٣ حتى أنشأ أجرأهم ربرت جوسكارد Robert Guiscard (أى العاقل أو الماكر) مملكة نورمندية فى إيطاليا الجنوبية . وكان ربرت هذا يتصف بكل الصفات التى تخلعها الأساطير على الأبطال . كان أطول من جميع جنوده ، وكان قوى الساعدين ، صلب الرأى ، جميل المحيا ، أشقر الشعر ، أصهب اللحية ، فخم الثياب ، سخى اليد ينثر الذهب نثراً ، قاسياً فى بعض الأحيان ، وباسلا على الدوام .

ولم يكن روبرت يعترف بغير قانون القوة والخداع ، فاجتاح كلبريا Calabria واستولى على بنفنتو ، وكاد يمشى إلىها على جثة البابا ليو التاسع (١٠٥٤) ، وعقد حلفاً مع نقولا الثانى ، تعهد فيه أن يكون خاضعاً له وأن يؤدى له الجزية ، وأقطعه نقولا فى نظير ذلك كلبريا ، وأپوليا Apulia وصقلية (١٠٥٩) . وترك ربرت أخاه الأصغر روچر ليفتح صقلية ، واستولى هو على بارى Bari (١٠٧١) وطرد البيزنطيين من أپوليا . واغتاظ إذ وجد البحر الأدرياوى يعترض طريقه فأمل أن يعبره ليستولى على القسطنطينية ، ويصبح أقوى ملوك أوربا جميعاً . وأنشأ من فوره عمارة بحرية ، هزم بها الأسطول البيزنطى فى واقعة بحرية بالقرب من درزو (١٠٨١) ؛ واستغاثت بيزنطية بالبندقية ، فخفت هذه المدينة لنجدتها لأنها لم تشأ إلا أن تكون ملكة البحر الأدرياوى ؛ وأوقعت سفائنها الماهرة فى ضروب القتال هزيمة منكرة بعمارة جوسكارد البحرية فى عام ١٠٨٢ على بعد قليل من موضع نصره الذى ناله منذ وقت قصير . ولكن ربرت استطاع بنشاطه الشبيه بنشاط يوليوس قيصر نقل جيشه إلى دورزو Durazzo وهزم عندها جيوش ألكسيوس الأول الإمبراطور اليونانى ، واخترق إپيروس وتساليا حتى كاد يصل إلى سلانيك . وبينا هو يوشك أن يحقق حلمه إذ تلقى دعوة حارة من البابا جريجورى السابع يستغيث به لينقذه من الإمبراطور هنرى الرابع . فما كان من ربرت إلا أن ترك جيشه فى تساليا ، وعاد مسرعاً إلى إيطاليا ، وحشد جيشاً من النورمان ، والطليان ، والمسلمين أنقذ به البابا ، وانتزع رومة من الألمان ، وأخمد ثورة قام بها الشعب على جيشه ، وترك هذا الجيش الحانق يحرق المدينة وينهبها ويخربها تخريباً لا يجاريه فيه تخريب الوندال أنفسهم لهذه المدينة (١٠٨٤) وعاد فى هذه الأثناء ابنه بوهمند Bohemond ليعترف بأن جيشه الذى كان فى بلاد اليونان قد مزقه ألكسيوس شر ممزق . وأنشأ القرصان القديم أسطولا ثالثاً هزم به أسطول البندقية بالقرب من جزيرة كورفو Corfu (١٠٨٤) ، واستولى على جزيرة

كفلونيا Cephalonia الأيونية ، ثم مات فيها ، بعدوى سرت إليه أو بالسم ، فى سن السبعين (١٠٨٥) . وكان هو أول القادة اللصوص فى إيطاليا (الكندتيرى Conedottieri) .

٣ — البندقية : (٤٥١ — ١٠٩٥)

وبينا كانت هذه الأحداث تجرى فى مجراها إذ ولدت دولة جديدة فى الطرف الشمالى من شبه الجزيرة ، قدر لها أن تزداد قوة وعظمة حين كانت الفوضى تضرب بجرانها على الجزء الأكبر من إيطاليا . وتفصيل ذلك أن سكان أكويليا Aquileia ، وبدوا ، وبلونو Belluno ، وفلترى Feltre وغيرها من المدن فروا فى أثناء غارات القبائل الهمجية فى القرن الخامس والسادس — وبخاصة فى أثناء غارة اللمبارد فى عام ٥٦٨ — لينجوا بأنفسهم من الهلاك وينضموا إلى صيادى السمك المقيمين فى الجزائر الصغيرة التى كونها نهرا البياف Piav والأديج Adige فى الطرف الشمالى من البحر الأدرياوى . وبقى بعض هؤلاء اللاجئين فى هذه الجزائر بعد انتهاء الأزمة ، وأنشأوا فيها محلات : هرقلية ، وملامكو Melamocco وجرادو Grado ، وليدو Lido . . . وريفو ألتو Rivo Alto (النهر العميق) . وقد أضحت هذه المحلة الأخيرة التى سميت فيها بعد ريالتو Rialto عاصمة حكومتهم المتحدة (٨١١) . وكانت قبيلة من الفنيتى Veneti قد احتلت شمالى إيطاليا قبل عهد يوليوس قيصر بزمن طويل ؛ وأطلق اسم ڤنيزيا Venezia فى القرن الثالث عشر على المدينة الفذة التى نشأت حيث كان يقيم اللاجئون .

وكانت الحياة فيها شاقة فى بادئ الأمر ، فكان من الصعب الحصول على الماء العذب ، لأن قيمته لم تكن تقل عن قيمة الخمر . وأرغمت الظروف البنادقة — أهل ڤنيزيا — لأن يصبحوا أهل سفن وتجارة لاضطرارهم إلى استبدال القمح وغيره من السلع بما يحصلون عليه من البحر من سمك وملح ؛ وما لبثت

تجارة أوربا الشمالية والوسطى أن أخذت تنساب تدريجاً عن طريق الثغور البندقية . وأقر اتحاد المدن البندقية الجديد بسيادة بزنطية عليه ليحمى نفسه من الألمان واللمبارد ، ولكن مركز هذه الجزائر المنيع فى مياهها الضحلة وتعذر الهجوم عليها براً أو بحراً لهذا السبب ، مضافاً إلى جد أهلها وجلدهم ، وازدياد الثراء الناتج من انتشار تجارتها ، كل هذا قد وهب الدولة الصغيرة سيادة واستقلالا غير منقطعين مدى ألف عام .

وظل اثنا عشر تربيوناً — يبدو أن كل واحد منهم كان يشرف على شئون جزيرة من الجزائر الاثنتى عشرة الكبيرة — يصرفون شئون الحكم حتى عام ٦٩٧ حين أحست هذه العشائر بحاجتها إلى سلطة عليا موحدة ، فاختارت أول دوج أو دوق أو زعيم doge, dux يتولى شئون الحكم حتى ينزله الموت أو تنزله الثورة عن عرشه . ودافع الدوج أجنلو بدور Agnello Badoer (٨٠٩ — ٨٢٧) عن المدينة ضد الفرنجة دفاعاً أظهر فيه من ضروب المهارة ما جعل الأدواق فيما بعد يختارون من سلالته حتى عام ٩٤٢ . وثأرت البندقيـــة لنفسها فى عهد أرسلو Orsello الثانى (٩٩١ — ١٠٠٨) من غارات القراصنة الدلماشيين بأن هاجمت معاقلهم واستولت على دلماشيا ، وبسطت سيادتها على البحر الأدرياوى . وشرع البنادقة فى عام ٩٩٨ يحتفلون فى عيد الصعود من كل عام بهذا النصر البحرى وبهــذه السيادة الاحتفال الرمزى المعروف عندهم باسم اسبوزاليزيا (sposalisia) : فكان الدوج يقذف فى البحر من سفينة مزينة زينة بهجة بخاتم مدشن ، وينادى باللغة اللاتينية : « إنا نتزوجك أيها البحر ، دليلا على سلطاننا الحق الدائم »[٧] . وسرَّ بزنطية أن تقبل البندقية حليفاً لها مستقلا ، وكافأتها على صداقتها النافعة بامتيازات تجارية فى القسطنطينية وغيرها وصلت تجارة البندقية بفضلها إلى البحر الأسود بل تعدته إلى بلاد الإسلام نفسها .

وحدث فى عام ١٠٣٣ أن قضت أرستقراطية التجار على انتقال السلطة إلى

الأدواق عن طريق الوراثة ، وعادت إلى مبدأ الانتخاب على يد جمعية من المواطنين ، وأرغمت الدوج على أن يحكم بعدئذ بالاشتراك مع مجلس من الشيوخ . وكانت البندقية فى ذلك الحين قد أصبحت تلقب « بالذهبية » (ڤنيسيا أوريا Venetia Aurea) ، واشتهر أهلها بثيابهم المترفة ، وبانتشار التعليم بينهم ، وبإخلاصهم لوطنهم وكبريائهم . وكانوا أقواماً نشطين راغبين فى الكسب ، ماهرين ، دهاة ، شجعاناً ، ميالين للنزاع ، أتقياء ، لا يحرصون على مبدأ ، يبيعون العبيد المسيحيين للمسلمين[٨] ، وينفقون بعض مكاسبهم فى بناء الأضرحة للقديسين . وكان فى حوانيت ريالتو صناع ورثوا من إيطاليا الرومانية حذق أهلها الصناعى ؛ وكانت تجارة محلية نشيطة تسير فى قنواتها ، هادئة ساكنة إلا من صيحات بحارة قواربها الأنيقة اللفظ ، وكانت موانئ الجزائر تحملها السفن المغامرة تحمل منتجات أوربا وبلاد الشرق . وكانت قروض الرأسماليين تموّل رحلات التجار البحرية . وتعود على أصحاب هذه الأموال بربح لا يقل عن عشرين فى المائة فى الأحوال العادية[٩] . واتسعت الهوة بين الأغنياء (المجيورى) والفقراء (المينورى) حين ازداد ثراء الأثرياء ، ولم ينقص فقر الفقراء إلا قليلا . ولم يكن أحد يظهر الرأفة بالسذج البسطاء ، فكان الكسب والثراء من نصيب الأسرع ، والظفر من نصيب الأقوى . فكان الفقراء يمشون على الأرض العارية ، وتنساب فضلات بيوتهم فى الشوارع إلى القنوات ؛ أما الأثرياء فقد شادوا القصور الفخمة ، وسعوا لكسب رضاء الله والناس بإقامة أفخم كنيسة كبرى فى العالم اللاتينى ، وتبدلت واجهة قصر الدوج ، التى شيدت أول مرة فى عام ٨١٤ واحترقت فى عالم ٩٧٦ ، وتغير شكلها مراراً عدة قبل أن تستقر على شكلها الحاضر الذى هو مزيج رشيق من الزخرف الإسلامى والصورة التى هى من مميزات عصر النهضة .

وحدث فى عام ٨٢٨ أن سرق بعض تجار البنادقة من إحدى كنائس

الإسكندرية ما يظن أنه مخلفات القديس مرقس . واتخذت البندقية ذلك القديس شفيعاً لها وحاميها ونهبت نصف العالم لتوارى عظامه . وبدئ بإنشاء كنيسة القديس مرقص الأولى عام ٨٣٠ ثم دمرتها النار فى عام ٩٧٦ تدميراً رأى معه أرسيولو Orseolo الثانى أن يبدأ كنيسة جديدة أوسع منها رقعة . واستدعى لهذا الغرض فنانين من بيزنطية أقاموها على نمط كنيسة الرسول المقدس فى القسطنطينية — ذات سبع قباب فوق بناء صليبى . وظل العمل فيها جاريا نحو قرن من الزمان ؛ وتم البناء الرئيسى بشكله الحاضر تقريباً فى عام ١٠٧١ ، ودشن فى عام ١٠٩٥ . ولما فقدت مخلفات القديس مرقس حين شبت النار فى الكنيسة عام ٩٧٦ ، وهدد فقدها قداستها ، اتفق على أن يجمع المصلون فى الكنيسة فى يوم تدشينها ويدعوا الله أن توجد هذه المخلفات . وتقول إحدى الروايات المأثورة العزيزة على البنادقة الصالحين إن إحدى الأعمدة خر لدعواتهم ، وسقط على الأرض ، وكشف عن عظام القديس[١٠] . وتهدم البناء وأصلح مراراً ، وقلما مرت عشر سنين دون أن تشهد فيه تغييراً أو تحسيناً . وليست كنيسة القديس بطرس التى نعرفها الآن بنت تاريخ واحد أو عصر واحد ، بل إنها سجل من الحجارة والجوهر لألف عام ؛ فقد أضيفت فى القرن الثانى عشر واجهة من الرخام إلى جدرانها المقامة من الآجر ، وجىء بأعمدة مختلفة الأنواع من أكثر من عشر مدائن ؛ وقام الفنانون البيزنطيون الذين اتخذوا البندقية وطناً لهم بعمل فسيفساء الكنيسة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وأخذت أربعة جياد برنزية من القسطنطينية حين استولى البنادقة عليها فى عام ١٢٠٤ ، ووضعت فوق البوابة الرئيسية ؛ وأضاف الفنانون القوط فى القرن الرابع عشر أبراجاً ، وشبابيك مفرغة ، وستاراً للضريح المقدس ؛ وغطى مصورو عصر النهضة فى القرن السابع عشر نصف الفسيفساء بصور للجدران غير ذات شأن كبير . واحتفظ البناء العجيب فى خلال هذا التغيير كله وهذه القرون الطوال بمميزاته ووحدته —

فكان على الدوام بيزنطياً وعربياً ؛ منمقاً وشاذاً غير مألوف : فهو من خارجها شديد البريق ذو أقواس ، وأكتاف ، وأبراج مستدقة ، وأبواب ، والتفافات لولبية ، ورخام متعدد الألوان مغلف بالمعادن ، وطنف منحوتة ، وقباب بصلية الشكل . وهو من الداخل يحوى متاهة من العمد الملونة ، ومثلثات مطلية بين العقود ، ومظلات قائمة ، وخمسة آلاف ياردة موبعة من الفسيفساء ، وأرضية مرصعة باليشب والعقيق وغيرهما من الحجارة الكريمة ، وحظاراً زخرفياً خلف المذبح صنع عام ٩٧٦ فى القسطنطينية من المعادن الغالية والميناء ذات الحزوز ، مثقلة بألفين وأربعمائة قطعة من الجواهر ، ومقاماً خلف المذبح الرئيسى منذ عام ١١٠٥ . وقد عدت الرغبة الجامحة فى الزخرف طورها فى كنيسة القديس مرقس كما عدته فى كنيسة أياصوفيا ، فرأت أن تكرم الله بالرخام والحلى ، وأن تروع الإنسان ، وتؤدبه ، وتشجعه ، وتواسيه بمائة مشهد ومشهد من الملحمة المسيحية من بداية الخلق إلى نهاية العالم . وكانت كنيسة القديس مرقس أسمى وأخص ما عبر به عن أنفسهم أقوام لاتين استحوذ عليهم الفن الشرقى حتى ملك عليهم مشاعرهم .

٤ — الحضارة الإيطالية (٥٦٦ — ١٠٩٥)

ظلت إيطاليا الشرقية والجنوبية بيزنطية فى ثقافتها ، على حين أن بقية شبه الجزيرة قد نشأت فيها من تراث الرومان حضارة جديدة — عناصرها لغة جديدة ، ودين جديد ، وفن جديد . ذلك أن هذا التراث لم يفن كله رغم ما حل بالبلاد من غزو ، وفوضى ، وفقر . فأما اللغة الإيطالية فكانت هى اللاتينية الخشنة التى كانت تتكلم بها الجماهير فى العهد القديم ، وقد استحالت على مهل حتى أضحت أكثر اللغات رخامة . وأما المسيحية الإيطالية فكانت مؤلفة من وثنية خيالية جذابة ، وشرك عاطفى من القديسين الحماة المحليين ، وأساطير صريحة من

الخرافات والمعجزات . وكان الفن الإيطالى يرى أن الفن القوطى فن همجى ويستمسك بطراز الباسلقا ، (البناء الرومانى المستطيل الشكل) ، ثم عاد آخر الأمر فى عصر النهضة إلى الشكل الأوغسطى . ولم يزدهر نظام الإقطاع فى إيطاليا مطلقاً ؛ فالمدن لم تفقد قط سلطانها وتفوقها على الريف ؛ وكانت الصناعة والتجارة ، لا الزراعة ، هما اللتين مهدتا السبيل إلى الثراء .

ولم تكن رومة فى عهد من العهود مدينة تجارية ، ولذلك ظلت آخذة فى الضعف ؛ فقد اندثر مجلس شيوخها فى حروب القوط ، وأضحت نظم بلدياتها القديمة بعد سبعمائة عام من نشأتها أدوات جوفاء وأحلاماً تناقض روح الزمان ، ولم يكن فى وسع عامتها المؤلفين من خليط من الأجناس ، والذين يعيشون عيشة قذرة يخفف من قذارتها بعض الشىء الإباحية الجنسية والصدقات البابوية ، لم يكن فى وسع هؤلاء العامة أن يعبروا عن عواطفهم السياسية إلا بالثورات المتكررة على السادة الأجانب أو البابوات البغيضين . وكانت الأسر الأرستقراطية القديمة لا شغل لها إلا التنافس للسيطرة على البابوية أو التنازع مع البابوية للسيطرة على رومة . وبينما كان التربيونون — محامو الشعب — والقناصل وأعضاء مجالس الشيوخ هم الذين ينفذون القانون بالعصى والحراب ، أضحى النظام الاجتماعى يقوم الآن على أساس مزعزع من قرارات المجالس الكنسية ومواعظ الأساقفة ، ووكلائهم ، والمثل المريبة يضربها آلاف الرهبان المختلفى الأمم ، وهم طائفة قلما كانت غير متعطلة ، ولم تكن على الدوام عازبة . وكانت الكنيسة قد شنت الغارة على الاختلاط الجنسى فى الحمامات العامة ، وهجر الناس الأبهاء العظمى وحمامات السباحة الساخنة ، وزال من الوجود فن الطهارة الوثنى . وخُرِّبت قنوات الشرب الإمبراطورية من جراء الإهمال أو الحروب فأخذ الناس يشربون مياه التيبر[11] ؛ وعطلت حلبة مكسيموس Circus Maximus والكلسيوم Collosseum ذواتا الذكريات الدموية ، وأخــذت السوق العامة تعود فى القر

السابع مراعى للبقر كما بدأت ، وغطى الوحل أرض الكبتول ، وهدمت الهياكل القديمة والمبانى العامة ليؤخذ من أنقاضها ما تحتاجه الكنائس المسيحية والقصور من مواد ، وعانت رومة من أبنائها أكثر مما عانته من الوندال والقوط[١٢] ، وملاك القول أن رومة يوليوس قيصر قد ماتت ، وأن رومة ليو العاشر لم تكن قد ولدت بعد .

وتشتتت محتويات دور الكتب القديمة وتلفت ، وكادت الحياة الذهنية أن تنحصر فى الكنيسة . وهوى العلم تحت أقدام الخرافات التى تهب الفقر خيالا ورواء ؛ وظل الطب وحده يرفع رأسه عالياً تحتفظ منه الأديرة بما ورثته عن جالينوس . ولعل مدرسة طبية علمانية قد نشأت من دير للبندكتيين فى سلرنو فى القرن التاسع الميلادى ، فكانت هى التى سدت الثغرة القائمة بين طب الأقدمين وطب العصور الوسطى ، كما سدت إيطاليا الجنوبية الهلنستية الثغرة التى قامت بين ثقافة هذه العصور وثقافة اليونان : وكانت سلرنو مصحة منذ أكثر من ألف عام ؛ وقد وصفت الرواية المحلية المأثورة كلية أبقراط التى كانت بها ، فقالت إنها تتألف من عشرة معلمين أطباء منهم واحد يونانى وآخر مسلم ، وثالث يهودى[١٣] . وجاء قسطنطين « الأفريقى » وهو مواطن يونانى درس الطب فى مدارس المسلمين بأفريقية وبغداد — إلى مونتى كسينو Monte Cassino (التى أصبح فيها راهباً) ، وإلى سلرنو القريبة منها ، جاء إليهما ببضاعة عجيبة مثيرة من المعارف الطبية الإسلامية : وأسهمت تراجمه للكتب اليونانية والعربية فى الطب وغيره من الميادين فى إحياء العلم بإيطاليا ، حتى كانت مدرسة سلرنو حين وفاته حاملة لواء العلوم الطبية فى بلاد الغرب المسيحية .

وكان أهم ما أثمرته الفنون فى هذا العصر هو ابتداع الطراز الرومانسى Romanesque فى العمارة (٧٧٤ — ١٢٠٠) . ذلك أن البنائين الإيطاليين وارثى التقاليد الرومانية فى الصلابة والبقاء زادوا سمك جدران الباسلقا ، وأنشأوا

فى الكنائس جناحاً متقاطعاً مع الصحن ، وأضافوا دعامات من أبراج أوعمد متلاصقة ؛ وأقاموا العقود التى يرتكز عليها السقف على عمد أو أكتاف متجمعة . وكان العقد الرومانسى الخالص يتكون من نصف دائرة بسيطة ، وهو شكل ذو مهابة عظيمة ، يصلح لجسر فوق فرجة أكثر مما يصلح لتحمل ثقل . وكان الدهليز فى الطراز الرومانسى الأول — والصحن والدهليز فى الطراز الرومانسى المتأخر — تعلوه عقود أى يتكون سقفه من بناء ذى أقواس . وكان البناء من الخارج خالياً فى العادة من الزخرف ومبنياً من الآجر المكشوف . وكان داخل البناء يتحاشى الزخرف الكثير الذى يميز الطراز البيزنطى وإن كان يزدان بقسط غير كبير من الفسيفساء ، والمظلمات ، والنقوش المنحوتة . وفيما عدا هذا كان الطراز الرومانسى رومانيا ، همه الثبات والمتانة لا الارتفاع القوطى والرشاقة القوطية ؛ يهدف إلى إخضاع الروح للتواضع المهدئ لها لا لرفعها إلى نشوة عليا تعصف بها .

وأخرجت إيطاليا فى هذه الفترة آيتين من روائع الفن الرومانسى : إحداهما كنيسة أمبرجيو Ambrogio المتواضعة فى ميلان ، والثانية الكتدرائية الضخمة فى بيزا . وقد أعاد الرهبان البندكتيون فى عام ٧٨٩ البناء الذى منع أمبروز أحد الأباطرة من دخول بابه ، ثم تهدم بعد ذلك مرة أخرى . ثم غير جيدو Guido كبير الأساقفة طرازه بين عامى ١٠٤٦ و ١٠٧١ تغييراً شاملا فبدله من باسلقا ذات عمد إلى كنيسة ذات عقود . وكان سقف دهليزها وصحنها قبل أيامه من الخشب ، فأقام لهما هو سقفاً معقوداً من الآجر والحجارة يرتكز على عقود مستديرة خارجة من أكتاف متراكبة . وكانت زوايا التقاطع الناشئة فى السقف المعقود من تقاطع العقود المبنية نفسها « أضلاع » من الآجر ، وذلك أول مثل من السقف المعقود « المضلع » فى أوربا كلها .

ويخيل إلى الرائى أن واجهة كنيسة أمبرجيو تختلف كل الاختلاف عن

واجهة كتدرائية بيزا الكثيرة التعقيد ، ولكن عناصر الطراز فيهما واحدة .
وقد أقيمت هذه الكنيسة الكبرى بعد المعركة الحاسمة التى انتصر فيها أسطول بيزا على أسطول العرب بالقرب من پالرم (١٠٦٣) ؛ إذ طلبت المدينة إلى المهندسين بوشتو Buschetto (اليونانى ؟) ورينلدو Rinaldo أن يخلدا ذكرى المعركة ، ويقربا بعض أسلاب النصر إلى العذراء ، بأن يقيما معبداً تحسدها عليه إيطاليا على بكرة أبيها . وقد شيد البناء كله تقريباً من الرخام . وأقيمت فوق المداخل الغربية أربع أكتاف لبواك مفتوحة تقوم فى عرض الواجهة متكررة تكراراً يتجاوز الحد ؛ وجعل لهذه المداخل فيما بعد (١٦٠٦) أبواب فخمة من البرنز . وكان فى الداخل طائفة كبيرة من العمد الرشيقة — وهى غنائم مختلفة الأصول — تقسم الكنيسة إلى صحن ودهليزين ؛ وتقوم فوق ملتقى جناح الكنيسة وصحنها قبة إهليلجية غير جميلة الشكل . وكانت هذه أولى الكتدرائيات الكبرى فى إيطاليا ، ولا تزال حتى اليوم من أروع الصروح التى أقامها الإنسان فى العصور الوسطى .

الفصل الثانى

أسبانيا المسيحية (٧١١ – ١٠٩٥)

ليس تاريخ أسبانيا المسيحية فى هذه الفترة إلا حربا صليبية طويلة الأمد منشأها تصميمها المتزايد على إخراج المسلمين منها . وكان هؤلاء المسلمون قوماً أغنياء أقوياء ، يمتلكون معظم الأراضى الخصبة ، وتسيطر عليهم خير الحكومات ؛ أما المسيحيون فكانوا فقراء ضعفاء ، وتربة بلادهم ضنينة ، وتفصلهم سلاسل الجبال عن سائر بلاد أوربا ، وتقسمهم إلى ممالك صغيرة ، وتشجع النعرة القومية الإقليمية ، والتطاحن بين الإخوة ، حتى لقد أريق من دماء المسيحيين على أيدى أهلها المسيحيين ذوى العواطف الثائرة أكثر مما أريق منها على أيدى المسلمين .

وكانت غارات المسلمين عليها فى عام ٧١١ قد دفعت من لم يغلبوا من القوط ، والسويفى Suevi ، والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحى ، والكلت من سكان شبه الجزيرة ، دفعت هؤلاء إلى جبال الكنتبريان فى الشمال الغربى من أسبانيا وطاردهم المسلمون فى هذه الجبال ولكن قوة صغيرة بقيادة جوت پلايو Got Pelayo هزمتهم عند كفادنجا Covadonga (٧١٨) ، ومن ثم نادى ذلك القائد بنفسه ملكا على أستورياس ، وأسس الملكية الأسبانية . واستطاع ألفنسو الأول (٧٣٩ – ٧٥٧) على أثر هزيمة المسلمين فى تور أن يمد الحدود الأستورية إلى جليقية Galicia ولوزيتانيا وبسكايا Biscaya . وضم حفيده ألفنسو الثانى (٧٩١ – ٨٤٢) ولاية ليون ، واتخذ أويدو حاضرة لمملكته .

وفى عهد هذا الملك وقعت حادثة كانت من أهم الحوادث فى تاريخ أسبانيا . ذلك أن أحد الرعاة سار بهداية نجم من النجوم – كما تقول الرواية – حتى

وجد فى الجبال تابوتاً من الرخام يعتقد الكثيرون أنه يحتوى على بقايا « الرسول يوحنا » أخى المسيح . وأقيم ضريح فى المكان الذى وجد فيه التابوت ، ثم شيدت فى مكان هذا الضريح كتدرائية فخمة فيما بعد ، وأضحى سنتياجو ده كمپستيلا Sontoagio de Compostela — « يوحنا قديس ميدان النجم » كعبة يحج إليها المسيحيون لا يفوقها فى قداستها إلا بيت المقدس وروما ؛ وكان لهذه العظام أكبر الأثر فى إثارة الروح المعنوية عند الأسپان ، وجمع الأموال اللازمة لقتال المسلمين . وصار القديس يوحنا شفيع أسپانيا وحاميها ، وأذاع اسم سنتياجو فى قارات ثلاث . وهكذا تصنع العقائد التاريخ وخاصة حين تكون هذه العقائد خاطئة ؛ والأخطاء هى التى يموت من أجلها الناس أشرف ميتة .

وإلى شرق استوريا ، وفى جنوب جبال البرانس مباشرة تقع نبرة Navarre وكان معظم أهلها من سلاسلة البشكنس ، وهم فى أغلب الظن خليط من كلت أسپانيا وبربر أفريقية . وقد أفاد هؤلاء من منعة جبالهم فنجحوا فى حماية استقلالهم من المسلمين ، والفرنجة ، والأسپان ، حتى أسس سانكو الأول جراسيا Sancaho Garacia مملكة نبرة واتخذ بمپلونا عاصمة لها . وكسب سانكو لنفسه لقب « العظيم » (٩٩٤ — ١٠٣٥) باستيلائه على ليون ، وقشتالة ، وأرغونة ؛ وأتى على أسپانيا المسيحية حين من الدهر أوشكت فيه أن تتحد ، ولكن سانكو أفسد قبيل وفاته ما عمله طول حياته بأن قسم مملكته بين أولاده الأربعة . ومن تاريخ هذا التقسيم تبدأ حياة مملكة أرغونه ؛ واستطاعت هذه المملكة أن تدفع المسلمين فى الجنوب ، وأن تضم إليها بالسلم نبرة فى الشمال (١٠٧٦) ، فلم يحل عام ١٠٩٥ حتى شملت رقعتها جزءاً كبيراً من وسط أسپانيا الشمالى . وفتح شارلمان فى عام ٧٨٨ مقاطعة قطلونيا — فى شمالى أسپانيا الشرقى حول برشلونة ؛ وظل يحكمها أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم « حددوا أسپانية » ؛ وكانت لغته القطلانية مزيجاً لطيفاً من فرنسية پروڤنسال ولغة قشتالة . وبدأت ليون الواقعة فى الشمال

الغربى تاريخها « بسانكو السمين Sancho the Fat » الذى بلغ من البدانة درجة لم يكن يستطيع معها السير إلا متكئاً على تابع له . ولما خلعه الأشراف لجأ إلى قرطبة حيث شفاه حسداى بن شبروط الطبيب اليهودى الشهير من شحمه ، ثم عاد سانكو إلى ليون يميس كما يميس دن كيشوت . واسترد عرشه (٩٥٩)[١٤] . وسميت قشتالة بهذا الاسم نسبة إلى قلعتها (كاستل Castle) . وكانت تواجه الأندلس الإسلامية وتقضى حياتها تتأهب للحرب . وفى عام ٩٣٠ رفض فرسانها أن يظلوا طائعين لملوك أستورياس أوليون وأقاموا دولة مستقلة اتخذوا برغوس Burgos عاصمة لها . وضم فرننده الأول (١٠٣٥ — ١٠٦٥) ليون وجليقية إلى قشتالة . وأرغم أميرى طليطلة وأشبيلية على أن يعطوه جزية سنوية ، ثم فعل ما فعله سانكو العظيم فأفسد جهوده بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ؛ وقد واصل هؤلاء بكل ما وهبوا من حماسة ما طبع عليه ملوك أسبانيا المسيحيون من تطاحن وحروب يقتل فيها الإخوة بعضهم بعضاً .

وأبقى الفقر الزراعى والتمزق السياسى أسبانيا المسيحيه متأخرة أشد التأخر عن منافسيها المسلمين فى الجنوب ومنافسيها الفرنجة فى الشمال فى نعم الحضارة وفنونها . ولم تكن الوحدة حتى فى داخل كل مملكة من ممالكها الصغيرة إلا سحابة صيف لا تكاد تبدو حتى تنقشع ؛ فكان النبلاء يتجاهلون الملوك إلا فى أوقات الحرب ، ويحكمون من عندهم من رقيق الأرض والعبيد حكم سادة الإقطاع ؛ وكان رجال الكنيسة يؤلفون طبقة ثانية من الأشراف ؛ فكان الأساقفة هم أيضاً يمتلكون رقيق الأرض والعبيد ، ويتولون قيادة جندهم فى الحرب ، ويتجاهلون البابوات فى العادة ، ويحكمون المسيحيين الأسبان حكماً يكاد يجعل منهم كنيسة مستقلة . واجتمع نبلاء ليون وأساقفتها عام ١٠٢٠ فى مجالس قومية وأخذوا يشرعون لمملكة ليون كما تشرع مجالس النواب . وأصدر مجلس ليون مرسوماً يمنح تلك المدينة الحكم الذاتى ، فجعلها بذلك أول مدينة تحكم نفسها

فى أوربا أثناء العصور الوسطى وصدرت مراسيم مماثلة لهذا المرسوم تمنح غيرها من المدن الأسبانية هذا الحكم الذاتى نفسه ، وأكبر الظن أن الغرض من إصدارها هو إثارة حماستها وكسب أموالها فى الحروب القائمة مع المسلمين ، وبذلك قامت دمقراطية حضرية محدودة فى وسط النظام الإقطاعى الأسبانى ، وتحت سلطان الملكية الأسبانية .

ويشهد تاريخ ردريجو (راى) ديازRoderigo (Rry) Diaz بما كانت عليه أسبانيا المسيحية فى القرن الحادى عشر من بسالة ، وفروسية ، وفوضى . وردريجو هذا يعرف عندنا باللقب الذى حباه به المسلمون وهو السيد أى الرجل النبيل أو الشريف أكثر مما يعرف بلقبه المسيحى وهو الكمبيدور El Campeador أى المهاجم أو البطل . وكان مولده فى بيفار Bivar بالقرب من برغوس Burgos حوالى عام ١٠٤٠ ، ونشأ نشأة المغامرين المحاربين ، يقاتل أينما وجد سبب للقتال يدرّ المال . ولم يكد يبلغ سن الثلاثين حتى صار موضع إعجاب أهل قشتالة لمهارته وجرأته فى القتال ، وموضع ريبتهم لاستعداده أن يحارب المسلمين فى صف المسيحيين أو يحارب المسيحيين فى صف المسلمين ؛ ويبدو أن هذا وذاك كانا عنده سواء . وأرسله ألفنسو السادس ملك قشتالة ليأتى بالجزية المستحقة له من المعتمد ابن عباد الشاعر أمير أشبيلية ، ولكنه اتهم عند عودته بأنه احتفظ ببعض هذه الجزية لنفسه . فنفى من قشتالة (١٠٨١) وانضم إلى قطاع الطرق ، ونظم جيشاً صغيراً من الجنود المغامرين ، وباع خدماته إلى من يشتريها من الحكام المسيحيين والمسلمين . فقد ظل ثمانى سنين فى خدمة أمير سرقسطة ووسّع رقعة أملاك المسلمين على حساب أرغونة . وفى عام ١٠٨٩ قاد سبعة آلاف من الرجال معظمهم من المسلمين ، واستولى على بلنسية وأرغمها على أداء جزية شهرية ؛ مقدارها عشرة آلاف دينار ذهبى . وفى عام ١٠٩٠ قبض على كونت برشلونة ، ولم يطلقه إلا بعد أن افتدى بثمانين ألف دينار . ولما وجد بعد رجوعه من تلك

الحملة أن بلنسية قد أغلقت أبوابها دونه حاصرها عاماً كاملا ؛ فلما استسلمت له (١٠٩٤) ، نكث بكل الشروط التى ألقت بمقتضاها سلاحها ، وحرق قاضى قضاتها حياً ، ووزع أملاك سكانها على أتباعه ، وكاد يحرق زوجة قاضى القضاة وبناته لولا احتجاج أهل المدينة وجنوده على هذا العمل[١٥] . وكان السيد حين يقدم على هذه الأعمال وأمثالها إنما يسلك السبيل التى يسلكها أبناء زمانه ، ولكنه كفّر عن سيئاته بأن حكم بلنسية حكماً حازماً عادلا ، وجعلها حصناً منيعاً فى وجه جيوش المرابطين المسلمين . وحكمت زوجته يمينة jimena (١٠٩٩) المدينة بعد موته ثلاث سنين . وقد أحاله أعقابه المعجبون به ، بما حاكوه حوله من أقاصيص ، فارساً لا تحركه إلا رغبة مقدسة فى إعادة أسبانيا إلى المسيح . ويعظم الناس رفاته فى برغوس تعظيمهم للقديسين[١٦] .

ولم تستطع أسبانيا المسيحية ، وهى على هذه الحال من الانقسام ، أن تسترد البلاد من المسلمين إلا لأن أسبانيا الإسلامية قد فاقتها آخر الأمر فى التمزق والفوضى : وكان سقوط خلافة قرطبة عام ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها ألفنسو السادس ملك قشتالة (الأذفنش) . فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك أشبيلية (١٠٨٥) واتخذها عاصمة لملكه وعامل المسلمين المغلوبين بما جبل عليه المسلمون من كرم ، وشجع انتشار الثقافة الإسلامية فى أسبانيا المسيحية .

الفصل الثالث

فرنسا (٦١٤ — ١٠٦٠)

مجيء الكارولنجيين : ٦١٤ ، ٧٦٨

لما جلس كلوتير Clotaire الثانى على عرش الفرنجة لاح أن مركز الأسرة المروفنجية وطيد ؛ ذلك أنه لم يحكم ملك قبله من ملوك هذه الأسرة دولة تضارع دولته فى الاتساع والوحدة ؛ ولكن كلوتير كان مديناً بقوته إلى أشراف أستراسيا وبرغندية ؛ وقد كافأهم على تأييدهم له بأن زاد من استقلالهم ووسع أملاكهم ، وبأن اختار واحداً منهم هو پيپن Pepin الأول الأكبر ليكون « ناظراً للقصر » . وكان ناظر القصر فى بادئ الأمر هو المشرف على القصر الملكي وناظراً على المزارع الملكية ؛ وزادت مهام منصبه حين عكف الملوك المروفنجيون على الدعارة والدسائس ؛ وأخذ يشرف شيئاً فشيئاً على شئون المحاكم ، والجيش ، والمال . وحدّ الملك داجوبرت Dagobert (٦٢٨ — ٦٣٩) ابن كلوتير من سلطان ناظر القصر والأشراف وقتاما « فوزع العدالة بين الأغنياء والفقراء على السواء » كما يقول فرديجار Fredegart الإخبارى ، « وكان قليل النوم والطعام ، ولم يكن همه إلا أن يخرج الناس من مجلسه ممتلئة قلوبهم غبطة وإعجاباً[١٧] » . غير أن فرديجار يضيف إلى ذلك قوله : « وكانت له ثلاث ملكات وعدد كبير من الخظايا » كما كان « عبداً لشهواته[١٨] » . وعادت السلطة فى عهد خلفائه — الملوك الذين لا يفعلون شيئاً — إلى ناظر القصر : وهزم پيپن الثانى الأصغر منافسيه فى واقعة تسترى Testry (٦٨٧) ، واستبدل بلقب « ناظر القصر » لقب دوق الفرنجة وكبيرهم ، وحكم غالة جميعها ما عدا أكتين

Aquitaine . وحكم شارل مارتل Charles Martel (المطرقة) ، الذى كان بالاسم ناظراً للقصر ودوق أستراسيا ، غالة كلها تحت سلطان كلوتير الرابع (٧١٧ — ٧١٩) . وهو الذى صد بعزيمته غارات الغاليين مستعيناً بالفريزيين والسكسون ، وهو الذى صد المسلمين عند تور وردهم عن أوربا . وأعان بنيفاس Boniface وغيره من المبشرين على تنصير ألمانيا ، ولكنه حين اشتدت حاجته إلى المال صادر أراضى الكنيسة ، وباع مناصب الأساقفة لقواد الجيش ، وأسكن جيوشه فى الأديرة : وقطع عنق راهب بروتستنتى(١٩) ، وحُكِم عليه فى مائة منشور وخطبة منبرية بأن مأواه الجحيم .

وأرسل ابنه پيپين الثالث ناظر قصر كلدريك الثالث بعثة إلى البابا زخرياس يسأله هل يأثم إذا خلع الإمعة المروڤنچى وأصبح هو ملكاً بالاسم كما هو ملك بالفعل . وكان زخرياس وقتئذ فى حاجة إلى تأييد الفرنجة ضد مطامع اللمبارد فبعث إليه بجواب مطمئن يقول فيه إنه لا يأثم . فلما تلقى پيپين الرد عقد جمعية من الأشراف والمطارنة فى سواسون Soissons اختير فيها بإجماع الآراء ملكاً على الفرنجة (٧٥١) ، ثم قص شعر آخر الملوك المروڤنچيين البلداء وأرسله إلى دير . وجاء البابا استيفن الثانى فى عام ٧٥٤ إلى دير القديس دنيس St, Denis فى أرباض باريس ، ومسح پيپين « ملكاً بنعمة الله » . وهكذا انتهت الأسرة المروڤنجية (٤٨٦ — ٧٥١) وبدأت الأسرة الكارولنچية (٧٥١ — ٩٨٧) .

وكان پيپين الثالث « القصير » حاكماً صبوراً بعيد النظر ، تقياً ، عملياً ، محبا للسلم ، لا يغلب فى الحرب ، متمسكاً بالأخلاق الفاضلة إلى حد لم يسبقه إليه ملك آخر فى غالة فى تلك القرون . وكان پيپين هو الذى مهد لشارلمان سبيل كل ما أتاه من جليل الأعمال ؛ وفى خلال حكمهما الذى دام ثلاثا وستين سنة (٧٥١ — ٨١٤) تحولت بلدهما نهائياً من غالة إلى فرنسا . وأدرك پيپين ما فى الحكم بغير معونة الدين من صعاب ، فأعاد إلى الكنيسة أملاكها ، وامتيازاتها

وحصانتها ، وجاء إلى فرنسا بالمخلفات المقدسة ، وحملها على كتفيه فى موكب فخم ؛ وأنقذ البابوية من الملوك اللمبارد ، ومنحها سلطات زمنية واسعة فى عهده المعروف باسم « عطية پيپين » (٧٥٦) ، وقنع بأن ينال فى نظير هذا لقب « النبيل الرومانى » وتحذيراً من البابا للفرنجة بألا يختاروا ملكاً إلا من سلالته . وتوفى پيپين فى عنفوان قوّته عام ٧٦٨ بعد أن أوصى بمملكة الفرنجة لولديه كارلومان Carloman الثانى وشارل الذى أصبح فيما بعد شارلمان على أن يحكماها معاً .

٣ — شارلمان : ٧٦٨ — ٨١٤

ولد أعظم ملوك العصور الوسطى عام ٧٤٢ فى مكان غير معروف . وكان يجرى فى عروقه الدم الألمانى وينطق باللسان الألمانى ، ويشترك مع قومه فى بعض الصفات — قوة الجسم ، والبسالة ورباطة الجأش ، والافتخار بالأصل ، والبساطة الخشنة التى تفصلها مئات السنين عن رقة الفرنسيين الحضرية المصقولة . وكان قليل العلم بالكتب وما فيها ، لم يقرأ منها إلا عدداً قليلا ، لكن ما قرأه منها كان من خيارها ، وحاول فى شيخوخته أن يتعلم الكتابة ولكنه لم يفلح فى ذلك كل الفلاح ، غير أنه مع هذا كان يستطيع التحدث باللغة التيوتونية القديمة واللاتينية الأدبية ، وكان يفهم اللغة اليونانية(٢٠) .

ولما مات كارلون الثانى فى عام ٧٧١ انفرد شارل بالحكم وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . وبعد سنتين من انفراده به بعث إليه البابا هدريان الثانى بدعوة عاجلة ليساعده على دسديريوس Desiderius اللمباردى الذى كان وقتئذ يغزو الولايات البابوية . ولبى شارلمان الدعوة وحاصر پاڤيا واستولى عليها ، ولبس تاج لمباردى ، وأيد عطية پيپين ، وارتضى أن يكون حامى الكنيسة فى جميع سلطاتها الزمنية . ولما عاد إلى عاصمته فى آخن بدأ سلسلة من الحروب عدتها ثلاث وخمسون — قادها كلها تقريباً بنفسه — يهدف بها إلى تأمين

دولته بفتح باڤاريا وسكسونية وجعلهما مسيحيتين ، والقضاء على الآثار المشاغبين المتعبين ، وحماية إيطاليا من غارات المسلمين ، وتقوية حصون فرنسا حتى تستطيع الوقوف فى وجه مسلمى أسپانيا الذين يبغون بسط سلطانهم عليها . وكان السكسون المقيمون عند الحدود الشرقية لبلاده وثنيين ، أحرقوا كنيسة مسيحية وأغاروا مراراً على غالة ؛ وكانت هذه الأسباب كافية فى رأى شارلمان لأن يوجه إليهم ثمانى عشرة حملة (٧٧٢ — ٨٠٤) ، قاتل فيها الطرفان بمنتهى الوحشية . فلما هزم السكسون خيرهم شارلمان بين التعميد والموت وأمر بضرب رقاب ٤٥٠٠ منهم فى يوم واحد[٢١] ، وسار بعد فعلته هذه إلى ثيونڤيل ليحتفل بميلاد المسيح .

وبينا كان شارلمان فى پادر بورن Paderborn إذ استغاث به ابن العربى حاكم برشلونة المسلم فى عام ٧٧٧ لينصره على خليفة قرطبة . فما كان منه إلا أن سار على رأس جيش عبر به جبال البرانس ، وحاصر مدينة بمپلونا المسيحية ، وعامل البشكنس مسيحيى أسپانيا الشمالية الذين لا يحصى عديدهم معاملة الأعداء ، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها . غير أن الفتن الإسلامية التى وعد ابن العربى بإثارتها على الخليفة والتى كانت جزءاً من الخطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر ، ورأى شارلمان أن جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيوش قرطبة ، وترامى إليه أن السكسون ثائرون عليه وأنهم يزحفون وهم غضاب على كولونى Cologce ؛ فرأى من حسن السياسة أن يعود بجيشه إلى بلاده ، واخترق بهم فى صف طويل رفيع ممرات جبال البرانس . وبينا كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنسڤال Roncesvalles من أعمال نبرة إذ انقضت على مؤخرة الفرنجة قوة من البشكنس ، ولم تكد تبقى على أحد منها (٧٧٨) ؛ وهناك مات هرودلاند Hruodland النبيل الذى أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الذائعة الصيت أغنية رولان Chançon de Roland . وسير شارلمان فى عام ٧٩٥ جيشاً آخر عبر جبال البرانس ، واستولى به على شريط ضيق فى شمالى أسپانيا

الشرقى وضمه إلى فرنسيا Francia . واستسلمت له برشلونة ، وأقرت أستراسيا ونبرة بسيادة الفرنجة عليهما (٨٠٦) . وكان شارلمان فى هذه الأثناء قد أخضع السكسون لسلطانه (٧٨٥) ، وصد الصقالبة الزاحفين على بلاده (٧٨٩) ، وهزم الآفار وشتت شملهم (٧٩٠ — ٨٠٥) ، ثم أخلد فى السنة الرابعة والثلاثين من حكمه والثالثة والستين من عمره إلى السلام .

والحق أنه كان على الدوام يحب شئون الإدارة والحكم أكثر مما يحب الحرب ، ولم ينزل إلى ميدان القتال إلا ليفرض على أوربا الغربية ، التى مزقتها منذ قرون طوال منازعات القبائل والعقائد ، شيئاً من وحدة الحكم والعقيدة .

وكان فى أثناء هذا الحكم قد أخضع لسلطانه جميع الشعوب الضاربة بين نهر الفستيولا Vistula والمحيط الأطلنطى ، وبين البحر البلطى وجبال البرانس ، وإيطاليا كلها تقريباً ، والجزء الأكبر من بلاد البلقان . ترى كيف استطاع رجل واحد أن يحكم هذه المملكة المتباينة المترامية الأطراف؟ الجواب أنه قد وهب من قوة الجسم والأعصاب ما يستطيع به أن يأخذ على عاتقه مئات التبعات ، والأخطار ، والأزمات ، وأن يتحمل ما هو أصعب على النفس من هذا كله وهو ائتمار أبنائه به ليقتلوه . وكان فى دمائه دم أو تعاليم پيپين الثالث الحذر الحكيم ، وشارل مارتل الذى لا يرحم ولا يلين ، وكان هو نفسه إلى حد ما مطرقة مثل مارتل . وقد وسع أملاكهما وحافظ عليها بما وضعه لها من نظام عسكرى قوى الدعائم ، وسندها بما أفاء عليها من ظل الدين وشعائره . وكان فى وسعه أن يضع لنفسه الأهداف الكبار ، وأن يهيئ الوسائل ويبتغى الغايات . وكان فى مقدوره أن يقود الجيوش ، ويقنع الجمعيات ، ويشرح صدور الأعيان ، ويسيطر على رجال الدين ، ويكبح جماح الحريم .

وقد جعل الخدمة العسكرية شرطاً لامتلاك أكثر من الكفاف من الأملاك ، وبهذا أقام الروح العسكرية المعنوية على أساس الدفاع عن الأرض

وتوسيع رقعتها ، وأوجب على كل حر إذا دُعى لحمل السلاح أن يمثل كامل العدة أمام الكونت المحلى ، وكان كل عامل نبيل مسئولا أمامه عن كفاية وحداته . وكان بناء الدولة يقوم على هذه القوة المنظمة يؤيدها كل عامل نفسانى تخلعه عليها قداسة صاحب الجلالة الذى باركه رجال الدين ، وفخامة الاحتفالات الإمبراطورية ، والطاعة التقليدية للحكم القائم الموطد الدعائم . وكانت تجتمع حول الملك حاشية من النبلاء الإداريين ورجال الدين — رئيس خدم البيت ، وقاضى القضاة وقضاة حاشية القصر ، ومائة من العلماء ، والخدم ، والكتبة . وكان مما قوى إحساس الشعب باشتراكه فى الحكم ما كان يعقده كل نصف عام من اجتماعات يحضرها الملاك المسلحون ، يجتمعون كلما تطلبت اجتماعهم الشئون الحربية أو غيرها فى مدن ورمز ، وفلنسين ، وآخن ، وجنيف ، وپادربورن . . . وكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة فى الهواء الطلق . وكان الملك يعرض على جماعات قليلة من الأعيان أو الأساقفة ما عنده من الاقتراحات التشريعية ؛ فكانت تبحثها وتعيدها إليه مشفوعة باقتراحاتها ثم يضع هو القوانين ويعرضها على المجتمعين ليوافقوا عليها بصياحهم ؛ وكان يحدث فى بعض الأحوال النادرة أن ترفضها الجمعية بالأنين أو القباع الجماعى . وقد نقل إلينا هنكمار Hincmar كبير أساقفة ريمس صورة دقيقة لشارلمان فى أحد هذه الاجتماعات ، فقال إنه كان « يسلم على أكابر الحاضرين ، ويتحدث إلى من لم يكن يراهم إلا قليلا ، ويظهر اهتماما ظريفا بالكبار ، ويلهو مع الصغار » . وكان يطلب إلى أسقف كل إقليم ورئيسه الإدارى أن يبلغ الملك فى هذه الاجتماعات عن كل حادثة هامة وقعت فى إقليمه منذ الاجتماع السابق ، ويضيف هنكمار إلى أقواله السابقة أن « الملك كان يرغب فى أن يعرف هل الأهلون فى أى ركن من أركان مملكته قلقون مستاءون ، وما سبب قلقهم واستيائهم »(٣٢) . وكان عمال الملك يواصلون نظام الاستعلامات الرومانية القديمة فيستدعون إليهم كبار المواطنين ويطلبون إليهم أن « يعطوا بيانات صحيحة »

معززة بالأيمان عما فى الإقليم الذى يزورونه من أملاك تفرض عليها الضرائب ، وعن حالة النظام فى هذا الإقليم وعما يقع فيه من الجرائم أو من فيه من المجرمين . وكانت شهادة جماعة الباحثين الذين يقسمون الأيمان تستخدم فى أرض الفرنجة فى القرن العاشر للفصل فى كثير من المشاكل المحلية الخاصة بالأملاك العقارية أو الجرائم . وقد نشأ من هذه الجماعات ، بعد تطورها على يد النورمان والإنجليز ، نظام المحلفين القائم فى هذه الأيام .

وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة فى الشئون الروحية أسقف أو كبير أساقفة ، وفى الشئون الدنيوية قومس Comes (رفيق للملك) أو كونت . وكانت جمعية محلية من الملاك تجتمع مرتين أو ثلاث مرات كل سنة فى عاصمة كل مقاطعة لتبدى رأيها فى حكومة الإقليم وتكون بمثابة محكمة استئناف فيه . وكان للمقاطعات الواقعة على الحدود المعرضة للخطر حكام من طراز خاص يسمونهم جراف graf أومار جريف margrave ، أو مرخرزوج Markherzog ، فكان رولان المرسستفالى Roland of Marcesvalles مثلا حاكم مقاطعة برتن Breton . وكانت كل الإدارات المحلية خاضعة لسلطان « مبعوثى السيد » missi dominici — الذين يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين ، ويطلعون على أعمالهم ، وأحكامهم ، وحساباتهم ، ويمنعون الرشا ، والاغتصاب ، والمحاباة ، واستغلال النفوذ ، ويتلقون الشكاوى ، ويردون المظالم ، ويحمون « الكنيسة ، والفقراء ، والذين تحت الوصاية ، والشعب أجمع » من سوء استعمال السلطة أو الاستبداد ، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته . وكان العهد الذى عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل أن يوضع العهد الأعظم Magna Carta لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون . ومما يدل على أن هذا العهد كان يقصد به ما جاء فيه ما حدث لدوق إستريا Istria ، إذ اتهمه المبعوثون بارتكاب عدة مظالم ، واغتصاب الأموال ، فأرغمه

الملك على أن يرد ما اختلسه ، وأن يعوض كل مظلوم عما وقع عليه من ظلم ، ويعترف علناً بجرائمه ، ويقدم الضمانات التى تمنعه من تكرارها . وإذا ما غضضنا النظر عن حروب شارلمان كان هو أعدل الحكام الذين عرفتهم أوربا منذ عهد ثيودريك القوطى وأكثرهم استنارة .

وتعد القوانين الستة والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة فى العصور الوسطى . فهى لا تكون مجموعة منتظمة ، بل هى توسيع للقوانين « الهمجية » الأقدم منها عهداً وتطبيقها على الظروف والمطالب الجديدة . ولقد كانت فى بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليوتبراند اللمباردى : فقد أبقت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى ، والتحكيم الإلهى ، والمحاكمة بالاقتتال ، والعقاب ببتر الأعضاء[٢٤] ، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية ، أو من يأكل اللحم فى أيام الصوم الكبير — وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة[٢٥] . ولم تكن هذه كلها قوانين ، بل منها ما كان فتاوى ، ومنها ما كان أسئلة موجهة من شارلمان إلى موظفيه ، ومنها ما هو نصائح أخلاقية . وقد جاء فى إحدى المواد : « يجب على كل إنسان أن يعمل بكل ما لديه من قوة وكفاية لخدمة الله واتباع أوامره ، لأن الإمبراطور لا يستطيع أن يراقب كل إنسان فى أخلاقه الخاصة »[٢٦] . وحاولت بعض المواد أن تقيم العلاقات الجنسية والزوجية بين أفراد الشعب على قواعد أكثر نظاماً مما كانت قبل ، على أن الناس لم يطيعوا هذه النصائح كلها ؛ ولكن القوانين والنصائح فى مجموعها تنم عن جهود صادقة لتحويل الهمجية إلى حضارة .

وشرع شارلمان للزراعة ، والصناعة ، والشئون المالية ، والتعليم ، والدين ، كما شرع لشئون الحكم والأخلاق . وكان حكمه فى فترة انحطت فيها الحالة الاقتصادية جنوبى فرنسا وإيطاليا إلى الحضيض من جراء سيطرة المسلمين على

البحر المتوسط . وفى هذا يقول ابن خلدون إن المسيحيين لم يكن فى وسعهم أن يسيروا لوحا فوق البحر(٢٧) ، وكانت العلاقات التجارية بأجمعها بين غربى أوربا وأفريقية وشرق البحر المتوسط غاية فى الاضطراب . وكان اليهود وحدهم هم الذين يربطون النصفين المتعادين من البلاد التى كانت أيام حكم رومة عالما اقتصاديا موحدا . وبقيت التجارة قائمة فى أوربا الخاضعة لحكم الصقالبة وبيزنطية ، وفى شمالها التيوتونى . كذلك كانت القناة الإنجليزية وكان بحر الشمال يموجان بالمتاجر ، ولكن هذه التجارة الأخيرة أيضاً اضطربت أحوالها قبل موت شارلمان ، وقد أوقعتها فى هذا الاضطراب غارات أهل الشمال وقرصنتهم .

وكاد أهل الشمال يغلقون ثغور فرنسا الشمالية ، والمسلمون يغلقون ثغورها الجنوبية ، حتى أضحت لهذا السبب جزيرة منفصلة عن العالم ، وبلداً زراعياً ، واضمحلت فيها طبقة التجار الوسطى ، فلم تبق هناك طبقة تنافس كبار الملاك فى الريف ؛ وكان مما ساعد على قيام نظام الاقطاع فى فرنسا هبات شارلمان الأراضى وانتصار الإسلام .

وبذل شارلمان جهوداً جبارة لحماية الفلاحين الأحرار من نظام رقيق الأرض الآخذ فى الانتشار . ولكن قوة الأشراف والظروف القاهرة المحيطة به أحبطت جهوده . وحتى الاسترقاق نفسه اتسع نطاقه وقتاً ما نتيجة لحروب الكارولنجيين ضد القبائل الوثنية . وكانت أهم موارد الملك مزارعه الخاصة التى كانت مساحتها تتسع من حين إلى حين نتيجة المصادرة ، والهبات ، وعودة بعض الأراضى إلى الملك ممن يموتون بغير ورثة ، واستصلاح الأراضى البور . وقد أصدر للعناية بهذه الأراضى قانوناً زاعيا مفصلا أعظم تفصيل يشهد بعنايته التامة فى بحث جميع موارد الدولة ومصروفاتها . وكانت الغابات والأراضى البور ، والطرق العامة ، والموانى وجميع ما فى الأرض من معادن ملكا للدولة(٢٨) . وشجع ما بقى فى البلاد من تجارة بكافة السبل ؛ فبسطت الدولة حمايتها على الأسواق ، ووضع

نظام دقيق للموازين والمقاييس والأثمان ، وخُفِفت المكوس . ومُنعت المضاربات على المحاصيل قبل حصادها ، وأنشئت الطرق والجسور أو أصلحت ، وأنشئ جسر عظيم على نهر الرين عند مينز ، وطهرت المسالك المائية لتبقى مفتوحة على الدوام ، واختطت قناة تصل الرين بالدانوب حتى يتصل بحر الشمال بالبحر الأسود . وحافظت الدولة على ثبات النقد ، ولكن قلة الذهب فى فرنسا واضمحلال التجارة أدّيا إلى استبدال الجنيه الفضى بجنيه شارلمان المعروف باسم السوليدس Solidus .

وامتدت جهود الملك وعنايته إلى كل ناحية من نواحى الحياة . فأسمى الرياح الأربع بأسمائها التى تعرف بها الآن ؛ ووضع نظاماً لإعانة الفقراء ، وفرض على النبلاء ورجال الدين ما يلزمه من المال لهذا المشروع ، ثم حرم التسول وجعله جريمة يعاقب عليها القانون[٢٩] . وهاله انتشار الأمية فى أيامه حين لا يكاد أحد يعرف القراءة والكتابة غير رجال الدين ، كما هاله انعدام التعليم بين الطبقات الدنيا من هذه الطائفة ، فاستدعى علماء من الأجانب لإعادة مدارس فرنسا إلى سابق عهدها ؛ فأغرى بولس الشماس على أن يأتى إليه من منتى كسينو ، وألكوين من يورك (٧٨٢) ، ليعلما فى المدرسة التى أنشأها شارلمان فى القصر الملكى بآخن . وكان ألكوين هذا (٧٣٥ — ٨٠٤) رجلا سكسونياً ، ولد بالقرب من مدينة يورك ، وتعلم فى مدرسة الكتدرائية وهى المدرسة التى أنشأها الأسقف إجبرت فى تلك المدينة ؛ وقد كانت بريطانيا وأيرلندة فى القرن الثامن متقدمتين من الناحية الثقافية عن فرنسا . ولما بعث أفا Offa ملك مرسية Mercia ألكوين فى بعثة إلى شارلمان ألح شارلمان على ألكوين أن يبقى عنده ، وسر ألكوين أن يخرج من إنجلترا حين كان « الدنمرقيون يتلفون أرضها ، ويدنسون الأديرة بما يرتكبونه فيها من الزنى »[٣٠] ، فآثر البقاء ؛ وبعث إلى إنجلترا وغيرها من البلاد فى طلب الكتب والمعلمين ، وسرعان ما أضحت مدرسة القصر مركزاً نشيطاً من

مراكز الدرس ، ومراجعة المخطوطات ونسخها ، كما أضحت مركزاً لإصلاح نظم التربية إصلاحاً عم جميع المملكة . وكان من بين طلابها شارلمان نفسه ، وزوجته ليوتجارد Liutgard ، وأولاده وابنته جزيلا Gisela ، وأمين سره اجنهارد Eginhard ، وإحدى الراهبات ، وكثيرون غيرهم . وكان أكثرهم شغفاً بالتعليم ، فكان يحرص على العلم حرصه على تملك البلاد ؛ يدرس البلاغة وعلوم الكلام ، والهيئة ؛ ويقول اجنهارد إنه بذل جهوداً جبارة ليتعلم الكتابة « وكان من عادته أن يحتفظ بالألواح تحت وسادته . حتى يستطيع فى أوقات فراغه أن يمرن يده على رسم الحروف ، ولكن جهوده هذه لم تلق إلا قليلا من النجاح لأنه بدأ هذه الجهود فى آخر سنى حياته »(٣١) . ودرس اللاتينية بنهم شديد ، ولكنه ظل يتحدث بالألمانية مع أفراد حاشيته ؛ وقد وضع كتاباً فى نحو اللغة الألمانية وجمع نماذج من الشعر الألمانى القديم .

ولما ألح ألكوين على شارلمان ، بعد أن قضى فى مدرسة القصر ثمانى سنين ، أن ينقله إلى بيئة أكثر منها هدوءاً ، عينه الملك على كره منه رئيساً لدير تور (٧٩٦) ؛ وهناك حشد ألكوين الرهبان لينقلوا نسخاً من الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة والإنجيل التى قام بها چيروم أحد آباء الكنيسة اللاتين ، ومن الكتب اللاتينية القديمة ، بحيث تكون أكثر دقة من النسخ المتداولة وقتئذ . وحذت الأديرة الأخرى حذو هذا الدير . وبفضل هذه الجهود كانت كثير من أحسن ما وصل إلينا من النصوص القديمة من مخطوطات هذه الأديرة فى القرن التاسع الميلادى ؛ وقد احتفظ لنا رهبان العصر الكارولنجى بما لدينا من الشعر اللاتينى كله تقريباً عدا شعر كاتلس Catullus ، وتيبلس Tibullus ، وبروپرتيوس Propertius ، وبما لدينا من النثر اللاتينى كله تقريباً ما عدا كتابات ڤارو Varro ، وتاستس Tacitus ، وأپوليوس Apuleius(٣٢) . وكانت كثير من المخطوطات الكارولنجية جميلة الزخرفة يزينها فن الرهبان وصبرهم الطويل ؛

وكان من آثار هذه الكتب المزخرفة التى أخرجتها مدرسة القصر أناجيل « ڤينا » التى كان أباطرة ألمانيا المتأخرون يقسمون عليها أيمان تتويجهم .

وأصدر شارلمان فى عام ٧٨٧ إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها « توجيهات لدراسة الآداب » ، يلوم فيها رجال الدين على ما يستخدمونه من « اللغة الفظة » و « الألسنة غير المهذبة » ويحث كل كنيسة ودير على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغير رجال الدين على السواء القراءة والكتابة . ثم أصدر توجيهات أخرى فى عام ٧٨٩ يدعو فيها مديرى هذه المدارس أن « يحرصوا على ألا يفرقوا بين أبناء رقيق الأرض وأبناء الأحرار ، حتى يمكنهم أن يأتوا ويجلسوا على المقاعد نفسها ليدرسوا النحو ، والموسيقى ، والحساب » . وفى عام ٨٠٥ صدرت تعليمات أخرى تهيئ لهذه المدارس تعليم الطب ، وتعليمات غيرها تندد بالخرافات الطبية . ومما يدلنا على أن أوامره لم تذهب أدراج الرياح كثرة ما أنشئ فى فرنسا وألمانيا الغربية من مدارس فى الكنائس والأديرة ؛ فلقد أنشأ ثيودلف Theodulf أسقف أورليان مدارس فى كل أبرشية من أسقفيته ، رحب فيها بجميع الأطفال على السواء ، وحرم على القساوسة الذين يتولون التدريس أن يتناولوا أجوراً [٣٣] ، وذلك أول مثل للتعليم العام المجانى فى التاريخ كله . ونشأت مدارس هامة ، متصلة كلها تقريبا بالأديرة ، فى خلال القرن التاسع فى تور ، وأوكسير Auxer ، وباڤيا ، وسانت جول ، St. Gall ، وفلدا Fulda ، وغنت Ghent وغيرها من المدن . وأراد شارلمان أن يوفر حاجة هذه المدارس إلى المعلمين ، فاستقدم العلماء من أيرلندة ، وبريطانيا ، وإيطاليا . ومن هذه المدارس نشأت فى المستقبل الجامعات الأوربية .

على أننا يجب ألا نغالى فى تقدير القيمة العقلية لذلك العهد . فلقد كان هذا البعث المدرسى أشبه بيقظة الأطفال منه بالنضوج الثقافى الذى كان قائما وقتئذ فى القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فلم يثمر هذا البعث كتاباً كباراً من

أى نوع كان . وكتابات ألكوين الشكلية مملة ، مقبضة ، خانقة ؛ وليس فيها ما ينفى عنه تهمة التحذلق والتباهى بالعلم ، وتدل على أنه إنسان لطيف يستطيع أن يوفق بين السعادة والتقى ؛ وليس فيها ما يدل على هذا وينفى ذاك إلا بعض رسائله وأبيات من شعره . ولقد أنشأ كثير من الناس أشعاراً فى أثناء هذه النهضة العلمية القصيرة الأجل ، منها قصائد ثيودلف التى فيها قدر كاف من الجمال على طريقتها الضعيفة الخاصة بها . غير أن الأثر الأدبى الخالد الوحيد الذى خلفه ذلك العهد هو الترجمة المختصرة البسيطة لشارلمان التى كتبها اجنهارد . وهى تحذو حذو كتاب سوتنيوس Seutonius حياة القياصرة Lives of the Caesars ، بل إن الكتاب الأول ليقتطف بعض فقرات من الثانى يصف بها شارلمان . على أننا يجب أن نغفر كل شىء للمؤلف الذى يصف نفسه فى تواضع جم بأنه « همجى ، لا يعرف إلا قليلا من لسان الرومان »[٣٤] ، وما من شك رغم هذا الاعتراف فى أنه رجل عظيم المواهب ، لأن شارلمان عينه أستاذاً لقصره ، وخازناً لبيت ماله ، واتخذه صديقاً مقرباً له ، واختاره ليشرف على كثير من العمائر فى حكمه الإنسانى العظيم ، ولعله قد اختاره لتخطيطها .

وشيدت قصــور للإمبراطور فى أنجلهيم Ingelheim ونجمجين Nijmegen ، وأقام فى آخن عاصمته المحببة القصر والكنيسة الصغيرة الذائعى الصيت اللذين تعرضا لأكثر من ألف من الأخطار وظلا قائمين حتى دمرتهما قنابل الحرب العالمية الثانية . وقد أقام المهندسون المجهولون تلك الكنيسة على نمط كنيسة سان ڤيتال San Vitale براڤنا وهى التى أقيمت على غرار الكنائس البيزنطية والسورية ؛ فكانت النتيجة أن وجدت كنيسة شرقية جانحة فى الغرب . وقد أقيمت فوق البناء المثمن قبة مستديرة ، وقسم البناء من الداخل عدة أقسام بطابقين من عمد مستديرة « وزينت بمصابيح من الذهب والفضة ، وحظائر ، وأبواب من البرنز المصمت ، وأعمدة وبوارق جىء بها من رومة وراڤنا »[٣٥] ، وبنقش فسيفسائى ذائع الصيت فى القبة .

وكان شارلمان سخيا غاية السخاء على الكنيسة ، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها ، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم . وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين ، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس ؛ وإن ما فى أقواله من القوة لينفى عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة سياسية . فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين فى البلاد الأجنبية ، وكان يصر فى مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة فى معاملة رعاياهم المسيحيين(٣٦) . وكان للأساقفة شأن كبير فى مجالسه ، وجمعياته ، ونظامه الإدارى ، ولكنه كان ينظر إليهم ، رغم احترامه الشديد لهم ، على أنهم عماله بأمر الله ، ولم يكن يتردد فى أن يصدر أوامره لهم ، حتى فى المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق . ولقد ندد بعبادة الصور والتماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها ، وطلب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد فى أبرشيته ، ولم تكن توجيهاته للبابوات أقل من هداياه لهم ، وقضى على ما يحدث فى الأديرة من تمرد ، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء ليمنع « الدعارة ، والسكر ، والشره » بين الراهبات . سأل القساوسة فى أمر وجهه لهم عام ٨١١ عما يقصدون بقولهم إنهم ينبذون العالم على حين « أننا نرى » بعضهم يكدحون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل ، ليزيدوا أملاكهم ، فتارة يتخذون التهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الخاصة ، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدى لهذه الأغراض نفسها ، وطوراً يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين ، ويلحقون بذلك أعظم الضرر بورثتهم الشرعيين » . على أنه رغم هذا قد أبقى لرجال الدين محاكمهم الخاصة ، وأمر بأن يؤدى إلى الكنيسة عشر غلة الأرض ، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج ، والوصايا ، وأوصى هو نفسه بثلثى ضياعه لأسقفيات

مملكته[٣٧] ، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا « هبات » قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة .

وقد أثمر هذا التعاون الوثيق بين الكنيسة والدولة فكرة من أجَلّ الأفكار فى تاريخ الحكم : ألا وهى استحالة دولة شارلمان إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى تستند إلى كل ما كان لروما الإمبراطورية والبابوية من هيبة ، وقداسة ، واستقرار . ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التى لا تصد عنها غارة ولا تقر فيها أمناً ، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضيع حريتهم هم أيضاً . ولسنا نعرف من الذى لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا أو من ذا الذى وضع خطة هذا التتويج ، وكل ما نعرفه أن ألكوين ، وثيودلف وغيرهما من الملتفين حوله قد تناقشوا فى إمكانه ، ولعلهم هم الذين خطوا فيه الخطوة الأولى ، أو لعل مستشارى البابا هم الذين فكروا فى هذا الأمر . وقامت فى سبيل تنفيذه صعاب شديدة : فقد كان إمبراطور الروم يلقب وقتئذ بلقب الإمبراطور الرومانى ، وكان أحق الناس من الوجهة التاريخية بذلك اللقب ، ولم يكن للكنيسة حق معترف به فى حمل الألقاب أو نقلها من شخص إلى آخر ، ولربما كان منح اللقب لشخص منافس لبيزنطية سبباً فى إشعال نار حرب عاجلة عوان بين المسيحيين فى الشرق وإخوانهم فى الغرب ، حرب تترك أوربا الخربة غنيمة سهلة للفتوح الإسلامية . غير أن الأمر قد يسره بعض التيسير أن إيرينى جلست على عرش أباطرة الروم (٧٩٧) ؛ فقد قال البعض وقتئذ إنه لم يعد هناك إمبرطور روماً ، وإن الباب أصبح مفتوحاً لكل من يطالب باللقب ، فإذا ما نفذت هذه الخطة الجريئة قام مرة أخرى إمبراطور رومانى فى الغرب ، تقوى به المسيحية اللاتينية وتتوحد ، فتستطيع مقاومة انشقاق بيزنطية وتهديد المسلمين ، ولعل ما فى اللقب الإمبراطورى من رهبة وسحر يمكن

أوربا الهمجية من أن تعود أدراجها خلال القرون المظلمة وترث حضارة العالم القديم وثقافته وتنشر المسيحية فى ربوعه .

وحدث فى السادس والعشرين من ديسمبر عام ٧٩٥ أن اختير ليو الثالث بابا ، ولم يكن شعب رومة يحبه ، وكان يتهمه بعدة فعال خبيثة ، ثم هاجه العامة فى الخامس والعشرين من إبريل عام ٧٩٩ ، وأساءوا معاملته ، وسجنوه فى دير . لكنه هرب من سجنه ، وفر إلى شارلمان فى پادربورن وطلب إليه أن يحميه . وأحسن الملك استقباله ، وأعاده إلى رومة مع حرس "مسلح"، وأمر البابا ومتهميه أن يمثلوا أمامه فى تلك المدينة فى العام المقبل . ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخم فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٨٠٠ ، واجتمعت فى أول ديسمبر جمعية من الفرنجة والرومان ، واتفقت على إسقاط التهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يميناً مغلظة على أنه لم يرتكبها . وأقسم ليو اليمين وتهيأت السبيل إلى إقامة احتفال فخم بعيد الميلاد . فلما أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعباءة اليونانية القصيرة والصندلين ، وهما اللباس الذى كان يرتديه كبراء الرومان ، ثم أخرج ليو على حين غفلة تاجاً مطعماً بالجواهر ووضعه على رأس الملك . ولعل المصلين كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجبه عليهم الشعائر القديمة التى يقوم بها كبراء الشعب الرومانى لتأييد هذا التتويج ، فنادوا ثلاث مرات : « ليحى شارل الأفخم ، الذى توجه الله إمبراطوراً عظيماً للرومان لينشر بينهم السلام ! » ومسح رأس الملك بالزيت المقدس ، وحيا البابا شارلمان ونادى به إمبراطوراً وأغسطس ، وتقدم إليه بمراسم الولاء التى ظلت محتفظاً بها للإمبراطور الشرقى منذ عام ٤٧٦ .

وإذا جاز لنا أن نصدق اجنهارد ، فإن شارلمان قد قال له إنه ما كان ليدخل الكنيسة لو أنه عرف أن ليو ينوى تتويجه إمبراطوراً . ولربما كان قد عرف الخطة بوجه عام ، ولكنه لم يرض عن السرعة التى تمت بها والظروف المخيلة

بها وقت إتمامها ، ولعله لم يكن يسره أن يتلقى التاج من بابا ، فيفتتح بقبوله منه باباً للنزاع الذى دام قروناً طوالا بين البابا والإمبراطور ، وأيهما أعظم مكانة وأقوى سلطاناً : المعطى أو آخذ العطية ، ولعله فكر أيضاً فيما سوف يجره ذلك من نزاع مع بيزنطية فى المستقبل . ثم أرسل شارلمان عدة رسائل وبعوث إلى القسطنطينية يريد بها أن يأسوا الجرح الذى أحدثته هذه الفعلة ، وظل زمناً طويلا لا ينتفع بلقبه الجديد ، حتى كان عام ٨٠٢ فعرض الزواج على إيرينى ليكون ذلك وسيلة يجعل بها لقبيهما المشكوك فيهما شرعيين[٣٩] ؛ ولكن سقوط إيرينى عن عرشها أفسد هذه الخطة اللطيفة . وأراد بعد ذلك أن يقلل من خطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودى مع هارون الرشيد ، وقد أيد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل إليه عدداً من الفيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة فى بيت المقدس . ورد الإمبراطور الشرقى على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء لبغداد ، وانتهى الأمر فى عام ٨١٢ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية .

وكان لتتويج شارلمان نتائج دامت ألف عام ، فقد قوى البابوية والأساقفة إذ جعل السلطة المدنية مستمدة من الهبة الكنسية ، وأتاحت حوادث عام ٨٠٠ لجريجورى السابع وإنوسنت الثالث أن يقيما على أساسها كنيسة أقوى من الكنيسة السابقة ، وقوت شـارلمان على البارونات الغضاب وغيرهم لأنها جعلته وليا لله فى أرضه ، وأيدت أعظم التأييد نظرية حق الملوك الإلهى فى الحكم ، ووسعت الهوة بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية ، لأن أولاهما لم تكن ترغب فى الخضوع إلى كنيسة رومانية متحالفة مع إمبراطورية منافسة لبيزنطية . ولقد كان استمرار شارلمان فى اتخاذ آخن لا رومة عاصمة له شاهـداً على انتقال السلطة السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوربا الشمالية ، ومن الشعوب اللاتينية إلى التيوتون . وأهم من هذا كله أن تتويج شارلمان أقام الإمبراطورية

الرومانية المقدسة عملي وإن لم يقمها من الوجهة النظرية . وكان شارلمان ومستشاروه يرون أن سلطته الجديدة إحياء للسلطة الإمبراطورية القديمة ، على أن الصبغة الجديدة الخاصة بهذا النظام لم يعترف بها إلا فى عهد أتو Otto الأول ، كما أنها لم تصبح « مقدسة » إلا حين ضم فردريك باربرسا Frederik Barbarossa لفظ مقدس sacrum إلى ألقابه فى عام ١١٥٥ . وجملة القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت — على الرغم من تهديدها للعقول وللمواطنين — فكرة نبيلة ، وحلماً من أحلام الأمن والسلام ، وعودة للنظام والحضارة إلى عالم أنقذ من براثن الهمجية ، والعنف ، والجهل .

وأصبحت المراسم الإمبراطورية تكتنف الإمبراطور فى المهام الرسمية ؛ فكان عليه أن يلبس أثواباً مزركشة ، ذات مشبك ذهبي ، وحذاءين مرصعين بالجواهر ، وتاجاً من الذهب والجوهر ، وكان على زائريه أن يسجدوا أمامه ليقبّلوا قدمه أو ركبته ؛ هذا ما أخذه شارلمان عن بيزنطيه وما أخذته بيزنطية عن طيسفون . غير أن إجنهارد يؤكد لنا أن ثيابه — إذ استثنينا ما ذكرناه عنها آنفاً — لم تكن تختلف إلا قليلا عن ثياب الفرنجة العادية : كانت تتألف من قميص من التيل ، وسروال قصير لاشيء تحته ، ومن فوق القميص والسروال القصير قباء من الصوف ربما كانت له أهداب من الحرير ، وجورب طويل مربوط بشريطين يغطي ساقيه ، وحذاءين من الجلد فى قدميه ؛ وكان يضيف إليها فى الشتاء معطفاً ضيقاً من جلود ثعلب الماء(*) أو الفنك(**) ، وكان يحتفظ بسيف إلى جانبه لايفارقه أبداً . وكان طول قامته ست أقدام وأربع بوصات ، وكانت بنيته تتناسب مع هذا الطول . وكان أشقر الشعر ، شقذ العينين(†) ، أشم الأنف ،

(*) أو سمّور الماء وهو حيوان يعيش فى البر والبحر معاً وله من أصابع رجليه جلدة تعاونه على السباحة Otter (عن معجم الدكتور شرف) .

(**) أو ثعلب الصحراء marten (عن معجم الدكتور شرف) .

(†) يقال رجل شقذ إذا كان شديد البصر سريع الإصابة بالعين . (عن الفراء) . المترجم

له شاربان وليست له لحية « جليلا مهيب الطلعة على الدوام »[٤٠] . وكان معتدلا فى طعامه وشرابه ، يمقت السكْر أشد المقت ، جيد الصحة على الدوام مهما تعرض لتقلبات الجو ومهما قاسى من الصعاب . وكثيراً ما كان يخرج للصيد ، أو يمارس ضروب الرياضة العنيفة على ظهور الخيل ؛ وكان سباحاً ماهراً ، يحب الاستحمام فى عيون آخن الدفيئة . وقلما كان يدعو الناس إلى الولائم ، لأنه كان يفضل الاستماع إلى الموسيقى أو قراءة كتاب فى أثناء الطعام . وكان يعرف قيمة الوقت كما يعرفها كل عظيم : وكان يستقبل زائريه ويستمع إلى قضاياهم فى الصباح وهو يرتدى ثيابه أو يلبس حذاءيه ؛.

وكان من وراء مهابته وجلاله عاطفة قوية وهمة عالية ، ولكنه كان يسخّر عاطفته وهمته لتحقيق أغراضه ويوجههما بذكائه وثاقب بصره . ولم تستنفد حروبه التى تربى على نصف المائة قوّته وحيويته . وكان إلى هذا كله شديد العناية بالعلوم والقوانين ، والآداب ، وعلوم الدين لا تفتر حماسته لها على مر السنين ؛ وكان يسوؤه أن يبقى جزء من الأرض لم يستول عليه أو أى فرع من فروع العلم لم يضرب فيه بسهم . وكان شريف النفس من بعض الوجوه ؛ وكان يزدرى الخرافات ، ويحرّم أعمال المتنبئين أو العرّافين ، ولكنه صدّق كثيراً من الأعاجيب الأسطورية ، وبالغ فى مقدرة الشرائع على إصلاح أخلاق الناس وعقولهم . ولقد كان لهذه السذاجة النفسية بعض المحاسن : فقد كان فى تفكيره وحديثه صراحة ونُبل قلّما نراهما فى رجال الحكم .

وكان يسعه أن يكون قاسياً إذا تطلبت سياسة الدولة القسوة ، وأشد ما كانت قسوته فيما بذله من جهود لنشر الدين المسيحى ؛ ولكنه مع هذا كان عظيم الرأفة ، كثير الإحسان ، وفياً مخلصاً لأصدقائه ، ولقد بكى بالدمع عند وفاة أولاده ، وبنته ، والبابا هدريان . ويرسم لنا ثيودلف فى قصيدة له عنوانها « حكم شارل » صورة لطيفة للإمبراطور فى بيته ، فيقول إنه إذا قدم من أعماله

أحاط به أبناؤه ، فيخلع عنه ابنه شارل عباءته ، ويأخذ ابنه لويس سيفه ، وتعانقه بناته الست ، ويأتين له بالخبز ، والخمر ، والتفاح ، والأزهار ؛ ويدخل الأسقف ليبارك طعام الملك ، ويقترب منه ألكوين ليبحث معه ما لديه من الرسائل ؛ ويهرول إجنهارد الضئيل الجسم هنا وهناك كأنه نملة ، ويأتيه بكتب ضخمة[41] . وقد بلغ من حبه لبناته أن أقنعهن بعدم الزواج ، وقال إنه لا يطيق فراقهن ؛ ومن أجل هذا أخذن يواسين أنفسهن بالارتماء فى أحضان العشاق وجئن بعدة أبناء غير شرعيين[42] . وقد قابل شارلمان هذه الأعمال منهن بنفس سمحة ، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسلافه ، فاتخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى ، وأربع عشيقات أو حظايا . ذلك أن حيويته الموفورة جعلته شديد الإحساس بمفاتن النساء ، وكانت نساؤه يؤثرن أن يكون للواحدة منهن نصيب منه على أن يكون لها رجل آخر بمفردها . وقد ولدت له نساؤه نحو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم أربعة شرعيون[43] . وغض من فى حاشيته ومن فى رومة من رجال الدين أبصارهم عن تحلل رجل مسيحى مثله من قيود الأخلاق المسيحية .

وكان شارلمان وقتئذ على رأس دولة أعظم من الإمبراطورية البيزنطية لا يعلو عليها فى عالم الرجل الأبيض إلا دولة الخلفاء العباسيين ؛ ولكن كل توسع فى حدود الإمبراطوريات أو العلوم يخلق مشاكل جديدة . فلقد حاولت أوربا الغربية أن تحمى نفسها من الألمان بإدماجهم فى حضارتها ؛ غير أن ألمانيا كان عليها فى هذا الوقت أن تحمى نفسها من أهل الشمال ومن الصقالبة ؛ وكان الملاحون من أهل الشمال قد أنشأوا لهم مملكة فى چتلنده Jutland قبل عام ٨٠٠ م وأخذوا يغيرون على سواحل فريزيا Frisia . وأسرع إليهم شارل من رومة ، وأنشأ الأساطيل والقلاع عند الشواطئ والأنهار ، وأقام حاميات فى الأماكن المعرضة للأخطار ؛ ولما أغار ملك چتلندة على فريزيا عام ٨١٠ صُدّ عنها ، ولكن شارلمان هاله أن يشهد من قصره فى نربونة بعد قليل من ذلك الوقت ، إذا جاز لنا أن

تصدق أخبار راهب سانت جول ، سفن القراصنة الدنمرقيين فى خليج ليون »

ولعله قد تنبأ ، كما تنبأ دقلديانوس من قبل ، بأن إمبراطوريته الواسعة فى حاجة إلى الدفاع السريع عنها فى عدة مواضع فى وقت واحد ، فقسمها فى عام ٨٠٦ بين أولاده الثلاثة — پيپين ، ولويس ، وشارل . ولكن پيپين توفى فى عام ٨١٠ ، وشارل فى عام ٨١١ ؛ ولم يبق من هؤلاء الأبناء إلا لويس ، وكان منهمكا فى العبادة انهماكا بدا معه أنه غير خليق بأن يحكم عالما مليئا بالاضطراب والغدر . غير أن لويس رغم هذا قد رفع باحتفال مهيب فى عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق المليك الشيخ قائلا : « حمـداً لك يا إلهى إذا أنعمت على بأن أرى بعينى ولدى يجلس على عرشى »[44] .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت أصيب الملك الشيخ وهو يقضى الشتاء فى آخن بحمى شديدة نتج عنها التهاب البلورة ، وحاول أن يداوى نفسه بالاقتصار على السوائل ؛ ولكنه توفى بعد سبعة أيام من بداية المرض بعد أن حكم سبعا وأربعين سنة وعاش اثنين وسبعين (٨١٤) ، ودفن تحت قبة كتدرائية آخن ، مرتدياً أثوابه الإمبراطورية . وما لبث العالم كله أن أسماه كارولس ماجنس Carolus Magnus أو كارل در جروس Karl der Grosse أو شارلمان Charlemagne (أى شارل العظيم) ؛ ولما حل عام ١١٦٥ ومحا الزمان جميع ذكريات عشيقاته ضمته الكنيسة التى أحسن إليها الإحسان كله فى زمرة الصالحين المنعمين .

٣ — اضمحلال الكارولنجيين

كانت النهضة الكارولنجية فترة من فترات البطولة المتعددة فى العصور المظلمة ، ولولا ما اتصف به خلفاء شارلمان من عجز وما شجر بينهم من نزاع لكان من المستطاع أن تقضى هذه الفترات قبل مجىء أبلارد بثلاثة قرون على ظلمات تلك

العصور ، وعلى فوضى بارونات الإقطاع ، وعلى النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة ومزقها شر ممزق ، وعلى غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين التى أدى إليها هذا النزاع الأخرق . لكن رجلا بمفرده ، وحياة بمفردها لم يكفيا لإقامة حضارة جديدة . يضاف إلى هذا أن تلك النهضة القصيرة الأجل كانت نهضة كنسية ضيقة أشد الضيق ، فلم يكن للمواطن العادى فيها نصيب ، وما أقل من كان يعنى بها من النبلاء ، وما أقل من كان منهم يشغل نفسه بتعلم القراءة . وما من شك فى أن شارل نفسه ملوم إلى حد ما على انهيار دولته . فلقد أفاء على رجال الدين من الثراء ما جعل سلطان الأساقفة ، بعد أن رفعت يده القوية عنهم ، يرجح سلطان الإمبراطور ؛ ولقد اضطرته أسباب حربية وإدارية أن يمنح الحاكم والبارونات فى الأقاليم قدراً من الاستقلال شديد الخطورة . ثم إنه جعل مالية الحكومة الإمبراطورية ذات الأعباء الجسام تعتمد على ولاء هؤلاء الأشراف الغلاظ واستقامتهم ، وعلى ما تدره أراضيه ومناجمه من إيراد غير كبير ، ولم يكن فى وسعه أن يعمل ما عمله أباطرة الروم فينشئ بيروقراطية من الموظفين المدنيين مسئولين أمام السلطة المركزية دون غيرها ، وقادرين على النهوض بأعباء الحكم مهما تكن شخصية الإمبراطور وأتباعه ، فلم يكد يمضى على وفاته جيل واحد حتى أقيل رسل الإمبراطور الذين بسطوا سلطانه فى الولايات أو تجاهل الولاة وجودهم ، وألقى الأعيان المحليون عن كاهلهم سلطان الحكومة المركزية . وملاك القول أن حكم شارلمان كان عملا جليلا من أعمال العباقرة يمثل الرقى السياسى فى عصر وفى رقعة من الأرض يعمهما الاضمحلال الاقتصادى .

وإن الألقاب التى أطلقها المعاصرون لخلفائه عليهم لتكفى وحدها لأن تقص علينا قصتهم : لويس التقى Louis the Pious ، وشارل الأصلع Charles the Bald ؛ ولويس المتلعثم Louis the Stammerer وشارل البدين Charles

Charles the Simple ، the Fat وشارل الساذج . فأما لويس « التقى »(*) (٨١٤ — ٨٤٠) فكان كأبيه طويل القامة ، بهى الطلعة ؛ وكان متواضعاً ، رقيق الحاشية ، خيِّراً كريماً ، مفرطاً فى اللين إفراط يوليوس قيصر . وكان قد تربى على أيدى القساوسة فجعلته هذه التربية شديد الاهتمام بالمبادئ الأخلاقية التى كان يزاولها شارلمان باعتدال . من ذلك أنه لم تكن له إلا زوج واحدة ولم يكن له قط حظايا ، وأنه طرد من حاشيته عشيقات أبيه وعشاق أخواته ، ولما احتجت أخواته على عمله هذا حبسهن فى أديرة الراهبات . وأرغم القساوسة على أن يعملوا بأقوالهم ، وأمر الرهبان أن يحيوا الحياة التى توجبها عليهم قواعد البندكتين ، وحاول أن يقضى على المظالم والاستغلال أينما وجدا ، وأن يصلح ما كان فاسداً من قبل . وقد أعجب الناس به لانحيازه إلى الضعفاء على الأقوياء فى جميع الأحوال .

وأحس لويس أن عادات الفرنجة توجب عليه تقسيم دولته فقسمها إلى ممالك يحكمها أبناؤه — پيپن ، ولوثير Lothaire ، ولويس « الألمانى » (وسنسميه لدفج فيما بعد) . وقد رزق لويس من يوديت Juidith زوجته الثانية ابناً رابعاً يعرف فى التاريخ باسم شارل الأصلع ؛ وكان لويس يحبه حباً لا يكاد يقل عن افتتان الأجداد بأحفادهم ، ويريد أن يعطيه قسطاً من إمبراطوريته بعد أن يلغى التقسيم الذى عمله فى عام ٨١٧ ؛ لكن أولاده الثلاثة الكبار عارضوا فى هذا وشنوا على أبيهم حرباً داخلية دامت ثمانية أعوام . وأيدت كثرة النبلاء ورجال الدين هذه الفتنة ، ثم خرجت عليه القلة التى ظلت موالية له عند ما تأزمت الأحوال فى رُتفلد Rothfeld (القريبة من كلمار Colmar) والتى عرفت فيما بعد باسم لوجنفلد Lügenfeld أى ميدان الأكاذيب . فلما رأى ذلك لويس أمر من بقى من أنصاره أن يتركوه وشأنه وأن يهتموا بحماية أنفسهم ، ثم استسلم لأبنائه

(*) وكلمة Pious الإنجليزية (ومثلها تقى العربية) ترجمة خاطئة أيدها طول الزمن لكلمة pius اللاتينية التى تعنى موقر ، أمين رحيم ، لطيف ، وكثيراً من المعانى الأخرى .

(٨٣٣) ، فلما تم لهم ذلك سجنوا يوديث وجزوا شعرها ، وأودعوا شارل الصغير فى دير ، وأمروا أباهم أن ينزل عن العرش وأن يكفر علنا عما فعل . وجىء بلويس إلى كنيسة بسواسون يحيط به ثلاثون أسقفا ، وأرغم فى حضرة لوثير ابنه وخلفه على أن يخلع ملابسه حتى وسطه ، وأن يسجد على قطعة من نسيج الشعر ويقرأ جهرة اعترافاً بجريمته . ثم لبس مسوح الندم الرمادية اللون ، وقضى سنة فى أحد الأديرة . وحكمت فرنسا من تلك اللحظة أسقفية موحدة قامت بين الأسرة الكارولنجية المتفككة .

واشمأز الشعب من سوء معاملة لوثير لأبيه لويس ، واستجاب كثيرون من النبلاء وبعض رجال الدين لنداء يوديث حين طالبت بإلغاء قرار الخلع ، ودب النزاع بين الإخوة الثلاثة ، وأطلق پيپين ولدفج أباهما ، وأجلساه على عرشه ، وأعادا يوديث وشارل إلى أحضانه (٨٣٤) . ولم يثأر لويس لنفسه ، بل عفا عن كل من أساءوا إليه . ولما مات پيپين (٨٣٨) قسمت الدولة تقسيما جديداً لم يرض عنه لدفج ، وهجم على سكسونيا ، ونزل الإمبراطور الشيخ مرة أخرى إلى ميدان القتال ، وصد المهاجمين ، ولكنه مرض من تعرضه لتقلبات الجو وهو عائد من الميدان ، وتوفى بالقرب من إنجلهايم Ingelheim (٨٤٠) . وكان من آخر الألفاظ التى نطق بها رسالة يصفح بها عن لدفج ، ويدعو لوثير ، وقد أصبح إمبراطوراً ، أن يحمى يوديث وشارل .

وحاول لوثير أن ينزل شارل ولدفج منزلة الأتباع ، ولكنهما هزماه عند فنتناى Fonteney (٨٤١) ، وأقسما عند استراسبرج يمين الولاء المتبادلة المشهورة بأنها أقدم وثيقة كتبت باللغة الفرنسية . لكنهما وقعا مع لوثير فى عام ٨٤٣ معاهدة ڤردون ، وقسموا فيما بينهم إمبراطورية شارلمان أقساماً ثلاثة تنطبق بوجه التقريب على إيطاليا ، وألمانيا ، وفرنسا الحالية . فاختص لدفج بالأراضى المحصورة بين نهرى الرين والإلب ، واختص شارل بالجزء الأكبر من فرنسا وبولايات

الحدود الأسبانية ، وأعطى لوثير إيطاليا والأراضي المحصورة بين الرين شرقاً ، والشلد Scheld ، والساءون Saône والرون غرباً . وسميت هذه الأراضي الغير المتجانسة ، والممتدة من هولندة إلى بروڤانس باسم لوثير — فكانت أرض لوثير ، أو لوثرنجيا Lutheringia . أو لوثرنجار Lutharingar ، أو لورين Lorraine . ولم تكن ذات وحدة جنسية أو لغوية ، فكان لا بد أن تصبح ميداناً للقتال بين ألمانيا وفرنسا ، وكثيراً ما استبدلت سيداً بسيد فيما تقلب عليها من نصر وهزيمة أريقت فيهما الدماء أنهاراً .

وفى خلال هذه الحروب الداخلية الكثيرة الأكلاف ، والتى أضعفت الحكومة ، وأنقصت السكان ، والثروة ، والروح المعنوية فى أوربا الغربية ، غزت القبائل الإسكنديناوية فى سعيها إلى التوسع وبسط السلطان بلاد فرنسا فاكتسحتها بموجة همجية واصلت وأتمت الخراب والذعر اللذين جاءا فى أعقاب الهجرات الألمانية قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون . فبينا كان أهل السويد يتسربون إلى الروسيا والنرويجيون يضعون أقدامهم فى أيرلندة ، والدنمرقيون يفتحون إنجلترا ، كان خليط من أهل اسكنديناوة ، فى وسعنا أن نسميهم الشماليين أو أهل الشمال ، يغيرون على مدائن فرنسا القائمة على شواطئ البحار أو ضفاف الأنهار . واستحالت هذه الغارات بعد موت لويس التقى حملات قوية تقوم بها أساطيل مؤلفة من أكثر من مائة سفينة ، يسيرها ملاحون محاربون . وقاست فرنسا فى القرنين التاسع والعاشر سبعا وأربعين من هذه الهجمات الشمالية ؛ ونهب المغيرون فى عام ٨٤٠ مدينـــة رون Rouen ، وبدأوا مائة عام من الهجمات على نورماندى ؛ وفى عام ٨٤٣ دخلوا مدينة نانت Nantes وذبحوا أسقفها وهو قائم للصلاة أمام مذبحه ، وفى عام ٨٤٤ صعدوا فى نهر الجارون Garonne إلى طلوشة Toulouse . وفى عام ٨٤٥ صعدوا فى نهر السين إلى باريس ، ولكنهم تركوا المدينة وشأنها بعد أن أخذوا جزية مقدارها سبعة آلاف رطل من الفضة .

وبينا كان المسلمون يهاجمون رومة استولى أهل الشمال على فريزيا فى عام ٨٤٦ وأحرقوا دوردرخت Dordreeht ، ونهبوا ليموج Limoges . ثم حاصروا بوردو Bordeaux فى عام ٨٤٧ ، ولكنهم ردوا عنها . وأعادوا الكرة عليها فى عام ٨٤٨ ، واستولوا عليها فى هذه المرة ، ونهبوها ، وقتلوا أهلها ، وأحرقوها عن آخرها . وفى العام الذى تلاه وجهوا مثل هذه الضربات إلى بوفيه Beauvais وبايو Bayeux ، وسانت لو St. Lu ، ومو Meaux ، وإيفرو Evreux ، وتور Tours وفى وسعنا أن نصور ما حل بهذه البلاد من رعب إذا قلنا إن تور نهبت فى أعوام ٨٥٣ ، و ٨٥٦ ، و ٨٦٢ ، ٨٧٢ ، و ٨٨٦ ، و ٩٠٣ ، و ٩١٩[٤٥] ، وإن باريس نهبت عامى ٨٥٦ ، و ٨٦١ ، وأحرقت فى عام ٨٦٥ . وجهز الأساقفة فى أورليان وشارتر Chartres جيشين صدوا بهما المغيرين (٨٥٥) ؛ ولكن القراصنة الدنمرقيين خربوا أورليان فى عام ٨٥٦ . وفى عام ٨٥٩ اخترق أسطول شمالى مضيق جبل طارق ودخل البحر المتوسط ، ونهب المدن الواقعة على ضفاف الرون من مصبه حتى مدينة فالنس Valence شمالا ، ثم عبر خليج جنوا ، ونهب بيزا وغيرها من المدن الإيطالية . ولما قاومتهم قلاع النبلاء الحصينة فى أماكن متفرقة فى طريقهم نهبوا أو أتلفوا كنوز الكنائس والأديرة غير المحمية ، وكثيراً ما أحرقوها بما فيها من مكتبات ، ولم ينج القساوسة والرهبان من القتل فى بعض الأحيان . وكان الناس فى تلك الأيام الحالكة يدعون ربهم فى صلواتهم قائلين : « اللهم أنقذنا من شر أهل الشمال »[٤٦] ! وكأنما كان المسلمون على موعد مع الشماليين فاستولوا على قورسقة وسردينية فى عام ٨١٠ ، ونهبوا ساحل الرڤييرا الفرنسى فى عام ٨٢٠ ، وخربوا أرل Arles فى ٨٤٢ ، واستولوا على ساحل فرنسا الواقع على البحر المتوسط وبقى فى أيديهم حتى عام ٩٧٢ .

ترى ماذا كان يفعل الملوك والأشراف خلال هذه الأعوام الخمسين

المليئة بالتدمير والتخريب ؟ فأما الأشراف فقد كان لديهم من المشاغل ما يكفيهم ، ولم يكونوا يرغبون فى أن يخفوا لمساعدة أقاليمهم ، ولم يستجيبوا إلا استجابات ضعيفة لما وجه إليهم من نداء للعمل الإجماعى . وأما الملوك فكانوا فى شغل شاغل بحروبهم فى سبيل التملك أو الاستيلاء على تاج الإمبراطورية ، وكانوا أحياناً يشجعون الشماليين فى غاراتهم على سواحل منافسيهم . وحدث فى عام ٨٥٩ أن اتهم هنكمار كبير أساقفة ريمس شارل الأصلع علناً بالإهمال فى الدفاع عن فرنسا . وخلف شارل فيما بين ٨٧٧ و٨٨٨ ملوك أكثر منه ضعفاً — لويس الثالث ، وكارلومان ، وشارل البدين . وتعاونت أحداث الزمان والمنايا فتوحدت مملكة شارلمان مرة أخرى تحت حكم شارل البدين ، وأتيحت للإمبراطورية المحتضرة فرصة أخرى للدفاع عن حياتها . ولكن أهل الشمال استولوا على نجمجين Nijmegen وأحرقوها فى عام ٨٨٠ ، واتخذوا من كورتراى Courtrai وغنت قلاعاً لهم حصينة ، وفى عام ٨٨١ أحرقوا لياج Liége ، وكولونى ، وبن Bonn وپروم Prüm ، وآخن ؛ وفى عام ٨٨٢ استولوا على ترير Trier ، وقتلوا كبير أساقفتها الذى قاد المدافعين عنها ؛ وفى السنة نفسها استولوا على ريمس ، وأرغموا هنكمار على أن يقاتل ويموت . وفى عام ٨٨٣ استولوا على أمين Amiens ، ولكنهم انسحبوا منها بعد أن أخذوا اثنى عشر ألف رطل من الفضة من كارلومان . وفى عام ٨٨٥ استولوا على رون ، وساروا فى النهر صعداً إلى باريس فى سبعمائة سفينة عليها ثلاثون ألف رجل . وقاد حاكم المدينة الكونت أودو Odo أوأود Eudes ، وأسقفها جزلان Gozlin المدافعين عنها ، وقاوموا المغيرين مقاومة باسلة . وظلت باريس مضروباً عليها الحصار ثلاثة عشر شهراً هاجم المدافعون عنها المحاصرين اثنتى عشرة مرة ؛ وانتهى الأمر بأن أدى شارل البدين إلى الشماليين ٧٠٠٠ رطل من الفضة بدل أن يخف لإنقاذ المدينة ، وأذن لهم فوق ذلك أن يسيروا فى نهر السين صعدا ويقضوا الشتاء فى برغندية التى نهبوها نهباً

ترتضيه نفوسهم . ثم خلع شارل وتوفى عام ٨٨٨ ، واختير أودو ملكا على فرنسا ، وصارت باريس بعد أن ثبتت قيمتها من الوجهة الحربية الفنية مقر الحكومة .

وحمى شارل الساذج الذى خلف أودو على العرش (٨٩٥ — ٩٢٣) إقليم السين والساءون من المغيرين ، ولكنه لم يرفع يده ضد غازات الشماليين على بقية فرنسا ، ثم لم يكتف بهذا بل أسلم إلى رولف Rolf أو رولو Rollo أحد زعماء النورمان فى عام ٩١١ أقاليم رون ، وليزيو Lisienx ، وإفرو Evreux . وكان النورمان قد استولوا عليها من قبل . ووافق النورمان على أن يؤدوا عنها للملك ما يؤديه أمراء الإقطاع عن أملاكهم ، ولكنهم كانوا يسخرون منه وهم يقومون بمراسم الولاء التقليدية . وارتضى ليو أن يُعَمَّد ، وحذا رجاله حذوه ، ثم استقروا على مهل وأصبحوا زراعاً ومتحضرين . وهكذا بدأت نورمنديا بأن كانت ولاية فى فرنسا فتحها أهل الشمال .

ولقد وجد الملك الساذج حلا لمشكلة باريس إن لم يكن لغيرها من المشاكل ، ذلك أن النورمان أنفسهم سيصدون بعد ذلك الوقت من يحاولون دخول السين من المغيرين . أما فى غير هذا الجزء من فرنسا فلم تنقطع غارات الشماليين ، فنهبت تشارتر فى عام ٩١١ ، وأنجير Angers فى عام ٩١٩ ، ونهبت أكتين Aquitaine ، وأوفرنى فى عام ٩٢٣ ، كما نهبت آرتوا وإقليم بوفيه فى ٩٢٤ . وفى هذا الوقت نفسه تقريباً دخل المجر برغندية فى عام ٩١٧ بعد أن خربوا جنوبى ألمانيا ، واجتازوا الحدود الفرنسية ، ثم اجتازوها راجعين دون أن يلقوا مقاومة ، ونهبوا الأديرة القريبة من ريمس وسان Sens وأحرقوها (٩٣٧) ، واخترقوا كأرجال الجراد الفتاك أكتين (٩٥١) وأحرقوا ضواحى كورتراى ، وليون ، وريمس (٩٥٤) ، ونهبوا برغندية على مهل . وأوشك صرح النظام الاجتماعى فى فرنسا أن ينهار تحت هذه الضربات المتكررة التى كالها له الشماليون والهون . وفى ذلك يقول أحد المجامع الدينية المقدسة فى عام ٩٠٩ :

لقد أقفرت المدن من السكان ، وخربت الأديرة وأحرقت ، وأضحت البلاد فى عزلة . . . وكما كان الناس الأولون يعيشون بغير قانون . . . فكذلك يفعل الآن كل إنسان ما يبدو حسناً فى نظره غير آبه بالشرائع البشرية والدينية . . . فالأقوياء يظلمون الضعفاء ، والعالم ملىء بالعنف والقسوة على الفقراء ، وأملاك الكنائس تنهب . . . ويلتهم الناس بعضهم بعضاً كما يفعل السمك فى البحر(٤٧) .

وكان آخر الملوك الكارولنچيين — لويس الرابع ، ولوثير الرابع ، ولويس الخامس ملوكاً حسنى النية ، ولكنهم لم يكن لهم من القوة ما لا بد منه لإقامة نظام دائم من ذلك الخراب الشامل . ولما مات لويس الخامس ولم يكن له أبناء (٩٨٧) ، بحث أعيان فرنسا ورجال الدين فيها عن زعيم لهم من أسرة أخرى غير الكارولنچيين ، حتى وجدوا هذا الزعيم المنشود من نسل مركيز من نوستريا Neustria يحمل ذلك الاسم العظيم الدلالة وهو ربرت القوى Robert the Strong (المتوفى عام ٩٦٦) . وكان أودو منقذ باريس ابن هذا المركيز ، وكان هيو الأكبر Hugh the Great أحد أجداده (المتوفى عام ٩٥٦) قد حصل بالشراء أو الحرب على الإقليم المحصور بين نورمنديا ، والسين ، واللوار كله تقريباً وكان فيه أميراً إقطاعياً ، واجتمع له فيه من الثروة والسلطان ما لم يجتمع للملوك . وورث هيو كابت Hugh Capet ابن هيو هذا جميع تلك الثروة وذاك السلطان ، وورث ، كما يلوح ، العزيمة التى كسبتهما . وعرض أدلبرو Adalbero كبير الأساقفة ، بإرشاد العالم الداهية جربرت ، أن يكون هيو كابت ملكاً على فرنسا . فاختير لهذا المنصب بالإجماع (٩٨٧) وبدأت بذلك الأسرة الكابتية التى حكمت ابناً أو أباً أو حكم فروعها مملكة فرنسا إلى عهد الثورة الكبرى .

٤ — الآداب والفنون ٨١٤ — ١٠٦٦

لعلنا قد غالينا فى وصف ما أحدثته غارات الشماليين والمجر من أضرار ، ذلك أن حشدها كلها فى حيز قليل توخياً للإيجاز يجعل صورة الحياة فى تلك الأوقات قاتمة فوق ما تستحق ، مع أنها لم تكن تخلو بلا ريب من فترات ساد فيها الأمن والسلام ؛ فقد ظلت الأديرة تشاد خلال هذا القرن التاسع الرهيب ، وكثيراً ما كانت مراكز للصناعة الناشطة ، وازدادت مدينة رون قوة بفضل اتجارها مع بريطانيا رغم ما أصيبت به من غارات وحرائق ؛ وسيطرت كولونى وميتز على التجارة المارة بنهر الرين ؛ ونشأت فى فلاندرز مراكز غنية صناعية وتجارية بمدن غنت ، وإيبرس Ypres ، وليل Lille ، ودويه ، وآراس Arras ، وتورناى ، Tournai ، وديانان Dinant ، وكمبريه ، ولييج ، وفلنسين .

وأصيبت مكتبات الأديرة بخسائر فادحة فى كنوزها القديمة من جراء هذه الغارات ، وما من شك فى أن كثيراً من الكنائس التى أنشئت فيها مدارس عملا بقرار شارلمان قد دمرت ، وإن كانت مكاتب قد بقيت فى الأديرة أو الكنائس القائمة فى فلدا ، ولورسن Lorsch ، وريشنو Reichenau ، وميتز ، وترير ، وكولونى ، ولييج ، ولاون Laon ، وريمس ، وكوربى Corbie ، وفلیری Fleury ، وسانت دنيس ، وتور ، وبيبيو Bobbio ، ومونتى كسينو ، وسانت جول . . . واشتهر دير البندكتيين فى سانت جول بمن كان فيـه من الكتاب ، كما اشتهر بمدرسته وكتبها ، وفيه كتب نتكر بلبولوس Notker Balbulus — الألكن — (٨٤٠ — ٩١٢) ترانيم بديعة ممتازة وسجل راهب سانت جول ، وفيه ترجم نتكر ليبئو Notker Labeo — الغليظ الشفة — (٩٥٠ — ١٠٢٢) كتب بؤيثيوس ، وأرسـطو وغيرها من الكتب القديمة

إلى اللغة الألمانية ، وأعانت هذه التراجم – وهي من أول ما كتب بالنثر الألماني – على تثبيت تراكيب اللغة الجديدة وقواعدها .

وحتى في فرنسا الجريحة كانت مدارس الأديرة تضيء حلكة هذه العصور المظلمة . فقد افتتح ريمي الأوكسيرى Remy of Auxerre مدرسة عامة في باريس عام ٩٠٠ ؛ وأنشئت في القرن العاشر مدارس أخرى في أوكسير وكوربي ، وريمس ، ولييج . وأسس الأسقف فلبير Fulbert (٩٦٠ – ١٠٢٨) بمدينة تشارتر حوالى ١٠٠٦ مدرسة أصبحت أشهر مدارس فرنسا كلها قبل أيام أبلار ؛ ففيها وضع سقراط المبجل – كما كان تلاميذه يسمونه – قواعد تدريس العلوم ، والطب ، والآداب القديمة ، بالإضافة إلى علوم الدين ، والكتاب المقدس ، والطقوس الدينية . وكان فلبير هذا رجلا كريم الطبع ، عظيم الإخلاص ، صبوراً صبر أولى العزم من الرسل ، محسناً متصدقاً إلى أقصى حد . ولقد تخرج في مدرسته – قبل ختام القرن الحادي عشر – علماء أمثال چون السلزبورى John of Salisbury ، ووليم الكنشى William of Conches ، وبرنجار التورى Berengar of Tours ، وجلبرت ده لابريه Gilbert de la Porréa . وفي هذه الأثناء وصلت مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان أوج مجدها في كمبيني Compiègne تارة وفي لأون تارة أخرى بفضل ما حباها به شارل الأصلع من عون وتشجيع .

فقد استدعى شارل إلى مدرسة القصر في عام ٨٤٣ علماء أيرلنديين وإنجليز في مختلف العلوم ، كان من بينهم عالم من أعظم العقول المبتكرة وأعظمها جرأة في العصور الوسطى ، رجل يبعث وجوده في ذلك الوقت الشك في صواب استبقاء اسم « العصور المظلمة » حتى على القرن التاسع نفسه ، بله غيره من القرون .

ويكشف اسمه عن أصله كشفاً مضاعفاً ، فهو چوهان أسكوتس إريوچينا Johannes Scotus Eriugina أى چون الأيرلندى المولود فى إرين Erin . وسنسميه نحن إرچينا Erigena وكفى . ويبدو أنه لم يكن من رجال الدين ، ولكنه كان رجلا متبحراً فى العلوم ، يجيد اللغة اليونانية ، مغرماً بأفلاطون والآداب القديمة ، حلو الفكاهة إلى حد ما . وتحدثنا إحدى القصص — التى يبدو من سياقها كله أنها من مخترعات الأدباء — أن شارل الأصلع ، كان يطعم معه فى يوم من الأيام فسأله : ما الفارق بين الأبله والأيرلندى quid distat inter sottum et Scottum ؟ فأجابه چون — كما تروى القصة — : « المنضدة »[٤٨] . ولكن شارل رغم هذا كان يحبه حبا جما ، وكان يشهد محاضراته ، وأكبر الظن أنه كان يستظرف إلحاده . ويفسر چون العشاء الربانى فى كتابه عن القربان المقدس بأنه عمل رمزى ، ويتضمن هذا ارتيابه فى وجود المسيح بحق فى الخبز والخمر المقدسين . ولما أخذ الراهب الألمانى جتسشولك Gottschalk ينادى بمبدإ الجبرية المطلقة وينكر تبعاً لذلك مبدأ حرية الإرادة فى الإنسان ، طلب هنكمار كبير الأساقفة إلى إرچينا أن يرد عليه كتابة . فأجابه هذا إلى ما طلب وكتب رسالته المسماة الجبرية الإلهية De Divina praedestinatione (حوالى عام ٨٥١) . وقد بدأها بإطراء الفلسفة إطراء عظيما فقال : « من يشأ أن يبحث جاداً عن علل الأشياء جميعها ويحاول كشفها ، يجد جميع الوسائل الموصلة إلى العقيدة الصالحة الكاملة فى العلم والتدريب اللذين يطلق عليهما اليونان اسم الفلسفة » . وينكر الكتاب فى واقع الأمر مبدأ الجبرية ، ويقول الإرادة حرة عند الله وعند الإنسان ، وإن الله لا يعرف الشىء ، ولو عرفه لكان هو سببه . وكان رد إرچينا أكثر إلحاداً من أقوال جتسشولك ، وأنكره مجلسان من مجالس الكنيسة فى عامى ٨٥٥ و ٨٥٩ ، وأودع جتسشولك فى دير قضى فيه بقية حياته ، أما إرچينا فقد حماه الملك .

وكان ميخائيل الألكن إمبراطور بيزنطية قد بعث إلى لويس التقى فى عام ٨٢٤ مخطوطا يونانيا لكتاب يسمى **الحكومة الكنوتية السماوية** . ويعتقد المسيحيون المتدينون أن مؤلفه هو ديونيشيوس « الأزيوپاجى » Disnysius the "Areopagite" . وأحال لويس التقى المخطوط إلى دير سانت دنيس ، ولكن أحداً ممن فيه لم يستطع ترجمة لغته اليونانية ، فقام إرچينا بهذه المهمة إجابة لطلب الملك . وتأثر بالترجمة أعظم التأثر ، وأعاد الكتاب إلى المسيحية غير الرسمية الصورة التى ترسمها الأفلاطونية الجديدة للكون المتولد أو المنبعث من الله فى مراحل مختلفة أو درجات من الكمال آخذة فى النقصان ، والذى يعود ببطء وبدرجات متفاوتة إلى الله مرة أخرى .

وأصبحت هذه هى الفكرة الرئيسية التى يدور حولها أعظم مؤلفات چون **التقسيم الطبيعى** (٨٦٧) . فى هذا الكتاب نجد بين كثير من السخف ، وقبل أبلار بقرنين من الزمان ، إخضاعاً جريئاً لعلوم الدين والوحى إلى العقل ، ومحاولة للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية ، وفيه يقرّ چون بصحة الكتاب المقدس ، ولكنه يقول إنه لما كان معناه فى كثير من أجزائه غامضاً ، فإن الواجب يقضى بتفسيره حسبما يمليه العقل — ويكون ذلك عادة بفهم نصوصه على أنها رموز أو استعارات . ويقول إرچينا فى هذا : « إن السلطان يُستمد أحياناً من العقل ولكن العقل لا يُستمد أبداً من السلطان ، ذلك بأن كل سلطان لا يرضى عنه العقل السليم يبدو ضعيفا ، ولكن العقل السليم لا يحتاج إلى تأييد السلطان أيا كان نوعه لأنه يستند إلى قوته »[٤٩] . « ويجب ألا نحتج بآراء آباء الكنيسة ... إلا إذا كان لا بد لنا من الاحتجاج بآرائهم لتقوية حججنا أمام الناس الذين لا يحسنون الاستدلال ، ولهذا يخضعون للسلطان لا للعقل »[٥٠] . فهاهو ذا عصر العقل يتحرك فى أرحام عصر الإيمان .

ويعرف چون الطبيعة بأنها : « اسم عام يطلق على جميع الأشياء التى

تكون وغير التي تكون » أى على جميع الأجسام ، والعمليات ، والمبادئ ، والعلل ، والأفكار . وهو يقسم الطبيعة إلى أربعة أنواع من الكائنات :

(١) ذاك الذى يَخلُق ولكنه لا يُخلَق — أى الله . (٢) ذلك الذى يُخلَق ويَخلُق — أى العلل الأولى ، والمبادئ ، والنماذج الأولى ، والأفكار الأفلاطونية ، والكلمة ، وهى التى يتكون من عملياتها عالم الأشياء المفردة ، (٣) ذلك الذى يُخلَق ولا يَخلُق — أى عالم الأشياء المفردة السالفة الذكر ، (٤) ذلك الذى لا يَخلُق ولا يُخلَق — أى الله بوصفه الغاية النهائية التى تستوعب كل شىء . فالله هو كل شىء كائن بحق ، لأنه يكوّن الأشياء جميعها ويتكوّن من الأشياء جميعها » . وليس ثمة عملية خلق فى وقت بذاته ، لأن هذا القول يتضمن تغيراً فى الله . « فإذا سمعنا أن الله قد أوجد كل شىء ، فيجب ألا نفهم من هذا القول إلا أن الله حال فى كل شىء — أى يوجد بوصفه جوهر كل الأشياء »[٥١] . « والله نفسه لا يدركه عقل من العقول ، وليس الجوهر المكنون لكل شىء والذى خلقه الله مما يمكن إدراكه ، وكل الذى نراه هو الأعراض لا الجواهر »[٥٢] — أى صور الأشياء التى تدركها الحواس والعقول لا حقائقها التى لا تعرف ولا يمكن معرفتها — كما يقول كانْت Kant فيما بعد . وليست الخصائص المحسوسة فى الأشياء متأصلة فى الأشياء نفسها ، وإنما تتكوّن من الأشكال التى ندركها بها . « فإذا قيل لنا إن الله يرغب ، ويحب ، ويختار ، ويرى ، ويسمع ... فيجب ألا نفكر إلا فى أن حقيقته وقوّته اللتين لا يستطاع وصفهما يُعَبَّر عنهما بمعان تتفق معنا فى طبيعتها » — أى موائمة لطبيعتنا ، « حتى لا يجد المسيحى الحق التقى ما يقوله عن الخالق ، فلا يقول شيئا عنه ليعلم به النفوس الساذجة »[٥٣] . ولمثل هذا الغرض لا الشىء سواه نستطيع أن نتحدث عن الله كأنه ذكر أو أنثى ، وليس « هو » هذا ولا ذاك[٥٤] . فإذا فهمنا لفظ « الأب » بمعنى المادة الخلاقة أو جوهر الأشياء جميعها ، و « الابن »

على أنه الحكمة الإلهية التى تتكون أو تحكم بمقتضاها الأشياء كلها ؛ والروح على أنه الحياة أو حيوية الخلق ، إذا فهمنا هذه الثلاثة على هذا النحو جاز لنا أن نفكر فى الله على أنه ثالوث . وليست الجنة والنار مكانين ، بل هما أحوال النفس ، فالنار هى الشقاء المنبعث من الخطيئة ، والجنة هى السعادة المنبعثة من الفضيلة والنشوة المنبعثة من الرؤيا الإلهية (إدراك الألوهية) التى تتكشف من الأشياء جميعها للنفس التقية[٥٥] . وليست جنة عدن مكاناً على الأرض ، بل هى حالة كهذه من حالات النفس[٥٦] . والأشياء جميعها خالدة : فللحيوانات أيضاً ، كما للآدميين ، نفوس تعود بعد الموت إلى الله أو إلى الروح الخالق الذى انبعثت منه[٥٧] . والتاريخ كله إن هو إلا فيض من عملية الخلق إلى الخارج عن طريق الانبعاث ، وموجة مدية لا تغلب نحو الداخل تجذب الأشياء جميعها فى آخر الأمر إلى الله :

لقد وجدت فلسفات شر من هذه الفلسفة وفى عصور النور ، ولكن الكنيسة حسبتها تموج بالإلحاد والزندقة . ولهذا طلب نقولاس الأول إلى شارل الأصلع فى عام ٨٦٥ إما أن يبعث بجون إلى رومة ليحاكم أو أن يفصله من مدرسة القصر ، « حتى لا يستمر فى تسميم الذين يسعون لطلب الخبز »[٥٨] . ولسنا نعرف نتيجة هذا الطلب ، غير أن إنجليزياً من أهل مالمزبرى Malmsbury يروى « أن جوهان اسكوتس جاء إلى إنجلترا وإلى ديرنا ، كما تقول الأخبار ، وأن الأولاد الذين يعلمهم كانوا يَشُكُّونه بأقلامهم الحديدية » ، وأنه مات من أثر هذا العمل . وأكبر الظن أن هذه القصة حلم من أحلام تلاميذ كان يتمنى تحقيقه . ولقد تأثر بإرچينا فلاسفة من أمثال جربرت ، وأبلار ، وجلبرت ده لا پوريه على غير علم منهم ، غير أنه بوجه عام قد نسى فى غمار الفوضى الضاربة أطنابها فى ذلك العصر المظلم . ولما أن رفع ستار النسيان عن كتابه فى القرن الثالث عشر حكم مجلس سنس Sens بتحريمه (١٢٢٥) وأمر البابا هونوريوس Honorius الثالث

بأن ترسل نسخه جميعها إلى رومة وأن تحرق فيها .

ووقف الفن الفرنسى فى هذه الأوقات المضطربة جامداً لا يتحرك ، فقد ظل الفرنسيون يشيدون كنائسهم على نظام الباسلقا رغم ما ضربه لهم شارلمان من أمثلة . وفى عام ٩٩٦ أصبح أحد الرهبان والمهندسين الإيطاليين ويدعى وليم من أبناء ڤلپيانو Volpiano رئيساً لدير فيكامب Fécamp النورمانى . وقد جاء معه من إيطاليا بكثير من أساليب الطراز النورمانى والرومانسى ، ويبدو أن أحد تلاميذه هو الذى بنى دير جوميج Jumiéges الكنسى (١٠٤٥ — ١٠٦٧) ؛ وفى عام ١٠٤٢ دخل رجل إيطالى آخر يدعى لانفرانك Lanfranc الدير النورمانى فى بك Bec ، وسرعان ما جعله مركزاً علمياً نشطاً ، يهرع إليه طلاب بلغوا من الكثرة ما اضطر القائمين عليه إلى إضافة أبنية جديدة له . وقد خطط لانفرانك هذه الأبنية ، ولعله قد استعان على تخطيطها بمن هم أكثر منه خبرة بهذا العمل . ولم يبق حجر واحد من حجارة هذا البناء ، ولكن دير الرجال فى جاإن Abbaye aux Hommes at Gaen (١٠٧٧ — ١٠٨١) لا يزال قائماً إلى اليوم يشهد بقوة الطراز الرومانسى الذى تطور فى نورماندى على أيدى لانفرانك ومن جاء بعده .

وشيدت فى القرن الحادى عشر كنائس جديدة فى جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز ، زينها الفنانون بصور الجدران وبنقوش الفسيفساء والتماثيل . وكان شارلمان قد أمر بأن يطلى داخل الكنائس ويلون ليستفيد من ذلك المؤمنون ؛ وزينت قصور آخن وأنجلهيم بالمظلمات ، وما من شك فى أن كثيراً من الكنائس قد حذت حذو هذه القصور . وقد دمرت آخر قطع من مظلمات آخن فى عام ١٩٤٤ ، ولكن نقوشاً شبيهة بما كان على جدرانها لا تزال باقية فى كنيسة سان چرمان St. Germain فى أوكسير . ولا تختلف هذه النقوش فى شكلها عن النقوش التى تزدان بها مخطوطات ذلك العصر ولا عن طرازها أو حجمها .

وقد كتب رهبان مدينة تور فى عهد شارل الأصلع نسخة ضخمة ملونة من الكتاب المقدس وأهدوها إلى الملك ، ولا تزال هذه النسخة محفوظة فى قسم المخطوطات اللاتينية بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١ . وأجمل من هذا المخطوط إنجيل « لوثير » الذى كتبه فى ذلك الوقت رهبان تور أيضاً . كذلك أخرج رهبان ريمس فى هذا القرن التاسع كتاب تراتيل « أوترخت Utrecht » الذائعة الصيت — ويتألف هذا المخطوط من ١٠٨ ورقة من الجلد الرقيق ويحتوى على مزامير داود وعقيدة الرسل مزدانة بكثير من صـــور الحيوانات على اختلاف أنواعها وبعدد لا يحصى من الأدوات وصور المهن والأعمال . وتصطبغ هذه الصور الحية بصبغة من الواقعية الشديدة بدلت فن التصوير الدقيق الذى كان من قبل جامداً مستمسكا بالتقاليد .

٥ — نشأة الأدواق : ٩٨٧ — ١٠٦٦

وبرزت فرنسا التى كان يحكمها هيوكابت (٩٨٧ — ٩٩٦) فأصبحت وقتئذ أمة منفصلة عن غيرها ، ولم تعد تعترف بسيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عليها ، ولم تعد قط إلى أوربا الغربية الوحدة التى وهبها إياها شارلمان اللهم إلا فترة قصيرة فى أيام نابليون وهتلر . ولكن فرنسا التى كانت فى أيام هيوكابت لم تكن فرنسا القائمة فى أيامنا هذه ؛ فقد كانت أكتين وبرغندية دوقيتين مستقلتين بالفعل ، وظلت لورين بعدئذ سبعة قرون جزءاً من ألمانيا . وكانت فرنسا فى ذلك الوقت موطناً لأجناس مختلفة ولغات متعددة : فكانت فرنسا الشمالية فلمنكية أكثر منها فرنسية ، وكان فى دمها عنصر ألمانى كبير ؛ وكان سكان نورماندى من الشماليين ، وكانت بريطانى كلتيه غير ذات صلة بسائر البلاد ، يسيطر عليها لاجئون من بريطانيا ؛ أما پروفانس فكانت فى جنس أهلها ولغتهم « ولاية » رومانية غاليّة . كذلك كانت فرنسا المجاورة

لجبال البرانس قوطية ، وقطالونيا الخاضعة من الوجهة الرسمية للملكية الفرنسية قوطية أيضا كما يدل على ذلك اسمها « قطالونيا » . وكان نهر اللوار يقسم فرنسا الى إقليمين ، مختلفين فى الثقافات واللغات . وكان العمل الذى اضطلعت به الملكية الفرنسية هو مزج هذه الأجناس واللغات المختلفة ، لينشئوا من أكثر من عشرة شعوب أمة موحدة ، ولقد تطلب هذا العمل ثمانمائة عام .

وأراد هيوكابت أن يهيئ الظروف لوراثة للعرش منظمة ، فتوج ابنه ربرت ملكا معه فى السنة الأولى من حكمه . ويُعَد « ربرت التقى » (٩٩٦ — ١٠٣١) من الملوك الأوساط غير المبرزين[٦٠] ، ولعل سبب اشتهاره بهذه المكانة الوسطى أنه كان يتجنب مجد الحروب . مثال ذلك أنه لما قام النزاع بينه وبين هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا بشأن الحدود عقد اجتماعاً معه وتبادل وإياه الهدايا ، ووصل معه إلى اتفاق سلمى . وكان ربرت رءوفاً بالضعفاء والفقراء يحميهم قدر استطاعته من الأقوياء غير ذوى الضمير ، ومثله فى هذا كمثل لويس التاسع ؛ وهنرى الرابع ، ولويس السادس عشر . وقد أغضب الكنيسة بزواجه من برثا Bertha ابنة عمه (٩٩٨) ، وصبر على الحرمان وعلى سخرية الذين كانوا يعدونها ساحرة ، ولكنه انفصل عنها آخر الأمر وعاش بعدئذ بائساً حزيناً إلى آخر أيام حياته ؛ ويحدثنا المؤرخون أن الناس حزنوا عليه أشد الحزن عند مماته[٦١] ، وشبت نار حرب للوراثة بين ولديه ، انتصر فيها هنرى الأول (١٠٣١ — ١٠٦٠) أكبرهما ، ولكنه لم ينل النصر إلا بمعونة ربرت دوق نورماندى . ولما انتهى هذا الصراع الطويل (١٠٣١ — ١٠٣٩) كانت المملكة قد وصلت إلى درجة من الفقر فى المال والرجال لم تقو معها على منع تقطع أوصالها بفعل النبلاء الأقوياء المستقلين .

وانقسمت فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ م ، بفعل كبار الملاك الذين كانوا يضمون إليهم تدريجياً ما يحيط بهم من الأراضى ، إلى سبع إمارات كبرى يحكم كلا منها كونت أو دوق . وهذه الأقسام هى أكتين ، وطلوشة ، وبرغندية ، وأنجو ،

وشمبانيا ، وفلاندرز ، ونورمندية . وكان هؤلاء الأذواق أو الكونتات فى جميع الحالات تقريباً ورثة زعمــاء أو قواد منحهم الملوك المروفنچيون أو الكارولنجيون ضياعاً جزاء لهم على خدماتهم الحربية أو الإدارية . وكان الملك قد أصبح يعتمد على هؤلاء الكبراء فى تجييش الجيوش وحماية ولايات الحدود ؛ ولم يكن بعد عام ٨٨٨ يسن القوانين للمملكة جميعها ، أو يجبى منها الضرائب ؛ بل كان الأدواق والكونتات يسنون القوانين ، ويجبون الضرائب ، ويشنون الحروب ، ويفصلون فى القضايا ويعاقبون ، ويكادون يكونون سادة مستقلين فى ضياعهم ، لا يدينون للملك إلا بولاء اسمى ، ولا يؤدون له إلا خدمة عسكرية ذات نطاق محدود . واقتصرت سلطة الملك فى وضع القوانين ، والفصل فى القضايا ، وفى الشئون المالية ، على ضياعه الملكية الخاصة ، وهى التى سميت فيما بعد جزيرة فرنسا Ile de France وتشمل إقليمى الساءون والسين الأوسط الممتدين من أورليان إلى بوڤيه ومن تشارتر إلى ريمس .

وتقدمت نورمندية دون سائر الدوقيات المستقلة استقلالا نسبياً بأن نمت نمواً سريعاً إلى أقصى حدود السرعة فى قوتها وسلطانها ، فلم يمض عليها قرن واحد بعد تسليمها لأهل الشمال حتى أصبحت أكثر ولايات فرنسا مغامرة ومخاطرة — ولعل السبب فى ذلك هو قربها من البحر وموقعها بين إنجلترا وباريس . وكان أهل الشمال وقتئذ مسيحيين متحمسين للمسيحية ، لهم أديرة ومدارس أديرة ، وكانوا يتناسلون باستهتار ما لبث أن دفع شــباب النورمنديين إلى إنشاء ممالك جديدة من الولايات القديمة . ذلك أن بحارة الشمال كانوا حكاماً أقوياء لا يبالون بالمبادئ الأخلاقيــة ولا يرعون فى الوصول إلى أغراضهم ضميراً ، ولكنهم قادرون على أن يحكموا بيد من حديد شعباً مشاكساً ، مضطرباً ، مكوّناً من الغاليين والفرنجة ، والشماليين . ولم يكن ربرت الأول (١٠٢٨ — ١٠٣٥) قد أصبح بعد دوقا لنورمندية حين وقعت عينه فى عام ١٠٢٦ على هارلت Harlette ابنة

دباغ فى فالیز Falaise ؛ فلما رآها أضحت عشيقته العزيزة جرياً على إحدى السنن الدنمرقية القديمة ، وسرعان ما أنجبت له ولداً يعرف عند معاصريه باسم وليم النغل William the Bastard وعنـدنا نحن باسم وليم الفاتح Willam the Conqueror . ولما اشتد على ربرت وخز ضميره لكثرة ما ارتكب من الذنوب غادر نورمندية فى عام ١٠٣٥ ليحج حجة التوبة إلى أورشليم ، واستدعى قبل سفره أكابر الأعيان ورجال الدين وقال لهم :

« أقسم بدينى ألا أتركهم دون أن أولى عليكم سيداً ؛ إن لى ابنا نغلا سيكبر بفضل الله ، وإنى لقوى الرجاء فى أن يكون من أحسن الناس صفات، ورجائى أن تقبلوه سيداً عليكم ؛ وليس يهمكم قط أنه لم يولد من زواج شرعى فهذا لن يؤثر فى قدرته على الحكم . . . أو فى توزيع العدالة بين الناس . وهأنذا أعيّنه وارثاً لعرشى ، وأخلع عليه من هذه اللحظة دوقية نورمندية بأكملها »(٦٢) .

وتوفى ربرت فى طريقه إلى أورشليم ، وحكم الأشراف وقتاً ما بالنيابة عن ابنه . ولما شبت فتنة فى البلاد تحاول خلعه أخمدها بوحشية ممزوجة بالكرامة ، فقد كان رجلا يجمع بين الدهاء والبسالة ، بعيد النظر فى وضعه خطط المستقبل ، ملاكاً لأصدقائه ، وشيطاناً على أعدائه . وكان يسمع تهكم الناس على مولده ويقبل هذا التهكم بصدر رحب ، وكان من حين إلى حين يمضى بعض ما يكتب باسم وليم النغل Guiielmus Nothus ؛ ولكنه حين حاصر ألنسون Alencon وعلق المحاصرون الجلود على جدرانهم إشارة إلى حرفة جده قطع أيدى من وقع فى يديه من الأسرى وأرجلهم ، وفقأ أعينهم ، وقذف المدينة من مجانيقه بهذه الأعضاء . وأعجبت نورمندية بوحشيته وحكمه الصارم ، وعمها الرخاء . فقد حد وليم من استغلال الأشراف للفلاحين ، وأرضى أولئك الأشراف بالعطايا السنية ، وكان يعنى عناية الأتقياء الصالحين بواجباته الدينية ، وجلل أباه العار بإخلاصه لزوجته إخلاصاً لم يسبق

له مثيل ، وقد أولع بحب ماتلده Matilda الجميلة ابنة بلدوين Baldwin كونت فلاندرز ؛ ولم يؤثر فيه أن لها والدين وزوجا لا يزال على قيد الحياة وإن كان منفصلا عنها . غير أنها ردت وليم وكالت له الإهانات وقالت « إنها تفضل أن تكون راهبة محجبة على أن تتزوج بنغل »[٦٣] ؛ ولكنه لم يزجع عن حبها ، ونالها آخر الأمر وتزوجها رغم تشهير رجال الدين ؛ وترتب على ذلك أن جرّد الأسقف مابجر Malger والأب لانفرانك رئيس الدير لأنهما ذما هذا الزواج ، وحرق في سورة غضبه جزءاً من دير بك . ثم أقنع لانفرانك البابا نقولاس الثاني بأن يصادق على الزواج ، وأراد وليم أن يكفر عما فرط منه فبنى في جائن دير الرجال النورمندى الذائع الصيت ، وبفضل هذا الزواج ارتبط وليم بكونت فلاندرز ؛ وكان قد وقع قبل ذلك الوقت في عام ١٠٤٨ اتفاقاً مع ملك فرنسا . وبعد أن حمى جناحيه بهاتين الوسيلتين وزينهما شرع وهو في التاسعة والثلاثين من عمره في فتح إنجلترا .

الباب العشرون

نهضة الشمال

٥٦٦ - ١٠٦٦

الفصل الأول

إنجلترا (٥٧٧ - ١٠٦٦)

١ - ألفرد والدنمرقيون (٥٧٧ - ١٠١٦)

لم يلق فتح الإنجليز والسكسون والجوت لإنجلترا بعد واقعة دورهام Deorham (٥٧٧) إلا مقاومة يسيرة ، وما لبث الغزاة أن اقتسموا البلاد فيما بينهم ؛ فأقام الجوت مملكة فى كنت Kent ، وأسس الإنجليز ثلاث ممالك فى مرسـيـة ، ونورثمبرلاند ، وأنجليا الشرقية East Anglia ؛ وأنشأ السكسون ثلاث ممالك أخرى فى وسكس Wessex ، وإسكس Essex ، وسسكس Sussex أى فى سكسونيا الغربية ، والشرقية ، والجنوبية . وكانت هذه الممالك السبع الصغيرة وممالك أخرى أصغر منها هى التى تكون فيها « تاريخ إنجلترا » حتى جمع أجبرت Egbert ملك سكس معظمها بالقوة أو بالختل فى مملكة واحدة تحت حكمه .

وقبل أن ينشئ ملك السكسون هذه المملكة الجديدة - مملكة الإنجليز -

بدأت غزوات الدنمرقيين التي اجتاحت البلاد من بحر إلى بحر وهددت المسيحية الناشئة فيها بإحلال وثنية همجية جاهلة محلها ؛ وفي ذلك يقول السجل الإنجليزي السكسوني : « جاءت في عام ٧٨٧ ثلاث سفن إلى سواحل سكسونيا الغربية ... وقتلت الأهلين — وكانت هذه أولى سفن الدنمرقيين التي جاءت تطلب أرض شعب الإنجليز » . وأغارت على نوثمبرلند Northumberland في عام ٧٩٣ حملة دنمرقية أخرى ، وخربت دير لندسفارن Lindisfarne الشهير وذبحت رهبانه . وفي عام ٧٩٤ دخل الدنمرقيون نهر وير Wear ، ونهبوا ويرموث Wearmouth وجرو Jarrow حيث كان يكدح بك Bec العالم قبل خمسين سنة من ذلك الوقت . وفي عام ٨٣٨ هاجم المغيرون أنجليا الشرقية East Anglia وكنت Kent ؛ وفي عام ٨٣٩ رابط أسطول للقراصنة مؤلف من ٣٥٠ سفينة في نهر التاميز ، بينا كان بحارته ينهبون كنتربري Canterbury ولندن . وفي عام ٨٦٧ — فتحت قوة من الدنمرقيين والسويديين مقاطعة نورثمبرلند ، وقتلت آلافاً من « الإنجليز » ، وخربت أديرتها ، وأتلفت ما فيها من دور الكتب أو شتتها . وخيمت الفاقة والجهالة على مدينة يورك وما حولها ، وهي البلدة التي حبت شارلمان بألكوين ؛ ولم يحل عام ٨٧١ حتى كان معظم إنجلترا الممتد في شمال نهر التاميز خاضعا للمغيرين . واتجه جيش دنمرقي بقيادة جثرم Guthrum نحو الجنوب في ذلك العام نفسه ليهاجم ردنج Reading عاصمة وسكس ؛ والتقى إثلرد Ethelred مليكها وأخوه الأصغر ألفرد بالدنمرقيين عند آشدون Ashdown وهزموا المغيرين ؛ ولكن إثلرد جرح جرحاً مميتاً في معركة ثانية عند مَرتن Merton وولي الإنجليز الأديار .

وجلس ألفرد على عرش سكسونيا وهو في الثانية والعشرين من عمره (٨٧١) ويصفه أسر Asser بأنه كان وقتئذ أميًّا illiteratus ؛ وقد يكون معنى هذا اللفظ أنه يجهل القراءة والكتابة أو أنه لا يعرف اللغة اللاتينية ! ويبدو أنه كان مصابا

بالصرع ، وأنه أصيب بنوبة من نوبات الداء فى يوم زفافه ؛ ولكنه كان صياداً قوياً ، وسيم الطلعة ، رشيقاً ، يفوق إخوته فى الحكمة والمهارة الحربية ؛ فلما مضى شهر على تتويجه ، زحف بجيشه الصغير على الدنمرقيين الذين كانوا عند ولتن Wilton ولكنه هزم فيها هزيمة منكرة اضطرته إلى شراء الصلح من عدوه لينقذ بذلك عرشه ؛ غير أنه انتصر فى معركة حاسمة عند إثندون Ethandun (إدنجتن Edington الحالية) فى عام ٨٧٨ اجتاز بعدها نصف الجيش الدنمرقى القناة الإنجليزية ليغير على فرنسا المستضعفة ؛ أما بقية الجيش فقد وافق بمقتضى معاهـدة ودمور Wedmore . على ألا يتجاوز رجاله شمالى إنجلترا الشرقى فى البـلاد التى سميت فيما بعد دين لو Danelaw .

ويقول أسر وهو كاتب لا يوثق كل الثقة بأقواله إن ألفرد زحف بجيشه على أنجليا الشرقية « يقصد نهبها » ، وفتح البلاد ، ونادى بنفسه ملكاً عليها وعلى مرسية بالإضافة إلى وسكس ؛ ولعله كان يقصد بهذا الزحف أن يوحد إنجلترا لكى يقاوم بها الدنمرقيين . فلما تم له ذلك وجه عنايته — كأنه شارلمان صغير — إلى شئون الحكم وإعادة تنظيم البلاد . فنظم الجيش تنظيما جديداً ، وأنشأ عمارة بحرية ، ووضع قانوناً موحداً لممالكه الثلاث ، وأصلح نظام القضاء ، وسن من القوانين ما يكفل حماية الفقراء ، وأنشأ مدناً وبلداناً جديدة ، وأعاد بناء القديمة ، وشاد « بالحجارة والخشب أبهاء وغرفاً ملكية » ، لموظفى حكومته الآخذين فى الازدياد[٢] . وقد خصص جزءاً من ثمانية أجزاء من إيراد الدولة لإعانة الفقراء ، وجزءاً آخر مثله للتعليم . وأنشأ فى ردنج عاصمة ملكه مدرسة فى قصره ، وجاد بالمال بسخاء على أعمال التعليم والدين التى تقوم بها الكنائس والأديرة . وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يعود بذاكرته إلى أيام صباه حين كانت « الكنائس غاصة بالكنوز والكتب . . . قبل أن تخرب وتحرق » بفعل الدنمرقيين ؛ أما الآن : « فقـد انحط التعليم بين الإنجليز انحطاطاً كانت نتيجته

أن عدداً قليلا جداً منهم . . . هم الذين يستطيعون فهم طقوس دينهم باللغة الإنجليزية ، أو ترجمة شيء منها إلى اللاتينية »[٣] . وقد بعث إلى البلاد الخارجية فى طلب العلماء — بعث فى طلب الأسقف أسر Asser من ويلز ، وإرچينا Erigena من فرنسا ، وكثيرين غيرهم — ليأتوا ويعلموا شعبه ويعلموه هو نفسه . وكان يؤسفه أنه لم يجد من قبل إلا قليلا من الوقت يخصصه للقراءة ، ولهذ فقد أقبل الآن على الدراسات الدينية والعلمية إقبال الرهبان . وقد ظل يلاقى صعوبة فى القراءة ، ولكنه كان « يأمر رجالا يقرأون له ليلا ونهاراً » . أن يكون هو أول من أدرك ما للغات القومية من خطر متزايد قبل أن يدركه أحد وكاد غيره من الأوربيين ، فعمل على أن تترجم بعض الكتب الأساسية الهامة إلى اللغة الإنجليزية ، وجد هو نفسة فى ترجمة كتاب سلوى الفلسفة The Consolation of Philosphy لبوئثيوس Boetius ، وكتاب العناية بالرعى Pastoral Care لجريجورى ، وكتاب التاريخ العام Universal History لأوروسيوس Orosius وتاريخ إنجلترا الكنسى Ecclesiastical History of England لبيد Bede ؛ وعمل ما عمله شارلمان فجمع أغانى شعبه ، وعلمها أولاده ، وشارك المغنين فى بلاطه فى إنشادها .

ووصلت غزوة دنمرقية جديدة إلى كنت فى عام ٨٩٤ ؛ وبعث دنمرقيو والدين لوالى الغزاة بالمدد ، وعقد الوطنيون أهل ويلز والكلت ، الذين لم يكن الإنجليز والسكسون قد تغلبوا عليهم بعد ، حلفا مع الدنمرقيين . وانقض إدورد ابن ألفرد على معسكر القراصنة ودمره ، وشتت أسطول ألفرد الجديد شمل الأسطول الدنمرقى (٨٩٩) وتوفى الملك بعد عامين من هذه الواقعة ، ولم تكن سنة قد تجاوزت الثانية والخمسين . وليس فى وسعنا أن نوازنه برجل جبار مثل شارلمان لأن الرقعة التى كانت مسرحاً لمغامراته رقعة ضيقة ، ولكنه ضرب

للأمة الإنجليزية بصفاته الأخلاقية — تقواه ، واستقامته الخالية من التباهى ، واعتداله ، وجلده ، وإخلاصه لشعبه ، وشغفه بالاستزادة من التعلم — ضرب لها بهذه الصفات مثلا ، وبعث فيها روحا ، تلقتها بأعظم الشكر ونسيتها بعد قليل . وقد أعجب به ڤلتير إعجاباً لعله كان مسرفاً فيه إذ قال : « لست أظن أنه كان فى العالم كله رجل أجدر باحترام الخلف من ألفرد الأكبر »[٤] .

وواصل الإسكنديناويون هجومهم على إنجلترا فى أواخر القرن العاشر ، فأغارت قوة من الڤيكنج (القراصنة النرويجيين) بقيادة أولاف تريجفسون Olaf Tryggvesson على سواحل انجلترا فى عام ٩٩١ . وعجز الإنجليز بقيادة الملك إثلرد (٩٧٨ — ١٠١٣) (الملقب بردلس Redeless أى غير المتصحح لأنه أبى أن يعمل بمشورة أعيان البلاد) فنفح الغزاة برشا سخية متتابعة ١٠,٠٠٠ ، ١٦,٠٠٠ ، ٢٤,٠٠٠ ، ٣٦,٠٠٠ ، ٤٨,٠٠٠ رطل من الفضة جمعتها دينجلد Danegeld المخرب الوقح من أول ضريبة عامة فرضت على إنجلترا . وسعى إثلرد لكسب المعونة الأجنبية فشرع يفاوض نورمندية فى عقد حلف معه ، وتزوج إما Emma ابنة رتشارد الأول دوق نورمندية ، ونشأت من هذا الزواج أحداث خطيرة . وادعى إثلرد أن الدنمرقيين يأتمرون به ليقتلوه ، ويقضوا على برلمان الأمة الويتناجمور Witenagemor فأمر بقتل كافة من فى الجزيرة من الدنمرقيين أينما وجدوا (١٠٠٢) . ولسنا نعلم إلى أى حد نفذ هذا الأمر بحذافيره ، وأكبر الظن أن جميع من كانوا فى انجلترا من الذكور القادرين على حمل السلاح قد قتلوا هم وبعض النساء ، وكان من بين من قتلن منهن أخت سوين Sweyn ملك الدنمرقة ، وأقسم سوين أن يثأر لمقتلها ، فغزا إنجلترا فى عام ١٠٠٣ ، وأعاد الكرة عليها بجميع قواه فى عام ١٠١٣ . وتخلى نبلاء إثلرد عنه ، ففر إلى نورمندية ، وأصبح سوين ملك إنجلترا وسيدها . غير إن إثلرد عاد إلى الكفاح بعد موت سوين (١٠١٤) ، وتخلى عنه الأعيان مرة أخرى ، وعقدوا الصلح مع كنوت

Cnut بن سوين (١٠١٥) . ومات إثلرد فى لندن وهى محاصرة ، وحارب إدمند ذو الجانب الحديدى Edmund Ironside ببسالة ولكن كنوت تغلب عليه عند أسندون Assandun (١٠١٦) . وارتضت إنجلترا بأجمعها كنوت ملكا عليها ، وتم بذلك للدنمرقيين فتح إنجلترا .

٣ — الحضارة الإنجليزية — السكسونية ٥٧٧ — ١٠٦٦

لم يكن هذا الفتح أكثر من فتح سياسى ؛ فقد كانت أنظمة الإنجليز والسكسون ، ولغتهم ، وأساليب حياتهم قد تعمقت أصولها فى إنجلترا خلال القرون الستة الماضية تعمقاً لا يستطاع معه فهم نظام الحكم فى البلاد أو لغة الإنجليز أو أخلاقهم إلا بدراسة هذه الأصول . ولقد تبدلت فى أثناء الفترات الخالية من الأحداث ، بين حرب وحرب ، وبين جريمة وجريمة ، أساليب الحرث والزرع والتجارة ، وبعثت الآداب بعثاً جديداً ، وأقيم صرح النظام والقانون على مهل .

وليس فى التاريخ أساس لذلك القول الخداع وهو أن إنجلترا الإنجليزية السكسونية كانت جنة تنعم فيها عشائر الفلاحين الأحرار بالحياة القروية الدمقراطية . ذلك أن زعماء الجيش الإنجليزى السكسونى قد استولوا على الأرض الزراعية ، فلم يحل القرن السابع الميلادى حتى كان عدد قليل من الأسر يمتلك ثلثى تلك الأراضى[٥] ، ولم يحل القرن الحادى عشر حتى كانت معظم البلدان ضمن أملاك الملك الخاصة أو أحد النبلاء أو الأساقفة . وفى أثناء الغزو الدنمرقى نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم فى نظير حمايتهم ، ولم يحل عام ١٠٠٠ بعد الميلاد حتى كان معظمهم يؤدون إيجاراً من محصولهم أو من كدحهم إلى أحد السادة الملاك[٦] . وكانت هناك « اجتماعات للمدينة » و « اجتماعات للشعب » ، « واجتماعات المائة » وهى اجتماعات كانت بمثابة جمعيات أو محاكم للمقاطعة . ولكن لم يكن يسمح بحضورها إلا لملاك الأراضى . وأخذت هذه ال[illegible]

يضعف سلطانها وتقل مرات اجتماعها بعد القرن الثامن ، ويحل محل معظمها محاكم النبلاء فى ضياعهم . وكانت معظم السلطة الحكومية بإنجلترا فى يد الويتناجموت Witenagemot القومى — « مجلس العقلاء » — وهو جمعية صغيرة إلى حد ما تتألف من النبلاء ، والأساقفة ، وكبار وزراء التاج ؛ وبغير موافقة هذا البرلمان الأبله لم يكن ملك إنجليزى يختار أو يبقى على عرشه ، أو يضيف قيراطا إلى مزارعه الخاصة التى كان يستمد منها إيراده المستديم ؛ ولم يكن فى وسعه أن يسن قانونا ، أو يصدر حكما قضائياً ، أو يشن حرباً ، أو يعقد صلحا إلا بموافقته (٧) . وكان أعظم سند للملكية ضد هذه الهيئة الأرستقراطية هو ما كان بينها وبين الكنيسة من حلف غير رسمى . ذلك أن الدولة الإنجليزية قبل الفتح النورمندى وبعده كانت تعتمد على رجال الدين فى كل ما يتصل بالتعليم العام ، والنظام الاجتماعى ، والوحدة القومية ، وبالإدارة السياسية نفسها . وكان القديس دنستان رئيس دير جلاستنبرى Glastonbury كبير مستشارى الملكين إدمند Edmund (٩٤٠ — ٩٤٦) وإدرد Edred (٩٤٦ — ٩٥٥) ، وقد حمى الطبقتين الوسطى والدنيا من النبلاء ، وكان جريئاً فى نقد الملوك والأمراء ، ولذلك نفاه الملك إدوج Edwig (٩٥٥ — ٩٥٩) من البلاد ، ثم أعاده إدجر Edgar (٩٥٩ — ٩٧٥) إليها ، وهو الذى وضع التاج على رأس إدورد الشهيد Edward the Martyr (٩٧٥ — ٩٧٨) ، وشاد كنيسة القديس بطرس فى جلاستنبرى ، وشجع الفنون والتعليم ، وتوفى وهو كبير أساقفة كنتربرى فى عام ٩٨٨ . وكان أهل إنجلترا يجلونه ويعدونه أعظم قديسيهم قبل تومس آبكت Thomas à Becket .

ونشأت الشرائع ببطء فى هذه الحكومة المفككة . وقد وجدت فى القانون الألمانى القديم ، بعد أن عدل لفظه وظروفه ، كفايتها . وبقيت فى هذا القانون عادات تبرئة المتهم بشهادة شهود يقسمون بأنه برىء ، كما بقيت فيه الدية ،

والتحكيم الإلهى ، ولكن عادة المحاكمة بالاقتتال لم تكن معروفة فيه ؛ وكانت الدية فى القانون الإنجيلى (الإنجليزى) تختلف اختلافا له دلالته . فكانت دية الملك ثلاثين ألف ثرمزا Thrimsas (نحو ١٣٫٠٠٠ دولار أمريكى) ، ودية الأسقف ١٥٫٠٠٠ ، ودية النبيل أو رجل الدين ألفين ، ودية الفلاح الحر ٢٦٦ . وكان القانون الإنجليسكسونى يقضى بأن يغرم الإنسان شلناً أو شلنين إذا تسبب فى جرح إنسان جرحا يبلغ طوله بوصة واحدة ، وثلاثين شلناً إذا قطع جزءاً من أذن ؛ على أننا يجب أن نضيف هنا أن الشلن الواحد كان يكفى لابتياع خروف . وكان قانون إثلبرت يعاقب الزانى بأن يؤدى إلى زوج من زنى بها غرامة ويبتاع له زوجة أخرى[٨] . وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودى به « خارجاً على القانون » فتصادر أملاكه لصالح الملك ، ويباح دمه . ولم يكن يسمح بالدية فى بعض الحالات ، وكانت توقع بدلا منها عقوبات صارمة : الاسترقاق ، والجلد ، والإخصاء ، وبتر اليدين أو القدمين ، أو الشفة العليا ، أو جدع الأنف ، أو صلم الأذن ، أو إعدام المذنب بشنقه ، أو قطع رأسه ، أو حرقه ، أو رجمه ، أو إغراقه فى الماء ، أو إلقائه فى هوة سحيقة[٩] .

وكان النظام الاقتصادى شبيها بالقانون فى بدائيته ، وكان أقل تقدماً منه فى بريطانيا الرومانية . وكانت جهود كثيرة قد بذلت فى تقطيع الغابات وتجفيف المناقع ، ولكن إنجلترا كانت لا تزال فى القرن التاسع تشغل نصفها الغابات ، والمروج ، والمناقع ، وكانت الحيوانات البرية — الدببة ، والحلاليف ، والذئاب — لا تزال تجوس خلال الغابات . وكان أكثر من يفلح الضياع هم الأسرى أو الأرقاء . وكان الاسترقاق فى بعض الحالات مآل المدنيين أو المجرمين ؛ وكان فى وسع الأزواج أو الآباء أن يبيعوا أزواجهم أو أبناءهم إذا اضطرتهم الحاجة إلى بيعهم ؛ وكان جميع أبناء الأمة أرقاء ولو كان آباؤهم من الأحرار . وكان فى مقدور السيد أن يقتل عبده متى أراد ، وأن يضاجع أمته ثم يبيعها وهى حامل منه .

ولم يكن من حق العبد أن يرفع قضية إلى محكمة ، وإذا قتله غريب ذهبت ديته القليلة إلى مالكه ، وإذا أبق ثم قبض عليه كان يستطيع جلده حتى يموت[١٠] وكانت أهم تجارة فى برستل Bristol هى تجارة الرقيق . وكان سكان البلاد كلهم إلا القليلين منهم قرويين ، فكانت البلدان كفورا ؛ والمدن بلدنا غير كبيرة[*] فكانت لندن ، وإكستر ، ويورك ، وتشستر ، وبرستل ، وجلوسستر ، وأكسفورد ، ونروج Norwich ، وورستر ، وونشستر كانت هذه كلها بلدانا صغيرة ولكنها نمت نمواً سريعاً بعد زمن ألفرد ، ولما أن جاء الأسقف مليتس فى عام ٦٠١ ليعظ فى لندن لم يجد إلا « عدداً قليلامن السكان الوثنيين »[١١] ، فى البلدة التى كانت إحدى الحواضر فى أيام الرومان ، ثم عادت إلى النماء فى القرن الثامن بفضل مركزها الحربى المشرف على نهر التاميز ، حتى أصبحت فى عهد كنوت عاصمة البلاد القومية .

وكانت الصناعة تعمل عادة للسوق المحلية ؛ غير أن صناعتى النسيج والتطريز كانتا أكثر تقدما من سائر الصناعات ، وكانتا تصدران منتجاتهما إلى بلاد القارة الأوربية . وكانت وسائل النقل صعبة غير آمنة ، والتجارة الأجنبية ضئيلة الشأن . وبقيت الماشية تستعمل أداة للتبادل حتى القرن الثامن ، ولكن بعض الملوك سكوا فى ذلك القرن نقوداً فضية ، منها شلنات ومنها جنيهات ؛ وكانت أربعة شلنات فى إنجلترا فى القرن العاشر تكفى لشراء بقرة وتكفى ستة لشراء ثور[١٢] . وكانت الأجور منخفضة بهذه النسبة نفسها ، وكان الفقراء يسكنون فى أكواخ خشبية ذات سقف من القش ، ويعيشون على الخضر ، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أو حفلات أيام الآحاد . وكان الأغنياء يزينون قصورهم

(*) وقد احتفظت كثير من المدن الإنجليزية بمقاطع أنجليسكسونية فى بدايتها — tun (town) بلدة ، ham (home) وطن ، Wick (house) منزل أو [illegible] ، Thorp (قرية) ، burh ([illegible]) .

الساذجة الخشنة بستائر مصورة ، ويدثون أجسامهم بالفراء ، ويجملون أثوابهم بالتطريز ، ويزينون أنفسهم بالجواهر .

ولم تكن العادات والأخلاق ظريفة متأنقة كما أضحت فى بعض العصور المتأخرة من تاريخ انجلترا ، فنحن نسمع الشىء الكثير عن الخشونة والفظاظة ، والوحشية ، والكذب ، والغدر ، والسرقة وغيرها من العادات المتأصلة ، ويعترف القراصنة النورمان الذين أغاروا على انجلترا فى عام ١٠٦٦ ، ومنهم من لم يكونوا أبناء شرعيين ، بأنهم دهشوا من انحطاط المستوى الخلقى والثقافى عند ضحاياهم . وكان جو انجلترا الرطب يغرى الإنجليز – السكسون بالإفراط فى الطعام والشراب ، وكانت « حفلة الجعة » عندهم من مستلزمات المجتمعات والأعياد . ويصف القديس بنيفاس الإنجليز فى القرن الثامن وصفاً بهيجاً لا يخلو من المغالاة فيقول « إن المسيحيين والوثنيين على السواء يأبون أن تكون لهم زوجات شرعيات ، ولا يزالون يعيشون عيشة الدعارة والزنى كما تعيش الخيل الصاهلة والحمر الناهقة »(١٣) ، وكتب فى عام ٧٥٦ إلى الملك إثلبولد Ethelbald يقول :

« لو أن احتقارك للزواج المشروع كان يهدف إلى الطهارة لكان أمراً محموداً ، أما وأنتم منغمسون فى الترف ، وترتكبون الزنى مع الراهبات أنفسهن ، فإن ذلك الاحتقار أمر مرذول يسربلكم العار . . . ولقد سمعنا أن نبلاء مرسية كلهم تقريباً يحذون حذوكم ، فيهجرون أزواجهم الشرعيات ، ويرتكبون الفحشاء مع الزانيات والراهبات . . . خذوا حذركم من هذا . . . إذا كانت أمة الإنجليز . . . تحتقر الزواج المشروع ، وتسارع إلى الزنى ، فلا بد أن يؤدى هذا الاتصال إلى وجود شعب دنىء يحقر الله ، وستجر الخراب والدمار على البلاد بهذا التهتك وهذه الأخلاق المرذولة » .

وكان من حق الزوج فى القرون الأولى من حكم الإنجليز – السكسون أن يطلق زوجته متى شاء وأن يتزوج غيرها . وقد ندد مجمع هرتفورد Hertford

الديني (٦٧٣) بهذه العادة ، وعمل نفوذ الكنيسة بالتدريج على تثبيت قواعد العلاقة الزوجية ، فارتفعت مكانة النساء ارتفاعاً عظيماً وإن لم يمنع هذا استرقاقهن فى بعض الأحيان . ولم يكن النساء يتلقين إلا القليل من التعليم فى الكتب ، ولكن لم يجدن فى ذلك ما يحول بينهن وبين تأثيرهن فى الرجال واجتذابهم لهن . فكان الملوك يصبرون كثيراً على مغازلة النساء المتشامخات ، ويستشيرون زوجاتهم فى السياسة العامة[١٥] . وقد ظلت إثافلد ابنة ألفرد ، وهى ملكة ونائبة عن الملك ، جيلا من الزمان تحكم مرسية حكماً حازماً صالحا ، أنشأت فيه المدن ، وأحكمت وضع الخطط الحربية ، وانتزعت من الدنمرقيين دربى ، وليستر ، ويورك . ويقول عنها وليم من أهل مالمزبرى إنها عانت مشقة كبيرة حين وضعت أول طفل لها ، فأبت بعد ذلك عناق زوجها ، وقالت إنه لا يليق بابنة ملك أن تستسلم لمتعة وقتية تؤدى بعد حين إلى تلك العواقب المتعبة »[١٦] . وكانت تعيش فى مرسية وقتئذ (حوالى ١٠٤٠) جدجيفا Godgifa زوجة إيرل ليوفريك Earl Leofric . ودارت حول اسمها جديفا Godiva الذى اشتهرت به فيما بعد كثير من القصص الممتعة الجذابة ، وأقيم لها تمثال فى كوفنترى Coventry (*) .

وعانى التعليم ، كما عانى كل شىء سواه ، الأمَرَّين من جراء الفتح الإنجليزى — السكسونى ، ثم أخذ ينهض من كبوته على مهل بعد أن اعتنق الفاتحون الدين المسيحى . فقد افتتح بندكت بسكوب Benedict Biscop مدرسة فى دير ويرزموث Wearsmouth حوالى عام ٦٦٠ ، كان بيد Bede من خريجيها ؛ وأنشأ إجبرت مدرسة ومكتبة فى كنيسة يورك (٧٣٥) ، صارت أهم مركز للتعليم الثانوى فى انجلترا ، وأضحت انجلترا فى النصف الثانى من

(*) وقد ورد فى هذه القصة أن ليوفريك رضى أن يعفى المدينة من ضريبة باهظة إذا خرجت حتى إلى الشوارع راكبة وعارية . والعالم كله يعرف بقية القصة .

القرن الثامن بفضل هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس حاملة لواء التعليم فى أوربا الواقعة شمال جبال الألب .

ويتجلى إخلاص معلمى الأديرة وظرفهم فى شخصية بيد الموقر The Venerable Bede أعظم علماء زمانه (٦٧٣ — ٧٣٥) وقد لخص هو سيرته تلخيصاً متواضعاً فقال :

بيد خادم المسيح ، قس دير الرسولين المباركين ، بطرس وبولس ، القائم فى ويرزموث وچرو . وإذ كنت قد ولدت فى إقليم ذلك الدير فقد أدخلنى أهلى فيه وأنا فى السابعة من عمرى لأربى على يدى رئيسه المبجل بندكت بسكوب ، ولقد قضيت حياتى كلها بعد ذلك الوقت فى هذا الدير ، وبذلت كل ما أستطيع من جهد لدراسة الكتاب المقدس ، والمحافظة على السنن المتبعة وترتيل الأناشيد اليومية فى الكنيسة ؛ وكنت أستمتع على الدوام بتلقى العلم أو بالتدريس أو بالكتابة . . . حتى عينت شماساً فى التاسعة عشرة من عمرى ، ثم أصبحت قساً فى سن الثلاثين . . . وبقيت من هذه السن إلى التاسعة والخمسين عاكفاً على دراسة الكتاب المقدس والأعمال الآتية . . . (17) .

وكلها باللغة اللاتينية ، وتشمل تعليقات على الكتاب المقدس ، ومواعظ ، وثبتا بالحوادث العالمية وتواريخها ، ورسائل فى النحو ، والرياضيات ، والعلوم ، والدين ، وأهم من هذه كلها كتابه فى **التاريخ الكنسى للأمة الإنجليزية** (٧٣١) . ويختلف هذا الكتاب الأخير عن معظم تواريخ الأديرة فى أنه ليس سجلاجافاً للحوادث ، وربما كان فى الجزء الأخير منه مثقلا فوق ما يجب بأخبار المعجزات ، وأن صاحبه على الدوام سريع التصديق لما لا يصح تصديقه ، مدفوعاً إلى هذا بسذاجته البريئة الطاهرة ، شأن العقل الحبيس من سن السابعة ؛ ولكنه رغم هذا كله قصة واضحة خلابة ، تسمو فى أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة

البسيطة ، كما نرى ذلك فى وصفه للفتح الأنجليسكسونى[١٨]. وكان بيد رجلا مفكراً حى الضمير ، يعنى أشد العناية بتواريخ الحوادث ، وهو فى العادة دقيق فيما يورده منها ؛ يعين المراجع التى يعتمد عليها ، ويسعى للحصول على الشواهد من مصادرها الأولى ، ويقتبس مما يستطيع الوصول إليه من الوثائق الصحيحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « است أريد أن يقرأ أبنائى أكذوبة واحدة »[١٩] ، ونرجو أن يكون قصده بأبنائه تلاميذه السمائة الذين علمهم . وقد توفى بعد ست سنين من كتابة سيرته الذاتية السالفة الذكر ، والتى جمع فى سطورها الختامية كل ما حوته تقوى العصور الوسطى من رقة وإيمان :

« وأتوسل إليك يا يسوع الرحيم أن تمن بفضلك على من عطفت عليه فأسقيته من كلمات علمك العذبة بأن يقبل فى يوم من الأيام عليك يا ينبوع الحكمة بأجمعها ويقف على الدوام أمام وجهك » .

ويذكر بيد أن الناس فى زمانه كانوا يتحدثون فى إنجلترا بخمس لغات : الإنجليزية ، والبريطانية (الكلتية) ، والأيرلندية ، والبكتية (الاسكتلندية) ، واللاتينية . فأما الإنجليزية فكانت لغة الإنجليز (Angles) ، ولكنها لم تكن تختلف عن اللغة السكسونية إلا قليلا ، وكان يفهمها الفرنجة ، والنرويجيون ، والدنمرقيون ، فقد كان هؤلاء الأقوام الخمسة يتكلمون لهجات مختلفة من اللغة الألمانية ، وقد نشأت الإنجليزية من اللغة الألمانية نفسها . وكان ثمة أدب أنجليسكسونى جدير بالاعتبار من القرن السابع ، وليس لنا مصدر نعتمد عليه فى تقدير معظمه إلا قطع متفرقة منه لأن جزءه الأكبر قد اندثر بعد أن أدخلت اللاتينية فى إنجلترا الحروف اللاتينية (واستبدلتها بحروف شمالى أوربا التى كانوا يكتبون بها من قبل) ، وبعد أن دمرت الفتوح الدنمرقية كثيراً من دور الكتب ، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الفرنسية . يضاف إلى هذا أن كثيراً من القصائد الأنجليسكسونية كانت قصائد

وثنية ، وكان يتناقلها جيلا بعد جيل شعراء مغنون مستهترون بعض الاستهتار في حياتهم وحديثهم ، وكان يحرم على الرهبان والقساوسة أن يستمعوا إليهم . ومع هذا فأكبر الظن أن راهباً من رهبان القرن الثامن هو الذى كتب أقدم قطعة بقيت لنا من الأدب الأنجليسكسونى — وهى شرح منظوم لسفر التكوين ليس فيه من الإلهام كما فى الأصل وقد وضع بين أبيات القصيدة ترجمة لقصة ألمانية تروى خروج آدم من الجنة . وهنا تسرى فى الشعر الحياة ، ومن أكبر أسبابها أن الشيطان يصوّر فى صورة الثائر المنفعل المتحدى ، ولعل ملتن Milon قد وجد هنا لمحة بنى عليها وصفه للشيطان فى قصيدته . ومن القصائد الأنجليسكسونية ما هو مراث ؛ فقصيدة « الجائل » مثلا تتحدث عن الأيام السعيدة الخالية فى قصور الأشراف ؛ أما الآن وقد مات النبيل « فقد أقفرت هذه الأرض الثابتة كلها » وأصبح « أكثر ما يثير الأشجان أن نتذكر أسباب السعادة »[٢٠] ؛ وليس ثمة تعبير عن هذه الفكرة أجمل من هذا التعبير لا نستثنى من ذلك شعر دانتى نفسه . وأكثر ما تتغنى به هذه القصائد القديمة هو الحرب وهى حين تفعل هذا ممتعة قوية . و« أنشودة واقعة ملدون Maldon » (حوالى ١٠٠٠) لا ترى فى هزيمة الإنجليز شيئاً غير البطولة ؛ والمحارب القديم برهتود Byrhtood ، وهو واقف أمام جسد سيده القتيل « يبث الشجاعة » فى قلوب السكسون حين أحدق العدو بهم بعبارات كعبارات مالورى Malory وتسبقها فى الزمن :

كلما نقصت قوانا زادت أفكارنا صلابة ، وقلوبنا حدة ، وتضاعفت أمزجتنا . وهاهو ذا أميرنا مسجى على الأرض ، لقد قطعوه وأماتوه ! ألا فلتحل الأحزان والأشجان أبد الدهر بالرجل الذى يغادر وطيس القتال ! لقد تقدمت بى السنون ، ولكننى لن أبرح هذا المكان ؛ إنى أريد أن أرقد إلى جانب مولاى ، إلى جانب الرجل الذى أعزه[٢١] .

ونظن أن بيولف Belowulf أطول القصائد الأنجليسكسونية وأنبلها قد ،

أنشئت فى القرن السابع أو الثامن ، واحتفظ بها لنا مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٠٠٠ يوجد الآن فى المتحف البريطانى . ويبدو أن أبياتها البالغ عددها ٣١٨٣ بيتاً هى القصيدة بأكملها . والشعر غير مقفى ولكنه موزون متجانسة أوائل ألفاظه ، مصوغ فى لهجة سكسونيا الغربية لا نستطيع أن نفهمها فى هذه الأيام . والقصة نفسها كأنها عبث الأطفال ، وخلاصتها أن بيولف أمير القيط (القوط ؟) فى جنوبى السويد يعبر البحر ليطلق سراح هرثجار Hrothgar ملك الدنمرقة من التنين جرندل Grendel ؛ وبعد أن يغلب جرندل وأم جرندل نفسها ، يعود بطريق البحر إلى قيطلاند Geatland ويحكمها حكماً عادلا مدة خمسين عاماً . ويظهر وقتئذ تنين ثالث يقذف باللهب ويعيث فساداً فى أرض القيط ، فيهاجمه بيولف ، ويصاب فى هذا الهجوم بجرح مميت ، فيخف صديقه وجلاف Wiglaf إلى معونته ويتعاونان على قتل التنين . ويموت بيولف من أثر جرحه ، وتحرق جثته على كومة الحريق . وليست القصة من السذاجة كما تبدو لنا من روايتنا هذه ؛ فالتنين الذى تتحدث عنه آداب العصور الوسطى يمثل الحيوان البرى الذى يكمن فى الغابات المحيطة بمدن أوربا ، وفى وسعنا أن نعفو عن خيال الناس الذين صور لهم الفزع هذه الوحوش فى تلك الصورة الخرافية ، ولقد نسجوا حولها كثيراً من الأقاصيص يعبرون بها عن شكرهم للرجال الذين تغلبوا على هذه الوحوش حتى أمنت القرى والنجوع شرهم .

وبعض فقرات القصيدة مسيحية الصبغة لا تنسجم مع بقية أجزائها ، كأنما أراد ناشر رحيم من الرهبان أن يحفظ هذه القصيدة الوثنية الرائعة بأن يضع فى أجزاء متفرقة منها سطراً يشعر بالتقى والصلاح . غير أن جو القصيدة وحوادثها جو وثنى خالص وحوادث وثنية خالصة . ولقد كان الحب ، والحياة ، والمعارك الحربية على الأرض هى التى يعنى بها أولئك « النساء الحسان والرجال البواسل » ، ولم يكونوا يعنون بجنة هادئة وراء القبور . ويقول المؤلف فى بداية القصيدة بعد

أن يدفن سلد Scyld الملك الدنمرقى كما يدفن قراصنة الشمال فى قارب يدفع إلى البحر وهو خال من الملاحين : « لا يستطيع الناس أن يقولوا وهم واثقون من الذى تلقى هذا العبء » . غير أن جو القصيدة ليس بالجو الوثنى المرح ، بل تسرى فيها من أولها إلى آخرها روح نكدة ، وأكثر من هذا أن تلك الروح نفسها لا تبرح الحفلة التى أقيمت فى بهو هرنجار . وفى وسعنا أن نلمح فى ثنايا أبيات القصيدة المتدفقة وما فيها من طرب وتحسر أنين العازف على القيثار :

ثم جلس بيولف على مقعد بجوار البئر . . . وأخذ يتحدث عن جرحه ، وعما يحس به من آلام شديدة أشرف من جرائها على الموت ؛ وأدرك أن منيته قد دنت . . . ثم طاف حول كومة الدفن رجال أبطال أقران حرب ، يريدون أن يعبروا عن أحزانهم ، وأن يرثوا الملك ، وأن ينشدوا ويتحدثوا عن الرجل ؛ فأخذوا يشيدون بكل ما أوتوا من قوة ببطولته فى أثناء حياته ، ويمتدحون أعماله الباسلة المجيدة . . ويقولون إنه كان أعظم ملوك العالم رأفة ورحمة ، وأرقهم فى معاملة شعبه ، وأحرصهم على كسب الثناء . . . ومن أجل هذا كان خليقاً بالإنسان أن يثنى على سيده وصديقه . . . وأن يحبه بكل قلبه ، إذا ما حان أجله ، وفارقت روحه جسده ، وغادر هذا العالم .

وأكبر الظن أن بيولف أقدم ما بقى لدينا من القصائد فى أدب بريطانيا ، ولكن كيدمون Coedmon (المتوفى سنة ٦٨٠) هو أقدم الأسماء فى هذا الأدب . ولسنا نعرفه إلا من فقرة طريفة فى كتاب بيد ، فقد جاء فى كتاب التاريخ الكنسى [٢٣] أنه كان فى دير هوتبى Whitby أخ ساذج يجد فى الغناء من الصعوبة ما يحمله على الهرب إلى مكان يختبئ فيه كلما جاء دوره فى الغناء . وخيل إليه ذات ليلة وهو نائم مستقر فى مرقده أن ملكا قد جاءه وقال له : « غن لى شيئاً يا كيدمون ! » فقال الراهب إنه لا يستطيع الغناء ، فأمره الملك أن يغنى ؛ وحاول كيدمون الغناء ، ولشد ما دهش من نجاحه ، ولما استيقظ فى

الصباح تذكر الأغنية ، وأعاد غناءها ؛ ولهذا أخذ يحاول قرض الشعر ونظم سفرى التكوين ، والخروج ، والأناجيل شعرا . « صاغه » كما يقول بيد « بألفاظ عذبة تأخذ بمجامع القلوب » . ولم يبق من هذه الأشعار كلها إلا أبيات قليلة ترجمها بيد إلى اللغة اللاتينية . وبعد عام من ذلك الوقت حاول سينولف Cynewulf (ولد حوالى عام ٧٥٠) وهو شاعر مغن فى بلاط نورثمبرلند أن يخرج هذه الرواية إلى حيز الوجود بأن ينظم عدة قصص دينية مختلفة — « المسيح » و « أندرياس Andreas » و « يوليانا » ، ولكن هذه القصص تبدو ، إذا ما قورنت بقصة بيولف المعاصر لها ، ميتة لا حياة فيها لكثرة ما بها من الصناعة والمحسنات اللفظية .

ويجىء النثر الأدبى فى جميع الآداب بعد الشعر فى الترتيب الزمنى ، لأن العقل ينضج قبل أن تتفتح أزهار الخيال ، مع أن الناس ينطقون بالنثر قروناً « وهم لا يعرفون » قبل أن يتسع لهم وقتهم أو يمكنهم غرورهم من أن يصوغوه فنا من الفنون . وأوضح شخصية فى نثر إنجلترا الأدبى هى شخصية ألفرد ، فتراجمه ومقدماته يضفى عليها الإخلاص والبساطة كثيراً من البلاغة ، وهو الذى بذل من الجهد فى نشر « ملف الأسقف Bishop's Roll » الذى كان محفوظا عند قساوسة كنيسة ونشستر ، فاستحال على يديه أقوى وأوضح أقسام السجل الأنجليسكسونى أول كتاب قيم فى النثر الإنجليزى . وليس ببعيد أن يكون معلمه أسر Asser هو الذى كتب الجزء الأكبر من حياة ألفرد ، أو لعل هذه السيرة قد جمعت فيما بعد (حوالى عام ٩٧٤) ؛ ومهما يكن من شأنها فهى مثل من أقدم الأمثلة على استعداد الإنجليز لاستبدال اللغة الإنجليزية باللغة اللاتينية فى الكتب التاريخية والدينية ، على حين أن « القارة » الأوربية التى كانت لا تزال تستحى من أن تكتب مثل هذه المؤلفات الكريمة باللغة « العامية » .

ولقد وجد الناس بين مشاغل الشعر والحرب من النشاط والوقت ما يمكنهم

من تصوير المعانى ، وتجميل الأشياء ذات النفع المادى . فقد أنشأ ألفرد مدرسة للفن فى أثلنى Alhelney ، واستقدم إليها من جميع الأنحاء رهباناً يحذقون الفنون والصناعات ، « ولم ينقطع فى أثناء حروبه الكثيرة » كما يقول أسر « عن أن يعلّم عماله فى صناعة الذهب وصناعه فى جميع الحرف »[٢٥]. ولم يقنع دنستان Dunstan بأن يكون من رجال الحكم والقديسين ، فأخذ يمارس بجد صناعتى الحديد والذهب ، وكان إلى هذا موسيقيا بارعا ، صنع لكنيسة جلاستنبرى أرغناً ذا مزامير . وقامت فى البلاد الصناعات الفنية الدقيقة فى الخشب ، والمعادن ، والميناء المقسمة ، واشترك قاطعو الجواهر مع الحفارين فى صنع الصلبان المنحوتة والمطعمة بالجواهر فى رثول Ruthwell وبيو كاسل Bewcastle (حوالى عام ٧٠٠) ؛ وصب تمثال من الشبه للملك كدولو Cadwallo (المتوفى سنة ٦٧٧) ممتط صهوة جواد بالقرب من لدجيت Ludgate . وكانت النساء ينسجن أغطية الفراش ، والأقمشة التى تزدان بها الجدران ، والمطرزات ، من الخيوط البالغة غاية الدقة[٢٦] . وزخرف رهبان ونشستر بالرسوم ذات الألوان الزاهية كتاب أدعية فى القرن العاشر . وشادت ونشستر نفسها ويورك كنائس من الحجر منذ عام ٦٣٥ ؛ وجاء بندكت بسكوب بالطراز اللمباردى إلى إنجلترا من الكنيسة التى أقامها فى ويرزموث عام ٦٧٤ ؛ وأعادت كنتربرى فى عام ٩٥٠ بناء الكنيسة التى بقيت فيها من أيام الرومان . وينقل لنا بيد أن كنيسة بندكت بسكوب قد ازدانت بالنقوش المصنوعة فى إيطاليا ، « وأن كل من دخلها ، وإن كان جاهلا لا يعرف شيئاً من العلوم والمعارف ، لا يسعه أينما ولى وجهه إلا أن يتأمل مناظر المسيح وقديسيه التى لا يبلى جمالها . . . وأن يذكر وهو يرى أمام عينيه صورة يوم الحساب أن من واجبه محاسبة نفسه حساباً عسيراً »[٢٧] . وقصارى القول أن القرن السابع قد شهد نهضة فى البناء فى بريطانيا ؛ ذلك أن الأنجليسكسون كانوا قد أتموا فتوحهم ، والدنمرقيون لم يبدءوها ، وأصبح البناءون الذين كانوا من قبل يبنون

بالخشب يجدون لديهم الموارد والعزائم التي تمكنهم من تشييد الأضرحة والمعابد بالحجارة . ولكننا يجب ألا ننكر أن يندكت قد استقدم من غالة البنائين ، وصانعي الزجاج ، وصائغي الذهب ؛ وأن الأسقف ولفرد Wilfrid قد جاء بالمثالين والنقاشين من إيطاليا لزخرفة كنيسته التي شادها في هكسهام Hexham في القرن السابع ؛ وأن إنجيل لندسفارن Lindisfarne (حوالي عام ٧٣٠) ذا الزخرف الجميل كان من عمل رهبان أيرلنديين دفعهم فرط زهدهم أو تحمسهم للتبشير إلى تلك الجزيرة القفرة القريبة من ساحل نورثمبرلاند . وقضى مجيء الدنمرقيين على هذه النهضة القصيرة الأجل ، ولم يواصل فن العمارة الإنجليزية الصعود إلى ما بلغه بعدئذ من العظمة والجلال حتى استقر سلطان الملك كنوت في إنجلترا على أساس مكين .

٣ — بين فتحين ١٠١٦ — ١٠٦٦

لم يكن الملك كنوت فاتحاً وكفى ، بل كان إلى هذا حاكماً قديراً . ولسنا ننكر أنه لوث بداية حكمه بأعمال القسوة : فقد طرد من البلاد أبناء إدمند إيرنسيد Edmund Ironside وأمر بذبح أخي إدمند ليمنع بذلك عودة الملوك الأنجليسكسون إلى العرش . لكنه لما رأى أن أرملة إثلرد وأبناءه لا يزالون أحياء في رون Rouen ، تغلب على كثير من المشاكل بأن خطب إما Emma لنفسه (١٠١٧) . وكانت هي وقتئذ في الثالثة والثلاثين من عمرها ، وقبلت الخطبة وحصل كنوت بضربة واحدة على زوجة ، وحلف مع دوق نورمندية أخي إما ، وعلى عرش مكين أمين . وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وبركة . فقد كبح جماح الأعيان المشاكسين الذين حطموا روح إنجلترا وفرقوا وحدتها ، ووقى البلاد شر الغزاة في المستقبل ، ووهبها اثني عشر عاماً من السلم غير المنقطعة . واعتنق الملك الدين المسيحي ، وشاد كثيراً من الكنائس ، وأقام نصباً تذكارياً

فى أسندون Assandun إحياء لذكرى الأنجليسكسون والدنمرقيين الذين حاربوا فى ذلك المكان ، وحج بنفسه إلى قبر إدمند ، ووعد بأن يتبع قوانين انجلترا وأنظمتها القائمة فيها ، ووفى بوعده فيما عدا حالتين اثنتين : فقد أصر على أن تكون حكومة المقاطعات التى أفسدها الأعيان الأنوقراطيون تحت سيطرة عملائه هو ، واستبدل بكبير الأساقفة وزيراً من غير رجال الدين ليكون كبير مستشارى التاج ، وأنشأ طائفة من العمال الإداريين والموظفين المدنيين كان لهم الفضل فى جعل حكومة البلاد ثابتة مستمرة ؛ وكان عماله كلهم تقريباً ، بعد سنى حكمه الأولى المزعزعة ، من الإنجليز. وقد جمع بين تاجى الدنمرقة وانجلترا ، ثم أصبح فى عام ١٠٢٨ ملكاً على النرويج ، ولكنه كان يحكم مملكته الثلاثية من مدينة ونشستر .

وكان الغزو الدنمرقى حلقة فى سلسلة الغزوات الأجنبية الطويلة وفى الامتزاج العنصرى اللذين انتهيا بالفتح النورمندى وأنتجا آخر الأمر الشعب الإنجليزى . فقد امتزجت دماء الكلت والغاليين ، والإنجليز والسكسون والجوت ، والدنمرقيين والنورمان ، بالزواج أو بغيره من الوسائل ، فخلقت من البريطانيين أهل البلاد فى زمن الرومان ، وهم الذين ليست لهم ميزة ولا قدرة على الابتكار ، خلقت منهم قراصنة عهد الملكة إلزبث الصخابين ، وفاتحى العالم الصامتين فى القرون التالية . ولقد جاء الدنمرقيون إلى انجلترا ، كما جاء إليها الألمان وأهل الشمال ، بحب للبحر يكاد يبلغ درجة الوجد والهيام ، واستعداد لقبول دعوة البحر الغادرة إلى المغامرة والاتجار فى أقاصى البلاد . أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الدنمرقيين كارثة على البلاد ، وقف فى أثنائها فن البناء فلم يخط خطوة إلى الأمام ، واضمحل فن زخرفة الكتب فيما بين عامى ٧٥٠ ، ٩٥٠ ؛ كما وقفت النهضة العلمية والأدبية التى شجعها ألفرد ، وفعلت غزوات الشماليين ما فعلته فى غالة نفسها فأخذت تقضى على أعمال شارلمان المجيدة .

ولو أن أجل كنوت طال لأمكنه أن يصلح الأضرار التى أنزلها مواطنوه بالبلاد ، ولكن شئون الحرب والحكم تبلى الناس سراعاً ، فلما مات كنوت عام ١٠٣٥ ولما يتجاوز سن الأربعين ؛ وخلعت النرويج نير الدنمرقيين على الفور ، واضطر هارثكنوت Harthacnut بن كنوت الذى عينه قبل موته ولياً لعهده أن يكرس كل جهوده لحماية الدنمرقة من غزو النرويجيين ؛ وحكم ابن آخر من أبنائه يدعى هرلد هيرفوت Herald Harefoot إنجلترا خمس سنين ؛ ثم مات ؛ وحكمها هارثكنوت عامين توفى بعدها سنة ١٠٤٢ ؛ واستدعى من نورمنديا قبل وفاته ابن إثرل وإما الباقى على قيد الحياة ، واعترف بهذا الأخ الأنجليسكسونى غير الشقيق وارثاً لعرش انجلترا .

ولكن إدورد المعترف Edward the Confessor (١٠٤٢ — ١٠٦٦) كان غريباً عن البلاد بقدر ما كان أى دنمرقى آخر غريباً عنها . فقد نقله أبوه إلى نورمندية وهو فى العاشرة من عمره ، وقضى ثلاثين عاماً فى بلاط النورمنديين ، وتربى على أيدى أعيانهم وقساوستهم ونشأوه على التقى والصراحة . وجاء الملك الجد إلى انجلترا بلغته وعاداته الفرنسية وأصدقائه الفرنسيين ، وأصبح هؤلاء الأصدقاء من كبار موظفى الدولة ورؤسائها الدينيين ، وتلقوا هبات ملكية ، وشادوا فى انجلترا قصوراً نورمندية منيعة ، ولم يخفوا ازدراءهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية ، وبدءوا الفتح النورمندى قبل وليم الفاتح بجيل من الزمان .

ولم يكن يستطيع أن ينافسهم فى التأثير فى الملك الرقيق المطواع إلا رجل واحد هو إيرل جدون Earl Godwin حاكم وسكس ومستشار الدولة الأول فى عهد كنوت وهرلد وهارثكنوت . وكان إيرل جدون واسع الثراء حكيماً ، داهية فى الديبلوماسية صبوراً عليها ، فصيح اللسان ، قوى الحجة ، بارعاً فى الأعمال الإدارية ؛ فكان بذلك أول الساسة العظام من غير رجال الدين فى التاريخ

الإنجليزى . وقد رفعت تجاربه فى شئون الحكم منزلته فوق منزلة الملك نفسه . وأضحت ابنته إديث Edith زوجة إدورد ، ولولا أن إدورد لم يكن له خلف لكان من المحتمل أن يصبح جدون جد ملك من الملوك . ولما أن تزوج تستج Tostig ابن جدون يوديث Judith ابنة كونت فلاندرز ، وأصبح سوين Soweyn ملكا على الدنمرقة أنشأ إيرل جدون بهذه الصلات الزوجية حلفاً ثلاثيا جعله أقوى رجل فى أوربا الشمالية كلها لا تستثنى من ذلك التعميم مليكه نفسه . لكن أصدقاء إدورد النورمنديين أثاروا فى نفسه عوامل الغيرة ، فعزل جدون ، وفرّ الإيرل إلى فلاندرز ، كما خرج ابنه هرولد Harold إلى أيرلندة وحشد فيها جيشا ليقاتل به إدورد المعترف (١٠٥١) . ولم يكن أعيان الإنجليز راضين عن سيادة النورمنديين عليهم ، فطلبوا إلى جدون أن يعود ، ووعدوه بتأييد جنودهم له . وغزا هرولد إنجلترا ، وهزم جيوش الملك ، ونهب ساحل إنجلترا الجنوبى الغربى وعاث فى أرضه فساداً ، ثم انضم إلى والده وزحفا معاً إلى أعالى نهر التامز ، وثار الشعب فى لندن على حكامه واستقبل الغزاة بالترحاب ، وفرّ الموظفون ورجال الدين النورمنديون ، واجتمع وتنأجمور (مجلس) من أعيان الإنجليز وأساقفتهم ، واستقبل جدون استقبال الظافرين ، واسترد جدون سلطانه السياسى وما صودر من أملاكه (١٠٥٢) ، ولكنه مات بعد عام واحد بعد أن أنهكه الاضطراب والنصر .

وعيّن هرولد إيرل وسكس ، وخلف أباه فى بعض ما كان له من سلطان . وكان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، طويل القامة ، بهى الطلعة ، قوىّ البنية ، شهماً ، مقداماً جريئاً ، قاسياً فى الحرب ، كريماً فى السلم ، شن حملة جريئة خاطفة على ويلز انتهت بضمها إلى إنجلترا ، وقدم رأس جروفيد Gruffydd زعيم ويلز هدية إلى الملك المسرور المروع (١٠٦٣) . وفى فترة هادئة من حياته العاصفة جاد بالمال الكثير لبناء كنيسة ولتام Waltham (١٠٦٠) ، وإعانة

الكلية التى نشأت من مدرسة هذه الكنيسة ، واتجهت أنظار إنجلترا كلها إلى هذا الشاب الذى لا يفترق فى شىء عن أبطال الروايات .

وأهم ما حدث فى عهد إدورد من الناحية المعمارية هو الشروع فى بناء دير وستمنستر (١٠٥٥) : وكان الملك قد ألِفَ الطراز المعمارى النورمندى أثناء حياته فى رُوَن Rouen ، فلما أن أمر ببناء الدير الذى أصبح فيما بعد مزاراً مقدساً ومقبرة لعباقرة إنجلترا ، أمر أو أجاز أن يقام على الطراز النورمندى الرومانسى على نسق كنيسة الدير العظيمة التى بدىء فى تشييدها قبل ذلك الوقت بخمس سنين لا أكثر فى چومييچ Jumièges ، وكان هذا أيضاً فتحاً نورمنديا قبل أيام وليم . وكان بناء دير وستمنستر إيذانا ببداية نهضة معمارية أوجدت فى إنجترا أجمل المبانى الرومانسية فى أوربا بأجمعها .

وفى مقبرة وستمنستر دفن إدورد فى بداية سنة ١٠٦٦ ذات الأحداث الجسام . واجتمع الويتناجمور فى السادس من يناير واختار هرولد ملكا على إنجلترا . وما كاد التاج يوضع على رأسه حتى جاءت الأخبار بأن وليم دوق نورمندية يطالب بالعرش ويستعد للحرب . وكانت حجة وليم أن إدورد قد وعده فى عام ١٠٥١ أن يوصى له بتاج إنجلترا جزاء له على إيوائه وحمايته فى نورمندية ثلاثين عاما . ويخيل إلينا أن هذا الوعد قد بذل حقاً[٢٨] ؛ ولكن إدورد إما أن يكون قد نسيه ، وإما أنه ندم على ما بذله ، فأوصى قبل وفاته بقليل أن يخلفه هرولد على عرش إنجلترا . وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذا الوعد لم تكن له قيمة إلا إذا أقره الويتان Witan ؛ ولكن هرولد — كما يقول وليم — قد قبل منه مرتبة الفروسية أثناء زيارة له فى رون (فى تاريخ لا نعرفه الآن) ، فأصبح بذلك « رجل » وليم يدين له بالطاعة حسب قانون الإقطاع ، وأنه وعد بأن يعترف به وارثاً لعرش إدورد ويؤيده فى المطالبة به . واعترف هرولد بهذا الوعد[٢٩] ولكن قسَمه أيا كان لم يكن من شأنه فى هذه المرة أيضاً أن يقيد الأمة الإنجليزية بشىء .

فاختاره ممثلو تلك الأمة بكامل حريتهم ملكاً عليهم ، واعتزم هرولد أن يدافع عن ذلك الاختيار . ولجأ وليم إلى البابا ، وحكم الكسندر الثانى بناء على مشورة هلدبراند Hildebrand بأن هرولد مغتصب ، وحرمه هو ومناصريه من الكنيسة المسيحية ، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعى فى عرش إنجلترا ، وبارك غزوة وليم المرتقبة ، وبعث إليه بعلم مدشن وخاتم يحتوى على شعرة من رأس القديس بطرس فى داخل ماسة[٣٠] . وقد سرّ هلدبراند أن يجعل هذه الحادثة سابقة لتصرف البابوات فى عروش الملوك وفى خلعهم ، وطبق هذه السابقة بالفعل بعد عشر سنين من ذلك الوقت على هنرى الرابع ملك ألمانيا ، ولم تكن ثمة صعوبة فى استخدامها مع الملك چون عام ١٢١٣ . وانضم لانفرانك رئيس دير بك إلى وليم فى دعوة أهل نورمندية — أو على الأصح أهل جميع الأقطار — لشن حرب مقدسة على الملك المحروم .

ولاقى هرولد فى كهولته الخبرة جزاء ما ارتكبه فى شبابه من آثام . ذلك أن أخاه تستج الذى نفاه الويتان من زمن بعيد لم يستدعه هرولد من منفاه بعد أن آل الأمر إليه ، ولهذا انضم تستج إلى وليم ، وحشد جيشاً فى شمال البلاد ، وأقنع هارلد هاردرادا Harald Hardrada ملك النرويج بأن ينضم إليه ، ووعده فى نظير ذلك بعرش إنجلترا . وبينا كانت عمارة وليم البحرية المؤلفة من ١٤٠٠ سفينة تقلع من نورمندية إذ أغار تستج وهاردرادا على نورثمبرلند . واستسلمت لهما مدينة يورك ، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على إنجلترا ، وأسرع إليه هرولد بمن معه من الجند وهزم الغزاة من الشمال عند جسر استامفورد Stamford Bridge (فى ٢٥ سبتمبر) ، وقتل فى هذه الواقعة تستج وهاردرادا ، ثم اتجه هرولد نحو الجنوب ومعه قوة قليلة يعجز لقلتها عن الوقوف فى وجه جيش وليم ، وأشار عليه جميع ناصحيه بالتريث . ولكن وليم كان يحرق إنجلترا الجنوبية ويخربها تخريباً ، وكان هرولد يحس بأن من واجبه أن يحمى الأرض التى خربها هو من قبل والتى أصبح

يخبها اليوم . والتقى الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب من هيستنجس Hastings (١٤ اكتوبر) ونشبت بينهما معركة دامت تسع ساعات . واخترق أحد السهام عين هرولد فأعماه الدم ، ووقع على الأرض ، ومزق فرسان النورمنديين جسمه تمزيقاً ؛ فقطع أحدهم رأسه ، وآخر ساقه ، ونثر ثالث أحشاء هرولد فى ميدان القتال . ولما رأى الإنجليز قائدهم يخر صريعاً ولوا الأدبار ؛ وأعقبت هذه الهزيمة مذبحة وفوضى بلغ من هولهما أن الرهبان الذين كلفوا فيما بعد بالبحث عن جثة هرولد لم يعثروا عليها إلا بعد أن جاءوا إلى الميدان بإديث سوانزنك Edith Swansneck التى كانت عشيقته ، فتبينت جثة عشيقها المبتورة الأطراف ، ودفنت قطعها فى كنيسة ولتام التى بناها فى حياته . ثم توج وليم الأول ملكاً على إنجلترا فى يوم عيد الميلاد من عام ١٠٦٦ .

الفصل الثانى

ويلز ٥٢٥ — ١٠٦٦

فتح فرنتينس Frontinus وأجركولا Agricola بلاد ويلز وضماها إلى رومة فى عام ٧٨ م . ولما انسحب الرومان من بريطانيا استردت ويلز حريتها ، وخضعت على كره منها لحكم ملوكها . واحتل غربى ويلز مستعمرون أيرلنديون فى القرن الخامس ، ثم جاء إليها فيما بعد آلاف من البريطانيين فارين من الأنجليسكسون الذين فتحوا جزيرتهم . ووقف زحف الأنجليسكسون أمام الحواجز القائمة عند حدود ويلز وأطلقوا على الشعب الذى لم يخضعوه اسم ويلهاس Wealhas — « الأجانب » . ووجد الأيرلنديون والبريطانيون فى ويلز سلالة كلتية من جنسهم ، وسرعان ما امتزجت الطوائف الثلاثة وأضحت سمرو Cymru « أبناء وطن واحد » . وصار هذا هو اسمهم كما صار لفظ سمرو Cymru اسم بلادهم . وكان هؤلاء الأقوام يقيمون نظامهم الاجتماعى كله على أساس الأسرة والعشيرة شأنهم فى هذا شأن معظم الشعوب الكلتية — البريطانيين ، والكورنيين Cornish (سكان كورنوول الحالية) ، والأيرلنديين ، والجيليين Gaels سكان شمالى إسكتلندة ، وقد بلغ من حرصهم على هذا النظام أن أصبحوا يأنفون وجود دولة تضمهم ، ويرتابون أشد الارتياب فى كل شخص أو شعب يجرى فى عروقه الدم الأجنبى . ولم يكن سخاؤهم وإكرامهم للضيف أقل قوة من نزعتهم القبلية ، كما لم تكن شجاعتهم تقل عن عدم خضوعهم للنظام ، ولا حياتهم الشاقة وجو بلادهم القارس يقلان عن حبهم للموسيقى والغناء والوفاء للأصدقاء ، ولا فقرهم عن عاطفتهم القوية وخيالهم الواسع اللذين جعلا من كل فتاة أميرة ومن نصف الرجال ملوكا .

ولم يكن يعلو على منزلة الشعراء المنشدين إلا الملوك أنفسهم . ولم يكن هؤلاء

الشعراء هم عرافى شعبهم ومؤرخيه ومستشارى ملوكه فحسب ، بل كانوا إلى ذلك شعراءه . وقد خلد الزمان اسمى اثنين من هؤلاء الشعراء هما تليزن Talesin وأنورين Aneurin ؛ وقد عاش كلاهما فى القرن السادس الميلادى . وكان هناك مئات غيرهما ، وعبرت القصص التى نسجوا بردها القناة الإنجليزية إلى بريطانى ، ووصلت فى صورة مصقولة إلى فرنسا . وكون هؤلاء المنشدون طبقة من الشعراء الدينيين ، لم يكن يسمح لأحد أن ينتمى إليها إلا بعد مران صارم دقيق فى معارفه . وكان كل من يريد الدخول فى زمرتهم يسمى ما بينوج Mabinog ، وكانت الموضــوعات التى يدرسها تسمى ما بينوجى Mobinogi ، ولهذا أطلق اسم ما بيتوجيون Mabinogion على ما بقى من قصصهم[٣١] . ولا ترجع هذه القصص فى صورتها الحالية إلى ما قبل القرن الرابع عشر ، ولكن أغلب الظن أنها ترجع إلى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه المسيحية قد دخلت بلاد ويلز . وهى قصص بدائية ساذجة ذات نزعة وثنيه تشهد بأن الأهلين كانوا من عباد الطبيعة ، مليئة بالحيوانات الغريبة والحادثات المدهشة ، يسودها جو نكد من النفى ، والهزيمة ، والموت ؛ ولكنها ذات مزاج رقيق بعيد كل البعد عن الشهوانية والعنف اللذين نشهدهما فى قصص الإدا Eddas الأيسلندية Icelandic ، والساجا Sagas خرافات أهل الشمال ، والنيبيلنجنليد Nibelungelied . وقد نشأ فى عزلة جبال ويلز أدب خيالى يفيض بالولاء للأمة ، والإخلاص فيما بعد لعيسى ومريم . وكان لهذا الأدب شأن فى نشأة الفروسية ، والقصص العجيبة التى تتحدث عن الملك آرثر Arthur وفرسانه العشاق البواسل الذين أقسموا أن « يقضوا على الوثنيين ويقيموا دين المسيح » .

ودخلت المسيحية ويلز فى القرن السادس ، وما لبثت بعد دخولها أن افتتحت المدارس فى الأديرة والكنائس . وقد جاء الأسقف العالم أسر الذى كان أمين سر الملك ألفرد وكاتب سيرته من مدينة سانت داقد وكنيسته فى مقاطعة بمبروك

Pembrokeshire . وتحملت هذه المزارات والمستقرات المسيحية الهجات الأولى للقراصنة النورمنديين حتى طردهم الملك رودرى الأكبر Rhodri (٨٤٤ — ٨٧٨) وأنشأ فى الجزيرة أسرة ملكية قوية . ووحّد الملك هيول لصالح Hywel The Good (٩١٠ — ٩٥٠) ويلز كلها ووضع لها قانوناً موحداً منظماً . ولاقى جرفيد آب ليولين Grulfydd ab Llywelyn (١٣٠٩— ١٠٦٣) من النجاح أكثر مما كان يجب أن يلقاه ؛ فلما أن هزم مرسية Mercia أقرب المقاطعات الإنجليزية إلى ويلز ، أعلن عليه هرولد ، الذى أصبح فيما بعد ملكاً على إنجلترا ، حرباً دفاعية لصد عدوانه ، وفتح بلاد ويلز ، وضمها إلى بريطانيا (١٠٦٣) .

الفصل الثالث

الحضارة الأيرلندية ٤٦١ — ١٠٦٦

كانت أيرلندة في الفترة الواقعة بين موت القديس باترك والقرن الحادى عشر مقسمة إلى سبع ممالك ، منها ثلاث في ألستر Ulster ، أما الباقية فهى كنوت Connought ، ولينستر Leinster ، ومنستر Munster ؛ وميث Meath . وكانت هذه الممالك تحارب بعضها بعضاً في أغلب الأوقات لأنها لم تستطع الانتقال إلى آفاق من الحياة أوسع من آفاقها الضيقة ؛ ولكننا نسمع من بداية القرن الثالث الميلادى عن غارات يشنها الأيرلنديون على السواحل البريطانية الغربية ، وعن محلات أيرلندية في هذه السواحل . ويسمى الإخباريون هؤلاء المغيرين بالاسكتلنديين Scots — ويبدو أن هذا اللفظ لفظ أيرلندى معناه الجوالون ؛ وإذا ذكر هذا اللفظ متصلا بهذه الفترة من الزمن فمعناه الأيرلنديون . ولم تنقطع الحروب في أثنائها ؛ وظلت النساء حتى عام ٥٩٠ يُطلبن إلى الاشتراك في القتال ، والرهبان والقساوسة يدعون إليه إلى جانب غيرهم ممن هم أكثر اعتياداً له ، وكان ثمة قانون يماثل في جوهره قوانين « البرابرة » الذين يسكنون القارة الأوربية ، ويشرف على تنفيذ البريهون Brehons — وهم قضاة من رجال القانون مدربون أحسن تدريب ، كانوا منذ القرن الرابع يعلمون في مدارس الحقوق ويؤلفون رسائل قانونية باللغة الجيلية Gaelic[٣٣] .

ونجت أيرلندة كما نجت اسكتلندة من الفتوح الرومانية ، ولهذا فإنها لم تتح لها نعمة الاستمتاع بالقانون الرومانى وبالحكومة المنظمة ، فلم يفلح قانونها يوما من الأيام في استبدال الأحكام القضائية بعادات الثأر والانتقام ، أو التأديب بالانفعال . وظلت الحكومة قائمة على الأساس القبلى ، ولم تفلح قط في

تحقيق الوحدة القومية أو النظرة القومية الشاملة .

وكانت الأسرة هي الوحدة التي يقوم عليها المجتمع وشئونه الاقتصادية ، ويتألف من عدة أسر بطن ، ومن عدة بطون عمارة ، ومن عدة عمائر قبيلة . وكان المفروض أن جميع أفراد القبيلة أبناء رجل واحد ، وأخذت كثير من الأسر تضيف اسم القبيلة التي تنتمي إليها Ul أو O' (حفيد) للدلالة على نسبها ، فأسرة أونيل مثلا تقول إنها تنسب إلى نيال جلندبه Mial Glundubh ملك أيرلندة في عام ٩١٦ . واتخذت أسر أخرى لنفسها اسم أبيها ولم تضف إليه إلا لفظ ماك Mac أي ابن . وكانت معظم الأراضي في القرن السابع ملكاً مشتركاً للبطون أو العمائر(٣٤) ، وكانت الأملاك الفردية الخاصة مقصورة على الأدوات والبضائع المنزلية(٣٥) ؛ ولكن الملكية الفردية انتشرت في البلاد قبل أن يحل القرن العاشر الميلادي ، وسرعان ما نشأت طبقة أرستقراطية صغيرة العدد يمتلك أفرادها ضياعاً واسعة ، كما نشأ عدد لا حصر له من الزراع الأحرار ، وطبقة صغيرة من مستأجري الأرض ، وطبقة أخرى من العبيد أصغر عدداً من أولئك المستأجرين(٣٦) . وظل الأيرلنديون في القرون الثلاثة التي أعقبت دخول المسيحية في البلاد (٤٦١ — ٥٧٠) متأخرين عن الإنجليز من الناحيتين المادية والسياسية ، أما من الناحية الثقافية فقد كانوا في أغلب الظن أرقى جميع الشعوب التي تسكن في شمال جبال البرانس والألب .

ويرجع هذا الاختلاف العجيب بين الناحيتين المادية والسياسية من جهة والناحية الثقافية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة : تدفق العلماء الغاليين والبريطانيين الفارين من الغارات الألمانية في القرن الخامس ، وازدياد الصلات التجارية بالبريطانيين والغاليين ، ونجاة أيرلندة قبل القرن التاسع من الهجمات الأجنبية . وقد افتتح فيها الرهبان ، والقساوسة ، والراهبات مدارس كثيرة مختلفة الأنواع والدرجات ؛ منها مدرسة في كلونارد Clonard أنشئت في

عام ٥٢٠ كانت تضم ٣٠٠٠ طالب (إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المشايعين لوطنهم[٣٧]) ، ومدارس أخرى فى كلنماكنويس Clonmacnois (٥٤٤) ، وكلنفرت Clonfert (٥٥٠) ، وبنجور Bangor (٥٦٠) . وكان عدد غير قليل من هذه المدارس يعد للطلاب مناهج تستمر اثنى عشر عاماً تؤدى إلى درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، وتشمل دراسات للكتاب المقدس ، وأصول الدين ، والآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، ونحو اللغة الجيلية وآدابها ، وعلوم الرياضة والهيئة ، والتاريخ والموسيقى ، والطب والقانون[٣٨]. وكان ينفق على فقراء الطلبة ممن لا يستطيع آباؤهم أن يعولوهم من الأموال العامة ، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لخدمة الدين ، ولهذا لم يكن الأيرلنديون يضنون بأى بذل فى سبيل إعداد الطلاب لهذه المهنة . وظلت هذه المدارس تدرس اللغة اليونانية بعد أن كاد العلم بهذه اللغة يختفى من أوربا الغربية بزمن طويل . وقد درس ألكوين فى مدرسة كلنماكنويس ، وفى أيرلندة تعلم جون اسكوتس إرجينا John Scotus Erigena اللسان اليونانى الذى جعله موضع إعجاب شارل الأصلع فى فرنسا .

وكان مزاج هذا العصر وآدابه يساعدان على نشأة الأقاصيص والروايات الغرامية ، لكن بعض العقول كانت تتجه إلى العلوم الطبيعية فى أماكن متفرقة من البلاد ، نذكر من أصحاب هذه العقول دنجال Dungal العالم الفلكى ، وفرجيل Fergil العالم فى الهندسة النظرية الذى علم قومه أن الأرض كروية ، ودكويل Dicuil العالم الجغرافى الذى أعلن كشف أيسلندة على أيدى الرهبان الأيرلنديين فى عام ٧٩٥ ؛ والذى أوضح شدة الضوء فى منتصف ليالى الصيف الأيرلندى بقوله إن فى وسع الإنسان أن يجد وقتئذ من الضوء ما يمكنه من تنقية البراغيث من قميصه[٣٩] . وكان النحويون كثيرى العدد ، ويكفى سبباً لهذه الكثرة أن علم العروض فى أيرلندة كان فى ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه فى أى مكان آخر . كذلك كان الشعراء كثيرين ، وكانت لهم فى المجتمع منزلة عالية ،

بو كانوا فى العادة يجمعون إلى قرض الشعر وكتابة التواريخ وظائف التدريس والمحاماة ويجتمعون فى مدارس للشعر حول شاعر نابه ، ولهذا ورثوا كثيراً مما كان للكهنة الدرويد Druid قبل دخول المسيحية فى البلاد من سلطات وامتيازات خاصة . وظلت مدارس الشعراء هذه مزدهرة من القرن السادس إلى القرن السابع عشر دون انقطاع ، وكانت تعتمد فى العادة على ما تهيئه لها الكنيسة أو الدولة من أرضين(٤٠) . وازدان القرن العاشر بأربعة شعراء قوميين مشهورين : فلان ماك لونين Flann Mac Lonain ، وكنث Kenneth ، وأهارتجان O'Hartigan ، وإيوكيد أفلين Eochaid 'Flainn ، وماك لياج Mac Liag الذى اتخذه الملك بريان بورو Brain Boru شاعر بلاطه .

واتخذت قصص أيرلندة فى ذلك العصر صورة أدبية ، وكان جزء كبير من مادة هذه القصص متداولا قبل أيام پتريك ، ولكن الناس كانوا يتناقلونها شفويا ثم صيغت وقتئذ قالب من النثر الموزون ، والشعر الغنائى ، وما من شك فى أن شعراء ذلك العصر هم الذين وضعوها فى قالبها الأدبى ، وإن لم تصل إلينا مخطوطة إلا بعد القرن الحادى عشر . ومن هذه القصص طائفة متصلة الحلقات تخلد ذكرى آباء الشعب الأيرلندى الأسطوريين . فمنها طائفة « فِنيّة » Fenian أو « أسيانية » Ossianic تقص فى شعر حماسى مثير مغامرات البطل الخرافى فن ماك — كهيل Finn Mac Cumhail وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو الفنيين Finians . وتعزو الروايات المتداولة معظم هذه القصائد إلى أسيان Ossian بن فن Finn ، الذى عاش ، كما تقول الروايات ، ثلثمائة عام ومات أيام القديس پتريك ، بعد أن وهب القديس قسطا من عقله الوثنى . وتدور طائفة حماسية من القصص حول كوشولين Cuchulain الملك الأيرلندى ، الذى نشهده فى مائة منظر داعر من مغامرات الحرب والحب . وأجمل قصة فى هذه المجموعة تروى قصة ديردر Deirdre ابنة فليم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor

ومضمونها أن قسا درويدياً يتنبأ لها ساعة مولدها بأنها ستسبب كثيراً من النكبات لبلادها الصغير ؛ ويرفع الشعب عقيرته قائلا : « فلتذبح » ، ولكن الملك كونور يحميها من غضب الشعب ، ويربيها ، ويعتزم الزواج بها . وتزداد الفتاة جمالا على مر الأيام ، ثم تبصر ذات صباح الفتى ناأويز Naoise الوسيم يلعب الكرة مع غيره من الشبان ، وتلتقط الفتاة كرة ألقيت خطأ وتعيدها إليه ، و « ضغط على يدى وهو مبتهج » . وتؤثر هذه الحادثة في عواطفها الناضجة فترجو خادمتها الخاصة قائلة : « أى مربيتى الرقيقة ، إذا كنت تحبين لى الحياة ، فاحملى منى رسالة إليه ، وقولى له أن يأتى ليتحدث إلىّ سرًّا فى هذه الليلة » . ويقبل ناأويز ويغترف من حبها حتى يسكر ، ثم يأتى إليها هو وأخواه إينل Ainnle وأردان Ardan فى الليلة الثانية وينقلانها برضاها بطريق البحر إلى اسكتلندة . ويقع أحد ملوك اسكتلندة أسير هواها ، فيخفيها الإخوة الثلاثة فى شعاب الجبال ، ثم يبعث الملك كونور بعد حين رسالة يقول فيها إنه يعفو عنهم جميعاً إذا عادوا إلى إيرين Erin . ويوافق ناأويز على طلب الملك مندفعاً إلى ذلك بحنينه إلى وطنه ومسارح صباه ، وإن كانت ديردر تحذره عاقبة هذه العودة وتنذره بأن الملك سيغدر به . وما كادوا يصلون إلى أيرلندة حتى هاجمهم جنود كونور ؛ ويقاتل الإخوة قتال الأبطال ، ولكنهم يخرون جميعاً صرعى ، ويطير لُب ديردر من شدة الحزن ، فتلقى بنفسها على الأرض وتمتص دماء حبيبها ، وتنشد هذه الأغنية الحزينة :

بينا كان أعيان البا Alba (اسكتلندة) ذات يوم يقصفون
ويمرحون

إذ طبع ناأويز فى السر قُبلة

على وجنة ابنة لورد دنترون Duntrone ،

ثم بعث إليها بظبية وثابة ،

ظبية من ظباء الغاب وتحت قدمها خشف ،
ثم أقبل عليها زائراً
وهو عائد من جيش إنفرنس Inverness ،
فلما سمعت هذا ، اكتوى قلبي بنار الغيرة ،
ودفعت زورقي الصغير فوق الموج
ولم أبال هل قدّر لي أن أحيا أو أموت .
ونزلا إلى الماء في إثري
إينل وأردان ، اللذان لم ينطقا قط بغير الحق ،
وجاءا بي مرة أخرى إلى البر ،
وهما فتيان يغلبان مائة من الأبطال ،
وقطع لي نآويز عهداً صادقاً
وأقسم بسلاحه ثلاث أيمان مغلظة
ألا يمسّ وجهي مرة أخرى
حتى يذهب من عندي إلى جيش الموتى
يا ويلها ، لو أنها سمعت في هذه الليلة
أن نآويز مسجى في التراب
إذن لزرفت الدمع مدرارا
ولبكيت معها سبع مرات .

وتختتم أقدم صيغة من صيغ قصة « ديردر ذات الأشجان » بخاتمة قوية في سذاجتها : « وكانت بالقرب منها صخرة كبيرة ، وضربت برأسها الحجر فتحطمت جمجمتها ولاقت حتفها »[٤١] .

وكان الشعر والموسيقى وثيق الصلة في أيرلندة ، شأنهما في غيرها من البلاد في حياة العصور الوسطى . فكانت الفتيات يغنين وهن ينسجن أو يغزلن

أو يحلبن الأبقار ؛ وكان الرجال يغنون وهم يفلحون الأرض أو يسيرون إلى ميدان القتال ؛ والمبشرون يعزفون على القيثارة ليجمعوا حولهم مستمعيهم ؛ وكانت أحب الآلات الموسيقية هي القيثارة ، وكانت تتألف عادة من ستين وتراً ، يعزف عليها بالأنامل ، وكانت التمپان timpan كماناً ذات سبعة أوتار تضرب بالريشة أو القوس ؛ وكانت آلات موسيقى القرب تعلق فى الكتف وتنفخ بالفم ؛ ووصف چيرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٨٥) العازفين الأيرلنديين على القيثارة بأنهم أحسن من سمع من العازفين ، وهو إطراء عظيم القيمة لصدوره من ويلز المحبة للموسيقى .

وليس أجمل ما أثمره الفن الأيرلندى فى ذلك العصر كأس آرداغ Ardagh الذائعة الصيت (حوالى عام ١٠٠٠) التى اجتمعت فيها ٣٥٤ قطعة من الفضة ، والذهب ، والكهرمان ، والبلور ، والميناء المقسمة ، والزجاج ؛ بل إن أجمل منها « كتاب كلز Book of Kells وهو يحتوى الأناجيل الأربعة مخطوطة فى القرن التاسع على الرق بأيدى رهبان أيرلنديين فى بلدة كلز من أعمال ميث Meath أو فى جزيرة أيونا Iona ، وهو الآن من أعظم ما تمتلكه كلية ترنتى Trinity College بدبلن . وجاء طراز تزيين الكتب البيزنطى والإسلامى إلى أيرلندة عن طريق الاتصال البطىء بين الرهبان بعضهم ببعض مخترقين الحدود ، وبلغ فيها درجة الكمال فى فترة قصيرة من الوقت . ولم يكن لصور الإنسان والحيوان فى تزيين الكتب بأيرلندة إلا شأن ضئيل ، مثله فى هذا كمثل هذا الفن عند المسلمين ، فقد كانوا يرون أن إنساناً أو حيواناً مهما بلغ لا يساوى نصف الحرف الأول . وكانت الروح السارية فى هذا الفن هى أن يؤخذ حرف من الحروف أو شكل زخرفى واحد ، ويمد فوق أرضيه زرقاء أو ذهبية اللون بشكل فكه مبهج حتى يكاد يغطى الصفحة بتمامها فى نسيج متشابك أشبه بالمتاهة . وليس فى المخطوطات المسيحية المزخرفة ما يفوق كتاب كلز هذا ، ويصفه

جرلد Girld من كتاب ويلز — وهو الذى لا ينفك يظهر غيرته من أيرلندة — بأنه من عمل الملائكة المتخفين فى أثواب البشر[٤٢] .

وإذ كان هذا العصر الذهبي فى أيرلندة نتيجة لسلامتها من الغزوات الألمانية التى أرجعت سائر أوربا مئات السنين إلى الوراء ، فقد قضت عليه غزوات الشماليين التى قضت فى فرنسا وانجلترا خلال القرنين التاسع والعاشر على كل ما أحرزه هذان البلدان بفضل ما بذله شارلمان وألفرد من جهود جبارة . ولعله قد ترامى إلى أهل النرويج والدنمرقة — وكانوا لا يزالون وثنيين — أن الأديرة الأيرلندية غنية بالذهب ، والفضة ، والحلى ، وأن انقسام البلاد السياسى يجعلها عاجزة عن مقاومة أعدائها متحدة . وحدثت غزوة تجريبية فى عام ٧٩٥ ولكنها لم تسبب للبلاد خسارة تذكر ، غير أنها أيدت ما كان يشاع عن عدم مقدرة هذه الفريسة على صد الغزاة ؛ ثم أعقبتها غزوات أخرى أكبر منها فى عام ٨٢٣ نهب فيها الغزاة كورك Cork وكلوين Cloyne ، وخربوا ديرى بنجور Bangor وموفيل Moville وذبحوا رجال الدين . ولم تكد تخلو سنة واحدة بعد ذلك العام الأخير من غزوة أو غزوات ؛ استطاعت جيوش صغيرة باسلة أن تصد فيها الغزاة فى بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة وينهبون الأديرة أينما حلوا . واستقرت جماعات من الغزاة الشماليين قرب شاطئ البحر ، وأنشأوا مدائن دبلن ، ولمرك Limerick ، ووترفورد Waterford وفرضوا الجزية على نصف الجزيرة الشمالى . واتخذ مليكهم ثورجست Thorgest أرماغ Armagh مدينة القديس پتريك عاصمة لملكه الوثنى ، وتوّج زوجه الوثنيـــة على مذبح كنيسة القديس كيران St. Kieran فى كلونماكنيوس[٤٣] . وحارب ملوك أيرلندة متفرقين غزاة بلادهم ، ولكنهم كانوا فى الوقت عينه يحارب بعضهم بعضاً . وقد قبض ملاخى Melachi ميث على ثورجست وأماته غرقاً (٨٤٥) ، ولكن أولاف الأبيض Olof the White أحد الأمراء النرويجيين أسس فى عام ٨٥١

مملكة دبلن التى ظلت تابعة لأهل الشمال حتى القرن الثانى عشر . وقضت هذه الغزوات المتتابعة على عصر العلم والشعر ، وأحلت محله عصر الحروب الطاحنة ، وكان الجنود المسيحيون والوثنيون فى خلاله ينهبون الأديرة ويحرقونها ، ويتلفون المخطوطات القديمة ويشتتون ما تجمع من التحف الفنية خلال القرون الطوال ، « ولم يمارس شاعر ، أو فيلسوف ، أو موسيقى فنه المعتاد فى تلك البلاد » كما يقول مؤرخ أيرلندى قديم[٤٤] .

وظلت الحال كذلك حتى ظهر آخر الأمر رجل كان له من القوة ما أمكنه أن يجمع شتات هذه الممالك ويؤلف منها أمة موحدة . كان بريان بورمها أو بورو Brian Borumha or Boru (٩٤١ — ١٠٩٤) أخاً لماهون ملك منستر King Mahon of Munster ، وزعيم عمارة دجاس D:lgas . وحارب الأخوان جيشاً دنمرقياً بالقرب من تبريرى Tipperary (٩٦٨) ومزقاه شر ممزق ، ولم يرحما فلوله المنهزمة ؛ ثم استوليا على لمرك ، وقتلا كل من عثرا عليه فيها من الشماليين . ولكن اثنين من صغار الملوك — ماوى ملك دزمند Molloy of Desmond ودوناڤان ملك هاى كاربيرى Donavan of Hy Carbery — خشيا أن يستولى الأخوان الزاحفان على مملكتيهما فعقدا حلفاً مع المهاجرين الدنمرقيين ، واختطفا ماهون وقتلاه (٩٧٦) . وأوقع بريان ، وقد أصبح الآن ملكاً ، هزيمة ثانية بالدنمرقيين ، وقتل ملوى . وصمم على توحيد أيرلندة كلها ، ولم يتردد فى اتباع أية وسيلة توصله إلى هذه الغاية ، فتحالف مع الدنمرقيين مالكى دبلن ، وهزم بمعونتهم ملك ميث ، ونودى به ملكاً على أيرلندة كلها (١٠١٣) . ولما استمتع بالسلم بعد حروب دامت أربعين عاماً ، أخذ يعيد بناء الكنائس والأديرة ، ويصلح الجسور والطرق ، وينشئ المدارس والكليات ، ويقر النظام ويقضى على الجرائم . ولقد وصف الخلف ذوو الخيال الواسع ما ساد البلاد من أمن بفضل هذه « السلم الملكية » قصة كثيراً ما نراها فى غير هذه المناسبة ،

فقالوا إنه كان فى مقدور الفتاة المثقلة بالحلى والجواهر أن تطوف فى أنحاء البلاد بمفردها دون أن يتعرض لها أى أحد بأذى . وحشد أهل الشمال بأيرلندة فى هذه الأثناء جيشاً آخر ، زحفوا به على الملك الطاعن فى السن ، والتقى بهم الملك الإيرلندى عند كلنتارف Clontarf القريبة من دبلن فى يوم الجمعة الحزينة فى الثالث والعشرين من إبريل عام ١٠١٤ وهزمهم ، ولكن ابنه مروغ Murrogh قتل فى أثناء المعركة ثم ذبح بريان نفسه فى خيمته .

وحلّت السلم — وهى الترف الذى لا يستمتع به إلا المحظوظون — فى البلاد المنكوبة إلى حين ، وانتعشت الفنون والآداب من جديد فى القرن الحادى عشر ، وظهر فى خلاله كتاب لينستر the Book of Leinster وكتاب الترانيم وهما لا يكادان يقلان فى جمال زخرفهما عن كتاب كلز نفسه . وكان للمؤرخين والعلماء شأن كبير فى مدارس الأديرة ، غير أن الروح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد ، فقد عادت الأمة فانقسمت إلى ممالك متعادية ، وأنهكت قواها فى الحروب الداخلية ، ورأت حفنة من المغامرين من أهل ويلز وإنجلترا فى عام ١١٧٢ أن من السهل عليها أن تفتح « جزيرة الدكاترة والقديسين » — وإن لم تجد من السهل عليها أن تحكمها .

الفصل الرابع

اسكتلندة ٣٢٥ – ١٠٦٦

هاجرت فى أواخر القرن الخامس قبيلة من الاسكتى Scotti الجبليين من شمالى أيرلندة إلى الجزء الجنوبى الغربى من اسكتلندة ، وأطلقوا اسمهم على جزء من شبه الجزيرة ذى المناظر الجميلة الخلابة الواقع فى شمال نهر التويد Tweed ثم على شبه الجزيرة كلها . وأخذت ثلاث قبائل أخرى تنازعها على امتلاك « كالدونية Caledonia » القديمة هذه : البكت Picts وهى قبيلة كلتية استقرت فوق خليج فورث The Firth of Forth ، والبريطانيون وهم الذين فروا أمام غزاة بريطانيا الأنجليسكسون واستقروا بين نهر درونت Derwent وخليج كليد Firth of Clyde ، والآنجلز Angles أو الإنجليز الضاربون بين نهر تين Tyne وخليج فورث . ومن هؤلاء كلهم تألفت الأمة الأسكتلندية : وهى أمة إنجليزية فى لغتها ، مسيحية فى دينها ، نارية فى مزاجها كالأيرلنديين ، عملية كالإنجليز ، ماكرة ، قوية الخيال ككل كلتى » .

وكان الاسكتلنديون كالأيرلنديين يستنكفون أن يتخلوا عن نظامهم القائم على صلة القربى ، ولا يرغبون فى أن يستبدلوا الدولة بالقبيلة . ولم يكن يضارع النزاع بين الطبقات فى شدته إلا ولاؤهم للقبيلة ، وفخرهم بولائهم لها ، وشدة مقاومتهم لأعدائهم الأجانب . وعجزت رومة عن فتح بلادهم ، بل إن سور هدريان الذى أقيم بين سلواى Solway والتين (١٢٠ م) ، وسور انطونينس بيوس Antoninus Pius ، الذى يبعد ستين ميلا نحو الشمال بين خليجى فورث وكليد (١٤٠) ، وحروب سبتميوس سفيرس Septimius Severus (٢٠٨) أوثيودوسيوس Theodosius (٣٦٨) ، بل إن هذه كلها لم تجد نفعاً فى القضاء

على الغزوات المتكررة التى كان يشنها البكت الجياع من حين إلى حين على البريطانيين . وفى عام ٦١٧ استولى السكسون بقيادة إدون ملك نورثمبريا على معقل البكت الجبلى الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج Ed (w) inburgh (إدنبره) ؛ وفى عام ٨٤٤ ضم كنث ماك ألبين Kenneth Mac-Alpin البكت والاسكتلنديين تحت سلطانه ؛ وفى ٩٥٤ استردت القبائل إدنبره ، واتخذتها عاصمة لها ؛ وفى ١٠١٨ استولى ملكولم الثانى على لوثيان Lothian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد) ، وضمها إلى مملكة البكت والاسكتلنديين . وبدا أن الكلت قد ضمنوا لأنفسهم السيادة على البلاد ؛ ولكن غزو الدنمرقيين لإنجلترا دفع آلافاً من « الإنجليز » إلى جنوبى اسكتلندة ، وتدفق بذلك عنصر أنجليسكسونى قوى إلى دماء الأسكتلنديين .

وجمع دنكان الأول Duncan I (١٠٣٤ — ١٠٤٠) هذه الشعوب الأربعة كلها — البكت ، والاسكت Scotts ، والكلت البريطانيين ، والأنجليسكسون — وكون منها مملكة واحدة هى مملكة اسكتلندة . ولما هزم الإنجليز دنكان عند درهام Durham مهدت هذه الهزيمة السبيل للقائد مكبث Macbeth ، فطالب لنفسه بعرش البلاد لأن زوجته جروتش Gruoch كانت حفيدة كنث الثالث . واغتال مكبث دنكان (١٠٤٠) ، وحكم البلاد سبعة عشر عاماً قتله بعدها ملكولم الثالث ابن دنكان . واغتيل من الملوك السبعة عشر الذين حكموا اسكتلندة بين عامى ٨٤٤ و ١٠٥٧ اثنا عشر لأن ذلك العصر كان مليئاً بأعمال العنف والنزاع المرير طلباً للغذاء والماء ، والحرية والسلطان . ولم تجد اسكتلندة فى تلك السنين المليئة بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه ترف الحضارة ونعمها ؛ فقد اغتصب المغيرون الشماليون جزائر أوركنى Orkney ؛ وفارو Faroes ، وشتلندة Shetlnd ، وهبريده Hebrides ؛ وقضت إنجلترا حياتها كلها مهددة بغارات قراصنة الشمال (الفيكنج Vikings) الشداد الذين كانوا يبسطون سلطانهم وينشرون بنى جنسهم فى أنحاء العالم الغربى

الفصل الخامس

أهل الشمال The Northmen : ٨٠٠ — ١٠٦٦

١ — قصص الملوك The Kings' Saga

يلوح أن أهل الشمال كانوا من التيوتون الذين انتقل أسلافهم إلى بلاد السويد والنرويج بعد أن اخترقوا الدنمرقة وعبروا مضيق أسكجراك Skaggerak وكتجات Kattegat ، وحلوا فى البلدين محل الكلت الذين حلوا من قبل محل شعب شبيه باللاپلانديين والإسكيمو(٤٥) . وأطلق زعيم قديم يدعى دان مكلاتى Dan Mikillati اسمه على الدنمرقة — ومعناها منقع دان أو ولايته ؛ وتركت قبيلة اسويونس Suiones ، إحدى القبائل القديمة التى وصفها تاستس Tacitus بأنها كانت تسيطر على شبه الجزيرة العظيمة ، تركت هذه القبيلة اسمها فى اسم بلاد السويد Sweden (اسفريج Sverige) ، وفى اسم كثير من الملوك الذين يسمون اسوين Sweyn ؛ وليس معنى لفظ النرويج (نورج Norge) إلا الطريق الشمالى . وأصبح لفظ اسكانى Scané وهو الاسم الذى أطلقه پلنى Pliny الأكبر على بلاد السويد اسكانديا Scandia فى اللغة اللاتينية ، ونشأ منه لفظ إسكنديناوه Scandinavia الذى يشمل الآن ثلاث أمم وثيقة الصلة فى دمائها ذات لغات يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً . وزادت خصوبة النساء أو زاد خيال الرجال فى الأقطار الثلاثة على خصوبة التربة ، فعمد الشبان أو غير الراضين عن مصيرهم إلى زوارقهم ، وأخذوا يحومون حول السواحل يطلبون الطعام ، أو العبيد ، أو الأزواج ، أو الذهب ، ولم يكونوا لجوعهم يرعون قانوناً أو حدوداً للأقاليم ؛ فاجتاح أهل

النرويج اسكتلندة ، وأيرلندة ، وأيسلندة وجرينلندة ؛ وأهل السويد الروسيا ؛ والدنمرقيون إنجلترا وفرنسا .

ولا يسعنا لقصر أجل الحياة البشرية أن نذكر فى هذه العجالة آلهة تلك البلاد وملوكها بالتفصيل ؛ وحسبنا أن نقول هنا إن جورم Gorm (٨٦٠ — ٩٣٥) وهب دنمرقة وحدتها ؛ وإن ابنه هارلد بلوتوث (صاحب السن الزرقاء) Harald Bluetooth (٩٤٥ —٩٨٥) جعل المسيحية دينها ؛ وإن سوين فورك بيرد ذا اللحية المتشعبة Sweyn Forkbeard (٩٨٥ — ١٠١٤) فتح إنجلترا ورفع دنمرقة مدى جيل من الزمان إلى منزلة من دول أوربا الكبرى . وجعل الملك أولاف اسكتكوننج Olaf Skotkonung (٩٩٤ — ١٠٢٢) المسيحية دين السويد ، ومدينة أبسالا Uppsala عاصمة ملكه . وكانت بلاد النرويج فى عام ٨٠٠ مؤلفة من إحدى وثلاثين إمارة ، تفصلها بعضها عن بعض الجبال ، والأنهار ، والخلجان الطويلة الضيقة العميقة (الفيوردات) ، ويحكم كلا منها زعيم من المحاربين ، وظلت كذلك حتى عام ٨٥٠ حين زحف هلفدان الأسود Halfdan the Black أحد هؤلاء الزعماء من عاصمته ترندهيم Trondheim وأخضع لحكمه معظم الزعماء الآخرين ، وصار أول ملوك النرويج . وخرج على ولده هارلد هارفاجر Harald Haarfager (٨٦٠ — ٩٣٣) الزعماء المتمردون ، ورفضت جيدا Gyda التى خطبها لنفسه الزواج به إلا بعد أن يفتح جميع بلاد النرويج ، وأقسم ألا يقص شعره أو يمشطه حتى يتم هذا الفتح ، وأتمه بالفعل فى عشر سنين ، وتزوج بعدها بجيدا وبتسع نساء غيرها . ثم قص شعره وسمى باسمه المميز له — « صاحب الشعر الأشقر »[٤٦] . وحكم هاكون الصالح Haakon the Good (٩٣٥ — ٩٦١) أحد أبنائه الكثيرين بلاد النرويج حكماً صالحاً دام سبعاً وعشرين سنة ، قال فيها أحد قراصنة البلاد إن «السلم طالت حتى أصبحت أخشى أن توافينى منيتى فى شيخوختى وأنا على فراشى فى عقر دارى »[٤٧] .

وحكم هاكون آخر - الإيرل الأكبر The Great Earl النرويج حكماً حازماً دام ثلاثين عاما (٩٦٥ - ٩٩٥) ؛ ولكنه أغضب الزراع الأحرار فى شيخوخته باتخاذه بناتهم محظيات له ثم إعادتهن بعد أسبوع أو أسبوعين ، فاستقدم أولئك الزاع الأحرار أولاف ترجفسون Olfat Tryggvesson ونادوا به ملكاً عليهم .

وكان أولاف بن ترجف حفيد أحد أبناء هارالد ذا الشعر الأشقر ؛ وكان « رجلاً شديد المرح والمجون » - كما يقول سنورى الأيسلندى Snori of Iceland - طروباً ، أنيساً ، محباً للاجتماع بالناس ، جواداً كريماً ، متأنقاً فى لباسه . . . بديناً ، قويا ، أجمل الناس خلقاً وأعظم براعة فى الرياضة البدنية من كل من سمعنا به من أهل الشمال »[٤٨]. وكان فى مقدوره أن يتنقل على المجاذيف خارج سفينته والرجال يجدفون ؛ ويلعب بثلاثة خناجر حادة الأطراف ، ويقذف بحربتين فى وقت واحد ، و « يستطيع أن يحسن القطع بكلتا يديه بدرجة واحدة »[٤٩] . وكان كثير المنازعات والمغامرات ؛ وقد اعتنق المسيحيـة وهو فى الجزائر البريطانية ، وأصبح أعظم دعاتها قسوة ؛ فلما جلس على عرش النرويج (٩٩٥) هدم المعابد الوثنية ، وشاد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد مقاومة ، وأصروا على أن يقرّب أولاف القربان إلى ثور Thor كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقرب إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم ؛ فلم يكن منهم إزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحى . ولما استمسك واحد منهم يدعى راند Rand بدينه الوثنى ، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعباناً فى حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وجنبه ، وقضى على حياته[٥٠] . وخطب أولاف لنفسه سجريد Sigrid ملكة السويد ، فوافقت على الخطبة ، ولكنها أبت أن تتخلى عن دينها الوثنى ، فما

كان من أولاف إلا أن ضربها بقفازه فى وجهها وقال لها : « وما الذى يرغمنى على أن أتخذك زوجة وأنت عجوز شمطاء ، سليطة كافرة ؟ » . فردت عليه سجفريد بقولها : « سيكون فعلك هذا سبباً فى موتك يوماً من الأيام » . وبعد سنتين من هذه الحادثة شن ملكا السويد والدنمرقة ، وإيرل إرك النرويجي Eric Earl of Norway الحرب على أولاف ، وهزماه فى معركة حربية حامية الوطيس بالقرب من روجن Rügen ، وألقى أولاف وهو بكامل عدته وسلاحه إلى اليم ، ولم يظهر له أى أثر بعد (١٠٠٠) ، وقسمت بلاد النرويج على أثر ذلك بين الحليفين المنتصرين .

وأعاد أولاف آخر يدعى القديس بلاد النرويج إلى وحدتها (١٠١٦) ، كما أعاد النظام ، وعدل فى قضائه ، وأتم تحويل البلاد إلى الدين المسيحى . ويصفه اسنورى Sonri بقوله إنه « كان رجلا صالحاً دمث الأخلاق إلى حد بعيد ، لا يتكلم إلا قليلا ، سخياً ، ولكنه شره فى جمع المال » مدمن بعض الإدمان على الاستمتاع بالسرارى[٥١] . ومن أعماله أنه قطع لسان أحد الزراع الأحرار لأنه فضل الوثنية على المسيحية ، وسمل عينى زارع آخر[٥٢]. وائتمر الزراع به مع كنوت ملك الدنمرقة وإنجلترا ، فسيرا عليه خمسين سفينة وطردا أولاف من النرويج (١٠٢٨) ، ولكن أولاف عاد إليها بجيش ، وحارب لاسترجاع عرشه عند استكل ساند Sticklesand ، فهزم ومات متأثراً بجراحه (١٠٣٠) . وشاد من جاء بعده من النرويجيين كنيسة فى موضع المعركة تخليداً لذكره ، واتخذوه القديس الشفيع للنرويج . واسترد ابنه ماجنس الصالح Magnus the Good (١٠٣٥ — ١٠٤٧) مملكته ، ووهبها قوانين عادلة وحكماً صالحاً . وحكم حفيـــده هارلد الصارم Harald the Stern (١٠٤٧ — ١٠٦٦) حكماً عادلا خالياً من الرحمة دام حتى استولى وليم النورمندى على إنجلترا .

وحدث فى عام ٨٦٠ أن أعاد جماعة من الشماليين قدموا من النرويج

أو الدنمرقة كشف جزيرة أيسلندة ، ولم يسؤهم كثيراً أن يجدوها شديدة الشبه ببلادهم فى ضبابها وفيوردآتها . وهاجرت جماعات من النرويجيين إلى الجزيرة فى عام ٨٧٤ فراراً مما كانوا يعانونه من استبداد هارلد هارفاجر ، ولم يحل عام ٩٣٤ حتى بلغ سكانها من الكثرة درجة لم تزد عليها فى جميع تاريخها حتى الحرب العالمية الثانية . وكان لكل ولاية من ولاياتها الأربع ثنجها thing أو جمعيتها ، ثم أنشئ فى عام ٩٣٠ ثنجها العام أو برلمانها الموحد . وكان من أقدم الهيئات فى تاريخ الحكم النيابى ، وبفضله كانت أيسلندة فى ذلك الوقت هى الجمهورية الوحيدة الكاملة الحرية فى العالم كله . ولكن ذلك العنفوان وتلك النزعة الاستقلالية اللذين كانا سبباً فى الهجرة إلى الجزيرة ، وقيام هذا المجلس النيابى فيها ، أضعفا من سلطان الحكومة العامة والقوانين المشتركة ، فكان من أثر ذلك أن أصبح الأفراد الأقوياء الذين ثبتت أقدامهم فى ضياعهم الواسعة أصحاب الأمر والنهى فى أراضيهم ، وما لبثوا أن جددوا فى أيسلندة المنازعات التى جعلت بلاد النرويج شوكة فى جانب ملوكها . وجعل الثنج العام (Allthing) المسيحية الدين الرسمى للبلاد فى عام ١٠٠٠ ؛ ولكن الملك أولاف القديس ساءه أشد الاستياء ما سمعه من أن أهل أيسلندة لا يزالون يأكلون لحم الخيل ويئدون أطفالهم . ولعل طول ليالى الشتاء وشدة بردها كانا السبب فى نشأة أدب قوامه أساطير وأقاصيص لعلها تفوق من حيث الكم والكيف مثيلاتها من القصص والأساطير التى تروى فى أرض الشماليين .

وبعد ستة عشر عاماً من إعادة كشف أيسلندة شاهد أحد ربابنة السفن النرويجيين ويدعى جنبچورن ألفسون Gunnbjorn Ulfsson سواحل جرينلندة وأنشأ فيها ثورولد Thorwald وولده إرك الأحمر مستعمرة نرويجية عام ٩٨٥ . ثم كشف بچرن هرچلفسن Bjerne Herjulfsson لبرادور Labrador فى عام ٩٨٦ ، وفى عام ١٠٠٠ نزل ليف Leif بن إرك الأحمر إلى القارة الأمريكية .

ولسنا نعرف أكان الموضع الذى نزل فيه هو لبرادور ، أم نيوفوندلند Newfoundland ، أم رأس كد Cod ؛ وقضى ليف إركسن Lief Ericsson الشتاء فى « ڤنلند Vinland » (أرض الخمر) ثم عاد بعدئذ إلى جرينلندة ؛ وفى عام ١٠٠٢ قضى أخوه ثوروولد هو وثلاثون رجلا عاماً كاملا فى ڤنلندة . وتروى حاشية لا يتأخر تاريخها عن عام ١٣٩٥ فى « قصة أولاف ترجفسون » التى كتبها اسنرى استرلوسون Snorri Sturluson (١١٧٩ — ١٢٤١) قصة خمس حملات مختلفة شنها أهل الشمال على قارة أمريكا بين عامى ٩٨٥ و ١٠١١ . وقد جاء كرستفر كولمبس Christopher Columbous ، كما يقول هو نفسه ، إلى أيسلندة ، ودرس ما يتردد على لسان أهلها من أقوال عن الدنيا الجديدة[٥٣] .

٣ — الحضارة الڤيكنجية (حضارة القراصنة الشماليين)[*]

كان النظام الاجتماعى يقوم بين أهل الشمال ، كما يقوم بين سائر الشعوب القديمة ، على التأديب العائلى ، والتعاون الاقتصادى ، والإيمان الدينى . وقد جاء فى فقرة من بيولف أن « لا شىء يقضى على وشائج القربى عند صاحب البصيرة »[٥٤] . وكان غير المرغوب فيهم من الأطفال يعرضون للموت ، ولكن الطفل إذا ما قبله أبواه تلقى على يديهم مزيجاً من التأديب والحب : ولم يكن عندهم أسماء أسر ، بل كان كل ولد يكتفى بأن يضيف إلى اسمه اسم أبيه : أولاف هرالدسون ، ماجنس أولافسون ، هاكون ماجنسون . وكان أهل اسكنديناوة

(*) لفظ ڤيكنج مشتق من لفظ ڤيك فى لغة أهل الشمال الأقدمين ومعناه شرم أو ڤيورد . ويظهر لفظ ڤيك بهذا المعنى نفسه فى نارڤيك Narvik ، وشلزويج Schleswig ، وريكجاڤيك Reykjavik ، وبرويك Barwick ، وويكلو Wicklow وغيرها . ومعنى لفظ ڤيكنجر Vikingr أحد الذين أغاروا على البلاد الملاصقة للڤيوردات ، وستعنى « الحضارة الڤيكنجية » فى هذا الفصل ثقافة الشعوب الأسكنديناوية فى « عصر الڤيكنج » بين عامى ٧٠٠ و ١١٠٠ من التاريخ الميلادى .

قبل دخول المسيحية إلى البلاد بزمن طويل ، إذا أرادوا أن يسموا طفلا صبوا عليه ماء رمزاً لدخوله فى حظيرة الأسرة .

وكان التعليم عندهم ذا صبغة عملية : فكانت البنات يتعلمن الفنون فى المنزل ، وكان منها عصر الجعة ؛ أما الأولاد فكانوا يتعلمون السباحة ، والمشى على مزالق الجليد ، وأشغال الخشب والمعادن ، والمصارعة ، والتجذيف ، والانزلاق ، ولعبة الكرة والصولجان hockey (والاسم مشتق من الكلمة الدنمرقية hock ومعناها الخطاف) ، والقنص ، والرمى بالأقواس والسهام ، والضرب بالسيوف ، والطعن بالحراب ، وكان القفز من ضروب الرياضة المحببة ، وكان فى وسع بعض النرويجيين أن يقفزوا بكامل سلاحهم ودروعهم إلى أعلى من طول قامتهم ، وأن يسبحوا فى الماء عدة أميال ؛ ومنهم من كان يسبق أسرع جواد(٥٥) . وكان كثيرون من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ، وبعضهم يتعلمون الطب أو القوانين . وكان الذكور والنساء على السواء مولعين بالغناء ، ومن هؤلاء وأولئك من كانوا يعزفون على الآلات الموسيقية وهى عادة القيثارة . ونقرأ فى إلدر أدا Elder Adda أن الملك جنار Gunnar كان يستطيع العزف على القيثارة بأصابع قدميه ، ويستطيع بها أن يسحر الأفاعى .

وظل أغنياؤهم متعددى الزوجات حتى القرن الثالث عشر ، وكان الآباء هم الذين يرتبون شئون الزواج ، وكثيراً ما كان ذلك عن طريق الشراء ؛ غير أن أحرار النساء كن يستطعن إلغاء هذا الترتيب(٥٦) ، فإذا تزوجت الفتاة بغير إرادة والديها عد زوجها خارجاً على القانون ، وأباح القانون لأهلها أن يقتلوها . وكان فى وسع الرجل أن يطلق زوجته متى شاء ، فإذا لم يستطع أن يبرر الطلاق بأسباب قوية كان فى مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه . وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلق أحدهما الآخر إذا ما لبس الرجل ثياب النساء أو لبست المرأة ثياب الرجل — كأن تلبس المرأة سراويل قصيرة ، أو يلبس الرجل قميصاً مفتوحاً عند صدره . وكان

من حق الرجل أن يقتل دون أن يلقى عقاباً — أى دون أن يثير خصاماً دموياً — أى رجل يضبطه فى علاقة غير شريفة بزوجته[٥٧] . وكان النساء يكدحن ولكنهن بقى لديهن من الأناقة ما يكفى لأن يقتل الرجال بعضهم بعضاً من أجلهن ، وكان الرجال ذوو السلطان فى الحياة العامة أذلاء كما هى العادة فى بيوتهن : ويمكن القول بوجه عام إن مكانة المرأة فى اسكنديناوة الوثنية كانت أعلى منها فى اسكنديناوة المسيحية[٥٨] . فلم تكن فيها أم الخطيئة بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل ، وكان لها حق الثلث — وحق النصف بعد عشرين عاماً من زواجها — فى كل ما يكسبه زوجها من مال ؛ وكان يستشيرها فى أعماله المالية ، وكانت تختلط فى بيتها مع الرجال بكامل حريتها .

وكان العمل مما يشرف صاحبه ، وكان لجميع الطبقات منه نصيب : وكان صيد السمك من الصناعات الكبرى ، وصيد الحيوان من ضرورات الحياة لا من أسباب متعتها . ألا فليتصور القارئ ما استلزمه من كدح وقوة إرادة تقطيع غابات السويد وتذليل تربة منحدرات تلال النرويج المتجمدة وفلحها ؛ وليست حقول القمح فى منسوتا Minnesota إلا وليدة التربة الأمريكية ذللها صبر النرويجيين . وكانت الضياع الكبيرة قليلة العدد ، حتى لقد فاقت اسكنديناوة غيرها من البلاد فى كثرة عـــدد ملاكها من الزراع الأحرار . وكان هناك نوع من التأمين غير المكتوب يقلل من وقع الكوارث على أولئك الزراع : فإذا حرق بيت زارع عاونه جيرانه على بنائه من جديد ، وإذا نفقت مواشيه بسبب المرض من « فعل الله » منحوه ما يعادل نصف ما خسره . وكان كل شمالى تقريباً ذا حرفة ، وكان بارعاً بنوع خاص فى النجارة ، غير أن الرجل الشمالى كان متأخراً فى استخدام الحديد الذى لم يدخل بلادهم إلا فى القرن الثامن ، فلما دخلها صنعوا منه أنواعاً مختلفة من العدد ، والأسلحة ، والزخارف ، صنعوها قوية جميلة من البرنز ، والفضة ، والذهب[٥٩] ، وكثيراً ما كانت الدروع والسيوف المزخرفة

الجميلة النقش ، والأقراط ، والدبابيس ، والسروج جميلة يتباهون بها . وكان بناءو السفن الشماليون يبنون الزوارق والسفن الحربية ؛ ولم تكن هذه أكبر من سفن الأقدمين ، ولكن يبدو أنها كانت أصلب منها ، فكانت مستوية القاع لتزيدها ثباتاً ، محددة فى جؤجؤها لتدمر سفن العدو ؛ وكان غاطسها يتراوح بين أربع أقدام وست ، وطولها بين ستين قدماً ومائة وثمانين ، يدفعها الشراع حيناً والمجاذيف فى معظم الأحيان — ويبلغ عددها فى الجانب الواحد من جانبيها عشرة مجاذيف أو ستة عشر ، أو ستين مجدافاً . وهذه السفن الساذجة هى التى حملت الرواد ، والتجار ، والقراصنة ، والمحاربين من أهل الشمال فى أنهار الروسيا منحدرة فيها إلى بحر الخزر والبحر الأسود ، وعبرت بهم المحيط الأطلنطى إلى أيسلندة ولبرادور .

وكان الفيكنج يقسمون أنفسهم طبقات : الجارل Jarl والإيرل ، وطبقة البندى bondi أو الملاك الفلاحين ، وطبقة العبيد ؛ وكانوا يلقنون أبناءهم فى صراحة (كما يفعل الحراس فى جمهورية أفلاطون) أن انتماء كل إنسان إلى طبقته أمر قررته الآلهة لا يجرؤ على تبديله إلا غير المؤمنين[٦٠] . وكان الملوك يختارون ممن يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، وولاة الأقاليم من طبقة الجارل . وهذا القبول الصريح للملكية والأرستقراطية ، وهما من المستلزمات الطبيعية للحرب والزراعة ، كان يسير معه جنباً إلى جنب نظام دمقراطى عجيب يجعل من ملاك الأراضى مشترعين وقضاة فى جمعيات محلية يعقدها أصحاب البيوت ، وجمعيات قروية تعقد فى الولايات ، وجمعية قومية عامة أو برلمان . لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لا حكومة رجال فحسب ، العنف فيها من الأمور الشاذة النادرة ، والأحكام القضائية هى القاعدة العامة . نعم إن قصص تلك البلاد مليئة بحوادث الانتقام وما ينشأ عنه من خصام وإراقة للدماء ، ولكن الافتداء حتى فى عصر الفيكنج ، عصر الدم والحديد ، قد أخذ يحل محل الانتقام الفردى ، ولم يكن منهم مَن قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار . وكان

العقاب الصارم يستخدم لحمل أولئك الرجال ، الذين غلظت طباعهم لطول كفاحهم مع الظروف الطبيعية ، على الخضوع للسلم والنظام . فكان الزانى يعاقب بالإعدام شنقاً أو تطوءه الخيل حتى يموت ، وكان جزاء الحريق العمد هو إحراق مرتكبه وهو مصلوب ، ومن يقتل أحد أبويه يعلق من قدميه إلى جانب ذئب حى معلق بنفس الطريقة ، والثائر على الحكومة يشد إلى جوادين يسيران فى اتجاهين متضادين حتى يمزق جسمه ، أو يربط خلف ثور برى يجره حتى يقضى نحبه(٦١) . ولعل فى هذا العقاب الوحشى دليلا على أن القانون لم يحل بعد محل الانتقام الشخصى ، وكل ما فى الأمر أنه جعله من حق المجتمع نفسه . وحتى القرصنة نفسها قد تخلت عن مكانها للقانون ، فاستقر اللصوص وأصبحوا تجاراً واستبدلوا الدهاء بالقوة ؛ وجدير بالذكر أن كثيراً من مواد قانون أوربا البحرى مأخوذة من قانون أهل الشمال منقولة عن حلف المدن الهانسية Hanseatic League(٦٢). وقد كتبت قوانين النرويج فى عهد مجنس الصالح (١٠٣٥ — ١٠٤٧) على رق سمى بسبب لونه « الإوزة الشهباء » ! ولا يزال هذا الرق باقياً إلى الآن ، ويحتوى على أوامر مستنيرة للإشراف على الموازين والمقابيس ، ومراقبة رجال الشرطة للأسواق والثغور ، ومعونة الدولة للمرضى والمعوزين(٦٣) .

وقد عاون الدين القانون والأسرة على جعل أولئك الحيوانات مواطنين صالحين . ولم تكن الآلهة التيوتونية مجرد أساطير لأهل الشمال ، بل كانت أرباباً حقيقيين تهاب وتحب ، وتتصل اتصالا وثيقا بالآدميين بآلاف المعجزات وحوادث الغرام . ذلك أن النفوس البدائية فى دهشتها وورعها قد خولت جميع قوى الطبيعة ومجسماتها الكبرى إلى أرباب شخصية ، يتطلب أقواهم أن يسترضى على الدوام استرضاء لا يقل أحياناً عن التضحية بالآدميين أنفسهم . وكان مجمع الآلهة مزدحماً بهم : كان فيه اثنا عشر إلها ذكراً ، واثنتا عشرة إلهة أنثى ؛ وكثير من مختلف المردة (الجوتون Jotun) وأرباب الأقدار (نورن Norn) ،

ورسل الآلهة والساقون (الفلكيرى Valkyries) ، وبينهم عدد من العرّافات ، وصغار العفاريت ، والساحرات . فأما الآلهة فلم يكونوا أكثر من آدميين مكبرين ، يولدون مثلهم ، ويجوعون ، وينامون ، ويمرضون ، وينفعلون ، ويحزنون ويموتون ؛ ولا يفوقون الآدميين إلا فى أحجامهم ، وطول أعمارهم ، وعظيم قواهم . ومن هؤلاء أودين Odin (وودن Woden الألمانى) أبو الآلهة كلهم ، الذى كان يسكن بجوار بحر آزوف (آزاق) Azov فى أيام قيصر ؛ وهناك أنشأ أسجارد Asgard أو حديقة الأرباب لأسرته ومستشاريه واشتدت لديه الرغبة فى تملك الأرضين ففتح بلاد أوربا الشمالية . على أنه لم يسلم من التحدى ولم يكن قادراً على كل شىء ؛ فقد عنفه لوكى Loki أشد التعنيف[٦٤] ، وتجاهله ثور Thor ولم يعبأ به . فأخذ يذرع الأرض فى طلب الحكمة ، واشترى بأحد عينيه جرعة من ينبوع الحكمة . ثم اخترع الحروف الهجائية ، وعلم خلقه الكتابة ، والشعر ، والفنون ، ووضع لهم القوانين . وقبل أن تنتهى حياته على ظهر الأرض عقد جمعية من السويديين والقوط ، وجرح نفسه فى تسعة أماكن من جسمه ، فمات ورجع إلى أسجارد ليعيش فيها إلها .

وكان ثور فى أيسلندة أعظم من أودين ، فقد كان فيها إله الرعد ، والحرب ، والعمل ، والقانون ، وكانت السحب السوداء حاجبيه السوداوين ، وكان الرعد صوته ، والبرق مطرقته يلقى بها من السماء . وكان للشعراء الشماليين معه كثير من المزاح ، كما يمزح اليونان مع هيفستوس Hephaestus وهرقل ، ولعلهم قد أخذوا منذ ذلك الوقت البعيد يتشككون فى آلهتهم تشكك هومر فى آلهته ، وكانوا يتمثلونه فى جميع أنواع المآزق والأعمال الشاقة المضنية ؛ ومع هذا فقد بلغ من حب الأيسلنديين له أن واحداً من كل خمسة منهم تقريبا كان يغتصب اسمه — ثورلف Thorolf ، ثورولد Thorwald ، ثورشتين Thorstein . . .

وكان بلدور Baldur بن أودين عظيما فى القصص وأقل مقاماً من أودين وثور

فيما يلقاه من العبادة : كان « ذا بهاء فى صورته وملامحه . . . وكان أرق الآلهة ، وأكثرهم حكمة ، وأفصحهم لساناً[٦٥] » وكادت هذه الصفات تغرى المبشرين الأولين بأن يقولوا إنه هو المسيح عينه ؛ ويقال إنه رأى حلماً مزعجا ينبئه باقتراب منيته ، ولما قص هذا الحلم على الآلهة طلبت الإلهة فرجا Frigga إلى جميع أنواع الجماد ، والحيوان ، والنبات ، أن تقسم أغلظ الأيمان ألا يمسة أحدها بسوء ؛ فكان جسده الفخم المجيد بعد هذا القسم يطرد جميع الأجسام المؤذية ، وكان الآلهة يسلون أنفسهم بأن يقذفوه بالحجارة والسهام ، والفؤوس والسيوف ؛ فكانت هذه الأسلحة كلها ترتد عنه ، ولا تترك فى جسده أثراً . غير أن فرجا قد فاتها أن تأخذ عهداً على « شجيرة صغيرة تدعى المقاس »(*) ألا تمسه بسوء لأنها ظنتها أضعف من أن تؤذى إنساناً ما . فما كان من لُكيى الوقح المحب للوقيعة بين الآلهة إلا أن قطع منها عسلوجاً ، وأقنع إلهاً كفيفاً أن يلقيه على بلدور ، ونفذ العسلوج فى جسده فقضى عليه ، ثم ماتت زوجته نب Nep من فرط حزنها عليه ، وحرقت جثتها مع بلدور وجواده المطهم على كومة واحدة[٦٦] .

وكان الفلكيرى — الذين يختارون القتلى — هم الذين يحق لهم أن يحددوا أجل كل نفس . وكان الذين يموتون ميتة دنيئة يلقون فى ممالك هل Hel إلهة الموتى ؛ أما الذين يموتون فى ميدان القتال فيأخذهم الفلكيرى إلى فلهلا Valhalla — « بهو الصفوة » ، حيث يصبحون أبناء أدوين فيعودون مرة أخرى ذوى قوة وجمال ، يقضون نهارهم فى حروب البسالة وليلهم فى شرب الجعة . ثم أتى حين من الدهر (كما تقول الأساطير الشمالية المتأخرة) أعلنت فيه الجوتون — شياطين الاضطراب والدمار الزمهرية — الحرب على الآلهة ، وقاتلتها قتالاً هلكت فيه هذه وتلك عن آخرها . وفى هذا العصر ، عصر غسق الآلهة ، تهدم الكون كله : ولم يقتصر هذا الدمار على الشمس ، والكواكب ، والنجوم ،

(*) وتسمى أيضاً الدبق والدابوق Mistletoe . (المترجم)

بل شمل فى النهاية الفلهلا نفسها وجميع من فيها من المحاربين والأرباب ؛ ولم يبق إلا الأمل وحده — الأمل فى أن مر الوقت البطىء سوف تنشأ منه أرض جديدة ، وسماء جديدة ، وعدالة خير من العدالة السابقة ، وآلهة أعظم من أودين وثور. ولعل هذه القصة العظيمة ترمز إلى انتصار المسيحية ، وإلى الضربات الشديدة التى كالها المليكان أولاف Olafs من أجل المسيح ؛ أو لعل شعراء الفيكنج قد أخذوا يشكون فى آلهتهم ويوارونهم التراب .

تلك أساطير عجيبة لا تفوقها فى جمالها وفتنتها إلا أساطير اليونان . وكانت أقدم صورة وصلت إلينا منها هى صورتها فى تلك القصائد العجيبة التى سميت خطأ باسم الإدا Edda(*) . وخلاصة قصتها أن راهباً كشف فى عام ١٦٤٣ فى مكتبة كبنهاجن الملكية مخطوطاً يحتوى عدداً من القصائد الأيسلندية القديمة ؛ ووقع هذا الراهب فى خطإ مزدوج فسماها إدا سيمند الحكيم The Edda of Saemund the Wise (حوالى عام ١٠٥٦ — ١١٣٣) وهو عالم أيسلندى من رجال الدين . والباحثون الآن يجمعون على أن هذه القصائد قد كتبها فى النرويج وأيسلندة ، وجرينلندة كتاب غير معروفين فى أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثانى عشر ، وأن سيمند ربما يكون قد جمعها ولكنه لم يؤلفها ، وأن الإدا لم يكن اسمها . ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات ، ويوفق بين هذه الأخطاء بأن يسمى القصائد الإداء الشعرية أو الإدا الكبرى . وهى فى معظمها أغان قصصية عن الأبطال أو الآلهة الاسكنديناويين أو الألمان ؛ وفيها نلتقى لأول مرة بسيجورد الفلسنجى Sigurd the Volsung وغيره من الأبطال

(*) وقد وردت هذه الكلمة أول ما وردت فى جذاذة ترجع إلى القرن العاشر وتعنى فى هذه الجذاذة جدة الأم . وكان من عجائب الأيام أن أصبح معناها علم العروض النرويجى وإن استعملها بهذا المعنى استرى استرلسون حين كتب بهذا العنوان (١٢٢٢) رسالة عن الأساطير النرويجية ومن فن الشعر ، وهذه الرسالة هى المعروفة لدينا باسم الإدا النثرية أو الصغرى .

الذكور والإناث والأوغاد الذين قدر لهم أن يتخذوا صورة أوضح من صورتهم هنا فى الڤولسنجساجا Volungasaga والنيبلنچنليد Nibelungenlied.
وأعظم قصائد الإدا قوة هى قصيدة الڤولسپا Voluspa التى تصف فيها البنية ڤولڤا فى صورة فخمة قاتمة خلق العالم ، وآخرته المنتظرة ثم بعثه فى آخر الأمر . وتختلف عن هذه القصيدة فى الأسلوب « أغنية الواحد الأعلى » التى يصوغ فيها أودين ، بعد أن يمر بمختلف الظروف ويلتقى بجميع أنواع الناس ، ما تمليه عليه حكمته من أمثال ليست كلها من الأمثـال الخليقة بالآلهة :

لقد طرقت أماكن كثيرة مبكراً فوق ما يجب أو بعد فوات الأوان ؛ قبل أن تعدّ الجعة أو بعد أن استنفدها الشاربون[٦٧] . . . خير أنواع السكر هو الذى يستعيد كل إنسان بعده قواه العقلية[٦٨] . يجب ألا يثق الإنسان بأقوال فتاة ولا بأقوال امرأة ، لأن الخطيئة قد غرست فى صدورهن[٦٩] ؛ . . . هذا ما حدث لى حين حاولت إغواء تلك الغادة الفطنة ؛ . . . ولم أكسب من هذه الغادة شيئاً[٧٠] . . . النهار يمدح فى المساء ، والسيف بعد أن يجرب ، والمرأة بعد أن تحرق جثتها[٧١] . . . كثيراً ما يعاقب الإنسان على الألفاظ التى يتحدث بها إلى غيره[٧٢] . . . واللسان هو سم الرأس[٧٣] . تجنب النزاع مع مَن هو شر منك واو اقتصر نزاعك معه على ثلاثة ألفاظ ، وكثيراً ما يستسلم خير الرجلين إذا ما ضرب به شرهما[٧٤] . . . يجب أن يكون الإنسان حكيما فى اعتدال وألا يسرف فى الحكمة . . . لا تدع إنساناً يعرف مصيره قبل حلوله ، لأن عقله يأمن بذلك من المشاغل . . . إن ذا العقل قلما يبتهج قلبه[٧٦] (*) . . . خير البيوت بيتك ولو كان صغيرا[٧٧] . . . وخير المناظر منظر مصطلى الإنسان ومنظر الشمس[٧٨] .

وأكبر الظن أن قصائد الإدا الكبرى قد ظلت يتناقلها الناس شفويا حتى

(*) شبيه بهذا المعنى قول الشاعر العربى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخو الجهـالة بالشقاوة ينعم   (المترجم)

القرن الثانى عشر ، ثم دونت فى ذلك القرن . وكانت الحروف الهجائية فى عصر الفيكنج هى حروف أوربا الشمالية كما كانت هى حروف ألمانيا وإنجلترا الأنجليسكسونية . وكانت هذه الرموز (ومعناها الحرف « الأسرار الخفية ») الأربع والعشرون تكوّن أبجدية أساسها بوجه عام هو الحروف اليونانية واللاتينية المطبعية المائلة . وكان فى وسع الأدب فى ذلك العصر أن يستغنى عن الحروف ، ذلك أن الشعراء والمغنين كانوا يؤلفون قصائدهم ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويتلونها ، ويتناقلها عنهم الناس شفويا ؛ وكانوا فى هذه القصائد يتغنون بالآلهة التيوتونية و « عصر الأبطال » (من القرن الرابع إلى القرن السادس) الذى بسطت فيه الشعوب الألمانية سلطانها على أوربا . وقد احتفظ استرلسون وغيره من الكتاب بقطع صغيرة من هذه الأغانى ، وبكثير من أسماء الشعراء . وأشهر هؤلاء كلهم هو سجفات ثوردارسون Sigvat Thordarsson الذى كان شاعراً ومستشاراً صريحا فى بلاط سانت أولاف . وكان شاعر آخر يدعى إجيل اسكلاجرمسون Egil Skallagrimsson (٩٠٠ — ٩٨٣) ، أشهر رجال زمانه فى أيسلندة — كان محارباً شجاعاً ، وشريفاً فردى النزعة ، وشاعراً جياش العاطفة . وقد فقد فى كبر سنه أصغر أولاده إذ مات غريقاً ، وكاد يقضى عليه الحزن لولا أن أقنعته ابنته بأن يستعيض عن ذلك بكتابة قصيدة . فعمل بإشارتها وكتب قصيدته المعروفة باسم « ثكل الابن » Sonartorrek التى يندد فيها بالآلهة ويتحداهم ويتهمهم بموت ولده . وهو يأسف لأنه لا يستطيع أن يعثر على أودين ليقاتله كما قاتل غيره من الأعداء . ثم يهدأ مزاجه حين يفكر أن الآلهة لم تسلط عليه الأحزان وكفى بل وهبته فوق ذلك ملكة الشعر ، ثم يرضى بحظه فيعتزم أن يعيش ويعود إلى منزلته العالية فى مجالس بلاده(٧٩) .

وما من شك فى أن آداب ذلك العصر تغالى فى وصف ما كان يسود مجتمع الفيكنج من عنف ، شأنها فى ذلك شأن الصحافة والتاريخ اللذين يخدعان القارئ

بالتحدث عما هو شاذ غير عادى ويهملان سير الحياة البشرية السوى . لكننا لا ننكر أن الظروف القاسية التى كانت تعيش فيها اسكنديناوة فى الزمن القديم اضطرت الأهلين إلى أن يخوضوا معركة حامية فى سبيل العيش لا يبقى فيها إلاّ أصلبهم عوداً ، ومن أجل هذا نشأ عندهم من عادات النزاع القديم والأخذ بالثأر والقرصنة غير المقيدة فى البحار المفتوحة ، نشأ من هذه العادات قانون أخلاقى على غرار قانون نيتشة يدين بالشجاعة التى لا ترعى مبدأ ولا ضميراً . قال فيكنج لصاحبه : « قل لى أى دين تؤمن به ؟ » فأجابه بقوله « إنى أومن بقوتى » . وأراد جولد هارلد Gold Harald أن يكون له عرش النرويج ، ورأى أن يناله بالقوة ، لكن صديقه هاكون نصحه بقوله : « فكّر فى أمرك واعرف هل تستطيع أن تبذل من قوة الرجولة ما يحقق مطمعك ، لأن نيل هذه الغاية يتطلب من صاحبها أن يكون جريئاً ، ثابتاً ، لا يحجم عن فعل الخير أو الشر إذا كان فيه ما يوصله إلى مطلبه »[٨١] . ومن هؤلاء الناس من كانوا يجدون فى القتال لذة تكاد تنسيهم آلام جراحهم ، ومنهم من كان يعتريهم وجد ونشوة فى القتال تعرف عندهم باسم برسركس جانجر berserksgangr أى « طريقة برسرك » . وكان البرسركيون — أو أصحاب قمصان الدببة — مقاتلين يندفعون إلى قلب المعركة دون أن يكون على أجسامهم قمصان من الزرد ، ثم يحاربون ويصرخون كالحيوانات المفترسة ، ويعضون بأسنانهم على دروعهم وهم غضاب ثائرون ، فإذا انقضت المعركة فقدوا وعيهم وخارت قواهم[٨٢] . وكانت الفلهالا محرمة على غير الشجعان ، ومن يمت فى القتال من أجل جماعته تغفر له جميع خطاياه .

وهكذا تعوّد « رجال الفيوردات » شظف العيش والألعاب العنيفة ، ثم ساروا فى سفائنهم ذات المجاذيف يفتحون لهم ممالك فى الروسيا ، وبمرانيا Pomerania ، وفريزيا ، ونورمندية ، وإنجلترا ، وأيرلندة ، وأيسلندة ،

وجرينلندة ، وإيطاليا ، وصقلية . ولم تكن هذه المغامرات غارات تقوم بها جموع من الجند كجهاد المسلمين أو طوفان المجر ، بل كانت بمثابة اندفاع حفنات متهورة من الرجال يرون كل ضعف جرماً ، وكل قوة عملا صالحاً ، يشتهون الأرض ، والنساء ، والثراء ، والسلطان ، ويشعرون أن من حقوقهم المقدسة أن يكون لهم نصيب من ثمار الأرض . ولقد بدأوا حياتهم قراصنة واختتموها ساسة وحكاماً . فمنهم رولو Rollo الذى وهب نورمنديا نظاماً مبدعاً خلاقاً ، ومنهم وليم الفاتح الذى وهب إنجلترا هذا النظام نفسه ، وروجر الثانى منشئه فى صقلية . ولقد مزجوا دمهم الشمالى الجديد بدماء الشعوب التى أضعفتها الحياة الريفية الرتيبة فبعثوا فيها قوة ونشاطاً ، ألا إن التاريخ قلما يفنى من لا يستحق الفناء ، وإن احتراق نُفَايات الزروع ليخصب تربة الأرض ويجعلها أصلح مما كانت للزرع الجديد .

الفصل السادس

ألمـــانيا : ٥٦٦ — ١١٠٦

١ — تنظيم السلطة

لقد كانت غارات الشماليين المرحلة الأخيرة فى غارات البرابرة التى تدفقت من ألمـانيا قبل الوقت الذى نتحدث عنه بخمسة قرون ، وقطعت أوصال الدولة الرومانية ، وقسمتها إلى أمم أوربا الغربية ؛ وخليق بنا أن نسأل الآن عن مصير الألمـان الذين بقوا فى ألمـانيا نفسها .

لقد أدى خروج تلك القبائل العظيمة — القوط ، والوندال ، والبرغنديين ، والفرنجة ، واللمبارد — إلى نقص سكان ألمانيا إلى حين ، فتحرك الوند Wend الصقالبة غرباً من ولايات البحر البلطى ليملأوا ذلك الفراغ ، وأصبح نهر الإلب قبل أن يحل القرن السادس الحد الجنسى ، كما هو الآن الحد السياسى ، بين العالم الصقلبى والعالم الغربى . فقد كان فى غرب الإلب والسال Saale من بقى من القبائل الألمـانية : السكسون فى شمالى ألمانيا الوسطى ، والفرنجة الشرقيون فى حوض الرين الأدنى ، والثورنجيون بين هؤلاء وأولئك ، والباڤاريون Bavarians (الذين كانوا يسمون المركونيين من قبل) فى حوض الدانوب الأوسط ، والسوابيون Swabians (الذين كانوا يسمون السويفيين) على ضفاف نهر الرين والدانوب الأعلين وفيما بينهما ، وعلى طول جبال چورا Jura الشرقية والألب الشمالية . ولم تكن فى أوربا بلاد تسمى ألمانيا ، بل كل ما كان فيها قبائل ألمانية ، وقد وهبها شارلمان وقتاً ما وحدة مشتوها الفتح ، ومستلزمات النظام المشترك ، ولكن انهيار الإمبراطورية الكارولنجية فكك هذه الروابط ، وظل الوعى القبلى والنزعة المحلية

يمنعان كل عامل يؤدى إلى المركزية حتى أيام بسمارك ، ويضعفان قوة ذلك الشعب الذى يعانى الأمرين من جراء انحصاره بين أعدائه من جهة وبين جبال الألب والبحر من جهة أخرى :

وأقامت معاهدة فردون (٨٤٣) فى واقع الأمر لويس أولدفج Ludwgi حفيد شارلمان أول ملك على ألمانيا ، وأضافت معاهدة مرسن Mersen (٨٧٠) إلى أملاكه بلاداً جديدة ، وحددت ألمانيا بأنها الأرض المحصورة بين نهرى الرين والإلب ، تضاف إليها أجزاء من اللورين Lorraine ، وأسقفيات مينز ، وورمز ، واسبير Speyer . وكان لويس حاكما وسياسياً من الطراز الأول ، غير أنه كان له ثلاثة أولاد ، قسمت مملكته بينهم جميعاً بعد وفاته ، وضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد عشر سنين أغار فيها الشماليون على مدائن الرين ، واختير بعدها آرنلف Arnulf ، وهو ابن غير شرعى لكارلومان Carloman ابن لويس ، ملكا على « فرنسيا الشرقية Fast Francia » (٨٨٧) ورد الغزاة على أعقابهم . ولكن لويس « الطفل » (٨٩٩ — ٩١١) الذى خلفه على العرش كان أصغر وأضعف من أن يصد المجر الذين اجتاحوا باڤاريا (٩٠٠) وكارنثيا (٩٠١) ، وسكسونيا (٩٠٦) ، وثورنجيا (٩٠٨) ، وأليمانيا Alemannia (٩٠٩) ؛ وعجزت الحكومة المركزية عن حماية هذه الولايات ، فكان على كل واحدة منها أن تدافع عن نفسها . وجهز أدواق الولايات ما يحتاجونه من الجيوش بأن أقطعوا أتباعهم الأرض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية ، ونال الأدواق بفضل الجيوش المؤلفة على هذا النحو استقلالهم الفعلى عن التاج ، وأنشئوا ألمانيا الإقطاعية . ولما مات لويس رفع الأعيان وكبار رجال الدين كنراد الأول دوق فرنكونيا (٩١١ — ٩١٨) على عرش البلاد ، وكانوا قد نجحوا فى أن يكون لهم هم حق اختيار الملك . وأنهك كنراد قواه فى النزاع مع

هنرى دوق سكسونيا ، ولكنه بلغ من الحصافة أن أوصى باختيار هنرى ليخلفه على العرش . وصد هنرى الأول ، المسمى « بالصائد » لشغفه بصيد الطير ، قبائل الونذ الصقلية إلى نهر الأودر Oder وحصن ألمانيا لتقوى على صد المجر ، وهزمهم فى عام ٩٣٣ ومهد بجهوده السبيل إلى أعمال ابنه المجيدة .

وكان أتو الأول الأكبر (٩٣٦ — ٩٧٣) شارلمان ألمانيا ، ولم تكن سنه حين جلس على العرش قد تجاوزت الرابعة والعشرين ، ولكنه كان فى هذه السن الصغيرة مليكا بحق فى مظهره ومخبره ، وأحس بما للمراسم والرموز من عظيم الشأن فأقنع أدواق لورين ، وفرنكونيا ، وسوابيا ، وبافاريا ، بأن يؤلفوا حاشيته فى حفل تتويجه الفخم فى آخن على يد هيلدبرت Hildebert كبير الأساقفة ، ولكن الأدواق ثاروا فيما بعد على سلطته المطردة النماء ، وأغروا هنرى أخاه الأصغر بأن يشترك معهم فى مؤامرة تعمل لخلعه . وكشف أتو هذه المؤامرة ، وقضى عليها ، وعفا عن هنرى ، ثم ائتمر هنرى به مرة أخرى ، وعفا عنه للمرة الثانية ، وأقطع المليك الداهية دوقيات جديدة لأصدقائه وأقاربه ، وأخضع الأدواق لسلطانه شيئاً فشيئاً . ولم يرث من جاء بعده من الملوك ما كان له من دهاء وعزيمة ماضية فاحترقت ألمانيا فى العصور الوسطى بنار النزاع بين الإقطاع ، والملكية . وانحاز الأساقفة الألمان إلى جانب الملك فى هذا النزاع ، فأصبحوا بذلك مساعديه ومستشاريه فى الشئون الإدارية ، بل كان منهم فى بعض الأحيان قواد جنده . وكان الملك يعين الأساقفة ورؤساء الأساقفة كما كان يعين غيرهم من موظفى الحكومة ، فأصبحت الكنيسة الألمانية بهذه الوسيلة نظاما قومياً بحتا لا ترتبط بالبابوية إلا بأوهن الروابط . واتخذ أتو الدين المسيحى قوة لتوحيد البلاد فصهر به القبائل الألمانية وخلق منها دولة قوية .

وهاجم أتو الوند استجابة لرغبة أساقفته ، وحاول أن يرغمهم بالسيف على اعتناق المسيحية . وأرغم ملك الدنمرقة ودوق پولندة وبوهيميا على أن يعترفوا به سيدهم الإقطاعى . وكان يطمع فى أن يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولهذا رحب بالدعوة التى وجهتها إليه أدليد الحسناء أرملة لوثير ملك إيطاليا لينقذها مما لحق بها من الإهانة على يدى برنجار الثانى المليك الجديد . وخلط أتو بمهارته بين السياسة والغرام ؛ فغزا إيطاليا ، وتزوج بأدليد ، وسمح لبرنجار أن يحتفظ بمملكته على أن تكون إقطاعاً له من التاج الألمانى (٩٥١) . وأبى الأشراف الإيطاليون أن يعترفوا بألمانى إمبراطوراً لأن هذا يستلزم أن يكون هذا الإمبراطور سيداً لإيطاليا ، وبدأ وقتئذ بين الطرفين نزاع دام ثلاثة قرون . وخرج على كنراد وهو غائب عن ألمانيا ابنه لودلف وزوج ابنته كنراد ، فعاد أتو إلى ألمانيا لكيلا ينشأ عن محاولته أن يكون إمبراطوراً ألا يظل ملكاً . ولما أن غزا المجر ألمانيا مرة أخرى (٩٥٤) رحب بهم لودلف وكنراد وأمدهم بمن يرشدهم فى غزوهم ؛ وقطع أتو دابر الفتنة ، وعفا عن لودلف ، وأعاد تنظيم جيشه ، وأوقع بالمجر عند لخفلد Lechfeld القريبة من أجزبرج Augsburg هزيمة منكرة (٩٥٥) ، أفاءت على ألمانيا فترة طويلة من الأمن والسلام . وصرف أتو بعدئذ جهوده إلى شئون البلاد الداخلية — فأعاد النظام إلى نصابه ، وقضى على الجرائم ، وأعاد ألمانيا المتحدة إلى الوجود ، وجعلها أعظم الدول رخاء فى تلك الأيام .

وسنحت له الفرصة مرة أخرى لإنشاء الإمبراطورية حين استعانه البابا يوحنا الثانى عشر على برنجار (٩٥٩) . فغزا أتو إيطاليا على رأس قوة كبيرة ، ودخل رومة من غير قتال ، وتوجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً رومانياً على الغرب فى عام ٩٦٢ . ثم ندم البابا على فعلته ، وأخذ يشكو من أن أتو لم يوف بما وعده به من

إعادة إكسرخسية(*) براقنا إلى البابوية . واتخذ أتو الخطوة المتطرفة الجريئة فزحف على رومة ، وعقد مجلساً دينياً من الأساقفة ، وأقنعه بوجوب خلع يوحنا وتنصيب رجل من غير رجال الدين بابا مكانه باسم ليو الثامن (٩٦٣) . واقتصرت أملاك البابا وقتئذ على دوقية رومة وإقليم سابينا ، واندمجت بقية إيطاليا الوسطى والشمالية فى إمبراطورية رمانية مقدسة أضحت إقطاعية من إقطاعيات التاج الألمانى . وكان ملوك ألمانيا يتخذون من هذه الحوادث حجة يبنون عليها إدعاءهم أن إيطاليا جزء من ميراثهم ، أما البابوات فكانوا يتذرعون بها للقول بأن أحداً لا يستطيع أن يكون إمبراطوراً رومانياً فى الغرب إلا إذا توجه البابا .

ولما أحس أتو بقرب منيته أراد أن يتقى ما عسى أن يعقب موته من الفوضى ، فحمل البابا يوحنا الثالث عشر على أن يتوج ابنه أتو الثانى إمبراطوراً معه (٩٦٧) ، وزوج ابنه هذا بثيوفانو ابنة رومانوس Romanus الثانى إمبراطور بيزنطية (٩٧٢) ، وتحقق بذلك إلى وقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبراطوريتين بطريق الزواج ؛ ثم توفى أتو ولما يتجاوز الستين من عمره ، ولكنه قام فى هذه السنين القلائل بما لم يقم به ذوو الأعمار الطوال (٩٧٣) ، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها . وصرف أتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) جهوده فى ضم إيطاليا الجنوبية إلى دولته ومات فى هذه المحاولة منهوك القوى قبل الأوان . وكان أتو الثالث (٩٨٣—١٠٠٢) وقتئذ طفلا فى الثالثة من عمره ، فحكمت البلاد أمه وجدته أدليد نائبتين عنه مدة ثمان سنين ، وأدخلت ثيافانو فى أثناء نفوذها الذى دام ثمانية عشر عاماً بعض مظاهر الرقة البيزنطية إلى البلاط الألمانى ، وبثت روح النهضة التى بدأها أتو فى الآداب والفنون .

(*) الإكسرخسية Exarchate مقاطعة يحكمها إكسرخس Exarch . والإكسرخس اسم كان يطلق قديماً على نائب الإمبراطور فى إيطاليا ؛ ومنصبه شبيه بمنصب الأسقف ، ومعناه لغة القائد . (المترجم)

ولما بلغ أتو السادسة عشرة من عمره (٩٩٦) شرع يحكم البلاد بنفسه . وأثر فيه جربرت وغيره من رجال الدين ، فعرض أن يتخذ روما عاصمة لملكه ، ويجمع البلاد المسيحية كلها تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ويشترك فى حكمها الإمبراطور والبابا . وفسر أعيان رومة ولمباردية وسوقتها هذا العمل بأنه مؤامرة ترمى إلى إقامة حكم بيزنطى ألمانى فى إيطاليا ، ولهذا وقفوا فى وجه أتو ، وأقاموا فى البلاد «جمهورية رومانية» وقلم أتو أظفار الفتنة ، وأعدم كرسنتيوس Crescentius زعيمها ، ثم عين جربرت بابا فى عام ٩٩٩ ؛ ولكن حياة أتو التى لم تزد على اثنتين وعشرين سنة ، وبابوية جربرت التى دامت أربع سنين ، كانتا أقصر من أن تمكناه من تنفيذ سياسته بحذافيرها ؛ يضاف إلى هذا أن أتو ، وهو نصف قديس ولكنه رجل إلى حد ما ، قد وقع فى حب استفانيا Stephania أرملة كرسنتيوس ، ورضيت أن تكون عشيقته وسجينته ، ولما أحس المليك الشاب أن الموت يسرى فى عروقه أخذ يبكى ويندم ، حتى قضى نحبه فى فيتربو Viterbo ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره[٨٣] .

وبذل هنرى الثانى (١٠٠٢ — ١٠٢٤) آخر ملوك ألمانيا السكسون جهده ليعيد إلى الملك قوته فى إيطاليا وألمانيا ، حيث قوى حكم الغلامين الصغيرين سلطان الأدواق وجرأ عليهما الدول المجاورة لهما . وبدأ بكنراد الثانى (١٠٢٤ — ١٠٣٩) حكم الأسرة الفرنكنونية أو السالية من الأباطرة . وقد أعاد السلام إلى إيطاليا وضم إلى ألمانيا مملكة برغندية أو آرليس Arles . ودفعته حاجته إلى المال إلى أن يبيع مناصب الأساقفة بأثمان عالية أنبه عليها ضميره ، فأقسم ألا يعود إلى بيع المناصب الدينية بالمال و «كاد يفلح فى أن يبر بقسمه»[٨٤] . وبلغت الإمبراطورية فى عهد ابنه هنرى الثالث (١٠٣٩ — ١٠٥٦) ذروة مجدها . وقد عرض فى «يوم الغفران» من عام ١٠٤٣ فى كنستانس Constance أن يعفو عن كل من أساء إليه ، وحض رعاياه أن يطهروا صدورهم من كل حقد ورغبة فى الانتقام . وقد أفلح

بفضل مواعظه وقدوته الحسنة — وبفضل سلطانه فى أغلب الظن — فى أن يقضى على كثير من منازعات الأدواق ، وتعاون مع « المدنة الإلهية » فى نشر ظل عهد ذهبى قصير الأجل على أوربا الوسطى . وقد ناصر العلوم ، وأنشأ المدارس ، وأتم كنائس اسبير ، ومينز ، وورمز . ولكنه لم يكن قديساً يعمل للسلام الدائم ، فقد ظل يحارب المجر حتى اعترفت له بالسيادة الإقطاعية عليها ، وخلع ثلاثة من المتنافسين على البابوية ، وعين اثنين من البابوات واحداً بعد الآخر ، ولم يكن فى أوربا كلها من يماثله فى سلطانه ، ولكنه أندفع بسلطانه فى آخر الأمر إلى الحد الأقصى فأثار بذلك مقاومة الأساقفة والأدواق جميعاً . غير أنه مات قبل أن تهب العاصفة ، وخلف لهنرى الرابع بابوية معادية ، ومملكة مضطربة .

وكان هنرى فى الرابعة من عمره حين توج ملكا فى آخن وفى السادسة حين توفى أبوه وحكمت أمه واثنان من الأساقفة بالنيابة عنه حتى عام ١٠٦٥ حين أعلن أن الغلام وهو فى الخامسة عشرة قد بلغ سن الرشد ، فوجد نفسه وقد آلت إليه سلطة إمبراطورية كفيلة بلا ريب بأن تذهب بعقل أى شاب ، وأصبح بطبيعة الحال يؤمن بالسلطة المطلقة ، ويسعى لأن يحكم البلاد على هذا الأساس . وسرعان ما وجد نفسه فى خصام أو حرب مع هذا أو ذاك من النبلاء الذين كادوا لعجزه أن يقطعوا أوصال دولته . ذلك أن السكسون قد أغضبتهم الضرائب المفروضة عليهم ، وأبوا أن يردوا أراضى التاج التى يدعيها لنفسه ، وظل يحاربهم حربا منقطعة دامت خمسة عشر عاما (١٠٧٢ — ١٠٨٨) ؛ ولما أن هزمهم فى عام ١٠٧٥ أرغم قوتهم الكبرى ومن فيها من أشم النبلاء أنوفاً وكبار الأساقفة الحربيين أن يمشوا حفاة مجردين من السلاح بين صفين من جنده ، ويقدموا مراسم الاستسلام عند قدميه . وفى تلك السنة نفسها أصدر البابا جريجورى السابع مرسوماً يعارض به حق غير رجال الدين فى تعيين الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، واستمسك هنرى بالسوابق المتبعة منذ مائة عام ، ولم يشك مطلقا فى أن تعيين هؤلاء وأولئك من

حقه ، وظل عشر سنين يحارب جريجورى حربا دبلوماسية وعسكرية ، لم تنته إلا بموته ، وكانت من أشد الحروب هولا فى تاريخ العصور الوسطى. وانتهز نبلاء ألمانيا المتمردون المشاكسون هذا النزاع ليزيدوا سلطتهم الإقطاعية ، وعاد السكسون الذين استذلهم الملوك إلى ثورتهم . وانضم أبناء هنرى إلى معارضيه وظل النزاع قائماً حتى نادى مجلس مينز بهنرى الخامس ملكا فى عام ١٠٩٨ ، وأسر الابن أباه وأرغمه على النزول عن العرش (١١٠٥) ، ثم فر الأب وأخذ يحشد جيشاً جديداً ، لكنه مات فى لييج فى السنة السابعة والخمسين من عمره (١١٠٦) ؛ ولم يجد البابا باسكال Paschl الثانى من حقه أن يمنح رجلا محروماً مات دون أن يتوب دفنة مسيحية ، ولكن أهل لييج تحدوا البابا والملك وشيعوا جنازة هنرى الرابع فى موكب ملكى فخم وواروه التراب فى كنيستهم الكبرى .

٢ - الحضارة الألمانية ٥٦٦ - ١١٠٦

واستطاعت جهود الرجال والنساء الذين يفلحون الأرض وينشئون الأطفال أن تفتح ألمانيا وتهيئها للحضارة . لقد كانت الغابات فيها ضخمة كثيفة إلى أقصى حد ، تأوى إليها الوحوش الكاسرة ، وتعوق الاتصال والوحدة ، وقام أبطال مجهولون بتقطيع أشجار الغابات ، ولعلهم أسرفوا فى هذا التقطيع ، ودام الكفاح فى سكسونيا بين الأهلين وبين الأشجار التى تنمو بطبيعتها كلما قطعت ، والمناقع التى تنشر الأوبئة — دام هذا الكفاح ألف عام ولم يكتب النصر فيه للإنسان إلا فى القرن الثالث عشر . وتوالت الأجيال جيـلا بعد جيل والزراع المجدون البواسل يطاردون الوحوش ، وينقصون من أطراف البرارى القاحلة ، ويذللون الأرض بالفأس والمحراث ، ويغرسون أشجار الفاكهة ، ويربون قطعان الماشية ، ويعنون بالكروم ، ويخففون من آلام وحدتهم بالحب والصلاة ، والأزهار والموسيقى والجعة . وكان المعدنون يستخرجون من الأرض الملح ، والحديد ،

والنحاس ، والرصاص ، والحرف اليدوية القائمة فى الضياع ، والأديرة ، والمنازل ، تقرن الحذق الرومانى إلى الألمانى ؛ والتجارة تنمو ويطرد نشاطها فى الأنهار وتنساب إلى البحرين الأسود والبلطى : وكسب السكان المعركة العظيمة آخر الأمر ؛ نعم إن الهمجية ظلت كامنة فى شرائع البلاد وفى دماء الأهلين ، ولكن الثغرة التى كانت قائمة بين فوضى القرن الخامس القبلية ونهضة القرن العاشر التى بعثها أتو اجتيزت آخر الأمر ، وصارت ألمانيا فيما بين ٩٥٥ و ١٠٧٥ أكثر بلاد أوربا رخاء ، لا يضارعها فى هذه الناحية إلا شمالى إيطاليا التى أخذت القانون والنظام عن الملوك الألمان . وواصلت المدن الرومانية القديمة أمثال تريير ، وميز ، وكولونى تقدمها ، ونشأت مدن جديدة حول مراكز الأساقفة فى اسپير ، ومجدبرج ، وورمز ؛ وبدأنا حوالى عام ١٠٥٠ نسمع عن مدينة نورمبرج .

وكانت الكنيسة مربية ألمانيا والقائمة على إدارة شئونها فى ذلك العصر ؛ فقد افتتحت مدارس — أو بالأحرى كليات فى أديرة فلدا ، وتجرنسى Tegernse ، وريخنو Reichenan ، وجندرسهايم Gandersheim ، وهيلدسهايم Hildesheim ، ولورسخ Lorsch . ولما عين ربانوس موروس Rabanus Maurus (٧٧٦ ؟ — ٨٥٦) رئيساً الدير فلدا العظيم فى بروسيا بعد أن أتم دراسته تحت رعاية ألكوين فى تور ، رفع مكانة مدرسة هذا الدير وأذاع شهرتها فى جميع أنحاء أوربا حتى أضحت اما رؤوماً للعلماء ولاثنين وعشرين معهداً تنتسب إليها . وقد وسع منهاجها حتى شمل كثيراً من العلوم الطبيعية ، وندد بالخرافات التى كانت تعزو الحوادث الطبيعية للقوى السحرية الخفية[٨٥] . ونمت دار الكتب فى فلدا حتى أضحت من كبريات المكتبات العامة فى أوربا ؛ وهى التى أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وناستوس ، وأمنيانوس مارسلنوس Ammaianus Marcellinus . وثمة رواية غير موثوق بصحتها تعزو إلى ربانوس أنشودة « جئت يا خالق الأرواح Veni Creator Spiritus » التى تنشد وقت

تدشين البابوات والأساقفة والملوك[٨٦] ، وافتتح سانت برونو St. Bruno ، الذى كان دوق لورين وكبير أساقفة كولونى ثم أصبح مستشاراً إمبراطوريا لأتو الأكبر ، مدرسة فى القصر الملكى ليدرب فيها طبقة من الموظفين الإداريين ، واستقدم العلماء وجاء بالكتب من بيزنطية وإيطاليا وكان هو نفسه يعلم فيها اللغة اليونانية والفلسفة .

ولم تكن اللغة الألمانية قد نشأت لها آداب فى ذلك الوقت ؛ وكان القائمون بالكتابة كلهم تقريبا من رجال الدين ، وكانت لغة الكتابة هى الألمانية . وكان أعظم شعراء العصر الألمان هو ولفريد استرابو Walafrid Strabo (٨٠٩ — ٨٤٩) وهو راهب سوابى فى ريخنو . وكان وقتاً ما مربياً لشارل الأصلع فى قصر لويس التقى بآخن . وقد وجد له فى يوديث الحسناء الطموحة زوجة لويس نصيرة مستنيرة . ولما عاد إلى ريخنو ليتولى رياسة ديرها صرف جهوده كلها فى الدين ، والشعر ، وفلاحة البساتين ، وقد وصف لنا فى قصيدة له ممتعة فى العناية بالحدائق De cultura hortorum كل عشب وزهرة من الأعشاب والأزهار التى كان يربيها ويشغف بها .

وكان أعظم من ينافسه فى الأدب الألمانى فى تلك القرون راهبة تدعى هرسويذا Hroswitha ، وهى واحدة من كثيرات من النساء اللاتى امتزن فى ذلك العصر بثقافتهن ورقتهن . وقد ولدت حوالى عام ٩٣٥ ، ثم دخلت دير البندكتيين فى جندرسهايم Gandersheim . وما من شك فى أن مستوى التعليم فى ذلك الدير كان أرقى مما نتوقع ، ذلك أن هرسويذا قد درست شعراء رومة الوثنية ، وعرفت كيف تكتب باللغة اللاتينية بأسلوب سلس واضح ، وكتبت بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد تراجم لبعض القديسين ، كما أنشأت ملحمة أصغر من هذه التراجم عن أتو الأكبر . ولكن كتبها التى خلدت ذكرها هى ستة مسرحيات نثرية من نوع المسلاة حذت فيها حذو ترنس Terence .

وتقول هى إن الغرض الذى كانت ترمى إليه من كتابتها هو « أن تجعل الهبة الصغيرة التى حباها بها الله ، تخرج بدافع الإخلاص صوتاً ضئيلا تحمد به الله »[٨٧] . وتقول إنه يحزنها ما فى المسالى اللاتينية من بذاءة وثنية ، وإنها تحب أن تعرض على القراء بدلا منها مسالى مسيحية ؛ ولكن مسرحياتها نفسها تدور حول حب دنس لا يكاد يخفى ما ينطوى عليه من شهوة جثمانية . وخير مسرحياتها القصيرة هى مسرحية أبراهام ، وفيها يغادر ناسك مسيحى صومعته ليعنى بابنة أخ له يتيمة . ثم تفر الفتاة مع شخص أغواها لا يلبث أن يهجرها ، فتصبح من العاهرات . ويقتفى أبراهام أثرها ، ويدخل عليها حجرتها متخفياً . وتقبله ، فتعرفه ، وترتد عنه فى خجل ، ويدور بينهما حوار شعرى رقيق يقنعها به أن تقلع عن حياة الرذيلة وتعود معه إلى بيتهما . ولسنا نعرف هل مثلت هذه المسرحيات القصيرة أو لم تمثل ، ذلك أن المسرحيات الحديثة لم تكن صدى لمسرحيات ترنس وأمثالها ، بل نشأت من حفلات الكنيسة « وطقوسها الخفية » بعد أن امتزجت بها « مساخر » الممثلين الجائلين الصامتة .

ولم تكن الكنيسة موطناً للشعر ، والتمثيل ، وكتابة التاريخ فحسب ، بل إنها فوق ذلك أمدت الفن بالموضوعات والمال . فقد تأثر الرهبان الألمان بالمثل البيزنطية والكارولنجية ، وشجعتهم مناصرة الأميرات الألمانيات فأخرجوا فى ذلك العصر عشرات العشرات من المخطوطات المزخرفة ذات الجمال الممتاز . ويكاد برنولد Bernewald الذى كان أسقف هلدسهايم من ٩٩٣ إلى ١٠٢٢ أن يكون فى حد ذاته خلاصة لثقافة ذلك العصر : فقد كان مصوراً ، وخطاطاً ، وصانعاً للمعادن والفسيفساء ، وحاكماً إدارياً ، وقديساً . وقد جعل المدينة التى يعيش فيها مركزاً للفنون بمن جمع فيها من الفنانين على اختلاف أنواعهم ومواهبهم . وبفضل معونتهم ، ويده الصناع أخرج صلباناً محلاة بالجواهر ، وماثلات من الذهب والفضة منقوشة عليها صور للحيوان والنبات ، وكأساً من كؤوس القربان

مطعمة بجواهر قديمة تمثل واحدة منها ربات الجمال الثلاث عاريات كعادتهن[٨٨] . وكانت الأبواب الذائعة الصيت التى صنعها فنانوه لكنيسته أولى الأبواب المعدنية فى العصور الوسطى التى صبت صباً بدل أن تصنع من ألواح مستوية ملصقة على الخشب . أما فن العمارة المحلية فلم يكن قد بدت فيه شواهد على تلك الأشكال الجميلة التى ازدانت بها المدن الألمانية فى عصر النهضة ؛ غير أن مبانى الكنائس قد أخذت فى ذلك الوقت تنتقل بالتدريج من الخشب إلى الحجارة ، واستوردت من لمبارديا الآراء الرومانسية الخاصة بالأجنحة ، وأمكنة المرتلين ، والصحن ، والأبراج ، وبدأت وقتئذ كنائس هيلدسهايم ، ولورسخ ، وومز ، وميئز ، وتريير واسپير ، وكولونى . وكان النقاد الأجانب يشكون مما يتصف به هذا الفن الربنى — الرومانسى من سقوف خشبية مستوية ، وإفراط فى الزخارف الخارجية ، ولكن هذه الكنائس تعبر أصدق تعبير عما فى الخلق الألمانى من قوة وصلابة وعن روح ذلك العصر الذى يكافح أشد الكفاح ليرقى إلى مدارج الحضارة .

الباب الحادى والعشرون

صراع المسيحية (٥٢٩ — ١٠٨٥)

الفصل الأول

القديس بندكت حوالى ٤٨٠ ـ ٥٤٣

شهد عام ٥٢٩ إغلاق مدارس أثينة الفلسفية كما شهد افتتاح مونتى كسينو Monte Cassino أشهر الأديرة فى المسيحية اللاتينية . وقد ولد منشوؤه بندكت النرسيائى Benedict of Nursia فى بلدة اسپليتو Spoleto ويبدو أن أبويه كانا من طبقة الأشراف الرومانية الآخذة فى الانقراض . ولما أرسل إلى رومة ليتعلم ، هاله ماراه فيها من الفساد الجنسى ، أو أنه كما يقول البعض أحب ولم يفلح فى حبه ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره فر إلى مكان سحيق على بعد خمسة أميال من سبياكو Subiaco فى التلال السبينية ، واتخذ له صومعة فى كهف أسفل هاوية وعاش فيها بضع سنين فى عزلة الرهبان . وتحدثنا محاورات البابا جريجورى الأول كيف كافح بندكت كفاح الأبطال لينسى المرأة :

« التى بعث الشيطان ذكراها إلى قلبه ، وألهب بهذه الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله . . . حتى كادت تغلبه لذة الحب ، وفكر فى أن يهجر البرية ثم لطف الله به فعاد عقله فجأة إلى صوابه ، وأبصر كثيراً من شجيرات العوسج والحسك تنمو بالقرب منه ، فخلع ثيابه وألقى بنفسه فى وسطها وأخذ يتمرغ فيها

مدة طويلة ، فلما وقف على قدميه كان جلده قد تمزق وأصبح فى حال يرثى لها ، وهكذا داوى جراح نفسه بجراح قلبه » .

وبعد أن عاش فى هذه البرية الموحشة بضع سنين واشتهر بين الناس بزهوه وثباته على تقواه ، ألح عليه رهبان أحد الأديرة القريبة منه أن يكون رئيساً لديرهم ؛ ولما أنذرهم بأن حكمه سيكون صارماً ، لم يزدهم ذلك إلا إصراراً على رأيهم ، فلم ير بدا من إجابتهم إلى طلبهم والانتقال معهم إلى ديرهم . ولما قضى معهم أشهراً قليلة أخذهم فيها بأشد النظم دسوا له السم فى النبيذ ، فعاد إلى حياة العزلة ، ولكن بعض الشبان الأتقياء المخلصين جاءوا ليعيشوا بجواره ، ويطلبوا هدايته ، وجاء بعض الآباء بأبنائهم ، ومنهم من كانوا من أهل رومة نفسها ، ليتلقوا عليه العلم ، فلم يحل عام ٥٢٠ حتى قام حول كهفه اثنا عشر ديراً صغيراً بكل منها اثنا عشر راهباً . ولما رأى كثيرون من هؤلاء الرهبان القلائل أن حكمه صارم لا يطيقونه ، انتقل مع أشد أتباعه حماسة إلى مونتى كسينو وهو تل يرتفع ١٧١٥ قدماً عن سطح البحر ، ويطل على بلدة كسينوم Cassinum القديمة التى تبعد عن كپوا أربعين ميلا جهة الشمال الغربى . وهناك هدم معبداً وثنياً ، وأنشأ فى مكانه (حوالى ٥٢٩) ديراً ووضع أساس الحكم البندكتى الذى اهتدت به فيما بعد معظم الأديرة فى بلاد الغرب .

وكان رهبان إيطاليا وفرنسا قد أخطأوا حين حذوا حذو نساك الشرق وعزلتهم ، لأن مناخ أوربا الغربية ونشاط أهلها يجعلان هذا النوع من الحياة شاقا عليهم مثبطا لعزيمتهم ، فأدى ذلك إلى نكوص كثيرين منهم على أعقابهم ؛ فلما جاء بندكت لم يحرم التنسك ولم ينتقد النساك ، ولكنه رأى من الحكمة أن يجعل التنسك جماعيا لا فرديا ؛ خاليا من التنافس والتظاهر ، يخضع فى كل خطوة من خطواته إلى رئيس أحد الأديرة ، ويقف عند الحد الذى إذا تعداه أضر بصحة الجسم أو بالعقل .

ولم يكن يطلب ، حتى ذلك الوقت ، إلى من يدخلون الأديرة ليعيشوا فيها أن يقسموا أى قسم . فأحس بندكت أن الواجب يقضى على الطالب أن يقوم على خدمة راهب حديث العهد ، ليتعلم منه بالتجربة ما يطلب إليه من حياة التقشف ، فإذا ما أتم هذه التجربة لا قبلها أقسم الأيمان . وعليه بعد ذلك إذا شاء أن يتعهد كتابة بالبقاء فى الدير على الدوام ، وإصلاح أخلاقه ، وطاعة رؤسائه ؛ ثم يضع الراهب الجديد هذا القسم الكتابى بنفسه على المذبح ، بعد أن يوقعه ويشهد عليه فى احتفال رهيب . ولم يكن من حق الراهب بعد هذا الحفل أن يغادر الدير إلا بإذن رئيسه وكان الرهبان هم الذين يختارون رئيس ديرهم ، وكان عليه أن يستشيرهم فى جميع الشئون الخطيرة ، ولكنه هو وحده الذى يتخذ القرار الأخير ، وكان عليهم أن يطيعوه طاعة عمياء وهم صامتون : ولم يكن لهم أن يتكلموا إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة ، وألا يمزحوا أو يضحكوا بصوت عال ، وأن يمشوا وهم مطرقون بأبصارهم إلى الأرض . ولم يكن من حقهم أن يمتلكوا شيئاً « سواء كان كتاباً ، أو لوحاً ، أو قلماً — أو شيئاً على الإطلاق . . . بل يجب أن تكون كل الأشياء ملكاً مشاعاً »[٣] . وكان عليهم أن يغفلوا أو ينسوا كل ما شاهدوه من قبل من أحوال الملكية أو الاسترقاق . وكان من واجب رئيس الدير :

ألا يميز بين الأفراد فى الدير . . . فلا يفضل الحر المولد عمن جاء من بين الأرقاء ، إلا إذا كان لهذه التفرقة سبب معقول ، إذ لا فضل لأحدنا على الآخر عند الله سواء كنا عبيداً أو أحراراً ؛ . . لأن الله لا يعظم الأشخاص[٤] .

ويجب على من فى الدير أن يتصدقوا على كل من يطلب الصدقة ، وأن يستضيفوا كل من يطلب الضيافة بقدر ما تتسع له موارد الدير ، وأن « يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه »[٥] ؛ ومن واجب كل راهب أن يعمل — فى الحقول أو الحوانيت ، وفى المطبخ ،

وحول البيت ، وينسخ المخطوطات . . . ولم يكن الرهبان يأكلون شيئا حتى منتصف النهار ، وفى أيام الصوم الكبير لا يأكلون إلا حين تغرب الشمس ، وكانوا فى الفترة الواقعة بين منتصف سبتمبر وعيد الفصح يقتصرون على وجبة واحدة فى اليوم ، وفى أشهر الصيف تباح لهم وجبتان لأن النهار وقتئذ طويل . وكان النبيذ مباحاً أما لحم كل حيوان ذى أربع فكان محرما عليهم . وكانت أوقات العمل أو النوم تقطعها دعوة إلى الصلاة الجماعية . وتأثر بندكت بالمثل الشرقية فقسم اليوم إلى « ساعات كنسية » — أى ساعات للصلوات كما قررها قانون الكنيسة أو قررتها قواعدها . فكان على الرهبان أن يستيقظوا فى الساعة الثانية صباحا ، ويذهبوا إلى المعبد القائم فى الدير ، ويرتلوا ، أو ينشدوا « تسبيحة الليل » وهى قراءة من الكتاب المقدس ، وأدعية ، ومزامير ؛ فإذا طلع الفجر اجتمعوا « لصلاة السحر » أو « تسبيحة الصباح » . وفى الساعة السادسة يجتمعون للصلاة القائمة — صلاة الساعة الأولى ؛ وفى التاسعة يجتمعون للصلاة الثالثة ؛ وفى منتصف النهار يصلون الصلاة « السادسة » ؛ وفى الساعة الثالثة يجتمعون للصلاة التاسعة ؛ وفى الغروب يصلون صلاة المساء ؛ وقبل الذهاب إلى الفراش يصلون صلاة النوم وهى الصلاة الختامية ؛ وكان وقت النوم هو بداية الليل ، وكان الرهبان يستغنون عن الضوء الاصطناعى وينامون بملابسهم العادية وقلما كانوا يستحمون[٦] .

وأضاف بندكت إلى هذه الأنظمة الصريحة بعض الإرشادات العامة التى يتبعها الرجل الكامل المسيحية :

١ — يجب أولا أن يحب الإنسان الله بكامل قلبه ، وكامل روحه ، وكامل قوته ؛

٢ — وعليه أن يحب جاره كما يحب نفسه (٣) وعليه ألا يقتل . . . . وألا يزنى . . . أو يسرق . . . أو يطمع . . . أو يشهد زوراً . . . (٨) وعليه أن يعظم الناس جميعاً . . . . (١١) وأن يطهر جسمه . . . . (١٣) وأن

يحب الصوم . . . (١٤) وأن يعين الفقراء . . . (١٥) وأن يكسو العرايا . . . (١٦) وأن يزور المرضى . . . (٣٠) وألا يتسبب فى الأذى وأن يصبر عليه . . . (٣١) وأن يحب أعداءه . . . (٣٣) وألا يكون مولعاً بكثرة الكلام . . . (٦١) وألا يرغب فى أن يسمى قديساً . . . ولكن عليه أن يكون من القديسين . . . (٧١) وإذا اختلف مع أحد فعليه أن يصافيه قبل أن تغرب الشمس . . . (٧٢) وألا يقنط من رحمة الله[٧] . . .

وكان دير البندكتيين ملجأ يواسى المنكوبين فى عصور الحرب والفوضى ، والشك والتجوال ، يلجأ إليه الفلاحون المعدمون أو المنكوبون ، والطلاب الذين يتوقون إلى مأوى هادئ ، والرجال المتعبون من نزاع العالم وضجيجه ، ويقول لهم : « تخلوا عن كبريائكم وحريتكم ، تجدوا هنا الأمن والسلام » . فلا عجب والحالة هذه إذا نشأت مائة دير مثله للبندكتيين فى جميع أنحاء أوربا ، كل منها مستقل عن غيره من الأديرة ، لا يخضع إلا للبابا وحده ، وهى بمثابة جزائر شيوعية فى بحر من الفردية عجاج . وكانت القواعد والنظم البندكتية من أثبت وأبقى ما ابتدعته العقول فى العصور الوسطى . وكان دير كسينو نفسه رمزاً لهذا البقاء ، فقد نهبه اللمبارد الهمج فى عام ٥٨٩ ؛ فلما انسحب اللمبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون فى عام ٨٨٤ ؛ فأعاد الرهبان بناءه ؛ ونهبه الجنود الفرنسيون فى عام ١٧٩٩ ، وهدمته قنابل الحرب العالمية الثانية وقذائفها ، حتى سوته بالأرض فى عام ١٩٤٤ . وهاهو ذا اليوم (١٩٤٨) يعيد بناءه مرة أخرى رهبان القديس بندكت بأيديهم ، فهو كالشجرة الطيبة إذا قطعت نمت وأزهرت من جديد .

الفصل الثاني

جريجوري الأكبر ٥٤٠ ؟ — ٦٠٤

بينا كان بندكت ورهبانه يعملون ويصلون آمنين مسالمين في مونتي كسينو ، كانت الحرب القوطية (٥٣٦ — ٥٥٣) تجتاح إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها وتترك الفوضى والفاقة أينما حلت . واضطربت الحال الاقتصادية في المدن وحلت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق في رومة نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثي الإمبراطورية ، يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيدون عنهم لا يتقاضون مرتباتهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذي عينين وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الكنسي ، ولهذا أصدر جستنيان في عام ٥٥٤ مرسوماً يطلب فيه أن « يختار الأساقفة والرجال المشهورون في كل ولاية الأشخاص اللائقين الصالحين لتصريف شئون الحكومة المحلية »[٨] ولكن جثة جستنيان لم تكد تبرد في مثواها الأخير حتى أخضعت غزوات اللمبارد (٥٦٨) شمالي إيطاليا مرة أخرى إلى الهمجية وإلى المذهب الأريوسي وهددت صرح الكنيسة كله وزعامتها في إيطاليا بأشد الأخطار . وخلقت هذه الأزمة رجلا ، وكان التاريخ مرة أخرى شاهداً بما للعبقرية من أثر عظيم :

ولد جريجوري في رومة قبل موت بندكت بثلاث سنين ، وهو ينتمي إلى أسرة عريقة من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد قضى صباه في قصر جميل على سفح تل كثيليا Caelian . ولما توفي أبوه ورث عنه ثروة طائلة ، وارتقى بسرعة في سلم المناصب السياسية فكان في الثالثة والثلاثين من عمره عمدة لرومة ، ولكنه لم يجد

فى نفسه ميلا للشئون السياسية ، ولهذا فإنه حين أتم السنة التى يحق له فيها أن يتولى منصبه ، وأيقن ، كما يبدوا من أحوال إيطاليا ، ومما كان يردده الناس على الدوام ، أن آخرة العالم قد اقتربت(٩) ، أنفق معظم ثروته فى إنشاء سبعة أديرة ، ووزع ما بقى منها صدقات للفقراء ، وتخلى عن جميع مظاهر طبقته ، وحول قصره إلى دير للقديس أندر St. Andrew وصار أول راهب فيه ، وأخذ نفسه بأشد أنواع الزهد صرامة ، ولم يطعم فى معظم أيامه إلا الخضر والفاكهة ، وأكثر من الصيام إلى حد أنه لما أقبل يوم سبت النور الذى يحتم فيه الصيام خيل إلى من يراه أن صوم يوم واحد بعده سيقضى عليه لا محالة . غير أنه كان يذكر بالخير الثلاث السنين التى قضاها فى الدير ويقول إنها أسعد سنى حياته :

ثم انتزع من هذا الهدوء ليكون « شماساً سابعاً » فى خدمة البابا بندكت الأول ، ثم أرسله البابا بلاجيوس Pelagius الثانى سفيراً له فى البلاط الإمبراطورى بالقسطنطينية . وظل بين ألاعيب السياسة وأبهة القصور يعيش معيشة الراهب فى عاداته ، وطعامه وصلواته(١٠) ، وإن كان مع ذلك قد خبر العالم وما فيه من مكر وخداع خبرة أفاد منها كثيراً . واستدعى مرة أخرى إلى رومة عام ٥٨٦ . وعين رئيساً لدير القديس أندرو ، ثم فشا فى عام ٥٩٠ طاعون دملى مروع قضى على عدد كبير من أهل رومة وكان بلاجيوس من ضحاياه ، وبادر رجال الدين والشعب إلى اختيار جريجورى ليخلفه ؛ وكان يعز على جريجورى أن يترك ديره فكتب إلى إمبراطور الروم يرجوه ألا يوافق على اختياره للمنصب الجديد ، ولكن عمدة المدينة احتجز الرسالة ، وبينا كان جريجورى يعد العدة للهرب ، ألقى القبض عليه ، وحمل بالقوة إلى كنيسة القديس بطرس حيث أقامه جريجورى آخر ، أو هكذا يقولون ، بابا(١١) .

وكان وقتئذ فى الخمسين من عمره ، وقد دب الصلع فى رأسه فى هذه السن المبكرة . وكان كبير الرأس أسمر اللون ، أقنى الأنف ، خفيف شعر اللحية ، أصدأه ، قوى

الإحساس ، حلو الحديث ، ماضى العزيمة ، رقيق العاطفة ؛ وكان تقشفه الشديد وتبعاته الكثيرة قد أتلفت صحته ، فكان يشكو عسر هضم ، وحمى بطيئة خفيفة ، وداء النقرس . وعاش فى القصر البابوى كما كان يعيش فى الدير — يلبس ثوب الرهبان الخشن ، ويأكل أرخص الأطعمة وأشدها خشونة ، ويشارك مساعديه من الرهبان والقسيسين فى حياتهم العامة . ولم يمنعه انهماكه فى معظم أوقاته فى مشاكل الدين والدولة من أن يوجه كلمة أو يقوم بعمل يشعران بالعطف والحنان . من ذلك أنه أبصر فى يوم من الأيام شاعراً جوالا على باب قصره ومعـــه أرغن وقرد . فأمر جريجورى الرجل بالدخول ، وقدم له الطعام والشراب(١٣) . ولم يكن ينفق إيرادات الكنيسة فى تشييد صروح جديدة بل أنفقها فى الصدقات ، وفى الهبات للمعاهد الدينية فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، وفى افتداء أسرى الحروب . وكان يوزع على كل أسرة فقيرة فى رومة كل شهر قدراً من الحبوب ، والنبيذ ، والجبن ، والزيت والسمك ، واللحم ، والثياب ، والمال . وكان عماله يحملون الطعام المطبوخ فى كل يوم إلى العجزة والمرضى ؛ وكانت رسائله غاية فى الصرامة لرجال الكنيسة المهملين ، ولكبار الحكام السياسيين ، ولكنها كانت تفيض رقة وحناناً للمنكوبين : من فلاح يشتغل فى أرض الكنيسة ، إلى أمة تريد أن تدخل الدير ، أو سيدة شريفة يؤنبها ضميرها على ما اقترفت من آثام . وعلى هذا النحو كان القس راعياً بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ ، راعياً يعنى بقطيعه ، وكان للبابا الصالح الحق كل الحق فى أن يؤلف كتابه المسمى Liber Pastoralis curae (٥٩٠) ، وهى كتاب موجز فى النصائح يسديها إلى الأساقفة ، صارت فيما بعد من المراجع المسيحية الهامة ، ولم يمنعه مرضه الدائم وشيخوخته المبكرة من أن ينهك قواه فى تصريف الشئون الكنسية ، والسياسة البابوية ، والأعمال الزراعية ، والخطط العسكرية ، وتأليف الرسائل الدينية ، والنشوة الصوفية ، والاهتمام الشديد بآلاف تفاصيل الحياة البشرية . وقد خلع على منصبه السامى

ما يتصف به الدين من تواضع ، فلقب نفسه فى أولى رسائله الباقية لدينا اليوم « خادم خدم الله » servus servorum Dei ، وقد ارتضى أعظم البابوات لأنفسهم هذا اللقب النبيل .

وامتازت إدارته لشئون الكنيسة بالاقتصاد الحكيم ، والإصلاح الصارم الشديد ، وقد بذل جهوداً جبارة فى قمع التسرى والمتاجرة بالرتب الكهنوتية بين رجال الدين ، وأعاد النظام إلى الأديرة اللاتينية ، ونظم علاقتها بالبابا وبرجال الدين من غير الرهبان . وأصلح قانون القداس ولعله كانت له يد فى نشأة النشيد « الجريجورى » ، وقمع ما كان قائماً فى ضياع البابا من استغلال ، وقدم القروض من غير فائدة للزراع المستأجرين ، ولكنه لم يتوان عن جمع إيراد أملاك الكنيسة بالحزم والسرعة ، وعرض بدهائه على اليهود الذين يعتنقون المسيحية أن يخفض لهم إيجار أملاك الكنيسة ، وقبل للكنيسة الأراضى التى كان يهبها لها الأشراف الذين أقضت مضاجعهم مواعظه عن اقتراب نهاية العالم (١٤) .

وكان فى هذه المشاغل كلها يقابل أعظم حكام زمانه ويناقشهم فى الشئون السياسية ، يغلبهم فى معظم الأحيان ويغلبونه فى بعضها ، ولكنه ترك فى آخر الأمر سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و « ميراث بطرس » (أى الولايات البابوية فى إيطاليا الوسطى) ترك هذه كلها أعظم وأوسع رقعة مما كانت قبله . وقد اعترف من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم ، ولكنه كان يتجاهل هذه السيادة من الوجهة العملية ؛ مثال ذلك أنه لما أن هدد دوق اسپليتو مدينة رومة — وكان فى حرب مع نائب الإمبراطور فى رافنا — عقد جريجورى صلحاً مع الدوق دون أن يستشير فى ذلك نائب الإمبراطور أو الإمبراطور نفسه ، ولما أن حاصر اللمبارد مدينة رومة اشترك جريجورى فى تنظيم الدفاع عنها .

غير أنه كان يأسف لكل دقيقة يقضيها فى الشئون الدنيوية ، ويعتذر لجماعات المصلين لعجزه عن أن يلقى عليهم عظات تريح بالهم بين المتاعب الدنيوية التى

تشغل باله هو ، وقد أسعده أن يوجه عنايته فيما أتيح له من سنى الهدوء القلائل إلى نشر الإنجيل فى أوربا ، وأخضع لسلطانه أساقفة لمبارديا المتمردين ، وأعاد المذهب الكاثوليكى السليم إلى أفريقية ، وتلقى تحويل أسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكى ، وكسب انجلترا لهذا المذهب دون أن يكلفه ذلك أكثر من أربعين راهباً بعث بهم إليها . ولما أبصر وهو رئيس دير القديس أندرو بعض الأسرى الإنجليز يعرضون للبيع فى أحد أسواق الرقيق فى رومة دهش كما يقول بيد Bede ذو النزعة الوطنية :

« من بياض إهابهم ، ووسامة وجوههم ، وجمال شعرهم ، فأخذ يتأملهم لحظة وجيزة ، ثم سأل ، كما يقولون ، عن الإقليم أو البلد الذى جىء بهم منه . ولما قيل له إنهم جاءوا من بريطانيا ، وإن هذه هى صور أهلها ، سأل مرة أخرى هل سكان تلك البلاد مسيحيون . . . فلما أجيب بأنهم كفرة من عباد الأوثان صاح هذا الرجل الصالح قائلا . . . واأسفاه ! إنى ليحزننى أن يكون أولئك الناس الحسان ذوو الوجوه المشرقة من أتباع ملك الظلام ، وأن تكون لأصحاب هذا المظهر الجميل عقول خالية من الجمال الداخلى » . ثم سأل من أجل هذا مرة أخرى عن اسم أولئك الأقوام ، فقيل له إن اسمهم الإنجليز Angles ، فلما سمع هذا قال : « ألا ما أجدرهم بهذا الاسم(*) لأن لهم وجوهاً كوجوه الملائكة ، وخليق بأولئك الرجال أن يرثوا مع الملائكة ملكوت السموات[١٥] » .

ثم تقول القصة بعدئذ — وهى أطرف من أن تصدق — إن جريجورى استأذن البابا پلاجيوس الثانى أن يذهب على رأس جماعة من المبشرين إلى انجلترا ، فلما أذن له البابا بذلك بدأ رحلته ، ولكنه وقف عن مواصلة الرحلة حين سقطت جرادة على الصفحة التى كان يقرأها فى الكتاب المقدس ؛ فصاح من فوره لوكستا Locusta ، « إن معنى هذا loca sta » — أى أقم فى مكانك[١٦] .

(*) يشير إلى ما بين Angles أى الإنجليز و Angels أى الملائكة من تجانس . (المترجم)

وشغلته بعد ذلك بقليل شئون البابوية ولكنه لم ينس إنجلترا ، فلما كان عام ٥٩٦ أرسل إليها بعثة برياسة أوغسطين كبير الرهبان فى دير القديس أندرو. فلما وصلت البعثة إلى غالة عاد الرهبان أدراجهم ، إذ روعتهم أقاصيص الفرنجة عن وحشية السكسون ، فقد قيل لهم إن « أولئك الملائكة » وحوش مفترسة ، القتل عندهم أفضل من الأكل ، متعطشون لدماء الآدميين ، وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين . وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار إلى رومة ، ولكن جريجورى أنبه على ما فعل وشجعه على العودة ، وأرسله إلى إنجلترا مرة أخرى فأتم بالسلم فى عامين اثنين ما فعلته رومة بالحرب فى تسعين عاما ، ثم لم يلبث عملها أن عفت آثاره .

ولم يكن جريجورى فيلسوفاً دينياً مثل أوغسطين العظيم ، كما أنه لم يكن من الكتاب أصحاب الأساليب الجيدة مثل جيروم ذى الأسلوب الممتع الجذاب . ولكن كتاباته كان لها أعمق الأثر فى عقلية الناس فى العصور الوسطى ، وكانت تعبر عن هذه العقليه أصدق تعبير ؛ ولهذا فإن كتابات أوغسطين وچيروم تبدو إلى جانبها كأنها من أقلام اليونان والرومان الأقدمين . وقد خلف وراءه كتباً فى الدين تواثم عقلية الجماهير ، حوت من السخف الكثير ما يحير الإنسان فلا يدرى هل كان يؤمن هذا الإدارى العظيم حقا بما يكتبه ، أو أنه لم يكن يكتب إلا ما يرى أن من الخير للنفوس الساذجة الأثيمة أن تؤمن به . وأعظم كتبه إمتاعاً هو ترجمته لحياة بندكت — وهى فى واقع الأمر أنشودة ساحرة من التبجيل لا يدعى فيها أنه حرص على تمييز الأوهام من الحقائق تمييز الناقد البصير . وخير تراثه الأدبى هو رسائله الثمانمائة ، ففيها يكشف هذا الرجل المتعدد المواهب عن قدرته فى مائة من الميادين ، ويرسم دون أن يشعر صورة دقيقة لعقله وزمانه . وقد أحب الشعب محاوراته لأنه يعرض عليهم فيهـــا أعجب القصص عن رؤى رجال الدين فى إيطاليا ، ونبوءاتهم ، ومعجزاتهم ، على أنها حقائق تاريخية . ففيها

يقرأ القارئ عن الحجارة الضخمة يحركها الناس بصلواتهم ، وعن قديس يستطيع أن يتخفى عن أعين الخلق ، وعن سموم تصبح عديمة الضرر بفعل علامة الصليب ، وعن أطعمة تنزل وتتكاثر بفعل المعجزات ، وعن مرضى يشفون من أمراضهم وأموات يعودون إلى الحياة . ويتكرر فى هذه المحاورات ذكر المخلفات وما لها من قوة ، ولكن أعجب ما فيها ما يذكره عن السلاسل التى قيل إن بطرس وبولس قد قيدا بها ؛ وكان جريجورى يحرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة ، ويهدى برادة منها إلى أصدقائه ؛ وقد كتب مع هدية من هذا النوع إلى صديق مصاب بالرمد : « احرص على أن تضع هذه فوق عينيك باستمرار ، لأن هذه الهدية بعينها قد أتت بكثير من المعجزات » (١٧) . وقصارى القول أن مسيحية الجماهير قد استحوذت على عقل البابا العظيم وقلمه .

وكانت أعظم محاضراته فى ميدان الدين هى كتابه Magna Moralia — وهو شرح لسفر أيوب فى ستة مجلدات . وهو يروى هذه المسرحية على أنها تاريخ حقيقى فى كل سطر من سطوره ، ولكنه بالإضافة إلى هذا يبحث فى كل سطر عن معنى مجازى أو رمزى ، ويختمها بقوله إنه يجد فى سفر أيوب جميع آراء أوغسطين الدينية . ويعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معان ، وأنه فى حد ذاته نظام كامل من الحكمة والجمال ، وأن على كل إنسان ألا يضيع وقته ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثنية اليونانية والرومانية القديمة . على أن بعض آيات الكتاب المقدس فى رأيه يكتنفها الغموض ، وأنها كثيراً ما تصاغ فى لغة شعبية تصويرية ، ولهذا فهى فى حاجة إلى أن تعنى بتفسيرها عقول مدربة ، والكنيسة وهى الأمينة على التقاليد المقدسة هى وحدها التى يحق لها أن تقوم بهذا التفسير والعقل الفردى أداة ضيقة مولعة بالتقسيم ، لم توجد لتعالج الحقائق التى تسمو على الحواس ، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا ،

خسر كل شيء حتى ما يستطيع فهمه » . وليس في مقدور أفهامنا أن تعرف الله ، وكل ما فى وسعنا أن نقول إنه ليس كذا وكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول ما هو ؛ و « يكاد كل ما يقال عن الله يكون غير خليق به لمجرد أنه يمكن أن يقال عنه »[١٩] ولهذا لايحاول جريجورى محاولة صريحة أن يثبت وجود الله ، ولكنه يقول إن فى وسعنا أن نشير إلى وجوده بالتفكير فى النفس البشرية : أليست هى القوة الحية وهادية الجسم ؟ ثم يقول جريجورى : « وكثيراً ما رأى عدد كبير من الناس . . . فى هذه الأيام أرواحاً تفارق أجسامها »[٢٠] . ومأساة الإنسان الكبرى هى أنه قد فسدت فطرته بتأثير الخطيئة الأولى ، فمالت به إلى الشر ، وهذا التكوين الروحى الفاسد الأساس ينتقل من الوالد إلى الولد بفعل التناسل الجنسى : فإذا ما ترك الإنسان وشأنه أضاف ذنباً إلى ذنب واستحق بذلك العذاب الدائم . وليست النار اسماً على غير مسمى ، بل هى هوة سحيقة تحت الأرض مظلمة لا قرار لها وجدت من يوم أن خلق العالم . وهى نار لا ينطفئ لظاها مجسمة ، ولكن فى مقدورها رغم ذلك أن تطهر الأرواح والأجسام ؛ وهى أبدية ولكنها لا تفنى المذنبين أو تنقص من إحساسهم بالألم ، ويضاف إلى آلامهم فى كل لحظة يقضونها متألمين رعبهم مما ينتظرونه من آلام مقبلة ، ومن مشاهدة ما يلاقيه أحباؤهم المذنبون من هول العذاب ، ويأسهم من النجاة ، أو من السماح لهم بالفناء[٢١] . وأوضح جريجورى بطريقة أقل إرهاباً من هذه الطريقة قول أوغسطين عن المطهر الذى يتم فيه الموتى التكفير عن ذنوبهم التى عفا الله عنها . وهنا يفعل جريجورى ما يفعله أوغسطين فيطمئن أولئك الذين روعهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله ، وشفاعة القديسين وثمار تضحية المسيح بنفسه ، وما للقاء الربانى من قوة خفية عجيبة فى نجاتهم ، وهى قوة فى متناول جميع التائبين المسيحيين .

ولعل تعاليم جريجورى الدينية تنعكس عليها صحته المعتلة كما تنعكس عليها فوضى زمانه : فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها فى عام ٥٩٩ يقول « قضيت أحد

عشر شهراً قلماً غادرت فيها فراشي ، ينتابني فيها النقرس والقلق المؤلم . . .
إلى حد صرت أرجو معه النجاة منه بالموت » ، وكتب فى عام ٦٠٠ مرة
أخرى : « أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين ، وقد اشتد بى الألم إلى حد
أكاد أعجز معه عن مغادرة سريرى مدة ثلاث ساعات أحتفل فيها
بالقداس . وأنا أحس فى كل يوم بأننى على حافة القبر وأنى فى كل يوم
أرد عنه » . وكتب فى عام ٦٠١ : « لقد مضى زمن طويل لم أغادر فيه
الفراش ، وما أعظم اشتياق إلى الموت »[٢٢] . وجاءه الموت فى عام ٦٠٤ .

لقد كان جريجورى المسيطر على أواخر القرن السادس ، كما كان
جستنيان المسيطر على بدايته ، وكان له فى هذه الحقبة أثر فى الدين لا يعلو
عنه إلا أثر النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم يكن جريجورى من
رجال العلم ولا من المتبحرين فى الدين . ولكن هذه البساطة هى التى
جعلت له فى عقول الناس أثراً أعظم من أثر أوغسطين الذى كان يهتدى
بهديه فى تواضع فاتن جذاب . أما من حيث الناحية العقلية فقد كان أول
من تمثلت فيها عقلية العصور الوسطى أصدق تمثيل[٢٣] ، فبينا كانت
يده تدير شئون إمبراطورية مشتتة ، كان تفكيره منصرفاً إلى فساد الطبيعة
البشرية وغواية الشياطين التى لا يخلو منها مكان على ظهر الأرض ، وإلى
نهاية العالم القريبة . وكان يخطب خطباً قوية فى تلك العقائد الدينية المرعبة
التى ظلت تغشى عقول الناس قروناً عدة ، وكان يؤمن بجميع المعجزات
الواردة فى القصص الشعبية الخرافية ، وبكل ما يعزى لمخلفات القديسين ،
وصورهم ، وأورادهم من تأثير سحرى ؛ ويعيش فى عالم ملىء بالملائكة ،
والشياطين ، والسحرة والأشباح ؛ وتجرد عقله من كل معنى يشعر بأن للعالم نظاماً
قائماً على أساس العقل ، وكان العلم فى رأيه مستحيل الوجود فى الكون ، وكان
الدين الرهيب هو وحده الذى بقى فيه . وقد ارتضت القرون السبعة التى جاءت
بعد هذه النظرية ، وحاول الفلاسفة المدسيون جهدهم أن يصوروها بصورة

تتفق مع العقل ، وكانت هى الأساس المؤتس الذى بنيت عليه المملكة الإلهية .

ولكن هذا الرجل بعينه الذى يؤمن بالخرافات ويبادر إلى تصديقها ، والذى حطمت جسمه تقواه المرعبة الرهيبة ، هذا الرجل كان فى قوة إرادته وفى قدرته على العمل رومانياً من الطراز القديم ، لا ينثنى عن قصده ، صارماً فى أحكامه ، حازماً ، عملياً ، محباً للنظام وإطاعة القانون ، وضع للأديرة قانوناً ، كما وهبها بندكت حكماً ، أقام سلطة البابوية الزمنية ، وحررها من سلطان الإمبراطورية ، وصرف شئونها بحكمة واستقامة جعلتا الناس يرون فيها ملاذاً يهرعون إليه فى العصور العاصفة المقبلة . وقد اعترف بفضله وقدسه من جاء بعـــده من البابوات ولقبه الخلف المعجب به « جريجورى العظيم » .

الفصل الثالث

الشؤون السياسية للبابوية ٦٠٤ – ٨٦٧

ووجد البابوات الأولون الذين جاءوا بعده أن من أشق الأمور عليهم أن يستمسكوا بكل ما كان يستمسك به من أهداب الفضيلة ، أو يحتفظوا بكل ما كان له من سلطان ؛ بل ارتضت الكثرة الغالبة منهم أن تخضع لسلطان حكام الولايات أو للإمبراطور ، وكثيراً ما لاقوا المهانة وهم يحاولون أن يقاوموا هذا السلطان . وكان الإمبراطور هرقل Heraclius يتوق إلى توحيد إمبراطوريته التي أنقذها من أعدائه الفرس ، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذى المذهب اليعقوبى – القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، – وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكثلكة الأساسية والقائل بأن للمسيح طبيعتين . ومن أجل هذا أصدر فى عام ٦٣٨ منشوراً يعرض فيه التوفيق بين المذهبين بالاعتقاد بأن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة . ووافق البابا هونوريوس Honorius الأول على هذا الاقتراح وأضاف إلى ذلك قوله إن مسألة الإرادة الواحدة أو الإرادتين « مسألة أتركها للنحويين لأنها من المسائل القليلة الخطر »(٢٤) . ولكن رجال الدين فى الغرب نددوا بموقفه هذا ؛ ولما أصدر الإمبراطور كنستانس Constans الثانى منشوراً (٦٤٨) يبدى فيه ميله إلى هذا المذهب رفضه البابا مارتن Martin الأول ، فأمر الإمبراطور حاكم رافنا أن يقبض على البابا ويأتى به إلى القسطنطينية ؛ ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطور نفى إلى شبه جزيرة القرم ، وبقى بها إلى أن مات فى عام ٦٥٥ . ورفض المجلس المسكونى السادس الذى اجتمع فى القسطنطينية عام ٦٨٠ المذهب الجديد وحكم على البابا هونوريوس بأنه يحابى الخارجين على الدين(٢٥) ، ووافقت الكنيسة الشرقية التى آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام

ومصر التى تدين بمذهب اليعقوبيين ، على هذا الحكم ، وخفقت راية السلام الدينية لحظة وجيزة فى سماء الشرق والغرب جميعاً .

ولكن إذلال البابوية المتكرر على أيدى أباطرة الشرق ، وما حل بيزنطية من الضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين فى آسية وأفريقية وأسبانيا ، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وعجز القسطنطينية أو راقنا عن أن تحمى الولايات البابوية بإيطاليا من هجمات اللمبارد ، كل هذا اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة فى النماء والقوة . وخشى البابا استيفن الثانى (٧٥٢ — ٧٥٧) أن يستولى اللمبارد على رومة فيحط ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك اللمبارد ، فاستغاث بالإمبراطور قسطنطين الخامس ، ولكن الإمبراطور لم يغثه ، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة ، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسة غاية فى الخطر . فقد لبى بيبين القصير نداءه ، وأخضع اللمبارد ، ونفح البابوية « بهبة بيبين » التى أغنتها إذ منحتها جميع إيطاليا الوسطى (٧٥٦) ؛ وبفضلها قامت سلطة البابوات الزمنية . وبلغت هذه السياسة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شارلمان ، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إمبراطور على الغرب إلا إذا مسحه أحد البابوات . وهكذا أضحت أسقفية جريجورى الأول التى لا حول لها ولا طول من أعظم الدول فى أوروبا . ولما مات شارلمان (٨١٤) ، انقلبت عطية الفرنجة للكنيسة ظهراً لبطن ، فأخضع رجال الدين فى فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم ، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان .

وكان الأساقفة فى بادئ الأمر أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسيين والألمان ومنازعاتهم . ذلك أن رؤساء الأساقفة تحالفوا مع الملوك فى ألمانيا ، فنالوا بفضل هذا التحالف أملاكا واسعة ، وحصل الأساقفة والقساوسة على سلطات

إقطاعية كادوا يستقلون بها عن البابوات . ويلوح أن غضب الأساقفة الألمان واستياءهم من استبداد رؤسائهم كان هو منشأ « الأحكام البابوية الكاذبة » ، وهي مجموعة الأحكام التي قوت فيما بعد سلطان البابوية ، والتي كانت تهدف في بادئ الأمر إلى تقرير حق الأساقفة في أن يستأنفوا أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم . ولسنا نعرف متى صدرت هذه الأحكام ولا أين صدرت ، ولكن أغلب الظن أنها جمعت في مدينة متز عام ٨٤٢ . وكان واضعها قس فرنسي تسمى باسم إزدورس مركاتور Isdorus Mercator . وكانت هذه المجموعة غاية في البراعة تشمل بالإضافة إلى طائفة كبيرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من المجامع الدينية أو البابوات ، عدداً من المراسيم والخطابات تعزوها إلى البابوات مبتدئة من كلمنت الأول (٩١ — ١٠٠) إلى ملخيادس Melchiades (٣١١ — ٣١٤) . وكان الغرض الذي تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة تقضي بألا يخلع أي أسقف من منصبه ، وألا يدعى أي مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع ، وألا يفصل في أية مسألة من المسائل الكبرى ، إلا بعد موافقة البابا . وتدل هذه الشواهد على أن البابوات جميعاً ، حتى الأولين منهم ، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان العالمي المطلق بوصفهم خلفاء المسيح في الأرض . وكان البابا سلفستر الأول (٣٢٤ — ٣٣٥) يوصف في هذه الأحكام بأنه قد أصبحت له بمقتضى « هبة قسطنطين » السلطة الزمنية والدينية الكاملتين على جميع أوربا الغربية ، وأن « هبة پيپين » بناء على هذا لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس ، وبدا أن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بتتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقباً من زمن بعيد لحق يرجع في أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه . ومما يؤسف له أن كثيراً من الوثائق المزورة تنقل نصوصاً من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس . ومن المعروف أن جيروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس .

ولقد كان فى وسع كل من أوتى قدراً من العـلم أن يكشف عن هذا التزوير ، ولكن البحث العلمى كان قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر ، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التى تعزوها هذه الأحكام البابوية إلى أساقفة رومة الأولين قد صدرت من هذا البابا أو ذاك من البابوات المتأخرين ، كان هذا القول وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد ، . ولهذا ظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم(*) .

وكان من المصادفات الطيبة أن كان ظهور « الأحكام الكاذبة » قبيل انتخاب شخصية من أعظم الشخصيات شأناً فى تاريخ البابوية ، تلك هى شخصية نقولاس Nicholas الأول (٨٥٨ — ٨٦٧) وكان نقولاس قد تلقى تعليماً عالياً فذا فى قانون الكنيسة وتقاليدها ، وتدرب على مهام منصبه السامى بأن كان مساعداً محبوباً لطائفة من البابوات . وكان يضارع جريجورى الأول والثانى العظيمين فى قوة الإرادة ، ويفوقهما فى سعة مطامعه ونجاحه الوصول إليها . وقد أقام منطقه على قضيتين يقبلهما وقتئذ جميع المسيحيين : وهما أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ، وأن أساقفة رومة ورثوا سلطات بطرس واحداً بعد واحد فى تسلسل متصل ، ثم استنتج من هاتين القضيتين استنتاجاً يقبله العقل وهو أن البابا ، ممثل الله على ظهر الأرض ، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين — حكاماً كانوا أو محكومين — فى شئون الدين والأخلاق إن لم تكن فى جميع الشئون . ونشر نقولاس بفصاحته هذه الحجة السهلة ، ولم يجرؤ أحد فى البلاد المسيحية اللاتينية على معارضتها ، وكل ما كان يرجوه الملوك ورؤساء الأساقفة ألا يحملها محمل الجد أكثر مما يجب .

لكنه خيب رجاءهم : ذلك أنه لما أراد لوثير الثانى ملك لورين أن يطلق

(*) ولقد كشف لورنزو ڤلا فى عام ١٤٤٠ ، بما لا يترك مجالا الشك ، عما فى هذه الأحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا فإن جميع الطوائف مجمعة فى هذه الأيام على أن هذه الوثائق التى كانت مثاراً للجدل وثائق مزورة (٢٦)

زوجته ثيوثيرجا Theutherga ويتزوج عشيقته ولدرادا حقق الرؤساء الدينيون مملكته رغبته ، فلجأت ثيوثيرجا إلى البابا نقولاس ، وأرسل البابا مبعوثيه إلى متز لينظروا فى الأمر . ونفح لوثير أولئك المبعوثين برشا سخية ليؤيدوا الطلاق ، وحمل كبير أساقفة تريير وكولونى هذا القرار إلى البابا ؛ ولكن نقولاس كشف ما فيه من تدليس ، وأصدر قراراً بحرمان كبيرى الأساقفة ، وأمر لوثير أن يطرد عشيقته ويعيد زوجته إلى عصمته ؛ فعصى لوثير الأمر وزحف على رومة بجيشه . وأقام نقولاس ثمانى وأربعين ساعة صائماً مصلياً ، وخانت لوثير على أثرها شجاعته فخضع لأوامر البابا .

وحدث أن هنكمار كبير أساقفة ريمس وأعظم الرؤساء الدينيين فى أوربا اللاتينية بعد البابا وحده عزل أسقفا يدعى راثراد Ratherad من منصبه ، فلجأ الأسقف إلى نقولاس (٨٦٣) ؛ فأعاد البابا النظر فى قضيته ، وأمر بإعادة راثراد إلى منصبه ؛ ولما تردد هنكمار فى تنفيذ حكم البابا هدده بأن يصدر قرار بالحرمان على جميع أبرشيته ، وهو قرار يقضى بوقف الصلوات فى جميع كنائسها . واستشاط هنكمار غضباً ، ولكنه خضع . وكان نقولاس يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى ، ولم يجرؤ أحد على معارضته إلا فوتيوس بطريق القسطنطينية . وقد ثبت من التطورات المقبلة أن الأحكام التى أصدرها البابا كانت كلها تقريباً فى جانب العدالة ، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان هو السراج الوهاج الذى أنار دياجير الظلام والملجأ الحصين فى ذلك العصر المنحل ، وكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها فى أقاليم أوسع رقعة من التى كان يعترف بها فيها قبل أن يتولى شئونها .

الفصل الرابع

الكنيسة اليونانية : ٥٦٦ - ٨٩٨

لم يكن فى وسع بطارقة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بهذا السلطان الأعلى لأسقف رومة لسبب واضح هو أنهم كانوا من زمن بعيد خاضعين لأباطرة الروم، وأن هؤلاء الأباطرة لم ينزلوا حتى عام ٨٧١ عن دعواهم بأن لهم السيادة على رومة ومن فيها من البابوات . لقد كان البابوات من حين إلى حين يوجهون النقد إلى الأباطرة ، ويعصون أوامرهم ، بل ويشهرون بهم ؛ ولكن الأباطرة هم الذين كانوا يعينونهم فى مناصبهم ، ويخرجونهم منها ، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد ، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة ، وينشرون آراءهم وتوجيهاتهم الدينية على رجال الدين . ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الدينى المطلق فى العالم المسيحى الشرق إلا سلطان الرهبان ، ولسان البطريق ، واليمين التى يقسمها الإمبراطور حين يتوجه البطريق بأن لا يبتدع بدعة ما فى الكنيسة .

وكانت أديرة الرهبان والراهبات منتشرة وتتلد فى القسطنطينية — بل فى بلاد الشرق اليونانية على بكرة أبيها . وكان عدد هذه الأديرة فى القسطنطينية وحدها يفوق عددها فى الغرب ، حتى لقد استحوذت نزعة التنسك على بعض أباطرة بيزنطية أنفسهم ، فكانوا يعيشون معيشة الزهاد بين ترف القصور ، ويستمعون فى كل يوم إلى القداس ، ويتقشفون فى طعامهم ، ويندمون على خطاياهم كلما اقترفوها . وكانت تقوى الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً فى اتساع الأديرة وكثرة عددها بما كان يهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات فى أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم . وكان الرجال والنساء من أعلى

الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون لدخول الأديرة ، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التى تعفى بعدئذ من الضرائب ، ومنهم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه فى نظير ذلك مرتباً سنوياً . وكانت أديرة كثيرة تدعى أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء ، وكان الناس يعزون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات ، ويقدمون إليهم المال راجين أن ينالوا من وراء استثماره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل . وقد شوه عدد قليل من الرهبان دينهم بكسلهم ، وفسقهم ، وتحزبهم ، وشرههم ، وإن كانت كثرتهم قد تمسكت بأهداب الفضيلة والسلام . وكان الرهبان جميعهم ينالون احترام الشعب ، ويستمتعون بالثراء المادى ، بل يستمتعون أيضاً بنفوذ سياسى لم يكن يسع إمبراطوراً ما أن يتجاهله . وكان ثيودور (٧٥٩ — ٨٢٦) رئيس دير استوديون Studion فى القسطنطينية مثلا أعلى فى التقى والسلطان . وكانت أمه قد وهبته فى طفولته إلى الكنيسة ، فتطبع بجميع الطباع المسيحية إلى حد جعله يهنئ والدته أثناء مرضها الأخير باقتراب منيتها ومجدها . وقد وضع لرهبانه قانوناً للعمل ، والصلاة ، والعفاف ، وتنمية مواهبهم العقلية لا يقل شأناً عن قانون القديس بندكت فى الغرب ؛ ودافع عن استعمال الصور الدينية ، وأنكر أمام الإمبراطور ليو الخامس بمنتهى الجرأة أن من حق السلطة الزمنية أن تتدخل بأية صورة فى الشئون الكنسية . وقد نفى أربع مرات لعناده هذا ولكنه ظل فى منفاه يقاوم محطمى الصور الدينية إلى يوم وفاته .

وأخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد بسبب ما كان بين المذهبين فى هذه القرون من اختلاف فى اللغة والطقوس والعقائد ، وكان مثلهما فى هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم فى المكان وتنوع على توالى الأيام . فقد كانت الطقوس ، والأثواب الكهنوتية ، والآنية ، والزخارف المقدسة فى الكنيسة اليونانية أشد تعقيداً ، وأكثر زخرفاً ، وأعظم عناية بالناحية الفنية من

مثيلاتها فى الغرب . فكان ذراعا الصليب اليونانى مثلا متساويتين ، وكان اليونان يصلون وهم وقوف ، أما اللاتين فكانوا يصلون راكعين ؛ وكان اليونان يعمدون أطفالهم بأن يغمروهم فى الماء المقدس ، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم ؛ وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين ومباحاً للقساوسة اليونان ؛ وكان القسيسون اللاتين يحلقون لحاهم ، أما اليونان فكانوا يرسلونها إرسالا يخلع عليهم مظهر التفكير ؛ وتخصص رجال الدين اللاتين فى الشئون السياسية ، أما اليونان فتخصصوا فى أمور الدين ؛ وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً فى بلاد الشرق الذى ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حد له ؛ ولقد نشأت بأرمينية حوالى عام ٦٦٠ من مبادئ الإلحاد الغنوسطية التى نادى بها بردسانس Bardesanes فى بلاد الشام ، ومن اتجاه الحركة المانوية نحو الغرب على ما يظن ، شيعة من البولسيين Paulicians اشتق اسمها من اسم القديس بولس ، لا تؤمن بالعهد القديم ، ولا بالعشاء الربانى ، ولا تقول بتعظيم الصور المقدسة ولا برمزية الصليب . وانتقلت هذه الطوائف وهذه النظريات كما تنتقل بذور النبات من بلاد الشرق الأدنى إلى البلقان ، وإيطاليا ، وفرنسا . وصبرت صبر أولى العزم على أقسى أنواع الاضطهاد ، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن فى طوائف الملخانى Molokhani ، والخليستى Khlysti ، والدخوبور Dukhobors .

وكان الأباطرة أشد من الشعب إثارة للجدل القائم حول طبيعة المسيح الواحدة ، وما من شك فى أن الشعب لم يكن هو المسئول عن العبارة التى أدخلت على العقائد النيقية فى طيلطلة عام ٥٨٩ ، والتى تقول إن الروح القدس ينبعث من الابن كما ينبعث من الأب ، والتى لم تقبلها الكنيسة اليونانية . وزادت الهوة بين الكنيستين . لقد كانت العقيدة النيقية تتحدث عن « الروح القدس الذى ينبعث من الأب » ex patre procedit ، وظل هذا القول كافياً مدى ٢٥٠ عاماً ؛

ثم حدث فى عام ٥٨٩ أن غيره مجلس من مجالس الكنيسة عقد فى طليطلة فجعله ex patri filioque procedit أى المنبعثة من الأب والابن . وارتضت غالة هذه الإضافة ، واعتنقها شارلمان وعض عليها بالنواجذ . واحتج رجال الدين اليونان وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه . ووقف البابوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين ، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً فى المذهب اللاتينى إلا فى القرن الحادى عشر .

وقام فى هذه الأثناء كفاح بين الإرادات أضيف إلى الكفاح بين الآراء ، فقد كان من بين الرهبان الذين فروا من وجه محطمى الأصنام راهب يدعى إجناثيوس Ignatius ابن الإمبراطور ميخائيل الأول . واستدعت الإمبراطورة ثيودورا هذا الراهب فى عام ٨٤٠ وعينته بطريقاً . وكان رجلا تقياً شجاعاً ، شنع على قيصر بارداس Caesar Bardas رئيس الوزراء لأنه طلق زوجته وعاشر أرملة ابنه ، ولما أصر بارداس على معاشرة أرملة ابنه المحرمة عليه طرده إجناثيوس من الكنيسة ، فما كان من بارداس إلا أن نفى إجناثيوس ، ورفع إلى عرش البطريقية أعظم علماء ذلك العصر وأكثرهم تهذيباً (٨٥٥) . كان فوتيوس (٨٢٠ ؟ — ٨٩١) يتقن علوم اللغة ، والخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ؛ وكانت محاضراته التى يلقيها فى جامعة القسطنطينية قد اجتذبت إليه طائفة من الطلاب المخلصين المتحمسين فتح إليهم مكتبته وبيته . وكان قبل أن يرقى إلى مقام البطريقية قد تم موسوعة فى مائتين وثمانين بابا استعرض فى كل واحد منها أحد الكتب المهمة ونقل نماذج منه . وبفضل هذه الموسوعة الضخمة بقيت لنا فقرات كثيرة من الآداب القديمة ، وارتفع فوتيوس بفضل هذه الثقافة الواسعة فوق تعصب الشعب ، الذى عجز عن أن يفهم السر فى بقائه مرتبطاً برباط الود

والصداقة مع أمير كريت . واستاء رجال الدين فى القسطنطينية حين رأوه يرتفع فجاءة من بين العلمانيين إلى مقام البطريقية ، وأرسل نقولاس الأول مبعوثيه إلى القسطنطينية لينظروا فى الأمر ، وقرر فى رسائله إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث وإلى فوتيوس المبدأ القائل بأن أية مسألة خطيرة من المسائل الكنسية لا يصح أن يفصل فيها فى أى مكان من غير موافقة البابا . وعقد الإمبراطور مجلساً كنسياً أقر تعيين فوتيوس ، وانضم مبعوثو البابا إلى المؤيدين ؛ فلما عادوا إلى رومة أنكر عليهم نقولاس عملهم واتهمهم بأنهم قد خرجوا على التعليمات التى وجهها إليهم ، وأمر الإمبراطور بأن يعيد إجنائيوس إلى منصبه ، فلما تجاهل الإمبراطور هذا الأمر أصدر قراراً بحرمان فوتيوس (٨٦٣) . وهدد بارداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع نقولاس ؛ ورد عليه نقولاس رداً بليغاً سخر فيه منه وأشار إلى خضوع الإمبراطور للمغيرين على أملاكه من الصقالبة والمسلمين :

« إنا نحن لم نغز كريت ، ولم نقفر نحن صقلية من أهلها ؛ ولم نخضع نحن بلاد اليونان ، ولم نحرق الكنائس فى ضواحى القسطنطينية ؛ وبينا يفتح هؤلاء الوثنيون (أملاكك) ويحرقونها ، ويخربونها ، تبعث إلينا أيها المغتر تهددنا بهول جيوشك . إنك تطلق باراباس Barabbas وتقتل المسيح[٢٧] » :

ودعا فوتيوس والإمبراطور مجلساً كنسياً آخر إلى الانعقاد ، وأصدر هـــذا المجلس قراراً بحرمان البابا (٨٦٧) وشنع على « إلحاد » الكنيسة الرومانية ، ومن بينها انبعاث الروح القدس من الأب و الابن ، وحلق القساوسة للحاهم ، وتحريم الزواج على رجال الدين . وأضاف فوتيوس إلى هذا قوله : « ولقد أصبحنا بفضل هذه العادات نرى فى الغرب كثيرين من الأطفال لا يعرفون آباءهم » .

وبينا كان الرسل اليونان يحملون هذا الهزل إلى رومة إذ تبدل الموقف فجأة (٨٦٧) بجلوس بازيل الأول على عرش الإمبراطورية . وكان بازيل قد قتل قيصر بارداس ، وأشرف على اغتيال ميخائيل الثالث . ونادى فوتيوس أن

الإمبراطور الجديد قاتل سفاح ، ورفض أن يمنحه العشاء الربانى . ورد عليه بازيل بأن دعا مجلساً كنسياً إلى الانعقاد ، ونفى فوتيوس ، وأعاد إجناثيوس ؛ ولما مات إجناثيوس بعد ذلك بقليل ، استدعى بازيل فوتيوس ؛ وأعاده مجلس كنسى إلى مقام البطريقية ، ووافق البابا يوحنا السابع على هذا القرار (وكان نقولاس الأول قد مات) . وبهذا تأجل إلى حين انشقاق الكنيستين الشرقية والغربية إحداهما عن الأخرى بموت بطلى هذا الانشقاق .

الفصل الخامس

المسيحية تغزو أوربا (٥٢٩ — ١٠٥٤)

لم يكن أجل الحوادث فى التاريخ الدينى لهذه العصور وأعظمها خطراً هو النزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، بل كان هو ظهور الإسلام وتحديه للمسيحية فى الشرق والغرب على السواء . ذلك أنه لم يكد دين المسيح يجنى ثمار انتصاراته على الامبراطورية الوثنية وعلى الشيع المسيحية الملحدة حتى انتزعت منه أعظم ولاياته عزة على الدين واستمساكا به ، انتزعها منه فى يسر مروع دين يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية والمبادئ الأخلاقية المسيحية(*) . نعم إن البطارقة ظلوا فى كراسيهم بأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية بفضل تسامح المسلمين ؛ ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقاليم ، وكانت المسيحية الباقية فيها مسيحية مارقة قومية . فقد أقامت أرمينية ، والشام ، ومصر سلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن القسطنطينية ورومة . واحتفظت بلاد اليونان بدينها المسيحى لأن الرهبان قد انتصروا فيها على الفلاسفة ، وكان الدير العظيم دير لافرا المقدس الذى أقيم على جبل آثوس Mt. Athos فى عام ٩٦١ يضارع فى عظمته البارثنون بعد أن استحال كنيسة مسيحية . وكان لا يزال بأفريقية فى القرن التاسع الميلادى عدد كبير من المسيحيين ، ولكنهم كانوا يتناقصون تناقصاً سريعاً تحت حكم المسلمين . أما أسبانيا فقد كان الجزء الأكبر منها فى عام ٧١١ قد خرج من أيدى المسلمين ، ذلك أن المسيحية ولت وجهها نحو الشمال بعد هزيمتها فى آسية وأفريقية وواصلت فتوحها فى أوربا .

(*) فى هذا القول كثير من المغالاة فالإسلام لا يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية ولا المبادئ الأخلاقية المسيحية وإن خالفها فى بعض مبادئها وحسبنا دليلا على هذا قول الله سبحانه وتعالى لنبيه : « وجادلهم بالتى هى أحسن » . (المترجم)

وأوشكت إيطاليا أن تقع فى أيدى المسلمين ، ولكنها بعد أن أفلتت منهم انقسمت بين المذهبين المسيحيين اليونانى واللاتينى ، وكاد دير مونتى كسينو يقوم على الحد الفاصل بين المذهبين ، وقد بلغت شهرة هذا الدير غايتها تحت حكم رئيسه دزيدورس (١٠٥٨ — ١٠٨٧) . فقد جاء إليه من القسطنطينية ببابين فخمين من البرنز ، ثم لم يكتف بهذا فجاء إليه أيضاً بصناع ، زينوا داخله بالفسيفساء والميناء ، والزخارف فى المعادن والعاج والخشب . وكاد الدير يصبح جامعة علمية تدرس مناهج فى النحو والآداب اليونانية والرومانية القديمة ، والآداب المسيحية واللاهوت ، والطب ، والقانون . وأخرج الرهبان مخطوطات مزخرفة غاية فى الإبداع على غرار النماذج البيزنطية ، ونسخوا بخطهم الجميل كتب رومة الوثنية القديمة ، ومنها طائفة يرجع الفضل فى بقائها حتى الآن إلى عمل هؤلاء الرهبان . وفى رومة لم تشأ الكنيسة فى عهـــد البابا بنيفاس الرابع وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية آخذة فى التهدم والانحلال بل شرعت تعيد بقاءها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها ، فدشن البانثيون لمريم العذراء ولجميع القديسين (٦٠٩) ، واســـتحال هيكل يانوس كنيسة للقديس ديونيشيوس ، وهيكل زحل (ساترن) كنيسة المخلّص . وجدد ليو الرابع (٨٤٧ — ٨٥٥) كنيسة القديس بطرس وزينها ، وبفضل ازدياد سلطان البابوية ، ومجىء الحجاج إلى تلك المبانى ، تمت حولها ضاحية من مختلف الأجناس واللغات اشتق اسمها من اسم تل الفاتيكان القديم .

وكانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللاتينية . ذلك أن ملوك الأسرة المروفنجية لم يكونوا يرتابون فى قدرتهم على ابتياع ملكوت السموات بعد أن يستمتعوا بتعدد الزوجات وتقتيل الخصوم ؛ فأخذوا يهبون الأسقفيات الكثير من الأراضى والأموال . وكانت الكنيسة فى فرنسا كما كانت فى غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء التائبين والوارثات العابدات الصالحات ؛ ولما حرم

شلبريك Chilperic هذه الهبات ألغى جنترام Gunthram أمر التحريم بعد قليل . وكان من سخريات التاريخ أن رجال الدين فى غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالى الرومانى ، وبهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحى يخرون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم ويردون إليهم بالهبات ما نهبوه منهم فى الحروب(٢٨) . وكان رجال الدين أعظم العناصر قدرة فى غالة ، وأحسنهم تعليما ، وأقلهم فساداً فى الأخلاق ؛ وكادت معرفة القراءة والكتابة أن تكون محصورة فيهم وحدهم ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تجد صادقة مخلصة فى تعليم الشعب الذى كان يعانى الأمرين من شره كبرائه وملوكه ، وفى تقويم أخلاقه ، وإن كانت من بينهم أقلية صغيرة انغمست فى الرذيلة . وكان للأساقفة القسط الأكبر من السلطة الزمنية والدينية فى أبرشياتهم ، وكانت محاكمهم الملجأ المفضل للمتقاضين فى الشئون الدينية وغير الدينية أيضاً . وكانوا أينما وجدوا يبسطون حمايتهم على اليتامى ، والأرامل ، والمعدمين ، والأرقاء ؛ وكانت الكنائس تنشئ المستشفيات فى كثير من الأبرشيات ، ومنها hotel de Dieu — « نزل الله » — الذى افتتح فى باريس عام ٦٥١ . وقد اشتهر سان جرمان St. Germain ، أسقف باريس فى النصف الثانى من القرن السادس فى جميع أنحاء أوربا بما بذله من المجهود فى جمع الأموال — وإنفاق ماله الخاص — لتحرير العبيد . وقوى سيدونيوس أسقف ميتز جسور الرين . وهذب فليكس أسقف نانت مجرى اللوار ، وأنشأ ديديه Didier أسقف كاهور Cahor قنوات لنقل مياه الشرب ، وكان سان أجوبار St. Agobard (٧٧٩ — ٨٤٠) كبير أساقفة ليون نموذجاً صالحاً فى التدين ، وعدواً لدوداً للخرافات ؛ حرم المحاكمة بالمبارزة أو التحكيم الإلهى ، كما حرم عبادة الصور ، وتفسير الزوابع على أنها من أعمال السحر ، وكشف عما فى محاكمة الساحرات من أخطاء فكان بهذا « أكثر رؤوس ذلك الوقت صفاء »(٢٩) . وكان هنكمار الأرستقراطى كبير أساقفة ريمس (٨٤٥ — ٨٨٢) رئيساً لنحو

عشرين من المجالس الكنسية ، وقد ألف ستة وستين كتاباً ، وكان رئيس وزراء شارل الأصلع ، وكاد ينشئ حكومة دينية فى فرنسا .

واتصفت المسيحية فى كل بلد بصفات أهله القومية ، فأصبحت فى أيرلندة صوفية ، عاطفية ، فردية النزعة ، انفعالية ؛ أدخلت فيها الجنيات ، والشعر ، وخيال الكلت العجيب الرقيق ؛ وورث القساوسة قوى الدرويد السحرية ، وأساطير الشعراء الغنائيين ، وكان النظام القبلى فى البلاد مساعداً على تفكك الكنيسة — حتى كادت كل جهة فيها يكون لها « أسقف » مستقل . وكان الرهبان فيها أكثر عدداً وأعظم نفوذاً من الأساقفة والقساوسة ، وكان أولئك الرهبان يعيشون جماعات قلما تزيد الواحدة منها على اثنى عشر راهباً يقيمون فى أديرة شبه منعزلة ، معظمها مستقلة بشئونها ومنتشرة فى أنحاء الجزيرة ، تعترف للبابا برياسة الكنيسة ، ولكنها لا تخضع لإشراف خارجى من أى نوع كان . وكان الرهبان الأسبقون يعيشون فى صوامع منفصلة ، ويعمدون إلى التنسك والزهد ، ولا يجتمعون إلا فى أوقات الصلاة . وجاء بعدهم جيل آخر — « الطبقة الثانية من القديسين الأيرلنديين » — خرجوا على هذه التقاليد المصرية ، فكانوا يدرسون مجتمعين ويتعلمون اللغة اليونانية ، وينسخون المخطوطات ، وينشئون المدارس لرجال الدين وغير رجال الدين . وتخرج فى المدارس الأيرلندية فى القرنين السادس والسابع عدد متتابع من جبابرة القديسين الذائعى الصيت انتقلوا منها إلى اسكتلندة ، وانجلترا ، وغالة ، وألمانيا ، وإيطاليا ، ليعلموا فيها المسيحية المظلمة ويعيدوا إليها الحياة . وقد كتب أحد الفرنجة فى عام ٨٥٠ يقول : « تكاد أيرلندة كلها تهرع جماعات إلى سواحلنا ومعها حشد من الفلاسفة »[٣٠] . وهكذا انعكست الآية واستُرِدّ الدَّين ، فبعد أن طردت غارات الألمان على غالة وبريطانيا العلماء من هذين البلدين إلى أيرلندة ، أخذ المبشرون الأيرلنديون يلقون بأنفسهم على فاتحى إنجلترا الوثنيين من الإنجليز والسكسون ؛

والنرويجيين ، والدنمرقيين ، وعلى المسيحيين الأميين نصف الهمج فى غالة وألمانيا ، يحملون الكتاب المقدس بإحدى يديهم والمخطوطات اليونانية والرومانية القديمة باليد الأخرى ، ولاح وقتاً ما أن الكلت سوف يستردون عن طريق المسيحية ما خسروه من الأراضى بالقوة . وبذلك كانت العصور المظلمة هى التى أشرقت فيها الروح الأيرلندية وتلألأت كما لم تتلألأ من قبل ولا من بعد .

وكان أعظم أولئك المبشرين هو سانت كولمبا St. Columba ، ونحن نعرف الشيء الكثير عنه من سيرته التى كتبها له (حوالى عام ٦٧٩) أدمنان Adamnan أحد خلفائه فى أيونا Iona . وقد ولد كولمبا فى دنجال Donegal عام ٥٢١ ، وكان يجرى فى عروقه دم الملوك ؛ وكان كما كان بوذا قديساً فى وسعه أن يكون ملكا . وبدا عليه وهو طالب فى مدرسة موفيل Moville من الورع ما جعل معلمه يلقبه كولمبكيل Columbkille أى عماد الكنيسة . وأنشأ مذ كان فى الخامسة والعشرين من عمره عدداً من الكنائس والأديرة أشهرها كلها ما كان منها فى دِرى Derry ، ودرو Durrow ، وكلز Kells . ولكنه لم يكن قديساً فحسب ، بل كان فوق ذلك مكافحاً « قوى البنية ، جهورى الصوت »[٣١] ، سبب له تهوره كثيراً من النزاع ثم إلى الحرب مع الملك ديرمويد Diarmuid ؛ ودارت بينهما آخر الأمر معركة قتل فيها ، على حد قولهم ، ٥٠٠٠ رجل . وانتصر فيها كولمبا ولكنه رغم انتصاره فر من أيرلنده (٥٦٣) ، وهو مصمم على أن يهدى إلى المسيحية من الأرواح بقدر من قتل فى معركة كولدرفنا Cooldrevna . وأنشأ وقتئذ فى جزيرة أيونا القريبة من شاطئ اسكتلندة الغربى ديراً من أعظم أديرة العصور الوسطى وأوسعها شهرة . ومن هذا الدير نشر هو ومريدوه الإنجيل فى جزائر هبريده Hebrides ، واسكتلندة ، وشمال إنجلترا . وبعد أن هدى آلافا من الوثنيين إلى الدين المسيحى وزخرف ثلثمائة «كتاب نبيل» مات وهو يصلى عند المذبح فى الثامنة والسبعين من عمره .

وشبيه به فى روحه واسمه سانت كولمبان St Columban المولود فى لينستر Leinster حوالى عام ٥٤٣ . ولسنا نعلم عنه شيئاً حتى نجده وهو فى الثانية والثلاثين من عمره يؤسس الأديرة فى جبال الفوج بفرنسا . وكان من تعاليمه للمبتدئين من أتباعه فى لكسويل Luxeuil :

يجب أن تصوم كل يوم ، وتصلى كل يوم ، وتعمل كل يوم ، وتقرأ كل يوم ؛ وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد ، وفى مجتمع يتألف من كثير من الإخوان ، حتى يتعلم التواضع من أحدهم والصبر من آخر والصمت من ثالث ودماثة الأخلاق من رابع . . . . ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر فى الطريق[٢٣] .

وكانت العقوبات صارمة ، أكثر ما تكون بالجلد : ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس ، أو تبسم أثناء الصلاة أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الربانى ؛ وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسى أن يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب التأخر عن الصلاة ، ومائة لمن يشترك فى نزاع ، ومائتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة[٢٣] . ولم يكن الناس يحجمون عن دخول الدير رغم هذا الحكم الإرهابى ، فقد كان فى ديرمكسويل ستون راهباً ، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر غنية . وكانوا يعيشون على الخبز ، والخضر ، والماء ؛ ويقطعون الغابات ، ويحرثون الأرض ، ويزرعون ويحصدون ، ويصومون ويصلون . وهنا أقام كولمبان نظام « الحمد الذى لا ينقطع iaux perennis » فقد كانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلا ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين[٣٤] . وكانت ألف دير ودير شبيهة بدير لكسويل من المعالم البارزة فى العصور الوسطى .

ولم يكن المزاج الصارم الذى وضع هذه القواعد يجيز آراء غير هذه الآراء ؛ ولهذا ألفى كولمبان ، الذى يحرم النزاع ، نفسه فى نزاع متكرر مع الأساقفة الذين .

يتجاهل سلطانهم ، ومع الموظفين الزمنيين الذين لا يقبل تدخلهم فى الشئون الدينية ، ومع البابوات أنفسهم . ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تسير عليه الكنيسة فى بادئ الأمر ولكنها غيرته فى عام ٣٤٣ . ونشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغاليين ، فلجأ هؤلاء إلى جريجورى الأكبر ، ورفض كولمبان أوامر البابا وقال : « إن الأيرلنديين أعلم منكم بالفلك أيها الرومان » ، وأمر جريجورى أن يقر طريقة الأيرلنديين فى الحساب وإلا « فسيعد من الخارجين على الدين وتنبذه بازدراء كنائس الغرب »[٣٥] . ثم طرد الأيرلندى المتمرد من غالة (٦٠٩) ، لتشهيره بآثام الملكة برنهلد Brunhild : ووضع بالقوة على ظهر سفينة مقلعة إلى أيرلندة ؛ ولكن السفينة اضطرت إلى الاندفاع عائدة إلى فرنسا ؛ وعبر كولمبان الأرض المحرمة عليه وأخذ يعظ أهل بافاريا الوثنيين . ولسنا نعتقد أن كولمبان كان فى حقيقة أمره رهيباً كما يبدو من حكمه وسيرته ، فنحن نسمع أن السناجب كانت تجثم فى اطمئنان على كتفيه وتدخل فى قلنسوته وتخرج منها[٣٦] . ثم ترك زميلا له أيرلندياً ليؤسس (٦١٣) دير سانت جول St Gall على بحيرة كنستانس ، وعبر هو ممر سان جوثار Sf Gothard Pass بعد أن عانى فى سبيل ذلك الأمرين ، وأسس دير ببيو Bobbio فى لمباوديا عام ٦١٣ حيث توفى بعد عامين فى صومعته المنعزلة التى كان يعيش فيها معيشة الزهد والتقشف .

ويحدثنا ترتليان Tertullian عن وجود مسيحيين فى بريطانيا فى عام ٢٠٨ ؛ كما يحدثنا بيد Bede عن وفاة سانت أولبان أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وقد شهد الأساقفة البريطانيون مجلس سرديقا Sardica (٣٤٧) ؛ كذلك ذهب جرمانوس Germanus أسقف أوكسير Auxerre إلى بريطانيا فى عام ٤٢٩ ليقضى فيها على الزنادقة البلاجيين[٣٧] . ويؤكد لنا وليم الملمزبرى William of Malmesbury أن الأسقف أباد جيشاً من السكسون بأن جعل الذين هداهم

من البريطانيين يصرخون « حمدا لله » فى وجوههم[٣٨] . ثم ضعف شأن المسيحية البريطانية بعد أن كانت لها هذه القوة العظيمة ، وأشرفت على الفناء بسبب غارات الأنجليسكسون ، فلم تعد تسمع عنها شيئاً بعدئذ حتى دخل أتباع كولمبا نورثمبرلند فى آخر القرن السادس ، وحتى وصل أوغسطين ومعه سبعة آخرون من الرهبان من رومة إلى إنجلترا . وما من شك فى أن البابا جريجورى قد علم من قبل أن إثلبرت ملك كنت الوثنى تزوج برتا Bertha الأميرة المروفنجية المسيحية . واستمع إثلبرت فى لطف ومجاملة إلى أوغسطين ، وظل غير مقتنع بحديثه ، ولكنه أطلق له حرية الوعظ ، وهيأ له ولزملائه الرهبان الطعام والمسكن فى كنتربرى . ثم استطاعت الملكة آخر الأمر (٥٩٩) أن تقنع الملك باعتناق الدين الجديد ، وحذا حذوهما كثير من رعاياهما . وفى عام ٦٠١ بعث جريجورى بصورة الكاهن إلى أوغسطين فأصبح على رأس عدد من أساقفة كنتربرى الأجلاء الممتازين . واصطنع جريجورى اللين مع من بقى فى إنجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل القديمة إلى كنائس ، بأن تحول عادة التضحية بالثيران فى يسر ولطف إلى « ذبحها لإنعاشهم لمديح الله »[٣٩] ، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجليز من تغير هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر .

وأدخل مبشر إيطالى آخر يدعى پولينوس Paulinus المسيحية إلى نورثمبرلند (٦٢٧) . ذلك أن أزولد Oswald ملك نورثمبرلند دعا رهبان أيونا إلى المجىء إلى بلاده ليعظوا شعبه ، وأراد أن يعينهم على أداء مهمتهم فمنحهم جزيرة لندسفارن Lindisfarne القريبة من ساحل إنجلترا الشرقى . وفيها أنشأ سانت إيدان St. Aidan (٦٣٤) ديراً خلد اسمه بمن تخرج فيه من المبشرين المخلصين ، وبما أخرجه من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة . وهناك ترك سانت كثبرت St. Cuthbert (٦٣٥ ؟ — ٦٨٧) وراءه فى دير ملروز Melrose ذكريات طيبة لصبره ، وتقواه ، وفكاهته ، وحسن إدراكه . وبفضل صلاح هؤلاء الرجال

وأمثالهم ، وبفضل ما كانوا ينعمون به من أمن وسلام وسط الحروب الكثيرة ، أقبل عدد كبير من المتنصرين حديثاً والمتنصرات إلى أديرة الرجال والنساء التي قامت وقتئذ في انجلترا . وقد رفع أولئك الرهبان من كرامة العمل ، بكدحهم المتواصل في الغابات والحقول على الرغم من انتكاسهم من حين إلى حين وعودتهم إلى أساليب عامة الناس . فتزعموا هنا ، كما تزعموا في فرنسا وألمانيا ، ركب الحضارة في كفاحه ضد المناقع والآجام ، وكما تزعموه في كفاحه ضد الأمية ، والعنف والدعارة ، والسكر ، والشره . وظن بيد أن من يدخلون الأديرة من الإنجليز قد زاد على الحد الواجب ، وأن الأشراف قد أسرفوا في إنشاء الأديرة ليعفوا أملاكهم من الضرائب ، وأن أراضي الكنيسة المعفاة من الضرائب قد استغرقت من أرض إنجلترا الزراعية فوق ما يجب أن تستغرقه ؛ وإنذر البلاد بأنه لم يبق من الجنود من يكفون لوقاية إنجلترا من الغزو[٤٠] . وسرعان ما أثبت الدنمرقيون ، ومن بعدهم النورمان حكمة الراهب وبعد نظره في شئون الدنيا .

ووجد النزاع سبيله إلى الأديرة نفسها ، وعكر عليها صفوها ، حين اصطدم الرهبان البندكتيون المقيمون في جنوبي انجلترا والذين اتبعوا الشعائر الرومانيـة والتقويم الروماني ، بالرهبان الأيرلنديين والتقويم الأيرلندي والشعائر الأيرلندية في الشمال . وحسم سانت ولفريد St Wilfrid بفصاحته في مجمع هوتبي Whitby المقدس (٦٦٤) هذا النزاع — وهو من الوجهة الفنية التاريخ الصحيح لعيد الفصح — في صالح رومة . وقبل الرهبان الأيرلنديون على كره منهم هذا القرار ، وأضحت الكنيسة الإنجليزية بعد وحدتها وما نالت من الحبوس والهبات سلطة اقتصادية وسياسية ، واضطلعت بدور رئيسي في تحضير الشعب وحكم الدولة .

وجاءت المسيحية إلى ألمانيا هدية من الرهبان الأيرلنديين والإنجليز . ذلك أن وليبرورد Willibrord الراهب النورثمبري الذي تلقى تعليمه في أيرلندة اجتاز هو واثنا عشر من أعوانه المغامرين بحر الشمال في عام ٦٩٠ ، واتخذ

مقره الدينى فى أوترخت Utrecht ، وظل أربعين عاما يعمل لهداية الفريزيين إلى المسيحية . ولكن أولئك الملاك ذوى النزعة الواقعية رأوا فى ولبرورد يد پيپين الأصغر حاميه ونصيره ، ولم يكن يرضيهم أن يقال لهم إن جميع أسلافهم غير المعمدين مثواهم الجحيم . ويروى أن ملكا فريزيا عرف هذا وهو يوشك أن يعمد ، فامتنع عن التعميد وقال إنه يفضل أن يخلد مع آبائه(٤١) .

وواصل رجل أقوى من ولبرورد هذه الحملة فى عام ٧١٦ . ذلك أن نبيلاً إنجليزيا وراهباً بندكتيا يدعى ونفريد (٦٨٠ ؟ — ٧٥٤) منحه البابا جريجورى الثانى اسم بنيفاس ولقبه خلفاؤه الصالحون لقب « رسول ألمانيا » . وقد وجد ونفريد هذا بالقرب من فرتزلار Fritzlar فى هس Hesse شجرة بلوط يعبدها الناس على أنها موطن لإله من الآلهة ، فما كان منه إلا أن قطع الشجرة ، ودهش الناس حين رأوا أنه ظل حيا فهرعوا إليه يطلبون التعميد . وأقيمت بعدئذ أديرة عظيمة فى ريخنو Reichenau (٧٢٤) ، وفلدا Fulda (٧٤٤) ، ولورسخ Lorsch (٧٦٣) . وعيّن بنيفاس كبيراً لأساقفة مينز فى عام ٧٤٨ ؛ فنصب عدداً من الأساقفة ونظم الكنيسة الألمانية فجعلها أداة قوية لتقويم الأخلاق وتوطيد دعائم النظام الاقتصادى والسياسى . ولما أتم رسالته فى هس وثورنجيا ، أراد أن يختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الدين ، فدخل فريزيا يعتزم أن يتم العمل الذى بدأه ولبرورد ، وبعد أن ظل يكدح فى هذا العمل سنة أو نحوها هاجمه الوثنيون وقتلوه . وبعد عام من مقتله نشر شارلمان الدين المسيحى بين السكسون بالسيف والنار ، ورأى الفريزيون المعاندون أن لا مناص من الخضوع ، وتم بذلك فتح بلاد الذين فتحوا رومة على أيدى المسيحية الرومانية .

وكان آخر انتصارات الدين فى أوربا هو هداية الصقالبة . وتفصيل ذلك أن رستسلاف Rostislav أمير مورافيا رأى المسيحية اللاتينية تدخل بلاده وتتغلغل فى شعائرها لغة البلاد ، فطلب إلى بيزنطية أن ترسل لبلاده مبشرين

يستخدمون اللغة العامية فى عظاتهم وصلواتهم ، فبعث إليه الإمبراطور بأخوين هما مثوديوس Methodius وسيريل Cyril كانا نشآ فى سلانيك ، ولذلك كان من السهل عليهما أن يتكلما لغة الصقالبة . ورحب بهما أهل البلاد ولكنهما وجدا أن الصقالبة ليست لهم حروف هجائية يعبرون بها عن لغتهم تعبيراً كاملاً بالكتابة ، وأن العدد القليل الذين يكتبون يستخدمون فى كتابة حديثهم الحروف اليونانية واللاتينية . ولهذا ابتكر الحروف الهجائية الصقلبية وطريقة كتابتها ، وذلك باستخدام الحروف اليونانية مع التحسينات التى دخلت عليها نتيجة استخدام اليونان إياها حتى القرن التاسع ، فكان حرف B ينطق كما ينطق V ، H ينطق حرف I (وحرف E فى الإنجليزية) ، Ch كما ينطق الأسكتلنديون Ch ، وابتكر حروفاً صقلبية للأصوات التى لا تعبر عنها الحروف اليونانية . وترجم سيريل بهذه الحروف الهجائية الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم ونصوص الطقوس اليونانية ، وبدأ بهذا العمل لغة مكتوبة جديدة وأدباً جديداً .

ونشأ وقتئذ بين المسيحية اليونانية واللاتينية نزاع تبغى به كلتاهما أن تستحوذ على الصقالبة ؛ فاستدعى البابا نقولاس الأول سيريل ومثوديوس إلى رومة ، حيث ترهب سيريل ، ومرض ، ومات (٨٦٩) . أما مثوديوس فعاد إلى مورافيا كبيراً لأساقفتها من قبل البابا . وأجاز البابا يوحنا الثامن استخدام الطقوس الصقلبية ، ثم حرمها استيفن الخامس ؛ واكتسبت الكنيسة اللاتينية وشعائرها مورافيا ، وبوهيميا ، وسلوفاكيا (وهى التى تتألف منها دولة تشكوسلوفاكيا الحاضرة) ، كما كسبت بعدئذ بلاد المجر وبولندا ؛ أما بلغاريا ، والصرب ، وروسيا فقد ارتضت الطقوس والحروف الهجائية الصقلبية ، وقدمت ولاءها للكنيسة اليونانية ؛ وأخذت ثقافتها عن بيزنطية .

ولقد تأثرت هذه التغيرات الدينية بالاعتبارات السياسية . ذلك أن اعتناق الألمان المسيحية كان يقصد به ضمهم إلى مملكة الفرنجة وربطهم وإياها برباط

وثيق . وفرض الملك هارولد بلوتوث (صاحب الناب الأزرق) الدين المسيحى على الدنمرقة (٩٧٤) ، ليكون جزءاً من الثمن الذى طلبه الإمبراطور أتو الثانى للصلح . وانحاز بوريس Boris ملك بلغاريا إلى جانب الكنيسة اليونانية (٨٦٤) بعد أن ظل يداعب البابوية وقتاً ما ، وكان انضمامه إليها لرغبته فى الاحتماء بها من توسع ألمانيا ، وجعل ڤلاديمير Vladimir الأول روسيا بلاداً مسيحية (٩٨٨) ليستطيع الزواج بأنا Anna أخت بازيل الثانى إمبراطور الروم ، وليحصل على جزء من بلاد القرم بائنة لها [٤٢] وظلت الكنيسة الروسية قرنين من الزمان تعترف بسلطان بطرق القسطنطينية ، ثم أعلنت استقلالها عنه فى القرن الثالث عشر ، وأضحت الكنيسة الروسية بعد سقوط الامبراطورية الشرقية (١٤٥٣) ذات الشأن الأكبر فى العالم الأرثوذكسى اليونانى .

وكان الجنود المظفرون فى هذا الفتح المسيحى لأوربا هم الرهبان ، كما كانت الراهبات هن الممرضات فى هذه الحرب الدينية . ذلك أن الرهبان قد عاونوا الزراع على استصلاح الأراضى البور وزراعتها ، وتقطيع أشجار الغابات وتنظيف الأرض من الأعشاب ، وتجفيف المستنقعات ، وإقامة الجسور على الجداول ، وشق الطرق ؛ ولقد أقاموا فى البلاد مراكز للصناعة ، وأنشأوا المدارس ، ونظموا الصدقات ؛ ونسخوا المخطوطات وجمعوا مكتبات متواضعة ، وبثوا النظام الأخلاقى وروح الشجاعة والطمأنينة فى نفوس الحائرين الذين انتزعوا من عاداتهم وشعائرهم أو بيوتهم القديمة . وكان بندكت الأنيانى يكدح ، ويحفر ، ويحصد بين رهبانه ، كما ظل الراهب ثيودلف يسوق المحراث بالقرب من ريمس مدى اثنين وعشرين عاما ، وقد بلغ من إخلاصه فى هذا العمل أن احتفظ بعد وفاته بهذا المحراث وكان موضعاً للإكبار والإجلال .

وكان الرهبان والراهبات يعودون إلى فطرتهم البشرية بين آونة وأخرى بعد أن يبقوا زمناً طويلا مثلا عليا للفضيلة ، والخشوع ، والجد ؛ وكان لابد من قيام

حملة فى كل قرن تقريباً لرفع الرهبان مرة أخرى إلى المستويات العليا غير الفطرية التى شرعوا لأنفسهم قواعدها . كذلك كان بعض الرهبان ينهمكون فى نوبات موقوتة من التقى والخشوع ثم يصبحون غير صالحين لنظام الرهبنة بعد أن يفيقوا من نشوتهم وتضعف حماستهم . ومن الرهبان والراهبات من كانوا نذوراً جىء بهم إلى الأديرة وهم أطفال سن السابعة أو بعدها ، ومنهم من جىء بهم وهم رُضَّع فى المهد ؛ وقد ظلت هذه النذور حرمات لا يحل النكث بها حتى أباحت القرارات البابوية فى عام ١١٧٩ التحلل منها إذا بلغ الطفل الرابعة عشرة من عمره[٤٣] . وهال لويس التقى ما رآه من ضعف النظام فى الأديرة الفرنسية فدعا فى عام ٨١٧ إلى عقد جمعية قومية من رؤساء الأديرة والرهبان فى آخن ، وعهد إلى القديس بندكت الأنيانى أن يقرر السير فى جميع أديرة بلاده على القواعد التى وضعها القديس بندكت النورسيانى St Benedict of Nursia . وأخذ بندكت الجديد يواصل العمل بجد ، ولكن المنية وافته فى عام ٨٢١ ، وما لبثت حروب الملوك أن أشاعت الفوضى فى دولة الفرنجة ؛ وخربت غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين مئات من الأديرة ، وهام الرهبان على وجوههم فى العالم غير الدينى ، ولما عاد بعضهم إلى أديرتهم بعد أن ارتدت موجة التخريب ، جاءوا معهم إليها بطرائق الحياة فى خارجها . يضاف إلى هذا أن السادة الإقطاعيين قد اغتصبوا الأديرة ، وعينوا هم رؤساءها ، واستولوا على إيرادها ، ولم يحل عام ٩٠٠ حتى تدهورت أديرة الغرب ، كما تدهورت الأنظمة كلها ، إلا القليل الذى لا يستحق الذكر منها ، فى أوربا اللاتينية إلى الدرك الأسفل من حياتها أثناء العصور الوسطى . وليس أدل على هذا الانحطاط من قول سانت أدو رئيس دير كلونى (المتوفى عام ٩٤٢) « إن بعض رجال الدين فى الأديرة وفى خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء فى ساحاته نفسها ، بل فى تلك البيوت التى أنشأها المؤمنون الخاشعون لكى تكون ملاذا للعفة والطهارة فى حرمها المسور ؛

لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى »[٤٤] . ومن دير كلونى جاءت حركة الإصلاح العظمى للأديرة .

ذلك أن اثنى عشر راهباً قد أنشأوا حوالى عام عام ٩١٠ ديرا فى هذا المكان بين تلال برغندية يكاد يكون موضعه على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وفرنسا . وفى عام ٩٢٧ أعاد أدو رئيسه النظر فى قواعده ليجعلها أشد صرامة من الناحية الأخلاقية وييسرها من ناحية الجهود الجسمية : فمنع التقشف الشديد ، وأوصى بالاستحمام ، ووفر الطعام ، وأجاز شرب الجعة والنبيذ ؛ ولكنه شدد فى الاستمساك بالأيمان القديمة التى يلتزم بها الرهبان الفقر ، والطاعة ، والعفة . وأنشئت أديرة أخرى على غراره فى أماكن أخرى من فرنسا ، ولكنها لم تكن كالأديرة القديمة لكل منها قانونه الذى لا يقوم على أساس معروف ، ولا يخضع إلا خضوعاً غير وثيق إلى أسقف محلى أو سيد من الأشرف ، بل كانت الأديرة البندكتية الجديدة المتصلة بدير كلونى يحكمها رؤساء يخضعون لرؤساء دير كلونى وللبابوات . وانتشرت بزعامة مايول Mayeul (٩٥٤ — ٩٩٤) ، وأدوياو Odilo (٩٩٤ — ١٠٤٩) ، وهيو Hugh (١٠٤٩ — ١١٠٩) حركة تآخى الأديرة من فرنسا إلى انجلترا ، وألمانيا ، وبولندة ، وهنغاريا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وانضمت كثير من الأديرة القديمة « إلى المجمع الكلونى » ، فلم يحل عام ١١٠٠ حتى كان نحو ألفى دير تعترف بأن دير كلونى أبوها وحاكمها . وكانت السلطة المنظمة على هذا النحو ، البعيدة عن تدخل الدولة ورقابة الكنيسة ، سلاحاً جديداً فى يد البابوية تسيطر به على رجال الدين فى خارج الأديرة ، ويسرت فى الوقت نفسه إصلاح نظام الرهبنة على أيدى الرهبان أنفسهم إصلاحاً ينطوى على الجرأة والشجاعة ، فكبحت أيد قوية ما كان فى الأديرة من اضطراب ؛ وتعطل ، وترف ، وفساد أخلاق ، ومتاجرة بالدين وبالرتب الكهنوتية ، وشهدت إيطاليا ذلك المنظر الغريب منظر راهب فرنسى فى أراضيها ، إذ دعى أدو إلى إيطاليا ليصلح دير مونتى كسينو نفسه[٤٥] .

الفصل السادس

البابوية فى الحضيض (٨٦٧ — ١٠٤٩)

كانت رومة آخر المدن التى وصل إليها الإصلاح . ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا على الدوام مشاكسين صعاب المراس حتى فى الوقت الذى كان فيه النسر الإمبراطورى يقبض بمخلبيه على الفيالقَ الضخمة يسيرها أينما شاء . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكل ما كان يعتمد عليه البابوات هو جيش مرابط ضعيف ، ومكانة منصبهم السامية ، ورهبة دينهم ؛ ولهذا وجدوا أنفسهم سجناء فى أيدى أرستقراطية تحسدهم على منزلتهم وأهلين يضعف من تقواهم قربهم من عرش بطرس . وكان الرومان أعز نفساً من أن يتأثروا بالملوك كما كانوا أكبر من أن يرهبهم البابوات لطول ما ألفوا صحبتهم والاختلاط بهم ؛ فقد كانوا يرون فى خلفاء المسيح فى الأرض رجالا مثلهم يمرضون ، ويخطئون ، ويأثمون ، ويغلبون ، فلم تعد البابوية فى اعتقادهم حصناً حصيناً للنظام وملجأ عاصماً للنجاة ، بل أضحت طائفة من العمال يجمعون الصدقات من أوربا لمساكين رومة . وكانت تقاليد الكنيسة تقضى بألا يختار البابا بغير رضاء رجال الدين فى رومة وأشرافها وجمهرة سكانها ، وتفرق حكام اسبوليتو ، وبنفنتو ، ونابلى ، وتسكانيا ، وأشراف رومة شيعاً وأحزاباً كما كانوا فى عهدهم القديم ، وكان الحزب صاحب اليد العليا فى المدينة يحيك الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه . وقد عملوا جميعاً على تدهور البابوية فى القرن العاشر إلى أحط مستوى وصلت إليه فى تاريخها كله .

من ذلك أنه فى عام ٨٧٨ دخل لامبير Lambert دوق اسپوليتومدينة رومة على رأس جيشه ، وقبض على البابا يوحنا السابع ، وحاول أن يرغمه بتجويعه على تأييد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية . وفى عام ٨٩٧ أمر البابا استيفن

السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس Formosus (٨٩١ — ٨٩٦) من قبرها ، وترتدى الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسى بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبتر بعض أعضائها وتلقى فى نهر التيبر[٤٦] . وثارت فى العام نفسه ثورة سياسية فى رومة خلع على أثرها استيفن من منصبه ، وقتل فى السجن خنقاً[٤٧] . وظل كرسى البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت لا ينال إلا بالرشا أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنىء ، وبقيت أسرة ثيوفيلاكت Theophylact ، أحد كبار الموظفين فى قصر البابا ، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تنجح فى اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسى البابوية (٩٠٤ — ٩١١)[٤٨] ؛ كما أفلحت زوجته ثيودورا فى تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ — ٩٢٨) . وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع[٤٩] ؛ وما من شك فى أنه كان زعيماً ممتازاً فى الشئون الزمنية ، لأنه هو الذى عقد الحلف الذى رد زحف المسلمين على رومة فى عام ٩١٦ . وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد واحد حتى تزوجت جيدو Guido دوق تسكانيا ، وأخذا يأتمران لخلع يوحنا ، وعملا عن قتل أخيه بطرس أمام عينيه ، ثم زج البابا فى السجن حيث مات بعد أشهر قلية ميتة لا تُعلم أسبابها ، ثم رفعت مريوزا فى عام ٩٣١ يوحنا الحادى عشر (٩٣١ — ٩٣٥) إلى كرسى البابوية ، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعى من سرجيوس الثالث[٥٠] . وفى عام ٩٣٢ سَجَن ابنها ألبريك Alberic يوحنا هذا فى قلعة سانت أنجيلو Sant' Angelo ، ولكنه سمح له أن يصرف من سجنه شئون البابوية الروحية ، وظل ألبريك يحكم رومة اثنتين وعشرين سنة ، كان فيها الطاغية المسيطر على « جمهورية رومانية » . وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتافيان Octavian

وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت أجابتوس Agapetus الثانى . وتم له ما أراد ، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثانى عشر ، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهتك والدعارة فى قصر لاتيران Lateran[٥١] .

وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً فى عام ٩٦٢ . فلما عاد إلى رومة فى عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء جبال الألب دعا يوحنا إلى المحاكمة أمام مجلس كنسى . واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عين غلاما فى العاشرة من عمره أسقفاً ، وأنه زنى بخليلة أبيه ، وضاجع أرملته ، وابنة أختها ، وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة . ورفض يوحنا أن يحضر أمام المجلس ، أو أن يجيب عن هذه التهم ، وخرج للصيد ، فقرر المجلس خلعه ، واختار بالإجماع مرشح أتو لكرسى البابوية ، وكان هذا المرشح الذى أصبح البابا ليو الثامن (٩٦٣ — ٩٦٥) من غير رجال الدين . ولما عاد أتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطورى فى رومة وبتر أعضاءهم ، وعمل على أن يعود إلى كرسى البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره (٩٦٤)[٥٢] . ولما مات يوحنا (٩٦٤) اختار الرومان بندكت الخامس لكرسى البابوية ، وأغفلوا شأن ليو . فعاد أتو من ألمانيا ، وخلع بندكت ، وأعاد ليو ، بهذا اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة فى أن يلغوا إذا شاءوا اختيار أى بابا فى المستقبل(*) . ولما مات ليو عمل أتو على اختيار يوحنا الثالث عشر خليفة له (٩٦٥ — ٩٧٢) . ثم سجن أحد أشراف الرومان بندكت السادس (٩٧٣ — ٩٧٤) ، وقتله خنقاً ، وفر بنيفازيو فرنكون Bonifazio Francone ، وكان قد نصب نفسه بابا شهراً من

(*) تعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليو الثامن خارجا على البابوية ، ولا ترى لأعماله أو قراراته قيمة ما . .

الزمان ، إلى القسطنطينية وحمل معه من كنوز البابوية كل ما استطاع أن يحمله . ثم عاد بعد تسع سنين من فراره ، وقتل البابا يوحنا الرابع عشر (٩٨٣ — ٩٨٤) ؛ وجلس على كرسي البابوية مرة أخرى ، ومات ميتة هادئة فى فراشه (٩٨٥) ورفعت الجمهورية الرومانية رأسها من جديد ، وأمسكت بزمام السلطة ، واختارت كرسنتيوس Crescentius قنصلا . فانقض أتو الثالث على رومة بجيش قوى لا تستطيع مقاومته ، وبتفويض من رجال الدين الألمان ، ليقضى على الفوضى بتنصيب راعى كنيسته الخاصة بابا باسم جريجورى الخامس (٩٩٦ — ٩٩٩) . وقضى الإمبراطور الشاب على الجمهورية ، وعفا عن كرسنتيوس ، وعاد إلى ألمانيا . وما كاد يعود حتى أعاد كرسنتيوس الجمهورية ، وخلع جريجورى (٩٩٧) . فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، ولكن كرسنتيوس سخر منه ، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا . فعاد أتو مرة أخرى ، وخلع يوحنا ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجدع أنفه ، وأمر أن يطاف به فى شوارع رومة على ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه . ثم قطعت رؤوس كرسنتيوس واثنى عشر من الزعماء الجمهوريين ، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجليو (٩٩٨)[٥٣] . وعاد جريجورى إلى كرسى البابوية ، وظل جالساً عليه حتى مات مسموماً ، فى أغلب الظن ، عام ٩٩٨ . وأجلس أتو فى مكانه رجلا أصبح من أنبه البابوات جميعا .

ولد جربرت Gerbert من أسرة وضيعة بالقرب من أورلاك Aurillac من أعمال أوفرنى Auvergne (حوالى عام ٩٤٠) ، ودخل وهو صغير السن أحد الأديرة . ثم سافر إلى أسپانيا عملا بمشورة رئيس الدير ليدرس علوم الرياضة ، إلى أن كان عام ٩٧٠ فأخذه بوريل Borel كونت برشلونة معه إلى رومة ، حيث أعجب البابا يوحنا الثالث عشر بعلم الراهب وأوصى به أتو الأول خيراً . وقضى جربرت عاما فى التدريس بإيطاليا وكان أتو الثانى من بين طلابه فى ذلك الوقت أو بعده . ثم انتقل إلى ريمس ليتلقى علم المنطق فى مدرسة كنيستها ، وسرعان ما نراه

رئيساً لتلك المدرسة (٩٧٢ — ٩٨٢) . وكان يعلم طائفة من العلوم غريبة في اختلافها تشمل شعراء اليونان والرومان الأقدمين ؛ وكان يكتب باللاتينية كتابة ممتازة ، وله عدة رسائل تكاد تضارع رسائل سيدونيوس Sidonius . وكان يجمع الكتب حيثما ذهب ، وينفق ماله بغير حساب في نسخ صور من المخطوطات المحفوظة في دور الكتب المختلفة ، ولعلنا مدينون له بما لدينا من خطب شيشرون[٥٤] . وكان حامل لواء العالم المسيحي في علوم الرياضة ، وأدخل في البلاد صورة جديدة من الأرقام « العربية » ، وكتب عن المعد والأسطرلاب ، وألف رسالة في الهندسة النظرية ؛ واخترع ساعة آلية ، وأرغنا يديره البخار[٥٥] . وقد بلغ من مهارته في كثير من العلوم المختلفة أن اشتهر بعد وفاته بأنه كانت له قوى سحرية[٥٦] .

ولما توفي أدلبيرو (٩٨٥) سعى جلبرت ليكون كبيراً لأساقفة ريمس ، ولكن هوكابت عين بدله أرنولف Arnulf ، وهو ابن غير شرعي من البيت الكارولنجي . ولما أخذ أرنولف يأتمر بهيو أصدر مجلس كنسي قراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا ، واختار جربرت رئيساً للأساقفة (٩٩١) . ولكن قاصداً رسولياً أقنع مجمعاً دينياً عقد في مواسون Moisson بعد أربع سنين من ذلك الوقت بفصل جربرت من منصبه . فما كان من العالم المستذل إلا أن هرع إلى بلاط أتو الثالث في ألمانيا ، حيث قوبل بأعظم مظاهر التكريم ، وهيأ عقل المليك الشاب لفكرة إعادة الإمبراطورية الرومانية واتخاذ رومة عاصمة لها . وعينه أتو كبيراً لأساقفة رافنا ، ثم عينه بابا في عام ٩٩٩ . وتسمى جربرت باسم سلفستر Sylvester الثاني ، كأنما أراد أن يقول إنه سيصبح سلفسترا ثانياً لقسطنطين ثان يوحد العالم مرة أخرى ؛ ولو أنه هو وأتو عاشا عشر سنين أخرى لكان من المحتمل أن يحققا حلمهما ، لأن أتو ابن أميرة بيزنطية ، ولكان من المحتمل أيضاً أن يصبح جربرت ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على

عرش البابوية ، وتقول الإشاعة الرومانية إنه مات مسموماً ، سمته استفانيا Stephania عينها التي سمت أتو .

وتدل الآمال التي كانت تخامرهما ، كما تدل الحركات السياسية الدائبة على العمل في العالم حولها ، على قلة من كان فيه من المسيحيين الذين يعتقدون جادين أن العالم سينتهي في العام المتمم للألف بعد الميلاد . فقد حدث في بداية القرن العاشر أن أعلن مجلس كنسي أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل[٥٧] ، وظلت أقلية ضئيلة في نهاية ذلك القرن تؤمن بهذا القول وتستعد ليوم الحساب ؛ أما الكثرة الغالبة فظلت تسير سيرتها المألوفة ، وتعمل ، وتلعب ، وتأثم ، وتصلى ، وتحاول أن تطيل حياتها بعد سن الشيخوخة . ولسنا نجد شواهد على استيلاء الذعر على عقول الناس في عام ١٠٠٠ بل إننا لا نجد زيادة في هبات الناس إلى الكنيسة[٥٨] .

وعادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد موت جربرت ، فأخذ أعيان تسكيولوم Tusculum متحالفين مع الأباطرة الألمان يشترون مناصب الأساقفة ، ويبيعون البابوية ، وقلما كانوا يحاولون التستر على عملهم هذا . وكان بندكت الثامن (١٠١٢ — ١٠٢٤) الذي رشحوه لهذا المنصب الأخير رجلا ذكياً قويا ؛ ولكن بندكت (١٠٣٢ — ١٠٤٥) الذي عين بابا في الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش[٥٩] ، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من رومة . غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد تسكيولوم ، فلما أتعبه منصب البابوية باعها إلى جريجوري السادس (١٠٤٥ — ١٠٤٦) بألف (أو ألفي) رطل من الذهب . وأدهش جريجوري رومة بأن كان بابا مثالياً أو أقرب ما يكون إلى المثالية . ويلوح أن الذي دفعه إلى ابتياع منصب البابوية هو رغبته الصادقة في أن يصلح شأنها ويحررها ممن كانوا يسيطرون عليها . ولم يكن أمراء تسكيولوم راغبين في هذا الإصلاح ، ولهذا أعادوا بندكت العاشر إلى كرسي البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة

الإيطاليون بالإمبراطور هنرى الثالث ليقضى على هذه المهازل ، فجاء إلى استرى Stutri القريبة من رومة وعقد فيها مجلساً كنسياً زج سلفستر فى السجن ، وقبل استقالة بندكت ، وخلع جريجورى لاعترافه بأنه ابتاع منصب البابوية . وأقنع هنرى المجلس بألا سبيل إلى انتشال الكنيسة من هذه الوهدة إلا بتنصيب بابا أجنبى تحت حماية الإمبراطور ؛ واختير لهذا المنصب أسقف بامبرج Bamberg ولقب كلمنت Clement الثانى (١٠٤٦-١٠٤٧) ، ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره ؛ كما قضت على خليفته دمسوس Damasus الثانى (١٠٤٧ - ١٠٤٨) الملاريا التى كانت وقتئذ تنتشر باستمرار من مناقع كمبانيا التى لم تجفف . ثم وجدت البابوية آخر الأمر فى ليو التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤) رجلا يستطيع أن يواجه مشاكلها بشجاعة ، وعلم ، واستقامة ، وصلاح ، قلما رأت رومة نظيراً له من زمن بعيد .

الفصل السابع

إصلاح الكنيسة (١٠٤٩ - ١٠٥٤)

ثلاث مشاكل داخلية كان يضطرب بها قلب الكنيسة فى ذلك الوقت : وهى المتاجرة بالمناصب فى محيط البابوية والأسقفية ، والزواج أو التسرى بين رجال الدين من غير الرهبان ، ووجود حالات متفرقة من الدعارة بين الرهبان أنفسهم .

فأما المتاجرة بالمناصب الكنسية وخدماتها فقد كانت هى المظهر الكنسى لما يعاصره من فساد فى الشئون السياسية . ومن الناس الصالحين من كانوا هم أنفسهم مصدراً لهذه المتاجرة ؛ مثال ذلك أن أم جوبيرت النوجنتى Guibert of Nogent كانت شديدة الرغبة فى أن تهبه للكنيسة ، فقدمت المال لرؤسائها لكى يجعلوه قساً فى إحدى الكنائس وهو فى الحادية عشرة من عمره . وإذ كان الأساقفة فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا يصرفون الشئون الزوجية والزمنية جميعاً ، وكانوا يقطعون أرضين ، وقرى ، ومدناً فى بعض الأحيان ، ليستمدوا منها إيراداتهم ، فقد كان ذوو المطامع من الناس يقدمون مبالغ طائلة للرؤساء الزمنيين ليظفروا بهذه المناصب ، وكان الشرهون من الرؤساء لا يتورعون عن ارتكاب كل مأثم للحصول على هذه الرشا . وحسبنا أن نذكر أن غلاماً فى العاشرة من عمره عين رئيس أساقفة فى نربونة Narbonne نظير مائة ألف صليدى[٦١] ؛ وأن فيليب الأول ملك فرنسا كتب إلى رجل أخفق فى الحصول على منصب رئيس أساقفة يواسيه فى إخفاقه يقول : « أتركنى أجنى المال من منافسك ، ثم حاول أن تسقطه باتهامه بابتياع منصبه ؛ وسترى بعد ذلك كيف نرضيك »[٦٢] . وكان ملوك فرنسا يتبعون السنة التى سنها شارلمان فيعينون هم بانتظام أساقفة سان Sens ، وريمس ، وليون ، وتور ، وبورج Bourges ، أما فى

غيرها من المدن الفرنسية فكان الدوق أو الكونت هو الذى يعينهم[٦٣] ، وأضحت كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة ، تختص به الصغار من أولادها أو غير الشرعيين منهم ؛ وكان أحد البارونات فى ألمانيا يمتلك ثمانى أسقفيات ويورثها أبناءه[٦٤] . ويزعم أحد الكرادلة الألمان (حوالى عام ١٠٤٨) أن الذين يبتاعون كراسى الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجهات الرخامية فى الكنائس ، وألواح القرميد فى سقفها ، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم[٦٥] . وكان الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل من رجال الدنيا لا من رجال الدين ، يعيش الكثيرون منهم عيشة المترفين ، ويشنون الحروب ، ويغمضون أعينهم عن الرشا فى المحاكم الأسقفية[٦٦] ، ويعينون أقاربهم فى المناصب الكنسية ، ويعبدون المال من دون الله ، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء . ويقول البابا إنوسنت الثالث فى وصف أحد رؤساء الأساقفة فى نارين إنه لديه كيسا من المال فى الموضع الذى كان يجب أن يكون فيه قلبه[٦٧] . وقد أصبح ابتياع الكراسى الأسقفية أمراً مألوفا يقبله الناس العمليون على أنه أمر عادى لاغضاضة فيه ؛ أما المصلحون فأخذوا ينادون بأن سمعان المجوسى قد استحوذ على الكنيسة[٦٨] .

وكانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين تتأرجح بين الزواج والتسرى . وكان زواج القساوسة فى القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً فى إنجلترا وغالة وشمالى إيطاليا ، وكان البابا هدريان الثانى نفسه متزوجاً[٦٩] ؛ وكتب راثريوس Ratherius أسقف فيرونا (فى القرن العاشر) يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم تقريباً متزوجون ، ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كانت العزوبة بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة[٧٠] . ومن الخطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة ، وإن لم يتفق فى كثير من الأحيان مع قوانين الكنيسة ومثلها العليا ، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية ؛ وكان القس المتزوج أسمى منزلة من القس العزب فى مدينة ميلان[٧١] .

لأن ثانيهما كان يتهم بالتسرى — بل إن الرأى العام كان يتسامح فى التسرى نفسه أى فى اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطاً جنسياً منتظماً . ويلوح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربيين كانوا يحيون بحياة لا غبار عليها من الناحية الأخلاقية ، وإنا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة طاهرة نقية مخلصين لمن يرعونهم ، وإن كنا لا ننكر أنه كان فى أماكن متفرقة رجال شواذ يندى من فعالهم الجبين ، فهاهو ذا الأسقف بنيفاس يشكو إلى البابا زخارى Zachary فى عام ٧٤٢ أن الأسقفيات تعطى « للشرهين من غير رجال الدين ، وللزانين من القسيسين »[٧٢] ، وأن بعض الشمامسة « يحتفظون بأربع سرارى أو خمس »[٧٣] ، وقد اتهم بيد الموقر فى هذا القرن بعينه « بعض أساقفة » إنجلترا بأنهم « يضحكون ، ويهزلون ، ويروون الأقاصيص ، ويمرحون ، ويسكرون و . . . يحيون حياة الملذات والفسق »[٧٤] . وكثرت هذه التهم وأمثالها فى أواخر الألف السنة الأولى بعد الميلاد ؛ فهاهو ذا رالف جلابر Ralph Glaber يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون أهله فى فسادهم الخلقى ، وها هو ذا راهب إيطالى يدعى بطرس داميان Peter Damian (١٠٠٧ — ١٠٧٢) يعرض على البابا كتاباً يسمى Liber Gomorrhianus ويصف فيه بالمغالاة التى يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه ، ما يرتكبه القساوسة من رذائل ؛ وفى هذا الكتاب فصل عن « مختلف الخطايا المناقضة للطبيعية » . ويطالب داميان فى هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين .

وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه فى منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة سواء أدرك ذلك أو لم يدركه ، وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع ، وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبه لأحد أبنائه ، وأن هذا قد يؤدى إلى قيام طبقة وراثية

من رجال الدين فى أوربا تشبه مثيلتها فى بلاد الهند ، وأن ما يضفيه هذا السلطان الاقتصادى على القساوسة ذوى الأملاك يزيد فى قوتهم إلى الحد الذى تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم . ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة وبنى الإنسان ، وأن مستواه الأخلاق يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب ، وأن يضفى عليه مستواه هذا المكانة التى لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه . وكانت عدة مجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على القساوسة ؛ وكان واحد منها — هو الذى عقد فى بافيا عام ١٠١٨ — قد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان من الميراث على جميع أبناء القسيسين(٧٥) ، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون .

ووجد ليو التاسع أن كرسى الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصى به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم ، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة ، ومن سطو قطاع الطرق على الحجاج الذين يأتون بالأدعية والملتمسات ، والنذور إلى رومة ، ولهذا وضع نظاما لحماية الحجاج ، وأعاد إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها ، وشرع يضطلع بهذا الواجب الثقيل ، واجب تحريم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج القساوسة . وقد بدأ عمله بأن أحال أعمال البابوية الداخلية والإدارية إلى الراهب المتبتل الحصيف الذى أصبح فيما بعد جريجورى السابع ، ثم غادر رومة فى عام ١٠٤٩ ، معتزما أن يتعرف بنفسه أخلاق رجال الدين وأعمال الكنائس فى مدائن أوربا الكبرى . وسرعان ما أعادت هيبته الشخصية ، وصرامته غير المتكلفة ، ما كان لرئيس الكنيسة الأعلى فى قلوب الناس من إجلال ؛ فأخفت الرذيلة رأسها لمقدمه ، وارتعدت فرائص جدفرى اللورينى الذى نهب الكنائس وتحدى الملوك حين أصدر البابا قراراً بحرمانه ، وخضع صاغراً للجلد علناً أمام مذبح الكنيسة التى خربها فى فردان ، وتعهد بأن يصلح ما خربه منها ، وأخذ يعمل فى إصلاحها بيديه . وعقد ليو محكمة بابوية فى كولونى ، وقوبل فيها بجميع مظاهر

الإجلال من رجال الدين الألمان الذين كانوا يفخرون بوجود بابا ألمانى . ثم انتقل ليو إلى فرنسا ورأس محكمة فى ريمس ، وأخذ يفحص عن أخلاق رجال الدين وغير رجال الدين ، وعن بيع المناصب الكنسية ، وانتهاب أملاك الكنيسة ، وتحلل رهبان الأديرة من قوانينها ، وانتشار الزندقة فى البلاد . وأمر كل من حضر المحكمة من الأساقفة أن يعترف بخطاياه ، فأخذ كل منهم ، واحداً بعد واحد ، ومنهم رؤساء الأساقفة أنفسهم ، يتهم نفسه . وأنبهم ليو أشد التأنيب ، وأعفاهم من مناصبهم ، وعفا عن بعضهم ، وحرم أربعة من حظيرة الدين ، واستدعى غيرهم إلى رومة ليكفروا علنا عن سيئاتهم . وأمر رجال الدين أن يخرجوا زوجاتهم وسراريهم ، وأن يمتنعوا عن استعمال الأسلحة . ثم أصدر مجلس رومة فضلا عن هذا قراراً يقضى بأن يختار رجال الدين وعامة الشعب الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وحرم بيع المناصب الكهنوتية ، ونهى رجال الدين عن أخذ الأجور نظير تقديم القرابين ، أو عيادة المرضى ، أو دفن الموتى . وأجرى مجلس عقد فى مينز (١٠٤٩) بإلحاح ليو ، إصلاحات شبيهة بهذه الإصلاحات فى ألمانيا . وعاد ليو إلى إيطاليا فى عام ١٠٥٠ ورأس مجلس ڤرشلى Vercelli وحرم فيه آراء برنير التورى Beregner of Tours الخارجة على الدين .

ورد ليو بزيارته الطويلة الشاقة إلى شمالى أوربا ما كان للبابوية من هيبة ومنزلة سامية ، وأعاد الإمبراطور الألمانى رئيساً للكنيسة الألمانية كما كان من قبل ، وأرغم الأسقفيات الفرنسية والأسبانية على الاعتراف بسلطان البابا عليها ، وخطا بعض الخطوات فى سبيل تطهير الكنيسة من الرشا والدعارة . ثم قام بحملات أخرى فى ألمانيا وفرنسا فى عامى ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ورأس جمعية كنسية عظيمة فى ورمز وأخرى فى مانتوا Mantua ؛ ولما عاد آخر الأمر إلى رومة اضطلع بذلك الواجب البغيض ، واجب حماية الولايات البابوية بقوة السلاح . ذلك أن الإمبراطور هنرى الثالث كان قد وهبه دوقية بنفنتو ؛ ولكن بندلف Pandulf

دوق كپوا أبى أن يقر هذه المنحة واستولى على هذه الدوقية واستمسك بها معتمداً على تأييد النورمان أتباع ربرت جسكارد . وطلب ليو أن يرسل إليه جيش ألمانى يساعده على طرد پنداف ولكنه لم يرسل إليه إلا سبعمائة رجل ، ضم إليهم بعض الإيطاليين غير المدربين ، وزحف بهم على النورمان ، وكاد فرسانهم وحدهم يبلغون ثلاثة آلاف من القراصنة المهرة فى الحروب . وأوقع النورمان بجيش ليو هزيمة منكرة ، وأسروه ، ثم ركعوا أمامه يطلبون إليه أن يعفو عنهم لأنهم قتلوا خمسمائة من رجاله . وساقوه بعدئذ إلى بنفنتو ، حيث قدموا إليه ما يليق بمقامه من مجاملة وتكريم ، ثم استبقوه سجيناً تسعة أشهر . وتحطم قلب ليو من الحزن وندم أشد الندم على امتشاق الحسام ، فحرم على نفسه أن يلبس غير الخيش ، وأن ينام إلا على بساط وحجر ، وكان يقضى اليوم كله إلا القليل منه فى الصلاة . وأدرك النورمان أنه مشرف على الموت ، فأطلقوا سراحه ، ودخل رومة بين تهليل الشعب وفرحه ، وعفا عن جميع الذين حرمهم ، وأمر أن يوضع تابوت فى كنيسة القديس بطرس ، وجلس بجواره يوماً واحداً مات بعده عند المذبح . وجاء العرج ، والبكم ، والمجذومون من جميع أنحاء إيطاليا ليلمسوا جثته .

الفصل الثامن

الانشاق الأكبر فى الشرق : ١٠٥٤

حدث الانفصال النهائى بين الكنيستين اليونانية واللاتينية فى عهد جلوس سبانت ليو على كرسى البابوية . وبينما كانت أوربا الغربية تتخبط فى ظلمات القرنين التاسع والعاشر ، وبؤسهما وجهالتهما ، كانت الإمبراطورية الشرقية ، تحت حكم أباطرتها المقدونيين (٨٦٧ – ١٠٥٧) ، تستعيد بعض ما استولى عليه العرب من أملاكها ، وتسترد زعامتها فى جنوبى إيطاليا ، وتزدهر فيها الآداب والفنون من جديد . واستمدت الكنيسة اليونانية من عودة الثراء والسلطان إلى الدولة البيزنطية قوة وكرامة ، فأدخلت بلغاريا وبلاد الصرب فى حظيرة الكنيسة الشرقية ، وقاومت بشدة لم يسبق لها مثيل ما كانت تدعيه البابوية المنحطة المعدمة من سلطان دينى مطلق على العالم المسيحى . وكان اليونان فى ذلك العصر ينظرون إلى المعاصرين لهم من الألمـان والأنجليسكسون على أنهم أقوام من الهمج الغلاظ ، وأنهم طائفة من غير رجال الدين الأميين ديدنهم العنف وتتزعمهم فئة فاسدة من رجال الدين . وكان رفض البابوية أن يكون الإمبراطور البيزنطى ملكاً على الفرنجة ، واستيلاء البابوية على مقاطعة راڤنا ، وتتويج البابا لإمبراطور منافس لإمبراطور الشرق ، واندفاع البابوية إلى إيطاليا اليونانية — كانت هذه الحادثات السياسية التى تحز فى النفوس لا الاختلاف القليل بين العقائد هى التى شطرت العالم المسيحى شطرين أحدهما شرقى والآخر غربى .

فى عام ١٠٤٣ عين ميخائيـل كرولاريوس Cerularius بطريقاً للقسطنطينية . وكان كرولاريوس هذا رجلا من أسرة نبيلة ، واسع الثقافة ، حاد الذهن ، قوى العزيمة . وكان فى الأصل راهباً ولكن الذى رفع من شأنه

هو تاريخه السياسى لا تاريخه الدينى . فقد كان كبير وزراء الإمبراطورية ، وكان من أصعب الأمور على نفسه أن يقبل منصب البطريقية ، لو أنها كانت تتطلب منه الخضوع إلى رومة . وقد أذاع فى عام ١٠٥٣ رسالة باللغة اللاتينية كتبها راهب يونانى يلوم فيها الكنيسة الرومانية أشد اللوم لإرغامها رجال الدين على العزوبة مخالفة بذلك أفعال الرسل وتقاليد الكنيسة ، ولاستعمالها خبزاً فطيراً فى القربان المقدس ، ولإضافة الفقرة القائلة بأن الروح القدس ينبعث من الأب والابن إلى العقيدة النيقية . وأغلق كرولاريوس فى ذلك العام نفسه جميع كنائس القسطنطينية التى تستخدم الشعائر اللاتينية ، وحرم جميع القساوسة الذين يصرون على استخدامها ؛ وبعث ليو ، وكان وقتئذ فى أوج سلطانه ، برسالة إلى كرولاريوس ، يطلب أن يعترف البطرق بسيادة البابوات ، ويصم كل كنيسة ترفض هذا الاعتراف بأنها « جميعية من الخارجين على الدين ، وجماعة من المنشقين ، ومعبد للشيطان »[٧٦] . ثم أرسل ليو وهو فى هذه الحالة النفسية رسلا إلى القسطنطينية ليناقشوا الإمبراطور والبطريق فى الفوارق التى تبعد فرعى المسيحية أحدهما عن الآخر . واستقبل الإمبراطور رسل البابا بالترحاب ، ولكن كرولاريوس أنكر عليهم حقهم فى معالجة تلك المسائل . ثم مات ليو فى شهر إبريل من عام ١٠٥٤ وظل كرسى البابوية شاغراً مدة عام . حتى إذا كان شهر يولية أخذ المندوبون هذه المسألة على عاتقهم ، ووضعوا على مذبح كنيسة أياصوفيا قراراً بحرمان كرولايوس ، فما كان من ميخائيل إلا أن عقد مجلساً يمثل المسيحية الشرقية على بكرة أبيها ، وكرر هذا المجلس جميع شكاوى الكنيسة اليونانية من الكنيسة الرومانية ، ولم تغفل فيها شكواها من حلق اللحى ، وشنع رسمياً على قرار المندوبين وعلى « كل من كانت له يد فى صياغته ، سواء أكان ذلك بمشورتهم أم بصلواتهم نفسها »[٧٧] . وبذلك تم الانشقاق بين الكنيستين ؛

الفصل التاسع

جريجورى السابع هلدبراند (١٠٧٣ — ١٠٨٥)

كان من سوء حظ المسيحية أن وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بين ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من أقوى البابوات فى تاريخ الكنيسة .

وهلدبراند اسم ألمانى يوحى بأن صاحبه من أصل ألمـــانى ؛ ويفسره معاصرو جريجورى بأن معناه الشعلة الخالصة . وقد ولد من أبوين ينتميان إلى أسرة وضيعة فى قرية سوفانو Sovano الواقعة فى مستنقعات تسكانيا (١٠٢٣ ؟) ، وتلقى تعليمه فى دير سانت مارى القائم على تل الأفنتين فى رومة ، ثم انضم إلى طائفة الرهبان البندكتيين . ولما أن خلع البابا جريجورى السادس من منصبه ونفى إلى ألمانيا فى عام ١٠٤٦ صحبه هلدبراند فى منفاه ليكون راعياً خاصاً ؛ وقد استفاد فى السنة التى قضاها فى كولونى الشىء الكثير عن ألمانيا ، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له فى الصراع الذى نشب فيما بعد بينه وبين هنرى الرابع ؛ ولم يمض على عودته إلى رومة إلا قليل من الوقت حتى جعله ليو التاسع مساعد شماس أصيل ، وعينه مديراً للولايات البابوية ، واختاره فى الوقت نفسه مندوباً للبابا فى فرنسا ؛ وفى وسعنا أن ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية فى الشئون السياسية والدبلوماسية ؛ وظل البابا فكتور الثانى (١٠٥٥ — ١٠٥٧) واستيفن التاسع (١٠٥٧ — ١٠٥٨) يستخدمانه فى المهام الكبرى ؛ ولما ارتقى نقولاس الثانى عرش البابوية فى عام ١٠٥٩ ، وكان أكبر الفضل فى ارتقائه إياه راجعاً إلى نفوذ هلدبراند نفسه ، عين هذا الراهب الذى لا غنى عنه وزيراً للبابا مع أنه لم يكن قد أصبح بعد قساً .

وكان هو الذى أقنع نقولاس ومجلس لاتران فى عام ١٠٥٧ بإصدار مرسوم

انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة . وكان هدف هلدبراند من هذه الخطوة الحاسمة أن ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والأباطرة الألمان ، وكان الشاب الديني والحاكم السياسي قد وضع منذ ذلك الوقت المبكر خطته السياسية البالغة الأثر . وقد رأى أن ينقذ البابوية من السيطرة الألمانية بأن يغمض عينه عن غارات النورمان وصلفهم في إيطاليا الجنوبية ، وأن يعترف بامتلاكهم ما انتزعوه من الأرض ، ويوافق على مطامعهم ، نظير تعهدهم له بحمايته الحربية . ورفع هلدبراند في عام ١٠٧٣ إلى عرش البابوية بعد أن خدم ثمانية بابوات مدة خمس وعشرين سنة ؛ ولقد قاوم هو هذا الاختيار لأنه كان يفضل أن يعمل من وراء هذا العرش ، ولكن الكرادلة ، والقساوسة ، والشعب عامه نادوا قائلين : « إن القديس بطرس يريد أن يكون هلدبراند بابا ! » . ولهذا رسم قسيسا ، ثم عين بابا ، واتخذ لنفسه ذلك اللقب المبجل — جريجوري .

وكان قصير القامة ، عادي الملامح ، حاد البصر ، عزيز النفس ، صلب الإرادة ، قويا في الحق ، واثقا من النصر ، تلهمه وتشحذ همته أربعة أغراض : أن يتم ما بدأه ليو من تقويم أخلاق رجال الدين ، وأن يضع حداً لتولي غيرهم المناصب الدينية ، وأن يوحد أوربا كلها تحت سلطان كنيسة واحدة وجمهورية واحدة برياسة البابوية ؛ وأن يوجه جيشاً مسيحياً إلى بلاد الشرق ليسترد الأرض المقدسة من الأتراك . وقد كتب في عام ١٠٧٤ إلى أعيان برغندية وسافوى ، وإلى الإمبراطور هنرى الرابع ، يرجوهم أن يجمعوا المال ويحشدوا الجند للقيام بحرب صليبية يعتزم أن يقودها بنفسه ، فأما أعيان برغندية فلم يتحركوا لتلبية ندائه ، وأما هنرى فقد حال تزعزع مركزه فوق عرشه بينه وبين التفكير في حرب صليبية .

وكان مجلس لاتران المنعقد برياسة نقولاس الثاني وهلدبراند في عام ١٠٥٩ قد حرم من حظيرة الدين كل قس يحتفظ بزوجة أو سرية ، ونهى المسيحيين

عن حضور القداس الذى يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة فى بيته ، ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذيعوا هذه القرارات ، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين فى تسكانيا يدافعون عن مبدإ زواج القساوسة ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة . وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع ، وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأى القائل إن القساوسة الذين يعيشون «آثمين» لا يستطيعون القيام بمراسم العشاء الربانى الصحيحة فأخذوا ينادون متحمسين ببطلان هذه المراسم ، مما اضطر البابوية إلى الرجوع فى دعوتها هذه إلى جماهير المصلين[٧٨] . ولما أصبح هلدبراند هو جريجورى السابع (١٠٧٣) تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تنثنى ولا تعرف الملل ، فجدد مجمعٌ دينى عقد فى عام ١٠٧٤ قرارات ١٠٥٩ ، وأرسل جريجورى هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوربا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة ، وأباح لعامة الشعب ألا يطيعوا أمر من يخالفها من القساوسة ؛ وكان لهذه الأوامر هى الأخرى رد فعلى عنيف ، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلى عن مناصبهم على التخلى عن أزواجهم ، وعارض غيرهم فى تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم ، وتنبأوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسى السرى ، وأعلن أتو أسقف كنستانس بأنه يحبذ آراء قساوسته المتزوجين ويحميهم من العدوان ، فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، وأعفى رعاياه من إطاعة أوامره . وخطا جريجورى خطوة أخرى فى عام ١٠٧٥ فأمر أدواق سوابيا وكارنثيا ، وغيرهم من الأمراء أن يلجأوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم ؛ وأطاعه عدد من الأمراء الألمان ، وحرم كثيرون من القساوسة الذين أبوا أن يتخلوا عن أزواجهم من مناصبهم[٧٩] . ومات جريجورى دون أن يتم له النصر ، ولكن إربان الثانى ، وبسكال الثانى ،

وكلكستوس Calixtus الثانى أكدوا قراراته ونفذوها ، حتى إذا كان عام ١٢١٥ أصدر مجلس لا تران برياسة إنوسنت الثانى قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول .

وبدت مشكلة المناصب الدينية أبسط من مشكلة زاوج القسيسين . فإذا سلمنا بأن المسيح قد أنشأ الكنيسة ، وهو الرأى الذى يجمع عليه الملوك والبابوات ، اتضح أن رجال الكنيسة ، لا العلمانيين هم الذين يحق لهم أن يختاروا الأساقفة ورؤساء الأديرة ، ولهذا كان من أكبر العار ألا يكتفى الملوك بتنصيب الأساقفة ، بل أن يخلعوا عليهم فوق ذلك (كما يحدث فى ألمانيا) عصا الأسقفية وخاتمها — وهما الرمزان المقدسان للسلطة الروحية . ولكن الملوك كان لهم رأى لا يقل عن هذا وضوحاً . فما دام الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون (كما يسلم معظم الأساقفة الألمان ورؤساء [الأديرة منهم) أن الملوك قد وهبوهم الأرض والدخل ، وألقوا عليهم التبعات الزمنية ، فقد يبدو خليقاً بهم وعدلا — حسب قوانين الإقطاع — أن يكون أولئك الرؤساء الدينيون — أو الأساقفة منهم فى القليل — مدينين بمناصبهم وولائهم الزمنى للملوك ، كما ظلوا مدينين بها فى غير تذمر فى عهد قسطنطين وشارلمان . فإذا ما أعفوا من هذا الخضوع وذاك الولاء خرجت نصف الأراضى الألمانية — التى منحت فى السنين السابقة للأسقفيات والأديرة — عن سلطان الدولة(٨٠) ، وعما اعتاد أن يؤديه لها أصحابها من واجبات وخدمات . وارتاب الأساقفة الألمان وكثيرون من الأساقفة اللمبارد المنتمون إلى أصل ألمانى والمدينون بمناصبهم إلى الألمان فى نيات جريجورى وظنوا أنه يسعى للقضاء على استقلالهم الكنسى النسبى وإخضاعهم لكرسى رومة إخضاعاً تاماً . أما جريجورى نفسه فكان راضياً بأن يحتفظ الأساقفة بولائهم الإقطاعى للملك(٨١) ، ولكنه لم يكن يرضى بأن يردوا الأراضى التى وهبها الملوك لهم(٨٢) ، ذلك أن قانون الكنيسة لا يجيز انتقال ملكية أراضى الكنيسة لغيرها . وشكا جريجورى من أن تعيين غير

رجال الدين فى المناصب الكنسية قد نشأت عنه معظم المفاسد الخاصة ببيع المناصب الكهنوتية ، والانغماس فى الشرور الدنيوية ، والفساد الخلق وهى الآثام التى ظهرت فى الأبرشيات الألمانية والفرنسية . ولهذا كان يرى أن من الواجب إخضاع الأساقفة لسلطان البابا ، وإلا صارت الكنيسة الغربية ، كما صارت الكنيسة الشرقية ، تابعاً ذليلا للدولة .

وكان من وراء هذا الصراع التاريخى صراع آخر هو صراع البابوية مع الإمبراطورية ، وهل من حق هذه أو تلك أن توحد أوربا وتحكمها . وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم هم أيضاً سلطة مقدسة لأنها من ضرورات النظام الاجتماعى . ألم يقل الرسول بولس إن السلطات القائمة مقدرة من عند الله ؟ أليسوا هم كما يقول البابوات أنفسهم ورثة إمبراطورية رومة ؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء كما يدافع جريجورى عن وحدة الكل وعن النظام فيه ؟ وكان يسوءهم هم أنفسهم — قبل حركة الإصلاح الدينى بزمن طويل — أن ينساب الذهب فى شكل أجور وهبات لكنيسة بطرس — من ألمانيا إلى إيطاليا(٨٣) ؛ وكانوا يرون أن السياسة البابوية ليست إلا جهوداً تبذلها رومة اللاتينية لإعادة سيطرتها القديمة على البلاد التى تزدريها إيطاليا وتسميها بلاد الشمال التيوتونية الهمجية . وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطان الكنيسة فى الشئون الروحية ، ولكنهم يؤكدون سلطان الدولة فى الشئون الزمنية أو الدنيوية . وكان هذا يبدو فى نظر جريجورى ثنائية مختلة النظام ، ويرى أن الاعتبارات الروحية يجب أن تعلو على الشئون المادية كما تعلو الشمس على القمر(٨٤) ، ولهذا يجب أن تخضع الدولة للكنيسة — أن تخضع مدينة الإنسان لمدينة الله — فى جميع المسائل التى لها مساس بالعقيدة ، أو التعليم ، أو الأخلاق ، أو العدالة ، أو التنظيم الكنسى . ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعترافاً ضمنياً بأن السلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة عليها ، وذلك حين ارتضوا أن يمسحهم

البابوات أو يثبتوهم فى مناصبهم ؟ إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ؛ ومن حق البابا وواجبه ، بوصفه خليفة الله فى أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين ، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال(٨٥) ؛ وقد تساءل جريجورى فى رسالة كتبها وهو غاضب إلى هرمان Hermann أسقف متز : « منذا الذى يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله ، ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ، ويرتكبون فى الحقيقة جميع أنواع الجرائم . . . ويطالبون بحقهم فى حكم من لا يقلون عنهم – أى الشعب – جشعاً وعماية وعجرفة لا تطاق ؟ »(٨٦) وقد بدا لجريجورى ، من نظرته إلى ما ساد أوربا من فرقة سياسية ، وفوضى ، وحروب ، أن لا نجاة لها من هذا البؤس الذى خيم عليها دهراً طويلا إلا بقيام نظام عالمى تتخلى فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التى تعض عليها بالنواجذ وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها ، وبأنه هو الزعيم الأجل لجمهورية مسيحية ، أوربية فى القليل ، إن لم تكن عالمية .

وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية هى تحرر البابوية من السيطرة الألمانية ، والخطوة الثانية هى إخضاع جميع الأساقفة للكرسى البابوى ، إن لم يكن إخضاعاً تاماً ، فإلى الحد الذى يتحتم معه أن يكون الذين يختارونهم هم رجال الدين وشعب الأبريشة بإشراف أسقف يرشحه البابا أو المطران ، وألا يصبح الاختيار نهائياً وقانونياً إلا إذا أيده رئيس الأساقفة أو البابا نفسه(٨٧) . وبدأ جريجورى عمله برسالة وجهها (١٠٧٣) إلى أسقف شالون Châlon أنذر فيها بأن يحرم فيليب أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة . ثم وجه فى عام ١٠٧٤ رسالة عامة إلى الأسقفيات الفرنسية يدعوها إلى التشهير بجرائم الملك فى حضرته ، وأن يمتنعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية فى فرنسا إذ أبى فليب أن يصلح شأنه(٨٨) . وظل غير رجال الدين رغم هذا يعينون فى المناصب الدينية ،

ولكن الأساقفة الفرنسيين ساروا على حذر وتركوا النزاع يحسم فى ألمانيا نفسها .

واجتمع فى فبراير من عام ١٠٧٥ مجمع من الأساقفة الطليان فى رومة برياسة جريجورى ، وأصدر قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج رجال الدين ، وتعيين غيرهم فى المناصب الكنسية . وأسرع جريجورى بعد صدور هذه القرارات إسراعاً عجيباً فحرم خمسة أساقفة للمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، وكان هؤلاء الخمسة من مستشارى هنرى الرابع ، ثم أوقف أسقفى پاڤيا وتورين ، وخلع أسقف پياسنزا Piacenza وأمر هرمان أسقف بامبرج Bamberg بالحضور إلى رومة ليبرئ نفسه من التهم الخاصة بالمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، ولما حاول هرمان أن يرشو رجال المحكمة البابوية خلعه جريجورى دون أدنى مجاملة ، وطلب إلى هنرى بأدب ولطف أن يرشح شخصاً يليق أن يخلفه أسقفاً لبامبرج . ولم يكتف هنرى بترشيح أحد رجال حاشيته المقربين بل إنه خلع عليه عصا الأسقفية وخاتمها دون أن ينتظر موافقة البابا — وذلك إجراء إن كان يتفق مع العادة المتبعة ، فإن فيه تحدياً صريحاً لقرار مجمع رومة المقدس . وكأنما أراد هنرى أن يجعل رفضه مطالب جريجورى أوضح مما ظهر بتحديه هذا فعين أساقفة لابرشيات ميلان ، وفرمو Fermo ، وأسبليتو — وهى بلدان قريبة كل القرب من مقر البابا — وظل المستشارون المحرومون موضع عطفه ورعايته .

وبعث جريجورى فى شهر ديسمبر من عام ١٠٧٥ برسالة احتجاج إلى هنرى ، وأمر حامليها بأن يضيفوا إليها رسالة شفوية ينذرون فيها الملك بالحرمان إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع رومة المقدس. فلما تلقى هنرى الرسالة عقد مجلساً من الأساقفة الألمان فى ورمز (٢٤ يناير سنة ١٠٧٦) حضره أربعة وعشرون منهم ، وتخلف عنه بعضهم . وقبل أن ينعقد المجلس اتهم هيو Hugh أحد الكرادلة الرومان جريجورى بالفسق ، والقسوة ، والسحر ، وبأنه توصل إلى كرسى البابوية بالرشوة والعنف ، وذكر الأساقفة بأن العادات التى ظلت سارية

من قرون طوال تتطلب ألا يكون اختيار البابا مشروطاً بموافقة إمبراطور ألمانيا ، ولم يكن جريجورى قد طلب هذه الموافقـــة . وكان مما شجع الإمبراطور على المضى فى خطته أنه أخضع منذ قليل فتنة قامت فى سكسونيا ، فعرض على المجلس اقتراحاً بخلع البابا ، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار ، وأيده مجلس من أساقفة لمبارديا عقد فى بياسنزا ، وبعث هنرى بهذا القرار إلى جريجورى مذيلا بهذه الحاشية المنتقاة : « من هنرى الملك بأمر الله لا بالاغتصاب إلى هلدبراند الراهب المزيف لا البابا »[٨٩] . وسلمت الرسالة إلى جريجورى فى مجمع مقدس بروما (٢١ فبراير سنة ١٠٧٦) ؛ وأراد الأساقفة الحاضرون كلهم البالغ عددهم مائة أسقف وعشرة أساقفة أن يقتلوا الرسول ، ولكن جريجورى حماه ؛ وحرم المجمع المقدس الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز ، وأصدر البابا حكماً مثلثاً بحرمان هنرى ، ولعنته ، وخلعه ، وأعفى رعاياه من يمين الطاعة له (٢٢ فبراير سنة ١٠٧٦) . ورد هنرى على هذا بأن أقنع أساقفة أوترخت بأن يصبوا على جريجورى « الراهب الحانث » اللعنات من منبر الكنيسة . وروعت أوربا كلها بأن يخلع البابا إمبراطوراً ، وروعت أكثر من هذا بأن يخلع الإمبراطور بابا ويلعنه الأساقفة . وتبين أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية ، وسرعان ما تخلى الرأى العام عن الإمبراطور ، وعادت سكسونيا إلى الثورة ، ولما أن استدعى هنرى أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان فى ورمز ومينز أغفلت دعوته إغفالا يكاد يكون تاماً . بل كان ما حدث هو نقيض هذا فقد وجد الأشراف الألمان فى هذه الظروف فرصة سانحة لهم لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك فاجتمعوا فى تريبور Tribur (١٦ أكتوبر سنة ١٠٧٦) ، ووافقوا على حرمان الإمبراطور ، وأعلنوا أنه إذا لم يحصل على مغفرة من البابا قبل اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير عام ١٠٧٧ فإنهم سيرشحون خلفاً له على العرش . وتم الاتفاق بين الأعيان ومندوبى البابا فى

تريبور أن يجتمع مجلس فى أوجزبرج فى اليوم الثانى من فبراير عام ١٠٧٧ برياسة البابا لتسوية شئون الكنيسة والمملكة .

ولجأ هنرى إلى اسبير مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معيناً . وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيؤيد خلعه من ملكه ، فبعث بالرسل إلى رومة ، يعرض على البابا أن يأتى هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة ؛ ورد عليه جريجورى بأنه مزمع أن يسافر قريباً إلى أوجزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنرى فى رومة . وبينا كان البابا فى طريقه إلى تلك المدينة استضافته فى مانتوا ماتلدا كونتة تسكانيا وصديقته ومؤيدته ؛ وهنا عرف أن هنرى قد دخل إيطاليا ؛ وخشى جريجورى أن يحشد الملك جيشاً من سكان لمبارديا المعارضين للبابا ، فلجأ إلى قصر ماتلدا الحصين فى كانوسا Canossa ، القائم فوق جبال الأپنين بالقرب من رجيو إميليا Reggio Emilia . وهناك فى الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٠٧٧ ، وفى يوم من أيام الشتاء الذى لم تشهد إيطاليا مثيلا له فى برودته ، أقبل هنرى ، كما يقول التقرير الذى بعث به جريجورى إلى الأمراء الألمان :

« بنفسه إلى كانوسا . . . وليس معه إلا عدد قليل من أفراد حاشيته . . . ووقف بباب القصر ، حافياً ، وليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف ، يتوسل إلينا والخوف يملأ قلبه أن نغفر له ونعفو عنه . . وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثا فيها كل من حولنا لشقوته ، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم . . . فرفعنا آخر الأمر الحرمان عنه وقبلناه مرة أخرى فى حظيرة الكنيسة أمنا المقدسة »[٩٠] .

ولم يكن تردد جريجورى طوال هذا الوقت ناشئاً من قسوة قلبه ، بل إنه قد قرر مصالحة هنرى دون أن يستشير الأمراء الألمان ؛ وكان يعرف أنه إذا خرج هنرى عليه بعد أن عفا عنه ، ثم حرمه مرة أخرى ، فإن هذا الحرمان لن يكون له من الأثر ما كان لحرمانه الأول ، ولن يؤيده الأشراف بنفس القوة التى أيدوه بها من قبل ؛ ولن يسهل على العالم المسيحى أن يفهم كيف يأبى خليفة

المسيح أن يعفو عن هذا التائب الذليل . وكان هـــذا الحادث نصراً روحياً لجريجورى ، ولكنه كان إلى جانب هذا نصراً دبلوماسياً بارعاً لهنرى ، فقد استعاد به عرشه من تلقاء نفسه وعاد جريجورى بعد ذلك إلى رومة وقضى العامين التاليين فى إصدار التشريعات الكنسية التى كانت تهدف قبل كل شىء إلى إرغام القساوسة على عدم الزواج . غير أن الأمراء الألمان نادوا برودلف أمير سوابيا ملكاً على ألمانيا (١٠٧٧) وبدا أن سياسة هنرى قد أخفقت . لكنه بعد أن تحرر من اللعنة البابوية لقى عطفاً جديداً من الشعب الذى لم يكن شديد الحب للأشراف ، فحشد جيشاً جديداً لتأييده ، وظلت ألمانيه عامين كاملين تمزقها الحروب الداخلية .وظل جريجورى يتذبذب طويلا ، ثم أعلن تأييده لرودلف وحرم هنرى مرة أخرى ، وحرم على المسيحيين أن يخدموه ، وعرض على كل من يتطوع تحت راية رودلف أن يغفر له خطاياه (مارس سنة ١٠٨٠)[١٩] .

وفعل هنرى ما فعله من قبل لم يتحول عنه قيد شعرة . فجمع فى ميتز مجلساً من الأعيان والأساقفة الموالين له ، وخلع المجلس جريجورى ، وأيد مجلس من أساقفة ألمانيا وشمالى إيطاليا عقد فى بركسن Brixen قرار الخلع ، ونادى بجيبير Guibert كبير أساقفة رافنا بابا ، وعهد إلى هنرى أن ينفذ قراراته . واجتمع الجيشان المتعاديان على ضفاف نهر السال Saale فى سكسونيا (١٥ أكتوبر سنة ١٠٨٠) ، وهزم هنرى ولكن رودلف قتل فى المعركة . وبينا كان الأعيان منقسمين على أنفسهم بشأن من يختارونه خلفاً له ، دخل هنرى إيطاليا ، واخترق لمبارديا دون أن يلقى مقاومة ، وجيش وهو يخترقها جيشاً آخر ، وضرب الحصار على رومة . واستغاث جريجورى بربرت جسكارد ولكن ربرت كان بعيداً عنه ، فاستغاث بوليم الأول وكان جريجورى قد وافق على فتحه إنجلترا وأيد هذا الفتح ، ولكن وليم لم يكن واثقاً من أنه لا يريد أن يفقد هنرى حجته الملكية . ودافع أهل رومة عن رئيسهم الدينى دفاع الأبطال ، ولكن هنرى استطاع أن يستولى

على جزء كبير من رومة وفيه كنيسة القديس بطرس ، وفر جريجورى إلى كاستيلو سانتا أنجيلو Castello Sant Angelo . واجتمع مجمع مقدس فى قصر لاتران بدعوة من هنرى ، وخلع جريجورى وحرمه ، ونادى بجيبير بابا باسم كلمنت الثالث (٢٤ مارس سنة ١٠٨٤) ؛ وبعد أسبوع من ذلك الوقت توج كلمنت هنرى إمبراطوراً ، وظل هنرى سيد رومة عاماً كاملا .

غير أن ربرت جسكارد عاد من حروبه مع بيزنطية فى عام ١٠٨٥ ، واقترب من رومة على رأس جيش مؤلف من ٣٦٫٠٠٠ رجل ، ولم يكن عند هنرى جيش يستطيع به ملاقاة هذه القوة ، ففر إلى ألمانيا ، ودخل ربرت العاصمة ، وحرر جريجورى ، ونهب رومة ، وخرب نصفها ، وأخذ معه جريجورى إلى مونتى كسينو . واشتد غضب العامة فى رومة على النورمان غضباً لم يستطع معه البابا حليفهم أن يأمن على نفسه فى ذلك المكان . وعاد كلمنت إلى رومة متظاهراً بأنه البابا ، وذهب جريجورى إلى سالرنو ، وعقد فيها مجمعاً مقدساً آخر ، وحرم هنرى مرة أخرى ، ثم خارت قواه الجسمية والروحية وقال : « لقد كنت أحب العدالة وأمقت الظلم ، ولهذا فإنى أموت منفياً » : ولم يكن قد تجاوز الثانية والستين من عمره ، ولكن النزاع المرير الذى خاض غماره قد حطم أعصابه وهد قواه ، ولم تترك له هزيمته الظاهرة على يد الرجل الذى عفا عنه فى كانوسا رغبة فى الحياة . ومات جريجورى فى سالرنو فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٠٨٥ .

وبعد فلعله كان متغطرساً فوق ما يجب فى حبه للعدالة ، ومتحمساً فوق ما يجب فى كرهه للظلم ؛ وليس من حق الرجل العملى أن يرى ما فى مركز عدوه من عدالة ، بل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده ؛ ولقد استطاع إنوسنت الثالث بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجورى ، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح ، ولكنه حققه بروح أكثر اعتدالا من روح جريجورى وبوسائل دبلوماسية أكثر من وسائله حكمة . ومع هذا فإن

إنوسنت لم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جريجورى ، ولقد تعلق هلدبراند بأعلى مما يستطيع إدراكه ، ولكنه رفع البابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والقوة قبل أيامه . ولقد انتصر فى حربه العوان على زواج القسيسين ، وهى الحرب التى لم يقبل فيها مهادنة ، وبذلك أعد لخلفائه قساوسة لا يدينون بالولاء لغير الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد . وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وحلول غير رجال الدين فى المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخراً ، ولكن آراءه كانت لها الغلبة فى النهاية ، وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية .. وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابويين إلى بسط سلطان البابوات على كل أبرشية فى العالم المسيحى ، وهو الذى وضع الخطة التى حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك . وسرعان ما رفعت هذه الانتخابات إلى عرش البابوية طائفة متسلسلة متصلة الحلقات ، من الرجال الذين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم ، ولم تمض على موت جريجورى عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم ونبلاؤه بإربان الثانى زعيماً لأوربا جميعها فى ذلك المزيج المؤلف من المسيحية ، والإقطاع والفروسية ، والاستعمارية ، وهو المزيج المعروف عندنا باسم الحروب الصليبية .

الباب الثاني والعشرون

الإقطاع والفروسية

٦٠٠ – ١٢٠٠

الفصل الأول

نشأة الإقطاع

تجمعت فى الستة القرون التى أعقبت موت جستنيان ظروف عجيبة كان لها أثر بطىء فى التغير الأساسى الذى حدث فى الحيـــاة الاقتصادية فى عالم أوربا الغربية .

فقد اجتمعت بعض الظروف التى أشرنا إليها من قبل ومهدت السبيل إلى عهد الإقطاع . ذلك أنه لما أصبحت مدن إيطاليا وغالة غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الألمانية ، انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم من الزراع ، وأسرمن « الموالى » ، وأعوان عسكريين . وزاد حركة التفرق التى تهدف إلى تكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة فى بلاد الريف قيام الأديرة التى كان رهبانها يفلحون الأرض ويشتغلون ببعض الصناعات اليدوية ؛ ولم تعد الطرق صالحة للاحتفاظ بوسائل النقل وتبادل المتاجر لما أصابها من التخريب بسبب الحروب والإهمال من جراء الفقر . ونقصت إيرادات الدولة بسبب كساد التجارة واضمحلال الصناعة ، وعجزت الحكومات الفقيرة عن حماية الحياة والملك والتجارة . واضطرت قصور الأعيان فى الريف بسبب العقبات القائمة فى سبيل التجارة أن تسعى للاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية ، فأضحى الكثير من الأدوات التى كانت تشترى من المدن تصنع فى الضياع الكبيرة منذ

القرن الثالث الميلادى . وتصف لنا رسائل سيدونيوس أبولينارس فى القرن الخامس سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع رحبة يفلحها مستأجرون نصف مستعبدين ، وقد أضحوا من ذلك الوقت البعيد يكونون أرستقراطية إقطاعية لها محاكمها الخاصة[1] وجيوشها[2] ولا يختلفون عن البارونات فى العهود المقبلة إلا فى قدرتهم على القيادة .

وكانت العوامل التى مهدت السبيل إلى قيام الإقطاع بين القرنين الثالث والسادس هى بعينها التى أقامته بين القرنين الساس والتاسع ؛ ذلك أن الملوك المروفنجيين والكارولنجيين أخذوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض ؛ وأضحت هذه الإقطاعات فى القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك الأسرة الكارولنجية . وأعادت غارات المسلمين ، والشماليين ، والمجر فى القرن الثامن والتاسع والعاشر نتائج الغارات الألمانية التى حدثت قبلها بستة قرون وزادتها قوة : فقد عجزت الحكومات المركزية عن حماية الأجزاء النائية عن عواصمها ، وأقام الأسقف أو البارون المحلى نظاماً فى مقاطعته وهيئة للدفاع عنها ، وظل محتفظاً بقوته ومحاكمه الخاصة . وإذ كان معظم المغيرين فرساناً فقد كان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملك كل منهم جواداً ، وأضحى الفرسان لهذا السبب أهم من المشاة ، وهكذا نشأ فى فرنسا ، وانجلترا فى عهد النورمان ، وفى أسبانيا المسيحية ، طبقة من الفرسان بين الدوق والبارون من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، كما نشأت فى رومة القديمة طبقة من الفرسان بين الأشراف والعامة . ولم ير الشعب حرجاً فى هذه التطورات ، فقد كانوا يتطلعون إلى وجود نظام عسكرى يتولى حمايتهم مما يحيط بهم من الرعب ، ومن الهجمات التى قد تنقض عليهم فى أى وقت كان ، ولهذا الغرض كانوا يبنون بيوتهم أقرب ما تكون إلى قصر البارون المنيع أو الدير الحصين ،

ولم يترددوا فى تقديم ولائهم وخدماتهم إلى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية أو دوق يستطيع قيادتهم . وخليق بنا أن ندرك ما عساه يتولاهم من الرعب لو أنهم فهموا خضوعهم هذا ؛ فهاهم أولاء رجال أحرار لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم ، يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قوى ويطلبون إليه فى نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم ؛ وكان من عادة البارون فى هذه الأحوال أن يقطع « رجُلَه » مساحة من الأرض يحتفظ بها بعقد يستطيع واهبها أن يلغيه فى أى وقت يشاء ، وقد أضحى هذا التملك المزعزع الصورة المألوفة لامتلاك رقيق الأرض إياها ، فكان الإقطاع بمقتضاه هو خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية إلى رجل أسمى منه منزلة فى مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية .

وليس من المستطاع تعريف الإقطاع تعريفاً جامعاً مانعاً ، فقد كانت له صور تبلغ المائة عداً فى مختلف الأزمنة والأمكنة . وكان منشأه فى إيطاليا وألمانيا ، ولكن تطوره الخاص به إنما حدث فى فرنسا . ولعله بدأ فى بريطانيا بتحويل البريطانيين إلى أرقاء أرض على أيدى الفاتحين الأنجليسكسون[٣] ، ولكن معظم خواصه فى تلك البلاد قد جاء بها الغاليون من نورمدية ، ولم ينضج هذا النظام النضج الكامل فى شمالى إيطاليا أو فى أسپانيا المسيحية ، ولذلك لم يستطع كبار الملاك فى الإمبراطورية الشرقية أن يثبتوا دعائم استقلالهم العسكرى والقضائى ، أو إقامة نظام الولاء المتدرج الذى بدا فى الغرب كأنه من مستلزمات الإقطاع . وبقيت أصقاع كبيرة من أوربا الزراعية خارج نطاق النظام الإقطاعى : كالرعاة وأصحاب الضياع الخاصة بتربية الماشية فى بلاد البلقان ، وشرق إيطاليا ، وأسپانيا ؛ وزراع الكروم فى غربى ألمانيا ، وجنوبى فرنسا ؛ والزراع الأشداء فى السويد والنرويج ؛ وطلائع التيوبون فيما وراء نهر الإلب ؛ وأهل جبال الكربات ،

والألب ، والأپنين ، والبرانس . ذلك أنه لم يكن يتوقع أن تكون لقارة كأوروبا ، تختلف أجزاؤها بعضها عن بعض أشد الاختلاف فى طبيعة أرضها وأحوالها الاقتصادية ، نظام اقتصادى موحد . وحتى فى داخل نظام الإقطاع نفسه كانت ظروف التعاقد ومنزلة المتعاقدين تختلف باختلاف الأمم والملاك ، والأزمنة المختلفة ؛ ولهذا فإن البحث التحليلى الذى سنصفه فيما بعد ينطبق أكثر ما ينطبق على فرنسا وإنجلترا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

الفصل الثانى

التنظيم الإقطاعى

١ — العبـــد

كان المجتمع فى تلك البلاد والأوقات يتكون من الأحرار ، ورقيق الأرض ، والعبيد . وكان الأحرار يشملون الأعيان ، ورجال الدين ، والجنود النظاميين ، وأصحاب المهن ، ومعظم التجار والصناع ، والفلاحين الذين يملكون أرضهم ولا يلتزمون إلا بالقليل ، أو لا يلتزمون بشىء على الإطلاق ، لأى سيد إقطاعى ، ولا يستأجرونها من سيد نظير إيجار نقدى . وكان أولئك الفلاحون الملاك يكونون أربعة فى المائة من الزراع بإنجلترا فى القرن الحادى عشر ، وكانوا أكثر من هذا عدداً فى غربى ألمانيا ، وشمالى إيطاليا ، وجنوبى فرنسا . والراجح أنهم كانوا يكونون ربع الزراع فى أوربا الغربية(٤) .

ونقص عدد العبيد بازدياد عدد أرقاء الأرض ، وكان معظم عملهم فى إنجلترا فى القرن الثانى عشر مقصوراً على الخدمة المنزلية ، ولا يكاد يكون لهم وجود أرض فرنسا الواقعة شمال نهر اللوار ، وأخذ عددهم يزداد فى ألمانيا فى القرن العاشر ، حين لم يكن الناس يتحرجون أو يؤنبهم ضميرهم من القبض على الصقالبة الوثنيين ليقوموا بالأعمال اليدوية الحقيرة فى الضياع الألمانية ، أو ليبيعوهم البلاد الإسلامية أو البيزنطية . كذلك كان التجار الصقالبة يختطفون المسلمين أو اليونان من الأراضى الممتدة على شواطئ البحر الأسود ، وسواحل آسية الغربية ، وإفريقية الشمالية ، ليبيعوهم للعمل فى الزراعة أو الخدمة المنزلية ، أو خصياناً ، أو سرارى ، أو عاهرات فى بلاد الإسلام والمسيحية . وراجت تجارة العبيد فى إيطاليا

بنوع خاص ، وأكبر الظن أن منشأ ذلك هو قربها من البلاد الإسلامية حيث كان فى وسع التجار أن يختطفوهم منها وهم مرتاحو الضمير ، فقد كان يلوح لهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين لغاراتهم على البلاد المسيحية .

وقد خيل إلى الناس ، وفيهم رجال الأخلاق الشرفاء ، أن هذا النظام الذى ظل قائماً من بداية التاريخ المعروف نظام أبدى لا غنى عنه . ولسنا ننكر أن البابا جريجورى الأول أعتق اثنين من عبيده ، ونطق فى هذه المناسبة بعبارات خليقة بالإعجاب عما للناس جميعاً من حق طبيعى فى الحرية[٦] ، ولكنه مع ذلك ظل يستخدم مئات العبيد فى الضياع البابوية[٧] ، ويوافق على القوانين التى تحرم على العبيد أن يكونوا قساوسة أو أن يتزوجوا من المسيحيات الحرائر[٨] . وقد حرمت الكنيسة بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين ، ولكنها أباحت استرقاق المسلمين والأوربيين الذين لم يعتنقوا الدين المسيحى . وكان آلاف من الأسرى الصقالبة أو المسلمين يوزعون عبيداً على الأديرة ، وظل الاسترقاق قائماً فى أراضى الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادى عشر[٩] ؛ وكان القانون الكنسى يقدر ثروة أراضى الكنيسة فى بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد لا بقدر ما تساويه من المال ، فقد كان يعد العبد سلعة من السلع كما يعده القانون الزمنى سواء بسواء ؛ وحرم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملاكهم ، وقرر أن ما قد يكون لهم وقت وفاتهم من مال مدخر يؤول إلى الكنيسة[١٠] ؛ وقد أوصى كبير أساقفة نربونة فى عام ١١٤٩ بعبيده المسلمين إلى أسقف بزيير Béziers[١١] : وكان القديس تومس أكويناس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم ، وأنه وسيلة اقتصادية فى عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم[١٢] . وكانت هذه الآراء متفقة مع أقوال أرسطو ، وموائمة لروح عصرها . وكانت القاعدة المقررة فى الكنيسة والتى تنص على أن أملاكها لا يمكن النزول عنها إلا بقيمتها الكاملة فى السوق[١٣] ، كانت هذه القاعدة شراً على

عبيدها وأرقاء أرضها . فقد جعلت عتق العبيد والأرقاء فى بعض الأحيان أصعب فى أملاك الكنيسة منه فى أملاك غيرها[١٤] . غير أن الكنيسة مع هذا خطت خطوات متزايدة فى تقييد تجارة الرقيق ، وذلك بتحريم استرقاق المسيحيين فى الوقت الذى كانت المسيحية سريعة الانتشار .

ولم يكن اضمحلال نظام الاسترقاق ناشئاً عن ارتقاء الأخلاق ، بل كان نتيجة تطورات اقتصادية . فقد تبين أن الإنتاج الذى يؤدى إليه القسر الجسمانى المباشر أقل ربحاً وأشد صعوبة من الإنتاج الذى يكون الحافز عليه هو الرغبة فى التملك . ولقد ظل الاسترقاق قائماً ، وكانت كلمة Servus اللاتينية تطلق على العبد وعلى رقيق الأرض ، ولكن هذا اللفظ تطور مع الزمن واستحال إلى كلمة serf لرقيق الأرض ، كما تطورت كلمة villein ومعناها رقيق الأرض فأصبحت villain ومعناها الآن « وغد » ، وكما تطورت كلمة Slav ومعناها صقلبى إلى كلمة Slave أى العبد . ولقد كان رقيق الأرض لا العبد هو الذى يصنع الخبز لعالم العصور الوسطى .

٢ – رقيق الأرض

الأصل فى رقيق الأرض أنه رجل يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون يؤجرها له طول حياته ويبسط عليه حمايته العسكرية ما دام يؤدى له أجراً لها سنوياً من الغلات أو العمل أو المال . وكان فى وسع هذا المالك أن يطرده منها متى شاء[١٥] ، وإذا مات لا تنتقل الأرض إلى أبنائه إلا بموافقة المالك ورضائه . وكان من حق هذا المالك فى فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلا عن الأرض بثمن يعادل أربعين شلناً (حوالى ٤٠٠ ؟ ريال أمريكى) ؛ وكان مالكه أحياناً يبيعه (أى أن يبيع عمله) مجزءاً بعضه لشخص وبعضه لآخر ؛ وكان فى وسع هذا الرقيق فى فرنسا أن يحل العقد الإقطاعى إذا أسلم الأرض وكل ما يملك إلى سيده ؛ أما فى إنجلترا فقد حرم من هذا الحق — حق مغادرة الأرض — وكان الذين يفرون

من أرقاء الأرض فى العصور الوسطى يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التى يعاد بها القبض على العبيد فى هذه الأيام .

وكانت الواجبات الإقطاعية التى يؤديها رقيق الأرض لمالكها متعددة مختلفة الأنواع ، وما من شك فى أن تذكرها وحده كان يحتاج إلى بعض الذكاء . (١) كان يؤدى فى العام ثلاث ضرائب نقدية . (ا) فرضة (ضريبة الرؤوس) وهى ضريبة صغيرة للحكومة عن طريق المالك (ب) وإيجاراً قليلا (ج) ونفقة يقررها المالك كما يهوى وتؤدى إليه مرة أو أكثر من مرة فى العام (٢) وكان يؤدى للمالك كل عام جزءاً من محصوله وماشيته ، تبلغ عادة عشرها . (٣) وكان عليه أن يعمل عند المالك كثيراً من أيام السنة مسخراً من غير أجر ؛ وكان هذا النوع من الواجبات ميراثاً انحدر من النظم الاقتصادية القديمة ، حين كان الفلاحون مجتمعين يؤدون بعض الأعمال العامة كتقطيع أشجار الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وشق القنوات ، وإقامة الجسور والحواجز ، بوصفها فرضاً واجباً عليهم للمجتمع أو للمالك . وكان بعض الملاك يتطلبون من الرقيق أن يعملوا عندهم ثلاثة أيام كل أسبوع فى معظم السنة ، وأربعة أيام أو خمسة كل أسبوع فى موسم الحرث أو الحصاد ؛ وكان من حقهم أن يطلبوا عند الضرورة عدة أيام أخرى لا يؤدون عنها إلا وجبات الطعام . ولم تكن هذه السخرة تفرض إلا على فرد واحد من الذكور فى كل أسرة (٤) وكان على رقيق الأرض أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ، ويصنع جعته ، ويعصر عنبه فى مصنع المالك ، أو تنوره ، أو خابيته ، أو معصرته ، وأن يؤدى له فى نظير كل عمل من هذه الأعمال أجراً قليلا (٥) وكان يؤدى أجراً آخر ليكون له حق صيد السمك ، أو اقتناص الحيوان البرى ، أو رعى ماشيته وحيوانه الأليف فى أراضى المالك (٦) وكان عليه أن يرفع قضاياه أمام محاكم صاحب الأرض ، وأن يؤدى فى نظير هذا رسماً يختلف باختلاف خطر القضية (٧) وكان عليه أن يلبى دعوة المالك فى الانضمام

إلى فيلقه إذا نشبت الحرب (٨) وإذا أسر المالك كان على الرقيق أن يشترك
أداء فديته (٩) وكان عليه فوق ذلك أن يشترك فى تقديم الهدايا القيمة
المستحقة لابن المالك إذا رقى إلى مرتبة الفرسان (١٠) وكان يؤدى للمالك
ضريبة عن كل ما يحمله من الغلات ليبيعه فى السوق أو المعرض (١١) ولم
يكن من حقه أن يبيع جعته أوخمره إلا بعد أن يسبقه المالك بأسبوعين يبيع
فيهما هو جعته وخمره (١٢) وكان عليه فى كثير من الأحيان أن يبتاع قدراً
معيناً من خمر سيده كل عام ؛ فإذا لم يبتعها فى الوقت المناسب (كما تقول
إحدى مواد قانون الضيعة) « صب المالك قدراً من الخمر يعادل أربعة
جالونات فوق سطح الرقيق ، فإذا جرى الخمر إلى أسفل كان على الرقيق أن
يؤدى ثمنه ، وإذا جرى إلى أعلى لم يكن يلزم بأداء شىء ما »[16] . (١٣)
وكان عليه أن يؤدى غرامة للمالك إذا ما أرسل هو ابناً له ليتعلم تعليما عالياً
أو وهبه للكنيسة لأن الضيعة بذلك تخسر يداً عاملة (١٤) وكان يؤدى ضريبة ،
ويحصل على إذن من المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من شخص خارج
عن نطاق الضيعة لأن المالك يخسر بهذا العمل بعض أبناء الزوج أو الزوجة
أو يخسرهم كلهم ، وكان لا بد من الحصول على هذا الإذن وهذه الضريبة
فى بعض المزارع فى كل زواج أياً كان (١٥) ونستمع فى حالات فردية عن
« حق الليلة الأولى » أى حق السيد فى أن يقضى مع عروس رقيق الأرض
الليلة الأولى من زواجها ، ولكن الرقيق كان يسمح له أحياناً أن « يفتدى »
عروسه بأجر يؤديه للسيد[18] ؛ وقد بقى حق الليلة الأولى بصورته هذه فى بافاريا
حتى القرن الثامن عشر[19] . وكان المالك فى بعض الضياع الإنجليزية يفرض
غرامة على الفلاح الذى تأثم ابنته ؛ وفى بعض الضياع الأسبانية كانت زوجة
الفلاح التى يحكم عليها فى جريمة الزنى تؤول أملاكها كلها أو بعضها لصاحب
الأرض[20] (١٦) وإذا مات الفلاح ولم يكن له ولد يقيم معه عاد بيته وعادت
أرضه إلى السيد تطبيقاً لحق الحكومة فى أن ترث من لا وارث له ؛ وإن

كان وارثه ابنة غير متزوجة لم يكن لها أن تستبقى الأرض إلا إذا تزوجت رجلا يقيم فى الضيعة نفسها ، وسواء كان للمتوفى وارث أو لم يكن له فقد كان من حق السيد إذا توفى المستأجر أن يستولى فى صورة ضريبة التركات على ماشية ، أو قطعة من قطع الأثاث أو ثوب من تركة المتوفى ، ولقس الأسقفية في بعض الحالات أن يستولى على مثل رسوم الوفاة هذه[٢١]. ولم تكن رسوم الوفاة تحصل فى فرنسا إلا إذا لم يكن للمتوفى وارث يعيش معه فى بيته . (١٧) وكان عليه فى بعض الضياع وبخاصة فى ضياع الكنيسة أن يؤدى ضريبة سنوية وضريبة تركات للقائد الذى ينظم وسائل الدفاع الحربى عن المقاطعة .

وليس فى وسعنا أن نقدر مجموع الفروض الواجب على رقيق الأرض أداؤها بالنظر إلى هذه الرسوم والضرائب المتنوعة ، وهى رسوم وضرائب لم تكن كلها تحصل من كل أسرة . وقد قدرت فى ألمانيا فى خلال العصور الوسطى بثلثى محصولاته[٢١] ؛ وكانت قوة العادة ، التى هى ذات السلطان الأكبر فى الأنظمة الزراعية ، فى صالح رقيق الأرض ؛ فقد كانت الرسوم التى يؤديها نقداً وعيناً تنزع إلى الثبات كما هى على مر القرون[٢٢] رغم ازدياد غلة الأرض وانخفاض قيمة النقد . وكان كثير من القيود والفروض التى تثقل كاهل الرقيق فى العصور الوسطى يخففها أو يلغيها تسامح الملاك ، أو المقاومة الفعالة من جانب الأرقاء ، أو نسيانها على مر الزمان[٢٣] . ولعل ما يوصف به رقيق الأرض فى العصور الوسطى من بؤس قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء الأكبر من الرسوم التى تنتزع منه بديلا من الإيجار النقدى الواجب أداؤه للمالك : وضرائب تؤدى للمجتمع لتمكنه من أداء الخدمات والأعمال العامة ، ولعل نسبتها إلى دخله كانت أقل من نسبة الضرائب التى نؤديها نحن فى هذه الأيام إلى حكومة الاتحاد ، وإلى الولاية ، والمقاطعة ، والمدرسة[٢٤](*) . ولقد كانت حال الفلاح المتوسط فى القرن الثامن عشر مماثلة

(*) يشير الكاتب هنا بطبيعة الحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم) .

لحال بعض الزراع الذين يقتسمون مع الملاك غلة الأرض التى يزرعونها فى الدول الحالية ، وكانت بلا شك خيراً من حال صعاليك الرومان فى عهد أغسطس[٢٥] . ذلك أن المالك فى ذلك الوقت لم يكن يعد نفسه مستغلا ، بل كان يعمل بجد فى المزرعة ، وقلما كان موفور الثراء . وظل الفلاحون حتى القرن الثالث عشر ينظرون إليه نظرة الإعجاب ، ونظرة الحب فى كثير من الأحيان ؛ وكانوا إذا ترمل السيد ولم ينجب أبناء يوفدون إليه الوفود يلحون عليه بأن يتزوج مرة أخرى ، حتى لا يترك الضيعة دون وريث من نسله ، فتسوء حالها إذا تعرضت لحرب الوراثة[٢٦] . وكان الإقطاع ، كما كانت معظم الأنظمة الاقتصادية والسياسية فى التاريخ ، ما لا بد له أن يكون لمواجهة مستلزمات المكان والزمان وفطرة الناس .

وكان كوخ الفلاح يقام من الخشب الهش الرقيق ، ويسقف عادة بالقش والعشب المتلبد ، وأحياناً بالحصباء . ولم نسمع قط عن نظام لمقاومة الحريق قبل عام ١٢٥٠ ؛ ومن أجل هذا كانت النار إذا اشتعلت فى أحد هذه الأكواخ أتت عليه وعلى كل ما فيه . وكان الكوخ فى كثير من الأحيان يتكون من حجرة واحدة ولا يزيد قط على حجرتين ، وبه مدفأة يحرق فيها الخشب ، وتنور ، ووعاء للعجين ، ومنضدة ، وبضعة مقاعد ، وصوان ، وصحاف ، وآنيـــة ، ومجمرة ، ومرجل ، وحبالة لتعليق الأوعية ، وحشية كبيرة من الريش أو القش قرب التنور مبسوطة على الأرض ينام عليها الفلاح ، وزوجته ، وأبناؤهما ، وطارق الليل من الضيوف مختلطين بعضهم ببعض يدفئ بعضهم بعضاً . وكان فناء البيت مأوى الخنازير والدواجن ، وكانت النساء يعنين بنظافة البيت بقدر ما تسمح به الظروف ، ولكن الفلاحين الكادحين كانوا يجدون فى تنظيف البيت مشقة كبيرة . وتحدثنا الأقاصيص أن الشيطان لا يقبل أرقاء الأرض فى الجحيم لأنه لا يطيق رائحتهم[٢٧] . وكان بالقرب من الدار فضاء مسور للحصان والأبقار ، وقد يكون فيه أحياناً خلايا للنحل وخن للدجاج ، وبالقرب منه كوم الروث يتكون من فضلات الحيوانات .

وأفراد الأسرة . وكان حول هذا كله أدوات الزرع والصناعات المنزلية ، وكان قط يحرس البيت من الفيران وكلب يشرف على هذا كله .

وكان الفلاح يرتدى قيصاً نصفياً من القماش أو جلد الحيوان ، وسترة من الجلد أو الصوف ، ومنطقة وسروالا ، وحذاء نصفاً أو عالياً ، وما من شك فى أنه كان يبدو بملابسه هذه شخصاً قوياً لا يختلف كثيراً عن فلاح فرنسا فى هذه الأيام . وليس من حقنا أن نصوره فى صورة الشخص المظلوم المغلوب على أمره ، بل علينا أن نتمثله بطلا يفلح الأرض ، قوياً صبوراً ، تحفظ عليه كيانه كما يحفظ كيان كل إنسان غيره عزة كامنة مهما كانت بعيدة عن العقل والمنطق . ولم تكن زوجته أقل منه كدحاً من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس . وكانت إلى هذا تنجب له الأبناء ؛ وإذ كان لهؤلاء الأبناء قيمة اقتصادية فى المزرعة فقد كانت تكثر منهن ؛ لكننا مع هذا نقرأ فى أقوال بلاجيوس الفرنسيى (حوالى ١٣٣٠) أن بعض الفلاحين « كثيراً ما كانوا يمتنعون عن مباشرة أزواجهم كيلا يلدن أبناء محتجين بأنهم يخشون لفقرهم أن يعجزوا عن تربيتهم إذا كثروا »[٢٨] .

وكان طعام الفلاح كافياً مغذياً — يتألف من منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر واللحم ؛ وإن كان بعض المؤرخين المتظرفين يرثون له لأنه كان يضطر إلى أكل الخبز الأسود — أى المصنوع من الدقيق غير المنخول[٢٩] . وكان يشترك فى حياة القرية الاجتماعية ، ولكنه لم تكن له متع ثقافية ؛ فلم يكن يعرف القراءة ، لأن فى وجود رقيق الأرض التى يعرفها إساءة إلى سيده الأمى . وكان يجهل كل شىء عدا الزرع ، وحتى هذا لم يكن بارعاً فيه . وكانت طباعه خشنة شديدة ، ولعله كان فظاً غليظ القلب . وقد اضطرته أحوال أوربا المضطربة أن يعيش عيشة الحيوان الطيب ، وفى الحق أنه استطاع أن يعيش على هذا النحو . فقد كان لفقره شرهاً ، ولخوفه قاسياً ، وللكبت الواقع عليه عنيفاً ، وكان جلفاً لأنه يعامل معاملة الأجلاف : وكان هو عماد الكنيسة ، ولكنه كان لديه من

الخرافات أكثر مما كان لديه من الدين ، وقد اتهمه بلاجيوس بأنه كان يخدع الكنيسة فلا يؤدى إليها عشورها ، ويهمل فى مراعاة أيامها المقدسة وأيام صومها ؛ ويشكو جوتييه ده كوانسى Gautier de Coincy (فى القرن الثالث عشر) من أن رقيق الأرض « ليس فى قلبه من خشية الله أكثر مما فى قلب الشاة ولا يأبه مطلقاً بقوانين الكنيسة المقدسة »[٣٠] . وكانت له لحظات فكاهته الثقيلة السمجة ، ولكنه كان فى حقله وفى بيته قليل الكلام ، صريح الألفاظ ، رزيناً ، يشغله كدحه المتواصل وأعماله الكثيرة عن أن يضيع جهوده فى الكلام أو الأحلام . وكان رغم خرافاته واقعى النزعة ، يدرك تصاريف الأقدار التى لا هوادة فيها ولا رحمة ، ويوقن أن الموت آت لا ريب فيه ، فقد كان جدب فصل من فصول العام يهلكه هو وحيواناته جوعا . وقد حدث بين عامى ٩٧٠و١١٠٠ ستون قحطاً حصدت الأهلين زرافات فى فرنسا ، ولم يكن فى وسع أى فلاح بريطانى أن ينسى ما حدث من القحط فى عامى ١٠٨٦و١١٢٥ فى انجلترا المرحة الطروب ؛ وقد روع أسقف تريبيه فى القرن الثانى عشر حين رأى الفلاحين يذبحون جواده ويأكلون لحمه[٣١] . ثم زاد الفيضان والوباء والزلزال الطين بلة وأحالت المسلاة آخر الأمر مأساة .

٣ – مجتمع القرية

وكان جماعة من الفلاحين يتراوح عددهم بين خمسين وخمسمائة يتألفون من أرقاء الأرض، ونصف الأحرار ، والأحرار ، يبنون قريتهم حول قصر السيد الإقطاعى فى الريف . ولم تكن بيوتهم منعزلة بعضها عن بعض بل كانت متجاورة داخل أسوار القرية لأن فى قربها أماناً لهم . وكانت القرية عادة جزءاً من ضيعة واحدة أو أكثر من ضيعة ، وكان السيد المالك هو الذى يعين الكثرة الغالبة من موظفيها، ولم يكونوا يسألون إلا أمامه وحده ، ولكن الفلاحين كانوا يختارون لهم عمدة

أو رئيساً يتوسط بينهم وبين المالك وينسق نشاطهم الزراعى . وكانوا يجتمعون فى السوق فى فترات معينة ليتبادلوا السلع ، وكان هذا التبادل هو البقية الباقية من التجارة فى هذه الضيعة المكتفية بنفسها من الناحية الاقتصادية ، فقد كان البيت الريفى ينتج بنفسه ما يلزمه من الخضر وبعض ما يلزمه من اللحوم ، ويغزل صوفه أو كتانه ، وينسج معظم ما يحتاجه أفراده من الثياب . وكان حداد القرية يصنع الآلات الحديدية ، ودابغ الجلود يصنع البضائع الجلدية ، والنجار ينشئ الأكواخ ويصنع الأثاث ، وصانع العربات يصنع المركبات ، والقصارون ، والصباغون ، والبناءون ، وصانعو السروج ، والحذاؤون ، والصبانون . . . كان كل هؤلاء يعيشون فى القرية أو يأتون إليها ليقيموا فيها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه ، وكان القصاب العام أو الخباز ينافس الفلاح وزوجته فى إعداد اللحم والخبز .

وكانت تسعة أعشار الاقتصاد الإقطاعى قائمة على الزراعة . وقد جرت العادة فى فرنسا وإنجلترا فى القرن الحادى عشر أن تقسم أرض المزرعة إلى ثلاثة حقول : أحدها يزرع قمحاً أو شيلما ، وثانيها شعيراً أو شوفانا ، ويترك الثالث بوراً . وكان كل حقل يقسم قطعاً مساحة كل منها نحو فدان إنجليزى أو نصف فدان يفصل كلا منها على الأخرى حاجز من أرض غير محروثة . وكان موظفو القرية يحددون لكل زارع عدداً مختلفاً من القطع فى كل حقل ويحتمون عليه أن يتبع فيها دورة زراعية تجرى على خطة يضعها مجتمع القرية . وكان الأهلون مجتمعين يقومون فى الحقل بالعمليات الزراعية كلها من حرث وتمهيد ، وغرس وبذر ، وحصاد . ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو أكثر كان يهدف إلى إعطائه نصيباً معادلا لنصيب غيره من الأراضى غير المتساوية الخصوبة ، ولعل هذه القرية التعاونية كانت بقية من شيوعية بدائية لا تزال آثار قليلة منها باقية فى هذه الأيام . وكان من حق كل فلاح يؤدى ما عليه من الواجبات الإقطاعيـــة بالإضافة إلى زرع

هذه القطع أن يقطع الأشجار ، ويرعى ماشيته ، ويجمع الكلأ الجاف من غابات الضيعة ، وأرض الكلأ المشاع فيها ، « وأرضها الخضراء » وكان له عادة حول كوخه ما يكفى من الأرض لإنشاء حديقة وغرس الأزهار .

ولم يكن علم الزراعة فى البلاد المسيحية الإقطاعية يضارع نظيره عند الرومان فى عهد كولمبلا Columbella أو عند المسلمين فى بلاد العراق أو الأندلس . وكانت أعقاب النبات وغيرها من النفايات تحرق فى الحقول لإخصاب التربة وتطهيرها من الحشرات والأعشاب الضارة ؛ وكان يتخذ من الطين الغضار(*) أو غيره من التراب والجير نوع من السماد البسيط ، فلم يكن يوجد فى ذلك الوقت مخصبات صناعية ، وكان ما يعترض النقل من صعاب يقلل استخدام روث الحيوان ، ولهذا كان رئيس أساقفة رون Rouen يلقى أقذار اسطبلاته فى نهر السين بدل أن ينقلها إلى حقوله القريبة منها فى دفيل Deville ، وكان الفلاحون يشتركون فى جمع دريهماتهم القليلة لشراء محراث أو زحافة يستعملونهما جميعاً . وظل الثور هو حيوان الجر عندهم حتى القرن الحادى عشر ؛ ذلك أن هذا الحيوان أقل نفقة من الحصان فى إطعامه ، وكان إذا كبرت سنه أكثر منه نفعاً إذا اتخذ طعاما . ولكن صانعى السروج اخترعوا حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الطوق الجامد الذى يمكن الحصان من جر حمل ثقيل دون أن يختنق ؛ وإذا وضع هذا الطوق فى عنق الحصان أمكنه أن يحرث فى اليوم الواحد ثلاثة أمثال ما يحرثه الثور أو أربعة أمثاله . وإذ كانت سرعة الحرث مهمة فى الجواء المعتدلة الرطبة فقد أخذ الحصان فى القرن الحادى عشر يحل محل الثور ويفقد ما كان له من منزلة غالية جعلت الناس يحتفظون به من قبل للسفر ، والصيد ، والحرب(٣٢) . ودخلت السواقى أوربا الغربية أواخر القرن الحادى عشر ، وكانت مستخدمة قبل ذلك بزمن طويل فى بلاد الشرق الإسلامية(٣٣) .

(*) المارل ويسمى أيضاً بالشمن وهو نوع من الطين الخزفى غنى بكربونات الكلسيوم . (المترجم)

وكانت الكنيسة تخفف من كدح الفلاح بأيام الآحاد والأعياد التى كان « العمل الوضيع » فيها يعد إثماً من الآثام . وفى ذلك يقول الفلاخون : « إن أثوارنا تعرف متى يحل يوم الأحد ، وهى لذلك تأبى أن تعمل فى ذلك اليوم »[٣٤] . وكان الفلاح إذا فرغ من الصلاة فى ذلك اليوم يغنى ويرقص ، وينسى فى ضحكه الريفى العالى أعباء الوعظ والمزرعة الثقال . وكانت الجعة رخيصة الثمن ، وكان الحديث حراً طليقاً بذيئاً . وكانت أقاصيص خليعة عن النساء تختلط بالخرافات الرهيبة التى تروى عن القديسين . وكانت ألعاب عنيفة ككرة القدم ، والهوكى ، والمصارعة ، وقذف الأثقال يتبارى فيها رجل مع رجل . وكان قتال الديكة ، ومصارعة الثيران كثيرى الحدوث ، وكان تحمس النظارة يصل إلى غايته حين يحاول رجلان معصوبا العينين ، مسلحان بالعصى الغليظة أن يقتلا إوزة أوخنزيرا داخل دائرة مغلقة . وكان الفلاخون فى بعض الليالى يتزاورون ، ويلعبون ألعاباً داخل البيوت ، ويحتسون الخمر ، وكانوا فى العادة يقضون أوقاتهم داخل البيوت ، لأن الحارات لم تكن مضاءة ، وكانوا يأوون إلى الفراش مبكرين بعد أن تظلم الدنيا بقليل لأن الشموع كانت غالية الثمن . وكانت الأسرة إذا حل الشتاء بليله الطويل تأوى الماشية فى الكوخ وترحب بها وتفيد بما تحدثه فيه من الدفء .

وهكذا كان الفلاحون فى أوربا يطعمون أنفسهم ، وسادتهم ، وجنودهم ، وقساوستهم ، وملوكهم ، بكدحهم المتواصل وبسالتهم الصامتة ، لا بما تبعثه فى نفوسهم الحوافز الصالحة من مهارة وقدرة على الابتكار . وكانوا يجففون المناقع ، ويقيمون الجسور والحواجز ، ويقطعون أشجار الغابات ، ويطهرون القنوات ، ويشقون الطرق ، ويبنون البيوت ، ويوسعون نطاق دائرة الحضارة ، ويكسبون المعركة القائمة بين الغابة والإنسان . وإن أوربا الحديثة لمن خلقهم وصنع أيديهم ؛ ونحن إذا ما شاهدنا الآن تلك السياج الأنيقة ، والحقول المنظمة ، لا نستطيع أن

نتصور ذلك الكدح الطويل ، والمحن الشداد التى دامت عدة قرون ، والتى حطمت ظهور الرجال وقلوبهم ، والتى سخرت المواد الغفل التى تخرجها الطبيعة السخية على كره ، ووضعت بها الأسس الاقتصادية لحياتنا الحاضرة .

وكانت النساء أيضاً مجندات فى تلك الحرب العوان ، فقد كان خصبهن وصبرهن على إنجاب الأبناء وتربيتهم هما اللذين ذللا الأرض . وحارب الرهبان وقتا ما ، ولم يكونوا فى حربهم أقل بسالة من غيرهم ، فقد أقاموا أديرتهم مراقب أمامية فى القفار ، وأنشأوا من الفوضى نظاما اقتصاديا ، وبنوا القرى فى البرارى ، وبفضل هذه الجهود كلها رفرف علم الحضارة على ربوع أوربا فى نهاية العصور الوسطى بعد أن كان الجزء الأكبر من أرضها فى بداية تلك العصور أرضين غير منزرعة ، وغابات خالية من السكان ، وبرارى مقفرة ، ولعل هذا العمل ، إذا نظرنا إليه النظرة الصحيحة ، هو أشد كفاح ، وأنبل نصر ، وأعظم عمل تم فى عصر الإيمان .

٤ — المالك

فى كل نظام اقتصادى يسيطر الرجال الذين يستطيعون السيطرة على أولئك الذين لا يستطيعونها إلا على إجهاد . وكان المسيطر على الرجال فى أوربا الإقطاعية هو السيد المالك — وهو باللغة اللاتينية dominus ، وبالفرنسية seigneur ، وبالرومانية senior وبالألمانية Herr ، وبالإنجليزية lord (أى السيد) وكانت أعماله تنقسم ثلاثة أقسام : أن يوفر وسائل الدفاع العسكرى عن أراضيه وسكانها ، وأن ينظم شئون الزراعة والصناعة والتجارة فى تلك الأراضى ، وأن يخدم سيده الأكبر أو مليكه فى الحرب . ولم يكن المجتمع قادراً على البقاء فى هذا النظام الاقتصادى الذى تحطم إلى عناصره الأولى وتمزق لطول عهده بالهجرة ، والغارات ، والنهب ، والحروب — لم يكن المجتمع قادراً على البقاء فى هذا النظام

إلا باستقلاله المحلى وكفاية موارده من الطعام والجنود ؛ ولهذا أصبح القادرون على تنظيم وسائل الدفاع وفلح الأرض هم سادتها وملاكها بطبيعة الحال ، وأضحى امتلاك الأرض وإدارتها مصدر الثراء والسلطان ، ونشأ عهد من الأرستقراطية مالكة الأرض دام إلى عهد الانقلاب الصناعى .

وكان المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه الإقطاع هو الولاء المتبادل الذى يتمثل فيما على رقيق الأرض أو التابع من التزامات اقتصادية وعسكرية لسيده ، وفيما على هذا السيد من واجبات مثلها لسيده الأعلى ، وفيما على هذا السيد الأعلى من واجبات للملك ، وفيما على الملك من واجبات نحو السيد الأعلى ، وفيما على هذه السيد الأعلى من واجبات للسيد الأصغر منه ، وفيما على هذا السيد الأصغر من واجبات لتابعه أو رقيق أرضه . وكان السيد يجزى أرقاءه على خدمتهم إياه أرضاً يستبقونها طوال حياتهم ، تكاد تكون ملكاً لهم . وكان يجيز لهم أن يستخدموا بأجر قليل أفرانه ، ومعاصره ، وطواحينه ، ومياهه ، وغاباته ، وحقوله ؛ وكان يستبدل بكثير من الواجبات التى تتطلب جهودهم العضلية قدراً قليلا من المال ، ويسمح بأن تسقط بعض الواجبات الأخرى على مر الزمان . ولم يكن ينزع الأرض من رقيقه إذا أعجزه المرض أو الشيخوخة — بل كان يعنى به عادة ويقدم له المعونة(٣٥) . ومن الملاك من كان يفتح أبوابه للفقراء فى أيام الأعياد ويطعم كل من يدخلها ؛ وكان ينظم وسائل المحافظة على القناطر ، والطرق ، والقنوات ، والتجارة ، ويجد الأسواق التى يصرف فيها ما زاد من منتجات الضيعة على حاجتها ، والأيدى العاملة للقيام بأعمالها ، والمال ليشترى به حاجاتها . وكان يأتى إليها بالسلالات الطيبة من الماشية ليربيها ، ويسمح لأرقائه أن يلقحوا ماشيتهم بالذكور الممتازة عنده ؛ وكان من حقه أن يضرب رقيق أرضه ، أو أن يقتله فى بعض الأماكن أو الأحوال ، دون أن يخش عقاباً ، ولكن شعوره بمصالحه الاقتصادية كان يكبح جماح وحشيته ، وكانت له فى أملاكه السلطات القضائية والعسكرية ،

وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التي تفرضها محاكم الضيعة ؛ ولكن معظم قضاة هذه المحكمة كانوا من أرقاء الأرض أنفسهم ، وإن كانت ترهبها سلطة المأمور التابع للشريف . ويتبين لنا مع تهافت الأرقاء على هذه الهيئات القضائية لتعفيه من الخدمات نظير ما يقدمه من المال — يتبين لنا من تهافتهم عليها أن قراراتها لم تكن شديدة الظلم . وكان فى مقدور كل رقيق يجد فى نفسه الجرأة الكافية أن يجهر برأيه فى محكمة الضيعة ، ومن الأرقاء من كانوا يجدون فى أنفسهم هذه الجرأة ، وقد أعانت هذه المحاكم بأحكامها الفردية ، وبغير قصد منها ، على إيجاد الحريات التى قضت آخر الأمر على عهد رقيق الأرض .

وكان فى وسع السيد الإقطاعى أن يمتلك أكثر من ضيعة واحدة ، وكان يعين فى هذه الحالة وكيلا له يشرف على أملاكه أى على ضياعه كلها ، وكان له فى كل منها ناظر أو مأمور ، وكان هو ينتقل من ضيعة إلى ضيعة ومعه أفراد أسرته ليستهلكوا غلاتها فى مواضع إنتاجها ؛ وقد يكون له قصر حصين فى كل واحدة منها . وكان قصر السيد الإقطاعى يرجع نشأته إلى معسكر الفيالق الرومانية المسور (Castellum, Castrum) أو إلى قصر الشريف الرومانى الريفى المحصن أو إلى حصن الزعيم الألمانى (burg) ، وكان يهدف إلى حماية سكانه أكثر مما يهدف إلى راحتهم . وكان أبعد وسائل الدفاع عنه من الخارج خندق عريض عميق ؛ وكانت الأتربة الناتجة من حفره والتى تلقى فى الجهة الداخلية منه تكون حاجزاً عالياً تدق فيه عُمد مربعة يرتبط بعضها ببعض ليتكون منها سور متصل . وكان جسر متحرك مثبت طرفه الداخلى يؤدى إلى باب حديدى كبير أو باب آخر شبكى قبله ، يحمى مدخلا ضخماً فى سور الحصن . وكان فى داخل هذا السور اسطبلات ، ومطبخ ، ومخازن ، وأبنية صغرى ، ومخبز ، ومغسل ، وكنيسة صغيرة ، ومساكن للخدم ، مبنية كلها عادة من الخشب . وكان مستأجرو الضيعة يهرعون عادة هم وماشيتهم ومنقولاتهم إلى داخل

هذا السور . ويقوم فى وسطه البرج أو بيت المالك ، وهو فى معظم الأحوال برج مربع كبير مقام من الخشب أيضاً ، ولكنه قبل أن يستهل القرن الثانى عشر بنى من الحجارة واتخذ شكلا دائرياً ليسهل الدفاع عنه أكثر من ذى قبل . وكان الطابق الأدنى من هذا البرج مخزناً وجبًّا ، ومن فوقه يسكن المالك وأسرته . وقد نشأت من هذه الأبراج فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر قصور الأشراف فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وهى القصور التى كانت جدرانها الحجرية المنيعة عماد قوة الملاك ضد مستأجريهم وضد الملك .

وكان البرج من داخله مظلماً ، ضيقاً ، محصوراً ؛ قليل النوافذ صغيرها ، وقلما كانت لها ألواح زجاجية . وكان الخيش أو الورق الملون ، أو المصاريع الخشبية ، أو شبابيك الشيش تمنع عنه معظم المطر والكثير من الضوء ؛ وكانت الشموع والمشاعل تستخدم فى الإضاءة الاصطناعية ، ولم تكن هناك فى معظم الأحوال إلا حجرة واحدة فى كل طابق من أطباقه الثلاثة ؛ وكانت السلالم أو الأبواب التى فى السقوف ، أو الدرج المتعرجة ، تصل أطباق البرج بعضها ببعض . وكان فى الطابق الثانى البهو الرئيسى ، الذى تعقد فيه محكمة المالك والذى يستخدم فضلا عن ذلك مطعماً ، وحجرة لجلوس الأسرة ، ونوم معظم أفرادها . وقد يكون فى إحدى أطرافها مصطبة مرتفعة ، يتناول عليها المالك ، وأسرته ، ومن يستضيفه طعامهم . أما غيرهم فكانوا يتناولون طعامهم على موائد متنقلة توضع أمام مقاعد فى ممرات هذا الطابق . فإذا حان وقت النوم وضعت الحشيات على الأرض أو على أسرة منخفضة من الخشب فى الممرات . وكان أهل الدار كلهم ينامون فى هذه الحجرة الوحيدة تحجبهم حواجز بعضهم عن بعض . وكانت الحجرات تطلى بالجير أو بالألوان الزيتية ، وتزين بالأعلام ، والأسلحة ، والدروع ، وكان من المستطاع وقاية الحجرة من التيارات الهوائية بالستائر أو الأقمشة المنقوشة . وكانت الأرض تبلط بألواح القرميد أو الحجارة ، وتغطى بالقش

أو أغصان الأشجار ، وكانت تدفأ من وسطها من موقد يحرق فيه الخشب .. وظلت الدار من غير مدخنة إلى أواخر العصور الوسطى ، وكان الدخان يخرج من فتحة بالسقف ، وكان من خلف المصطبة باب يوصل إلى « مشمسة » يستطيع السيد وأسرته وضيفه أن يستريحوا فيها ويستمتعوا بأشعة الشمس . وكان الأثاث هنا أدعى إلى الراحة منه فى الحجرات ، فقد كان فى هذه المشمسة بساط ، ومدفأة ، وسرير مريح .

وكان مالك الضيعة يرتدى جلباباً يتخذ عادة من الحرير الملون ، نقشت عليه رسوم هندسية أو نباتية ، وحرملة تغطى الكتفين وغير مشدودة يستطاع رفعها فوق الرأس ، وسروالا تحتياً (لباساً) قصيراً من فوقه سروال آخر (بنطلون) قصير أيضاً ، وجوربين قصيرين يرتفعان إلى الفخذين ، وحذاءين طويلين يرتفع طرفاهما الأماميين كأنهما مقدم سفينة . وكان يتأرجح من منطقته جراب وسيف ، وتتدلى عادة من عنقه مدلاة على شكل صليب . ولما أراد الأشراف الأوربيون أن يميزوا الفرسان ذوى الخوذ والدروع أحدهم عن الآخر فى الحرب الصليبية الأولى[٣٦] ، أخذوا عن المسلمين عادة[٣٧] تمييز أرديتهم ، وحللهم ، وألويتهم ، ودروعهم ، وسروج خيلهم بنقوش خاصة أو شعائر حربية ، ومن ثم أنشأت الفروسية لنفسها رطانة عجيبة لا يفهمها إلا الفرسان والقائمون على شئون الفروسية[*]. ولم يكن المالك رغم هذه الزينات كلها بالإنسان المتعطل المتطفل ، فقد كان يستيقظ فى مطلع الفجر ، ويصعد إلى برجه ليتبين هل يحدق به خطر ، ثم يفطر مسرعاً ،

(*) وسمى اللون الأصفر ، والأبيض ، والأزرق ، والأحمر ، والأخضر ، والأسود : والبنفسجى ، على هذا الترتيب نفسه ، بالذهبى ، والفضى ، والسماوى ، والوردى ، والنباتى ، والرملى ، والأرجوانى . وكان الأزرق السماوى لوناً أخذ عن الشرق ، ومن ثم كان من أسمائه « ما وراء البحر » . وكان الصليبيون يزينون معاصمهم ورقابهم بأساور مزركشة من الفرو — تصبغ عادة باللون الأحمر — (واللفظ الإنجليزى الذى يسمى به هذا اللون وهو gules مشتق من لفظ جولا اللاتينى ومعناه حلق) . وكانت الأديرة ، والبلدان ، والأمم ، تستخدم هذه الرموز فى القرن الثالث عشر كما تستخدمها الأسر ، وكانت الأسر القديمة تضع عادة فوق رموزها أو ألويتها شعاراً موجزاً جامعاً مثل : طاهر السريرة ؛ لا بالكثير ولا بالقليل .. الخ ..

وقد يذهب بعد ذلك للصلاة فى الكنيسة ، ثم « يتغدى » فى الساعة التاسعة صباحاً ، ويشرف بعدئذ على أعمال الضيعة الكثيرة ، ويشترك بنفسه فى بعضها ، ويصدر أوامره إلى الناظر ورئيس الخدم ، والسائس ، وغيرهم من أتباعه ، ويستقبل الزوار وعابرى السبيل ، ثم « يتعشى » معهم ومع أسرته فى الساعة الخامسة ، ويأوى عادة إلى فراشه فى الساعة التاسعة مساء . وكان هذا العمل الرتيب يتغير فى بعض الأيام إذا ذهب إلى الصيد ، ويتغير كذلك أحياناً قليلة إذا لعب « البرجاس » ، ويتغير من حين إلى حين إذا قامت الحرب . وكثيراً ما كان يقيم الولائم ، ويتبادل الهدايا الكثيرة مع الأضياف .

ولا تكاد زوجته تقل عنه عملا . فكانت تلد له كثيراً من الأبناء وتربيهم ، وكانت توجه الخدم الكثيرين ، وتلكمهم أحياناً ، وتلاحظ المخبز ، والمطبخ ، والمغسل ، وتشرف على عمل الزبد والجبن ، وعصر الجعة ، وتمليح اللحم لحفظه لأيام الشتاء ، وتعمل فى تلك الصناعات المنزلية الكبرى صناعات الخياطة ، والحياكة ، والغزل ، والنسيج والتطريز ، التى تعد بها معظم ملابس الأسرة ؛ فإذا خرج زوجها للحرب قامت هى بشئون المزرعة العسكرية والاقتصادية ، وكان ينتظر منها أن تمده بحاجاته المالية فى أثناء حروبه ؛ فإذا وقع فى الأسر كان عليها أن تدبر المال اللازم لافتدائه من كد رقيق أرضه ، أو من بيع جواهرها وأدوات زينتها ؛ وإذا مات زوجها وليس له ولد ذكر ، فقد تؤول إليها سيادة الضيعة . فتصبح هى سيدتها dame domina ، ولكنها كان ينتظر منها أن تتزوج مرة أخرى بعد زمن قليل، ل ى للضيعة وللسيد الأكبر ما يلزمهما من الخدمة أو الحماية العسكرية . وكان السيد الأكبر يقصر اختيارها على عدد قليل من الخاطبين القادرين على أداء هاتين المهمتين . وكان فى مقدورها أن تصبح فى داخل قصرها مسترجلة أو صخابة ، وتبادل زوجها لطمة بلطمة : وكانت فى ساعات فراغها تلبس على جسمها القوى أثواباً فضفاضة من الحرير ذات أهداب من الفراء ، وتحتذى حذاءين

لطيفين ، وتغطى رأسها بغطاء جميل ، وتزدان بالحلى المتلألئة فتصبح بذلك كله قادرة على بعث نشوة الحب أو الأدب فى قلوب الشعراء الجوالين .

وكان أبناؤها يتلقون تعليما يختلف كل الاختلاف عن تعليم الجامعات . لأن أبناء الأشراف قلما كانوا يرسلون إلى المدارس العامة ، ولم يكن فى كثير من الحالات يبذل أى مجهود فى سبيل تعليمهم القراءة . ذلك أن القراءة والكتابة كانتا تتركان للقساوسة والكتبة الذين كانوا يستأجرون بأقل الأجور ، وأن الكثرة الغالبة من فرسان الإقطاع كانوا يحتقرون المعارف العقلية ، فقد تعلم جسكلين Guesclin مثلا ، وهو من أجل شخصيات الفروسية ، جميع فنون الحرب ، وتعود مواجهة كل تقلبات الجو بقلب ثابت ، ولكنه لم يعن أقل عناية بتعلم القراءة ؛ ولم يحتفظ الأشراف بتقاليدهم الأدبية إلا فى إيطاليا وبيزنطية . وكان ابن أسرة الفرسان يرسل فى السابعة من عمره ، بدل المدرسة ، ليكون وصيفاً فى بيت شريف آخر يتأدب فيه ويتعلم الطاعة ، والأخلاق الطيبة ، وطريقة اللبس ، وقانون الشرف الخاص بالفرسان ، ومما تتطلبه المثاقفة والحرب من حذق ، وربما أضاف القسيس المحلى إلى هذا شيئاً من التدريب على القراءة والحساب . وكانت البنات يتعلمن مائة من الفنون النافعة أو الجميلة ، ولم تكن الوسيلة إلى هذا تزيد على النظر والعمل . وكن يعنين بشئون الضيوف ، والفارس حين يعود من الحرب أو البرجاس ؛ فكن يحللن دروعه ، ويحضرن حمامه ، ويأتين له بالثياب التحتية والفوقية ، والعطور ، ويخدمنه وقت الطعام بأدب جم وتواضع ورقة مدروسة ؛ وكن هن ، لا الأولاد ، يتعلمن القراءة والكتابة ، وكان منهن كثرة يستمعن إلى الشعراء ، والقصاصين ، والمغنين وإلى نثر ذلك الوقت وشعره الإبداعيين .

وكثيراً ما كان بيت الشريف يشتمل على بعض المقطَعين أو الأتباع . فأما المُقْطَع فكان رجلا ينال من الشريف نظير خدمته العسكرية والشخصية ،

أو المعونة السياسية ، منفعة أو ميزة قيمة — وهى فى العادة مساحة من الأرض ومن عليها من أرقاء الأرض ، وفى هذه الحال يكون للمقطع حق الانتفاع بالريع ، أما الملكية فتبقى للشريف . وكان الرجل الذى يمنعه كبرياؤه أو تمنعه قوته من أن يكون رقيق أرض ولكنه أضعف من أن يعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية ، يؤدى مراسم « الولاء » لشريف إقطاعى : يركع أمامه وهو أعزل عارى الرأس ، ويضع يديه فى يدى الشريف ، ويعلن أنه « رجل » ذلك الشريف (homme) (وإن كان يحتفظ بحقوقه بوصفه رجلا حراً) ، ثم يقسم على بعض المخلفات المقدسة أو على الكتاب المقدس أن يظل وفياً للسيد إلى آخر أيام حياته . ثم يرفعه السيد ، ويقبله ، ويمنحه إقطاعية(*) ، ويعطيه رمزاً لهذه المنحة قشة ، أو عصا ، أو حربة ، أو قفازاً . ويصبح السيد من ذلك الحين ملزماً بحماية المقطع ، وصداقته ، والإخلاص له ، وتقديم المعونة الاقتصادية والقضائية ؛ وكان عليه ، كما يقول أحد المحامين فى العصور الوسطى ، ألا يهين هذا المقطع ، أو يغوى ابنته أو زوجته[٣٩] ، فإذا فعل كان من حق المقطع أن « يلقى القفاز » علامة على التحدى ، أى أنه أصبح خارجاً عن الولاء له — ومن حقه مع ذلك أن يحتفظ بإقطاعيته .

وقد يُقطع المقطَع « من باطنه » جزءاً من الأرض إلى مقطَع أقل منه تكون علاقته به وتبعاته نحوه هى نفس العلاقة والتبعات التى بين المقطع الأصيل والسيد . وكان فى وسع المقطع أن تكون له إقطاعيات من عدد من السادة ، وأن يكون مديناً لهم « بولاء بسيط » وخدمات محدوده ، ولكن عليه أن يدين لسيد أعلى « بولاء كامل » وخدمة كاملة فى السلم والحرب . وقد يكون السيد نفسه مهما عظم شأنه ، مقطعاً من قبل غيره من السادة إذا أخذ منه ملكا أو إقطاعية ، وقد يكون مقطعاً — أى مالكا لإقطاعية — من مقطع من سيد آخر . وكان السادة كلهم

(*) وهى بالإنجليزية fief ؛ والكلمة مشتقة من كلمة feudum اللاتينية ، وهذه مأخوذة من كلمة faihu الألمانية القديمة أو القوطية ، ومعناها الماشية . وهى ذات صلة بكلمة pecu اللاتينية ، ولقد أصبح لها مثلها معنى ثانوياً وهو البضائع أو النقود .

مقطعين من الملك . ولم تكن الرابطة الأولى فى هذه الصلات المعقدة هى الرابطة الاقتصادية ، بل كانت هى الرابطة العسكرية ، فقد كان الرجل يقدم الخدمة العسكرية والولاء الشخصى ، أو يدين بهما ، إلى سيد ، وكان ما يعطى له من الأرض جزاء له على خدمته وولائه لا أكثر ولا أقل . وكان الإقطاع من الوجهة النظرية نظاماً عظيما تتبادل بمقتضاه الأخلاق الطيبة ، يربط رجال المجتمع المعرض للخطر بعضهم ببعض برباط قوامه تبادل أداء الواجبات ، والحماية ، والإخلاص .

٥ ــ الكنيسة الإقطاعية

وكان مالك الضيعة فى بعض الأحيان أسقفاً أو رئيس دير ؛ وكان كثير من الرهبان يعملون بأيديهم ، وكثير من الأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التى تجبى من الأبرشية ، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوى وتلك الأموال فى حاجة إلى المعونة المالية ؛ وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبة من الإيرادات الإقطاعية . وتراكمت هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى ، وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوربا ؛ فقد كان دير فلدا مثلا يمتلك ١٥٫٠٠٠ قصر صغير من قصور الريف ، وكان ديرسانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض[٤٠] ؛ وكان ألكوين فى تور سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض[٤١] . وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرهما من الألقاب الإقطاعية ، ويسكون العملة ، ويرأسون محاكم الأسقفيات والأديرة ، ويضطلعون بالواجبات الإقطاعية الخاصة بالخدمة العسكرية والإشراف الزراعى . وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحراب من المناظر المألوفة

فى ألمانيا وفرنسا . وكان رتشرد أمير كورنوول فى عام ١٢٥٧ يجهر بأسفه لخلو إنجلترا من « الأساقفة ذوى الحمية المتوقدة والروح الحربية القوية »[٤٢]. وهكذا أضحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعى ، فألفت نفسها منظمة سياسية ، واقتصادية ، وحربية لا منظمة دينية وكفى . وكانت أملاكها « الزمنية » أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى مستمسك بدينه ، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ، ومصدراً للجدل العنيف بين الأباطرة والبابوات . وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من نظام الإقطاع .

٦ - الملك

وكما كانت الكنيسة فى القرن الثانى عشر منشأة إقطاعية ذات حكومة دينية غرضها تبادل الحماية ، والخدمات ، والولاء ، تقوم بها طائفة من رجال الدين ويرأسها البابا سيدها الأعلى ، كذلك كان الحكم الزمنى الإقطاعى يتطلب لكى يبلغ تمامه رئيساً أعلى لجميع المقطعين ، وسيداً صاحب السلطان على جميع السادة الزمنيين ، أى أنه كان فى حاجة إلى ملك . وكان الملك من الوجهة الزمنية تابعاً لله ، يحكم بما له من حق إلهى ، بمعنى أن الله أجاز له أن يحكم ، ومن ثم فوضه فى أن يحكم . أما من الوجهة العملية فإن الملك قد ارتفع إلى عرشه بطريق الانتخاب أو الوراثة ، أو الحرب . نعم إن رجالا من أمثال شارلمان ، وأتو الأول ، ووليم الفاتح ، وفليب أغسطس ، ولويس التاسع ، وفردريك الثانى ، ولويس الجميل ، وسعوا سلطانهم الموروث بقوة الخُلق أو السلاح ؛ ولكن ملوك أوربا الإقطاعية لم يكونوا عادة حكاما لشعوبهم بقدر ما كانوا مندوبين من قبل الأقيال التابعين لهم ؛ فقد كان كبار الأشراف ورجال الدين هم الذين يختارونهم أو يوافقون على اختيارهم ، وكان سلطانهم المباشر محصوراً فى أملاكهم الإقطاعية أو ضياعهم ؛ أما فى غير هذه الأملاك والضياع من مملكتهم فقد كان رقيق الأرض أو التابع

الذى أقطع أرضاً يدين بالولاء للمالك الذى يحميه ، وقلما كان يدين بهذا الولاء للملك الذى كانت قوته الصغيرة البعيدة عنه عاجزة عن حماية المراكز الأمامية المشتتة فى أنحاء المملكة . وعلى هذا فإن الدولة فى النظام الإقطاعى لم تكن إلا ضيعة الملك .

وذهب هذا التفتيت فى الحكم إلى أبعد حد فى غالة لأن الأمراء الكارولنجيين أضعفوا قواهم بتقسيم الإمبراطورية ، ولأن الأساقفة أخضعوهم لسلطان الكنيسة ، ولأن هجمات الشماليين على فرنسا كانت أشد هجمات هؤلاء الأقوام عنفاً : ولم يكن الملك فى هذا النظام الإقطاعى الكامل إلا « صاحب المقام الأول بين أنداد » ؛ لا يعلو عمن يحملون لقب الأمير ، والدوق ، والمركيز ، والكونت إلا قليلا ، ولكنه كان من الناحية العملية شبيهاً « بأشراف الدولة هؤلاء » ، فقد كان شريفاً إقطاعياً تقتصر موارده المالية على ريع أراضيه ، ويضطر إلى الانتقال من ضيعة ملكية إلى أخرى ليحصل على طعامه وشرابه ، ويعتمد فى الحرب والسلم على المعونة العسكرية أو الخدمة الدبلوماسية التى يؤديها له تابعوه الأغنياء ، ولم يكن هؤلاء يتعهدون له بأكثر من أربعين يوماً من العمل المسلح كل عام ، وكانوا يقضون نصف وقتهم فى الائتمار به لخلعه . وكان الملك يضطر إلى منح الضيعة فى إثر الضيعة لأقوياء الرجال ليكسب بذلك معونتهم أو يجزيهم على هذه المعونة ، حتى كان ما بقى من الأرض لملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر أقل من أن يجعل لهم فوق أتباعهم الملاك من السيادة ما يؤمنهم على عرشهم ؛ ولما أن أورث هؤلاء الملاك أبناءهم ضياعهم ، وأنشأوا لأنفسهم شرطة ومحاكم ، وسكوا باسمهم النقود ، لما أن فعلوا هذا لم يجد الملك لديه من القوة ما يمنعهم من فعله ، ولم يكن فى وسعه أن يتدخل فى اختصاصات أتباعه القضائية فى أملاكهم إلا فى قضايا الإعدام التى تستأنف له ، ولم يكن من حقه أن يرسل موظفيه أو جباته إلى أملاكهم ، أو يمنعهم أن يعقدوا المعاهدات

المستقلة ، أو يشنوا الحروب من تلقاء أنفسهم . نعم إن ملك فرنسا كان من الناحية النظرية يمتلك جميع أراضى الملاك الذين يلقبونه سيدهم ، ولكنه لم يكن فى واقع الأمر إلا مالكاً من كبار الملاك ، ولم يكن حتماً أكبرهم ، ولم تكن أملاكه فى يوم من الأيام أكبر من أملاك الكنيسة .

وكما أن عجز الملوك عن حماية ممالكهم كان سبباً فى نشأة نظام الإقطاع ، كذلك كان عجز أمراء الإقطاع عن حفظ النظام فيما بينهم أو إقامة الحكومة الموحدة التى يتطلبها النظام الاقتصادى التجارى ، كان هذا العجز سبباً فى إضعاف السادة الإقطاعيين وتقوية الملوك . وكان تحمس الأشراف فى المنازعات الحربية فى أوربا الإقطاعية يلقى بهم فى غمار الحروب الخاصة والعامة حتى امتصت دماءهم-الحروب الصليبية ، وحرب الأعوام المائة ، وحروب الوردتين ، والحروب الدينية التى اختتمت بها هذه الحروب ، ومنهم من افتقروا وخرجوا على القانون فصاروا أشرافاً من قطاع الطرق ينهبون ويقتلون كما يشاءون ؛ وتطلبت المساوئ التى نشأت من الإفراط فى الحرية سلطة موحدة تحفظ النظام فى جميع أنحاء المملكة ؛ وأوجدت التجارة والصناعة فى خارج نطاق الرابطة الإقطاعية طبقة غنية متزايدة العدد ؛ ولم يكن التجار راضين عن الضرائب الإقطاعية ، وأخطار النقل داخل الممتلكات الإقطاعية ، وأخذوا يطالبون بأن تحل حكومة مركزية محل القوانين الخاصة . وتحالف الملك مع هذه الطبقة ومع المدن الآخذة فى النماء فأخذت هذه وتلك تمده بما يحتاجه من المال لتأييد سلطانه وتوسيعه ؛ وأخذ كل من يحس بالظلم أو الأذى من الأعيان يتطلع إلى الملك لينقذه ويرد الأذى عنه . وكان كبار الملاك من بين رجال الكنيسة أتباعاً للملك عادة وأوفياء له ، كذلك كان البابوات يجدون أن اتصالهم بالملك أيسر من اتصالهم بالأشراف المتفرقين الذين لا يستمسكون كل

الاستمساك بالقانون ، ولم يمنعهم من هذا الاتصال كثرة ما كان يحدث بينهم وبين الملوك من نزاع . واستطاع ملوك فرنسا وإنجلترا تؤيدهم هذه القوى المختلفة أن يجعلوا سلطتهم وراثية بعد أن كانت بالانتخاب ؛ وكانت وسيلتهم إلى هذا أن يتوج الواحد منهم ابناً أو أخاً له قبل وفاته ، وارتضى الناس هذه الملكية الوراثية بديلا من فوضى الإقطاع ؛ كذلك كان تحسين سبل الاتصال وازدياد تداول النقد مما جعل فرض الضرائب المنتظمة مستطاعاً ، وأمكن الملك بفضل موارده المتزايدة أن يحصل على ما يلزمه من المال لتقوية جيشه وزيادة عدده ؛ وانضمت طبقة رجال القانون الناشئة إلى العرش وقوته بفضل ما فى القانون الرومانى الذى عاد إلى الحياة من نزعة نحو المركزية ؛ فلم يحل عام ١٢٥٠ حتى أيد علماء القانون حق الملك فى أن يبسط سلطانه القضائى على كل من فى مملكته ، وحتى كان جميع الفرنسيين يقسمون يمين الولاء لمليكهم لا لسيدهم الإقطاعى . وبهذا كان لفليب الجميل فى آخر القرن الثالث عشر من القوة ما أمكنه من إخضاع أشراف بلاده ، بل وإخضاع البابوية نفسها ، لسلطانه .

وخفف ملوك فرنسا على أشراف بلادهم مرارة هذا الانتقال بمنحهم ألقاباً وامتيازات فى بلاطهم تعوضهم عن حقهم الخاص فى سك النقود ، وإصدار الأحكام القضائية ، وشن الحروب ؛ فكان كبار أتباعه يؤلفون حاشية الملك Curia regis ، وأصبحوا بذلك رجال بلاط لا أصحاب صولة ، واستحالت مراسم قصور الأعيان شيئاً فشيئاً إلى خدمات رسمية يقومون بها فى مجالس الملك ، وحول مائدته ، وفى غرفة نومه . وكان أبناء الأعيان وبناتهم يرسلون إلى قصر الملك ليخدموه أو ليخدموا الملكة بأن يكونوا خدما خصوصيين أو وصيفات ، وليتعلموا آداب البلاط ، وبذلك أصبح قصر الملك مدرسة لأبناء الأشراف

وكانت خاتمة الحفلات وأعظمها هى حفلة تتويج ملك فرنسا فى ريمس أو إمبراطور ألمانيا فى آخن أو فرانكفورت ، فنى هذه الحفلات كان صفوة الأعيان من جميع البلاد يجتمعون فى أثوابهم وعدتهم الفخمة الرهيبة ، وكانت الكنيسة تستخدم كل ما فى شعائرها من خفاء وجلال لإحاطة تتويج الحاكم الجديد بجميع مظاهر المجد والجلال ، وبهذا أضحت سلطة الملك سلطة إلهية ، لا يستطيع أحد أن يعارضها وإلا عد خارجاً صراحة على الدين . وأقبل الملاك الإقطاعيون على بلاط الملك الذى أخضعهم لسلطانه ، وأسبغت الكنيسة حقاً إلهياً على الملوك الذين حطموا زعامتها وسلطانها على أوربا بعد ذلك الوقت .

الفصل الثالث

شريعة الإقطاع

كانت العادات والشرائع فى الغالب شيئاً واحداً فى نظام الحكم الإقطاعى حيث كان القضاة والقائمون بتنفيذ القانون المدنى عادة أميين . فإذا ما ثارت مشكلة خاصة بالقانون أو العقاب ، سئل أكبر أعضاء المجتمع سناً عما جرت به العادة فى هذه المشكلة أيام شبابهم ، ولهذا كان المجتمع نفسه المصدر الرئيسى للقوانين . نعم إنه كان فى مقـــدور الشريف أو الملك أن يصدر الأوامر ، ولكن هذه الأوامر لم تكن قوانين ، وإذا ما طلب إلى الناس أكثر مما تجيزه العادات حالت بينه وبين مطالبه مقاومة الشعب عامة جهرة أو صمتاً[٤٣] . وكان لفرنسا الجنوبية قانون مكتوب ورثته عن الرومان ، أما فرنسا الشمالية حيث كان الإقطاع أكثر تغلغلا منه فى الجنوب ، فقد احتفظت فى الأغلب الأعم بشرائع الفرنجة ، ولما أن دونت هذه القوانين أيضاً فى القرن الثالث عشر ، أضحى تغييرها ، الذى كان من قبل صعباً ، أشد صعوبة مما كان ، ونشأت مائة قصة قضائية للتوفيق بين هذه القوانين وبين الحقيقة الواقعة .

وكان قانون الملكية الإقطاعى قانوناً فذاً معقداً ، يقر ثلاثة أشكال للملكية العقارية : (١) الملكية المطلقة غير المشروطة بشرط ما . (٢) الالتزام وهو منح غلة الأرض لا ملكيتها لتابع إقطاعى بشرط أداء الخدمة المفروضة على الشريف . و(٣) الإيجار — وهو الذى تعطى به غلة الأرض لرقيق الأرض أو مستأجرها على شريطة أن يقوم بأداء الالتزامات الإقطاعية . وكان الملك وحده حسب النظرية الإقطاعية هو الذى يستمتع بالملكية المطلقة ، أما كل من عداه ، ومنهم أسمى الأشراف مقاماً ، فكانوا مستأجرين يمتلكون الأرض على شريطة أن يؤدوا

عنها الخدمة الواجبة . كذلك لم تكن ملكية السيد الإقطاعى للأرض مقصورة عليه وحده ، بل كان لكل واحد من أبنائه حق موروث فى أرض الآباء ، وكان له أن يحول دون بيعها[٤٤] . وكانت العادة المألوفة أن تؤول الأرض إلى أكبر الأبناء الذكور ، ذلك بأن هذه العادة التى لم تكن معروفة فى القانون الرومانى أو قوانين الأمم المتبربرة أصبحت موائمة لظروف النظام الإقطاعى ، لأنها تضع شئون الحماية العسكرية والإشراف الاقتصادى فى يد رئيس واحد ، يفترض فيه أنه أنضج أبناء الأسرة عقلا . أما الذكور الأصغر منه سناً فكانوا يشجعون على المغامرة لتملك ضياع أخرى فى أراضى غير أرض آبائهم ؛ وكان القانون الإقطاعى ، رغم ما فرضه على الملكية من قيود ، لا يقل عن أى قانون سواه احتراماً للملكية وقسوة فى عقاب من يعتدون على حقوقها . مثال ذلك أن أحد القوانين الألمانية كان ينص على أن من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التى تمسك أحد الجسور « يشق بطنه ، وتنتزع أمعاؤه ، وتلف حول القطع الذى أحدثه » ؛ وكان فى وستفاليا قانون ظل معمولا به حتى عام ١٤٥٤ يقضى بأن من يرتكب جريمة إزالة أحد معالم حدود أرض جاره ، يدفن فى الأرض إلى ما تحت رأسه ، ثم تسلط عليه أثوار ورجال لم يسبق لهم أن حرثوا أرضاً يحرثون رأسه ، « وللرجل الدفين أن ينقذ نفسه بخير وسيلة يستطيعها »[٤٦] .

وكانت الإجراءات القضائية فى القانون الإقطاعى تتبع فى الأغلب الأعم قوانين البلاد الهمجية ، وتعمل لاستبدال العقوبات القانونية العامة بالثأر الفردى . وكانت الكنائس ، والأسواق العامة ، « ومدن الالتجاء » تمنح حق الأماكن الحرم ؛ وكان من المستطاع بفضل هذه القيود أن يوقف الانتقام حتى يتدخل القانون فى الأمر . وكانت محاكم الضياع تنظر القضايا التى تقوم بين مستأجر ومستأجر ، أو بين مستأجر وسيد ؛ أما المنازعات التى تثور بين سيد وتابع له ، أو بين سيد وسيد ، فكانت تعرض على محلفين « من أعيان البارونية » وهم رجال

يجب ألا يقلوا فى المنزلة عن الشاكى نفسه[٤٧] ، وأن يكونوا تابعين للإقطاعية نفسها ، وممن يجلسون معه فى بهو إقطاعى واحد . وكانت محاكم الأسقفيات أو الأديرة تنظر فى قضايا رجال الدين ، أما الاستئناف الأعلى فكان يرفع إلى المحكمة الملكية المؤلفة من أعيان الدولة ، وكان يرأسها الملك نفسه أحياناً . وكان المدعى والمدعى عليه أمام محاكم الضياع يحبسان حتى يصدر الحكم فى قضيتهما . وكان المدعى الذى يخسر القضية المرفوعة أياً كان نوعها يعاقب بنفس العقوبة التى توقع على المدعى عليه إذا ثبتت عليه التهمة . وكانت الرشوة شائعة فى جميع المحاكم[٤٨] .

وظل التحكيم الإلهى معمولا به طوال عهد الإقطاع . وقد حدث فى عام ١٢١٥ أن فرض الاختبار بالحديد المحمى على بعض الخارجين على الدين فى كمبريه Cambrai ؛ فلما أصيبوا بحروق سيقوا إلى القائمة التى يشد إليها من يحرقون ، ولكن أحدهم أعفى من العقوبة ، كما يقولون ، لأنه أقر بذنبه ، فشفيت يده من فوره ، ولم يبق فيها أثر للحروق . وكان انتشار الفلسفة فى خلال القرن الثانى عشر ، وإقبال الناس من جديد على دراسة القانون الرومانى ، من أسباب كراهية الناس لهذا « التحكيم الإلهى » . واستطاع البابا إنوسنت الثالث أن يقنع مجلس لاترن الرابع فى عام ١٢١٦ بإلغاء هذا النوع من المحاكمة إلغاء تاماً ، وأدخل هنرى الثالث هذا الإلغاء فى القانون الإنجليزى (١٢١٩) ، كما أدخله فردريك الثانى فى قانون نابلى (١٢٣١) ؛ أما فى ألمانيا فقد ظلت الاختبارات القديمة معمولا بها حتى القرن الرابع عشر ؛ وقاسى سفنرولا Savonarola التحكيم الإلهى بالنار عام ١٤٩٨ فى فلورنس ، وعاد هذا التحكيم إلى الوجود فى محاكمة الساحرات فى القرن السادس عشر[٤٩] .

وشجع نظام الإقطاع السنَّة الألمانية القديمة ، سنة المحاكمة بالاقتتال ، وكانت هذه السنّة وسيلة للإثبات من ناحية ، وبديلا من الثأر الفردى من ناحية أخرى .

وأعاد النورمان هذه السنّة إلى بريطانيا بعد أن أهملت فى عهد الأنجليسكسون ، ثم ظلت ثابتة فى سجل القانون الإنجليزى حتى القرن التاسع عشر(٥٠) . ومما يذكر فى هذا الصدد أن فارساً يدعى هرمان Hermann اتهم فارساً آخر يدعى جاى Guy بالاشتراك فى اغتيال تشارلس الصالح Charles the Good ملك فلاندرز ؛ فلما أنكر جاى التهمة دعاه هرمان إلى مبارزة قضائية ، وظل الرجلان يتقاتلان عدة ساعات ، حتى فقد كلاهما جواده وخسر سلاحه ، فانتقلا من المبارزة إلى المصارعة ، واستطاع هرمان أن يبرهن على عدالة التهمة بانتزاع خصيتى جاى من جسمه ، ويموت جاى بتأثير هذا الانتزاع(٥١) . ولعل الإقطاعيين قد استحوا من هذه العادات الهمجية ففرضوا قيوداً على حق المبارزة ظلت تتراكم على مدى الأجيال ؛ فكان يطلب إلى المدعى إذا أراد أن يحصل على حق الدعوة إلى المبارزة أن يتقدم بقضية مرجحة الكسب ، وكان من حق المدعى عليه أن يرفض القتال إذا أثبت أنه كان فى غير مكان الجريمة حين وقوعها ؛ ولم يكن لرقيق أرض أن يبارز حراً ، أو مجذوم أن يبارز سليماً ، أو ابن غير شرعى أن يبارز ابناً شرعياً ، وقصارى القول أنه لم يكن يصح لشخص أن يبارز إلا شخصاً مساوياً له فى مرتبته . وكانت قوانين بعض المجتمعات تمنح المحكمة حق منع أية مبارزة قضائية متى شاءت ؛ وكان رجال الدين ، والنساء ، والمصابون بأية عاهة جسمية يعفون من المبارزة ، ولكنهم كان لهم أن أن يختاروا « أبطالا » — أى مبارزين بارعين — ينوبون عنهم فى المبارزة . ولذلك نسمع منذ القرن العاشر عن أبطال مأجورين يحلون محل الذكور المبارزين وإن كانوا صحيحى الأجسام ، ذلك بأنه إذا كان الله سيقضى فى الأمر حسب عدالة التهمة فقد يبدو أن شخصية المقتتلين لا شأن لها بهذا القضاء . وقد عرض أتو الأول مسألة عفة ابنته ، والنزاع القائم حول وراثة بعض الضياع ، ليفصل فيها أبطال مبارزون(٥٢) ، وكذلك لجأ ألفنسو العاشر ملك قشتالة إلى هذا النوع من المبارزة ليقرر هل يعمل بالقانون الرومانى فى

مملكته[٥٣] وكانت السفارات تزود أحياناً بالأبطال المبارزين ليكونوا حاضرين إذا نشب نزاع دبلوماسى يجوز الفصل فيه بالمبارزة . وظل أبطال من هذا النوع يظهرون فى الاحتفال بتتويج ملوك الإنجليز حتى عام ١٨٢١ ؛ وقد أصبحوا قبل ذلك التاريخ من مخلفات الماضى ذوات الشكل الجميل ، ولكن هذا البطل المبارز كان يفترض فيه فى العصور الوسطى أن يلقى قفازه على الأرض ، ويعلن بصوت عال استعداده للمبارزة للدفاع عما للملك من حق إلهى فى تاجه[٥٤] .

وكان الالتجاء إلى الأبطال مما يحط من شأن المحاكمة بالاقتتال ، ولهذا حرمته الطبقات الوسطى الناشئة فى التشريعات العامة ، واستبدلت به فى القرن الثالث عشر القانون الرومانى فى أوربا الجنوبية ، وكثيراً ما نددت به الكنيسة ، وحرمه إنوسنت الثالث تحريماً قاطعاً (١٢١٥) ، ومنعه فردريك الثانى من أملاكه فى نابلى ؛ وألغاه لويس التاسع فى الأقاليم الخاضعة لحكمه خضوعاً مباشراً (١٢٦٠) ؛ وحرمه فليب الجميل (١٣٠٣) فى جميع أنحاء فرنسا . هذا والمبارزة لا تستمد أكبر أسباب نشأتها من الاقتتال القضائى بقدر ما تستمده من حق الناس القديم فى أن يثأروا لأنفسهم ممن يعتدون عليهم .

وكانت العقوبات الإقطاعية قاسية قسوة وحشية ، فكانت الغرامات لا يحصى لها عدد ، وكان السجن يستخدم وسيلة لحجز المتقاضين أكثر مما يستخدم عقاباً للمذنبين ، ولكن السجن كان فى حد ذاته تعذيباً للمسجون لما كان فى حجراته من حشرات ، وجرذان ، وأفاع[٥٥] ؛ وكان يحكم أحياناً على الرجال والنساء بالخنَاك أو الصلب علناً ، وأن يجعل المعاقب هدفاً لسخرية الجماهير ، أو يقذف بالطعام الفاسد أو يرجم بالحجارة ؛ وكان كرسى الاعتراف يتخذ عقاباً لمن يرتكبون بعض الجرائم أو الثرثارين أو النساء الساقطات ، فكان من يحكم عليهم بهذا العقاب يشدون إلى كرسى يربط برافعة طويلة ثم يغرق بهم الكرسى فى مجرى مائى أو بركة . وكان الأشداء من المذنبين يحكم عليهم أحياناً بالعمل فى السفن ،

فكانوا يساقون إليها عراة ، ولا ينالون إلا القليل من الطعام الذى لا يغنى من جوع ، ويشدون إلى المقاعد ثم يرغمون على التجديف فيها حتى تخور قواهم ، فإذا امتنعوا أو توانوا جلدوا أشد الجلد وأقساه . وكان الجلد بالسوط أو العصا من العقوبات العادية . وكان جسم المذنب ووجهه أحياناً — يكوى ليوسم بحرف ما يرمز للجريمة . وكان الحنث فى الأيمان والتجديف يعاقبان أحياناً بحرق اللسان بقطعة من الحديد المحمى : وكان بتر الأعضاء أمراً مألوفاً ، فكانت اليدان ، أو القدمان ، أو الأذنان ، أو الأنف تقطع ، والعينا تسملان ، وكان من الوسائل التى لجأ إليها وليم الفاتح لمكافحة الجرائم « ألا يقتل إنسان أو يشنق لجريمة ارتكبها ، بل أن تفقأ عيناه ، وأن تقطع يداه ، وقدماه ، وخصيتاه ، حتى إذا ما بقى شىء من جسمه كان ذلك الشىء الباقى دليلا على جميع جرائمه وجوره »[٥٦] . وقلما كان التعذيب من العقوبات المعمول بها فى العصور الوسطى ، وإن كانت الشرائع الرومانية والكنسية قد أعادته إلى الوجود فى القرن الثالث عشر . وكان القتل والسرقة يعاقب عليهما أحياناً بالنفى ، وكان أكثر ما يعاقبان به هو قطع الرأس أو الشنق ، وكان عقاب القاتلات أن يدفن وهن على قيد الحياة[٥٧] . ويمكن عقاب الحيوان الذى يقتل آدميا بدفنه حياً أو بشنقه . وكانت المسيحية تدعو إلى الرأفة ، ولكن المحاكم الكنسية كانت تعاقب على الجرائم بنفس العقوبات التى توقعها المحاكم المدنية ؛ من ذلك أن محكمة دير سانت چنڤييڤ St. Geneviève حكمت بدفن سبع نساء وهن على قيد الحياة عقاباً لهن على السرقة[٥٨] : وبعد فلعل كبح جماح الخارجين على القانون فى العصور الهمجية ، كان يحتاج إلى تلك العقوبات الوحشية ، ولكن هذه العقوبات الوحشية نفسها بقيت حتى القرن الثامن عشر ، ولم تكن شر أنواع التعذيب هى التى يفرضها الأشراف على القتلة بل كانت هى التى يفرضها الرهبان المسيحيون على الأتقياء المارقين .

الفصل الرابع

الحروب الإقطاعية

نشأ الإقطاع ليكون نظاماً عسكريا لمجتمع زراعي غير مطمئن على نفسه ؛ وكانت فضائله حربية أكثر منها اقتصادية . وكان ينتظر من سادة الإقطاع وأتباعهم أن يدربوا أنفسهم على الحرب وأن يكونوا فى كل لحظة من اللحظات مستعدين لترك المحراث وانتضاء السيف .

وكان جيش الإقطاع هو الأداة الحكومية الإقطاعية ، تنظمه روابط الولاء الإقطاعى وينقسم انقساماً دقيقاً إلى طبقة فوق طبقة حسب درجات الشرف والمنزلة ، فالأمير ، والمركيز ، والكونت ، ورئيس الأساقفة ، هم قواد الجيش ، والبارون ، والسيد ، والأسقف ، ورئيس الدير ، هم رؤساء الفرق ، وكان الفرسان Knights أو Chevaliers هم راكبى الخيل ، وكان الأتباع هم خدم البارونات أو الفرسان ، وكان حملة السلاح men-at-arms — الجيش المرابط فى المقاطعات أو القرى — يحاربون مشاة ، وكان من وراء الجيش الإقطاعى ، كما نراه فى الحروب الصليبية ، حشد من الخدم Varlets يتبعون الجند سيراً على الأقدام من غير نظام ولا قواد ، وكانوا يساعدون الجيوش على انتهاب المغلوبين ، ويريحون المعذبين ممن يسقطون فى حومة الوغى ، والجرحى من الأعداء بأن يجهزوا عليهم ببلطهم الحربية أو عصيهم الغليظة[٥٩] . ولكن الجيش الإقطاعى كان فى جوهره وأساسه هو الفارس مكرراً ، ذلك أن المشاة قد فقدوا منزلتهم العليا بعد معركة هدريانوبل (٣٧٨) ، ولم يستعيدوا هذه المنزلة إلا فى القرن الرابع عشر ، وكان الفرسان هم عماد الفروسية ، وكان اسمهم وكل ما يتصل به من الأسماء الأخرى Cavalry ، Chivalry ، Caballero ، Chevalier ، Cavalier مشتقاً من اسم الفرس .

وكان المحارب فى عهد الإقطاع يستخدم الحربة ، والسيف ، والقوس ، والسهم . وقد مد الفارس نفسه ووسع دائرتها حتى شملت سيفه ، وأطلق عليه اسما ينم على إعزازه وحبه ، وإن كان مما لا شك فيه أن الشعراء القصاصين هم الذين أطلقوا على سيف شارلمان اسم « المبهجة » Joyeuse وعلى سيف رولان دورندل Durandel ، وعلى سيف الملك آرثر اسم Excalibur . وكان للقوس عدة أشكال فقد تكون قوسا بسيطة قصيرة ، تشد عند الصدر ، وقد تكون قوساً طويلة تشد نحو العين والأذن ، وقد تكون قوساً متقاطعة يشد وترها فى محز بمقبضها ، ثم تطلق فجأة ، وقد يستخدم أحيانا زند فى إطلاقها ، وتنطلق منها قذيفة من الحديد أو الحجر . وكانت القوس المتقاطعة أداة قديمة العهد ، أما القوس الطويلة فكان أول من اشتهر باستعمالها إدورد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) فى حروبه مع أهل ويلز . وكانت الرماية أهم عناصر التدريب العسكرى فى انجلترا كما كانت من أهم العناصر فى ألعاب الفروسية . وكان تطور القوس وإتقانها بداية تدهور النظام الإقطاعى من الناحية العسكرية ، ذلك أن الفارس كان يستنكف أن يحارب راجلا ، ولكن الرماة كانوا يقتلون جواده ، ويرغمونه على أن ينزل إلى الأرض التى لا تتفق وطبيعته . ووجهت آخر الضربات إلى الإقطاع فى القرن الرابع عشر بعد اختراع البارود والمدافع ، فقد أمكن بهما قتل الفارس المدرع وتدمير قصره من مساحة لا سلطان للفارس عليها لبعده عنها .

وإذ كان للمحارب الإقطاعى جواد يحمله ، فقد كان يسعه أن يثقل نفسه بالدروع ، ولهذا كان الفارس الكامل العدة فى القرن الثانى عشر يغطى جسمه بالزرد من عنقه إلى ركبتيه — تستره شبكة ذات أكمام للذراعيه ، وقلنسوة من الحديد تغطى كل رأسه عدا عينيه ، وأنفه ، وفمه ؛ وكانت ساقاه وقدماه تغطى بدروع من الزرد خاصة بها . فإذا كان فى الحرب غطى رأسه فضلا عن غطائه السالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت فى

القرن الرابع عشر البيضة ذات الحافة الأمامية البارزة ، والدرع المصنوع من الصفائح المعدنية لحماية الفارس من القوس الطويلة أو المتقاطعة ، وبقيتا حتى القرن السابع عشر ؛ ثم بطل استعمال الدروع كلها تقريبا ليكون المحارب سريع الحركة . وكان للفارس ترس معلق فى عنقه ، يقبض عليه بيده اليسرى من سيور مثبتة فى سطحه الداخلى ، وكان هذا الترس يصنع من الخشب ، والجلد ، والأربطة الحديدية ، ويزدان فى وسطه بمشبك من الحديد المذهب ، وهكذا كان الفارس فى العصور الوسطى قلعة متحركة .

وكانت الحصون عادة هى أهم وسائل الدفاع وأجداها فى الحروب الإقطاعية . فكان فى وسع الجيش الذى يهزم فى ميدان القتال أن يجد له ملجأ داخل أسوار بيت الشريف ، وكان فى وسعه أن يقف من العدو وقفته الأخيرة داخل البرج . واضمحل علم الحصار فى العصور الوسطى لأن ما يلزم لدك أسوار الأعداء من تنظيم وعدد كان أغلى وأشق من أن يطيقه الفرسان أصحاب المكانة العالية ، ولكن فن المدمز والجندى الملغم ظل باقيا فى تلك العصور . كذلك قل شأن الأساطيل فى عالم كانت النزعة الحربية فيه أقوى مما تحتمله موارده . وقد ظلت السفائن الحربية شبيهة بسفائن الأقدمين — تحمل فوق سطوحها أبراج القتال ، ويدفعها بالمجاذيف الرجال الأحرار أو الأرقاء المشدودون إليها . وكان ما ينقص الرجل أو السفينة من القوة يستعاض عنه بالزينة ، فكان بناء السفن والفنانون فى العصور الوسطى يضعون على خشب السفينة طبقة من القار تقيه من تأثير الماء والهواء ، ثم يطلونها من فوقه بالألوان الزاهية الممتزجة بالشمع — بيضاء أو قرمزية أو زرقاء فى لون ماء البحر الشديدة الزرقة ، وكانوا يذهّبون جؤجؤها وأسيجتها ، ويقيمون فى مقدمها ومؤخرها تماثيل لأناس ، وحيوانات ، وآلهة . وكانت الأشرعة تلون بألوان زاهية ، بعضها أرجوانى ، وبعضها ذهبى ، وكانت سفينة السيد تنقش عليها شارة درعه .

وتختلف حروب العصور الوسطى عن الحروب القديمة والحديثة فى كثرة

عددها ، وقلة نفقاتها وعدد من يقتلون فيها . فأما كثرة العدد فكان سببها أن كل سيد كان يدعى لنفسه حق محاربة كل رجل لا تربطه به روابط الإقطاع ، كان كل ملك حراً فى أن يعمد إلى السرقة الشريفة سرقة أراضى غيره من الحكام . وإذا ذهب الملك أو الشريف إلى الحرب ، كان على أتباعه وأقاربه حتى الطبقة السابعة أن يتبعوه ويقاتلوا معه أربعين يوماً ، ولا يكاد يوجد يوم من أيام القرن الثانى عشر لم تكن فيه حرب فى جزء من أجزاء البلاد المعروفة الآن باسم فرنسا ، وكان أسمى ما يبلغه الفارس من الصفات أن يكون محارباً بارعاً ، وكان ينتظر منه أن يكيل أو يتلقى الضربات القوية فى سرور أو جلد ، وكانت أعظم أمنية له أن يموت ميتة المحارب فى « ميدان الشرف » ، لا « ميتة الأبقار » فى الفراش[٦٠] ، ولقد شكا برثولد الراتسبونى Berthold of Ratisbon من « قلة عدد السادة الذين يصلون إلى السن الصحيحة أو يموتون الميتة الصحيحة »[٦١] ولكن راتسبون هذا كان من الرهبان .

ولم تكن الحرب شديدة الخطورة ، فهاهو ذا أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis يصف معركة بريمول Brémule (١١١٩) بقوله إنه « لم يقتل إلا ثلاثة من الفوارس التسعمائة الذين كانوا يحاربون »[٦٢] ، وقد أسر أربعمائة فارس فى معركة تنشبريه Tinchebrai (١١٠٦) ، التى كسب فيها هنرى الأول ملك إنجلترا بلاد نورمندية ، ولكن فارساً واحداً لم يقتل من فرسان هنرى . وفى واقعة بوڤين Bouvine (١٢١٤) وهى من الوقائع الحاسمة التى كانت أشد معارك العصور الوسطى هولا قتل مائة وسبعون فارساً من الألف والخمسمائة الذين اشتركوا فى القتال[٦٣] . وكانت الدروع والقلاع تجعل الميزة فى الحرب للدفاع ؛ فقد كان من الصعب أن يقتل الرجل الكامل العدة إلا إذا قطع رأسه وهو راقد على الأرض ، ولم يكن هذا العمل مما ترضى عنه الفروسية . كذلك كان أسر الفارس وقبول فديته أدنى إلى الصواب من قتله والتعرض للانتقام الدموى ؛ وها هو ذا فرواسار

Froissart يحزنه أن قتل فى إحدى المعارك « كثيرون من الأسرى كان مستطاعاً أن يجنى من افتدائهم ٤٠٠،٠٠٠ فرنك[٦٤] » : وكانت قواعد الفروسية ، والحكمة المتبادلة بين الفرسان بعضهم وبعض ، تحض على مجاملة الأسرى ، والاعتدال فيما يطلب من الفداء ، وكان من المعتاد أن يطلق سراح الأسير إذا وعد بشرفه أن يعود ومعه فديته قبل وقت معين ؛ وقلما كان فارس يحنث فى هذا الوعد[٦٥] . وكان الفلاحون هم الذين قاسوا أشد البلاء فى حروب الإقطاع . وكان كل جيش فى فرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، يغير على أراضى أتباع عدوه وأرقاء أرضه وينهب بيوتهم ويستولى على كل ما لم يجمع من الماشية فى داخل أسواره ، وكان كثيرون من الفلاحين بعد هذه الحروب يجرون محاريثهم ، وهلك الكثيرون منهم جوعا لقلة ما أنتجته الأرض من الحبوب .

وحاول الملوك والأمراء أن يحتفظوا بالسلم الداخلية فى فترات بين الحروب ، ونجح فى هذه المحاولات الأدواق النورمنديون فى نورمندية ، وإنجلترا ، وصقلية ، وكونت فلاندرز فى بلاده ، وكونت برشلونة فى قطلونية ، ونجح هنرى الثالث مدى جيل من الزمان فى ألمانيا ، وفيما عدا هؤلاء كانت الكنيسة صاحبة الفضل فى تقييد الحروب ، فقد أصدرت عدة مجالس كنسية فى فرنسا بين عامى ٩٨٩ و ١٠٥٠ قراراً بتحديد « سلم إلهية » وأنذرت كل من يستخدم العنف فى الحرب مع غير المقاتلين بالحرمان من حظيرة الدين . ونظمت الكنيسة الفرنسية حركة تدعو إلى السلام فى عدة مراكز مختلفة ، وأقنعت كثيرين من الأشراف بأن يمتنعوا عن الحروب الخاصة بين بعضهم وبعض ، ثم لم تكتف بهذا بل أقنعتهم فوق ذلك أن يشتركوا معها فى تحريمها ، وقام فلبرت أسقف تشارتر Fulbert of Chartres (٩٦٠ ؟ — ١٠٢٨) يحمد الله فى ترنيمة ذائعة الصيت لوجود فترة من السلام غير عادية . ورحبت الجماهير ترحيباً حماسياً بهذه الحركة ، وأخذ الصالحون يتنبأون بأنه لن تمضى خمس سنين حتى يكون جميع سكان العالم

المسيحى قد وافقوا على برنامج السلام[٦٦] ، وأعلنت مجالس الكنيسة الفرنسية من عام ١٠٢٧ وما بعدها « هدنة الله » ، ولعلها فى هذا كانت تذكر تحريم المسلمين للحرب فى الأشهر الحرم فقالت : على الناس جميعاً أن يمتنعوا عن أعمال العنف طوال أيام الصوم الكبير ، وفى موسم الحصاد وقطاف الكروم (من ١٥ أغسطس إلى ١١ نوفمبر) ؛ وفى أعياد محددة ؛ وفى جزء من كل أسبوع — كان عادة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين ؛ وأجازت هذه الهدنة فى صورتها النهائية قيام الحروب الخاصة أو الحروب الإقطاعية ثمانين يوماً فى السنة . وقد أثمرت هذه النداءات والإنذارات ثمرتها ، فقضى على الحروب الخاصة شيئاً فشيئاً بتعاون الكنيسة ، وبقوة الملوك المتزايدة ، ونشأة المدن والطبقات الوسطى ، واستنفاد النشاط العسكرى فى الحروب الصليبية ؛ وأضحت هدنة الله فى القرن الثانى عشر جزءاً من القانون المدنى والقانون الكنسى فى أوربا الغربية ، وحرم مجلس لاتران الثانى (١١٣٩) استخدام العدد الحربية ضد الناس[٦٧] ، واقترح جرهوه الريخرزبرجى Gerhoh of Reichersburg أن يحرم البابا جميع الحروب بين المسيحيين بعضهم وبعض ، وأن يُعرض كل ما يشجر من النزاع بين الحكام المسيحيين على التحكيم البابوى[٦٨] . ورأى الملوك أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ هذا الاقتراح ؛ فكانوا يثيرون الحروب القومية أكثر من ذى قبل كلما نقصت الحروب الفردية ، وكان البابوات أنفسهم فى القرن الثالث عشر ، وهم يحركون البيادق البشرية ليظفروا بالسلطان ، كان هؤلاء البابوات يستخدمون الحرب أداة من أدوات السياسة .

الفصل الخامس

الفروسية

من العادات الألمانية القديمة عادات التعلم العسكرى ، بعد أن تأثرت بأساليب المسلمين فى بلاد الفرس ، والشام ، والأندلس وبالأفكار المسيحية المتصلة بالخشوع والأسرار المقدسة ، من هذه كلها نشأ نظام الفروسية ، وهو نظام لم يبلغ حد الكمال ولكنه نظام نبيل كريم .

كان الفارس شخصاً شريف المولد — أى ينتمى إلى أسرة تحمل لقباً شريفاً وتمتلك أرضا . ولم يكن من حق جميع أصحاب « الأصول » (أى الذين يمتازون بانتسابهم إلى أسر نبيلة) أن يختاروا فرساناً أو يحملوا هذا اللقب ؛ فالأبناء غير الابن الأكبر — عدا أبناء الملوك — لم يكن لهم فى العادة إلا أملاك قليلة لا تفى بالنفقات التى تتطلبها الفروسية ، ولهذا يبقى هؤلاء ضمن الأتباع. إلا إذا حصلوا بجهودهم على أراضى وألقاب جديدة .

وكان الشاب الذى يتطلع إلى أن يكون فارسا يخضع لنظام تأديبى شاق طويل . فكان يعمل وهو فى السابعة أو الثامنة من عمره وصيفا عند أحد السادة ، حتى إذا بلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة أصبح تابعاً لهذا السيد ، يقوم بخدمته على مائدة الطعام ، وفى غرفة نومه ، وفى قصر الضيعة ، وفى المثاقفة أو القتال ، ويقوى جسمه وروحه بالتمارين والألعاب الشاقة الخطرة ، ويتعلم بالتقليد والتجربة كيف يستخدم أسلحة الحرب الإقطاعية . فإذا أتم تدريبه سلك فى نظام الفرسان فى حفل يشمل مراسم رهيبة يبدؤها الطالب بالاستحمام بوصفه رمزاً للتطهير الروحى ولعله كان أيضاً رمزاً للتطهير الجسمى . وكان لهذا يمكن أن يسمى « فارس الحمام » تمييزاً له من « فرسان السيف » الذين تلقوا لقب الفروسية فى ميدان

القتال جزاء عاجلا لهم على بسالتهم . وكان يرتدى فى هذا الاحتفال قميصاً أبيض ، من فوقه رداء أحمر ومعطف أسود ، يمثل أولها ما يرجى أن يتصف به من نقاء الخلق ، وثانيهما الدم الذى قد يسفكه فى سبيل الشرف أو سبيل الله ، وثالثها الموت الذى يجب أن يكون متأهباً لملاقاته بلا وجل . وكان يصوم يوماً كاملا ثم يقضى ليلة يصلى فى الكنيسة ، ويعترف بذنوبه إلى أحد القسيسين ، ثم يحضر مراسم القداس ، ويأخذ العشاء الربانى ، ويستمع إلى موعظة عن واجبات الفارس الخلقية ، والدينية ، والاجتماعية ، والحربية ، ويتعهد فى خشوع أن يؤديها كلها . فإذا فعل هذا تقدم إلى المذبح ومعه سيف يتدلى من عنقه ، فيرفع القس السيف ويباركه ويضعه مرة أخرى فوق عنقه ، ثم يلتفت الطالب إلى الشريف الجالس الذى يريد أن يتلقى منه لقب الفروسة ، فيسأله هذا السيد ذلك السؤال الصارم : « لأى غرض تريد أن تنضم إلى هذا النظام ؟ إن كنت تبغى المال ، أو الراحة ، أو الشرف ، دون أن تعمل ما يشرف الفروسية ، فأنت غير خليق بها ، وستكون منزلتك فى نظام الفروسية كمنزلة القس المتاجر بالرتب الكهنوتية فى الأسقفية . ويكون الطالب وقتئذ متأهباً لأن يجيبه برد يؤكد له استعداده للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية . وحينئذ يتقدم إليه فرسان أو سيدات يلبسونه زرد الفروسية من درع على صدره وفى ذراعيه ، وقفازين من زرد فى يديه ، ومهمازين فى حذاءيه(*) . ثم يقوم الشريف ويلطمه ثلاث لطمات بعرض السيف على عنقه أو كتفه ، وقد يلطمه لطمة أخرى على خده ، وهى كلها رموز لآخر الإهانات التى يستطيع أن يتلقاها دون أن يثأر لنفسه ، ثم يمنح رتبة الفروسية بهذه الصيغة : باسم الله ، والقديس ميخائيل ، والقديس جورج أجعلك

(*) وكان المهمازان المصنوعان من الذهب هما علامة الفارس ، والمصنوعان من الفضة علامة تابعه ، وإذ قيل عن إنسان إنه « كسب مهمازيه » (الذهبيين) كان معنى هذا أنه بلغ رتبة الفروسية .

فارساً » . ثم يتسلم الفارس الجديد حربة ، وخوذة ، وجواداً ، فيحكم خوذته على رأسه ، ويقفز فوق جواده ، ويهز حربته ، ويلوح بسيفه ، ويخرج من الكنيسة راكباً ، ويوزع الهدايا على خدمه ، ويولم وليمة لأصدقائه .

وكان من حقوقه وامتيازاته وقتئذ أن يخاطر بحياته فى البرجاس الذى يتدرب فيه أكثر من ذى قبل على المهارة ، والجد ، والجرأة . وكانت بداية البرجاس فى القرن العاشر ، وكان أكثر ما ازدهر فى فرنسا ، وهو الذى سما ببعض العواطف الثائرة وضروب النشاط التى أفسدت حياة رجال الإقطاع . وقد يدعو إليه الملك أو شريف عظيم على لسان مناد للاحتفال بتنصيب فارس ، أو زيارة مليك ، أو زواج فرد من أفراد الأسرة المالكة . وكان الفرسان الذين يرغبون فى الاشتراك فى البرجاس يأتون إلى البلدة التى سيعقد فيها ، ويعلقون أسلحتهم خارج نوافذ حجراتهم ، ويثبتون دروعهم فى جدران الحصون ، والأديرة ، وغيرها من الأماكن العامة . وكان النظارة يبحثون هذه كلها ، وكان لهم أن يتقدموا بما لديهم من الشكاوى الخاصة بما أخطأ فيه كل متقدم للاشتراك فى اللعب ، فيستمع موظفو البرجاس إلى القضية ويحكمون بعدم أهلية المذنب من المتقدمين ، وفى هذه الحالة تكون « على ترسه أو درعه لطخة » . ويفد إلى هذا الجمع الحاشد المتحفز تجار الخيول ليعدوا الفارس للبرجاس ، وبائعو الخردوات ليحلوه هو وجواده بالحلل الجميلة ، والمرابون لافتداء من يسقطون فى الحلبة ، والعرافون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والممثلون الصامتون ، والشعراء الجائلون والمغنون ، والعلماء المتنقلون ، والنساء الخليعات ، والسيدات ذوات المقام السامى . وكان الحادث كله احتفالا بهيجاً فيه الغناء والرقص ، ومواعيد اللقاء ، والمشاجرات ، والمراهنات التى لا حد لها على المباريات .

وقد يدوم البرجاس إلى ما يقرب من أسبوع ، وقد لا يدوم إلا يوما واحداً . وقد قسمت الأيام فى برجاس عقد فى عام ١٢٨٥ ، فكان يوم الأحد يوم اجتماع

وعيد ، وخصص يوما الاثنين والثلاثاء للمثاقفة ، ويوم الأربعاء للراحة ، ويوم الخميس للبرجاس نفسه الذى أطلق اسمه على الحفل بوجه عام . وكانت حلبة الصراع ميدان بلدة أو فضاء فى أحد أطرافها تحيط به من بعض نواحيه مقاعد وشرفات يشاهد منها السراة الحفل وهم مرتدون أفخر ما كان فى العصور الوسطى من حلل . أما السوقة فكانوا يشاهدون الألعاب وهم وقوف حول الحلبة ، وكانت المقاعد تزدان بالنسيج المزركش ، والبيارق المستطيلة ، والدروع المنقوش عليها شارات الأسر الشريفة . وكان الموسيقيون يبدأون المباريات بالأنغام الموسيقية ، ويحيون بالنغمات العالية أبرع ما فى السباق من ضربات . وكان النبلاء والنبيلات ينثرون النقود على السوقة الواقفين فى الميدان ، فكان هؤلاء يتلقفونها وهم يصيحون « هبات ! » و « مرحى ! » .

ويدخل الفرسان قبل المباراة الأولى حلبة البرجاس فيمشون إلى الميدان فى حللهم وعددهم الفاخرة متباهين فى خطاهم ، ومن ورائهم أتباعهم على ظهور الجياد تقودها فى بعض الأحيان بسلاسل من الفضة أو الذهب السيدات اللائى سيحارب الفرسان تمجيداً لهن . وكانت العادة المألوفة أن يحمل كل فارس ترسه ، وخوذته أو حربته ؛ ولفاعة أو قناعا ، أو دثاراً ، أو شريطاً انتزعته السيدة المختارة من ثيابها .

وكانت المثاقفة معركة فردية بين فارسين يتباريان . وكانا يعدوان بجواديهما متقابلين ويرمى كلاهما الآخر بحربته المصنوعة من الصلب . فإذا ما اضطر أحد المتبارين أن ينزل عن جواده فإن قواعد المباراة تتطلب أن يترجل الآخر ، وبهذا تدور المعركة بينهما راجلين وتستمر حتى يصبح أحدهما طالباً وقف القتال أو يضطر إلى الخروج منه لأنه تعب ، أو جرح ، أو مات ، أو حتى يطلب القضاة أو الملك وقفه . ثم يمثل المنتصر أمام القضاة ، ويتلقى فى وقار جم جائزة منهم أو من سيدة جميلة . وكانت تشغل عدة أدوار من هذا النوع اليوم كله . وكان الحفل يختتم باقتتال حتى يصطف فيه الفرسان المتبارون جماعات متقابلة ويقتتلون اقتتالا حقيقياً ،

وإن كان يدور فى العادة بأسلحة مثلمة ، وقد أدى قتال من هذا النوع دار فى نيوس Neuss (١٢٤٠) إلى موت نحو ستين فارساً : وفى أمثال هذه المباريات كان يؤسر البعض ، وتؤخذ الفدية ممن يؤسرون كما يحدث فى الحروب الحقيقية سواء بسواء . وكانت جياد الأسرى وأسلحتهم غنيمة للمنتصرين ، فقد كان الفرسان يحبون المال أكثر مما يحبون القتال نفسه : وقد ورد فى مجموعة الأقاصيص الفرنسية التى كتبت فى فرنسا بين منتصف القرن الثانى عشر وآخر القرن الثالث عشر(*) أن أحد الفرسان احتج على تحريم الكنيسة لألعاب البرجاس وقال إن هذا التحريم إذا نفذ حرمه من الوسيلة الوحيدة التى يكسب بها عيشه[٦٩] . فإذا انتهت جميع المباريات اجتمع الأحياء من الفرسان والنبلاء من النظارة فى حفل ليلى تعد فيه الولائم ، ويدور فيه الرقص والغناء ، ويستمتع فيه الفرسان الظافرون بتقبيل أجمل النساء ، ويستمع الحاضرون إلى القصائد والأغانى التى تؤلف تخليداً لانتصارهم .

وكان يطلب إلى الفارس من الوجهة النظرية أن يكون بطلا ، وسميذعاً(**) ، وقديساً ، وإذ كانت الكنيسة حريصة على ترويض الشرسين من الفرسان ، فقد أحاطت نظام الفروسية بمراسم وأيمان دينية. فقد كان الفارس يقسم أن يكون صادقاً فى القول ، وأن يدافع عن الدين ، ويحمي الفقراء والمساكين ، وينشر لواء السلم فى ولايته ، ويقاتل الكفرة . وكان مديناً لسيده الإقطاعى بولاء يرتبط به أكثر من ارتباط الآباء بحب الأبناء ، ويتعهد أن يكون حارساً للنساء ، مدافعاً عن عفتهن ؛ وأن يكون أخاً لجميع الفرسان يبادلهم المجاملة وضروب المساعدة . وقد

(*) هى المعروفة باسم Fabliux ويبلغ عددها نحو مائة قصة معظمها تهكمى . (المترجم)

(**) ورد فى القاموس المحيط للفيروزبادى : السميذع : السيد ، الكريم ، الشريف ، السخى ، الموطأ الأكناف ، والشجاع . ولعل هذه أقرب ترجمة لكلمة gentleman وقد وردت فى بعض أشعار المعتمد . (المترجم)

يحدث فى إبان الحروب أن يقاتل الفارس غيره من الفرسان ، فإذا أسر واحداً منهم عامله معاملة الضيف . وهكذا كان الفرسان الفرنسيون الذين أسروا فى كريسى Crécy وپواتييه يعيشون أحراراً مستمتعين بالراحة والاطمئنان فى ضياع من أسروهم من الفرسان الإنجليز ، يشتركون مع مضيفيهم فى الولائم والألعاب ، وظلوا كذلك حتى افتدوا[٧٠] . ورفع الإقطاع الشرف الأرستقراطى ومطالب النبل عند الفارس إلى منزلة عالية علواً لا يستطيع أن يدركه ضمير السوقة — فكان يقسم ألا يتخلى عن البسالة الحربية والوفاء الإقطاعى ، وأن يضع نفسه إلى أقصى حد فى خدمة جميع الفرسان ، وجميع النساء ، وجميع الضعفاء والفقراء . وهكذا عادت الرجولة Virtus إلى معناها الذى كان لها عند الرومان بعد أن ظلت المسيحية ألف عام تؤكد الفضائل النسائية ؛ وبهذا كانت الفروسية ، رغم هالتها المسيحية ، انتصاراً للأفكار الألمانية ، والوثنية ، والعربية على المبادئ المسيحية ، ولقد كانت أوربا التى توالت عليها الهجمات من كل ناحية فى مسيس الحاجة إلى الروح الحربية مرة أخرى .

على أن هذا كله كان هو الفروسية من الوجهة النظرية ؛ وكان عدد قليل من الفرسان يستمسكون به فى حياتهم ، كما كان عدد قليل من المسيحيين يسمون إلى المستوى الرفيع الشاق من إنكار الذات . ولكن الطبيعة البشرية التى ولدت بين الغابات والوحوش قد لوثت هذا المثل الأعلى وذاك ، فهذا البطل الذى قاتل يوماً ما ببسالة فى ألعاب البرجاس أو فى ميدان القتال قد يكون فى يوم آخر سفاحاً غادراً ؛ وقد يفخر بشرفه كما يفخر بالريشة التى فى خوذته ، ويفعل ما فعله لانسلو Lancelot ، وترسترام Tristram ، وغيرهما ممن هم أكثر تأصلا فى الفروسية فيحطم بالزنى الأسر الطيبة . وقد يتشدق بحماية الضعفاء ، ثم يقتل الفلاحين العزل بحد السيف ؛ وكان يعامل العامل اليدوى الذى يعتمد عليه حصنه ومجده معاملة ملؤها الازدراء ، كما يعامل الزوجة التى أقسم أن يعزها ويحميها بغلظة

فى كثير من الأحيان وبوحشية فى بعضها[٧١] . وقد يستمع إلى الصلاة فى الصباح ، ويسطو على كنيسة فى آخر النهار ، ويشرب حتى يفقد وعيه فى المساء . وهذا ما وصف به جلداس Gildas الفرسان البريطانيين الذين كان يعيش بينهم فى القرن السادس ، وهو القرن الذى يرى بعض الشعراء أن آرثر Arthur « والطبقة العظيمة من فرسان المائدة المستديرة » كانوا يعيشون فى خلاله[٧٢] . وكان الفارس يتحدث عن الولاء والعدالة ولكنه يملأ صفحات فرواسار Froissart بالغدر والعنف . وبينا كان الشعراء الألمان يتغنون بالفروسية ، تراهم لا ينقطعون عن اللكمات ، وإحراق الدور ، وقطع الطريق على المسافرين البريئين[٧٣] . ولقد دهش المسلمون من فظاظة الصليبيين وقسوتهم ، وحتى بوهمند Bohemund العظيم نفسه ، لما أراد أن يظهر احتقاره لإمبراطور الروم ، بعث له ببضاعة من الأنوف والإبهامات المقطعة[٧٤] . لقد كان هؤلاء شواذ ولكنهم كانوا كثيرين . ولسنا ننكر أن من السخف أن ننتظر من الجنود أن يكونوا قديسين ، ذلك أن إجادة التقتيل تتطلب فضائلها الفذة ، وهؤلاء الفرسان الغلاظ هم الذين طردوا الصقالبة من ضفاف نهر الأودر ، والمجر من إيطاليا وألمانيا ، وهم الذين روضوا أهل الشمال فكانوا هم النورمان ، وجاءوا بالحضارة الفرنسية إلى إنجلترا على شفار السيوف ، فكانوا ما لا بد أن يكونوا .

وكان ثمة عاملان هما اللذان خففا من همجية الفروسية ، ونعنى بهما النساء والمسيحية ، فأما المسيحية فقد أفلحت إلى حد ما فى تحويل تيار الخصام فى الفروسية إلى الحروب الصليبية ، ولعلها استمدت العون فى هذا التحويل من عبادة مريم العذراء أم المسيح ، فقد رفعت هذه العبادة منزلة الفضائل النسائية فخففت بذلك من حدة تحمس الرجال الأشداء الميالين إلى العنف . ولكن لعل النساء اللائى يعشن على ظهر الأرض ، واللائى لهن تأثير كبير فى الحواس وفى الأرواح ، قد كان لهن أثر أكبر من أثر مريم العذراء فى تحويل الفارس المحارب إلى سيد كريم

الأخلاق . وكثيراً ما حرمت الكنيسة ألعاب البرجاس ، ولكن الفرسان كانوا يغفلون أوامرها ويظهرون ابتهاجهم بهذا الإغفال ، وكانت النساء يحضرنه ، ولم يكن الفرسان يتجاهلون وجودهن ؛ وكانت الكنيسة غير راضية عن الدور الذى تضطلع به النساء فى حفلات البرجاس وفى الشعر ، وقام الصراع بين أخلاق السيدات النبيلات وبين التعاليم الأخلاقية التى تدعو إليها الكنيسة ، وانتصرت السيدات وانتصر الشعراء فى صراع عالم الإقطاع .

لقد وجد الحب العذرى ، الحب الذى يجعل من المحبوب مثلا أعلى ، فى كل عصر من العصور على الأرجح ، وكان فى شدته يتناسب إلى حد ما مع ما يوضع من العقبات وما يمضى من الزمن بين الشهوة وإشباعها . وقلما كان هذا الحب من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر سبب الزواج ، وإذا ما وجدنا هذا الحب منفصلا كل الانفصال عن الزواج فى عصر ازدهار الفروسية ، وجب علينا أن نعد هذه الحال أقرب إلى الطبيعة وإلى الأحوال السوية من أحوالنا الحاضرة . لقد كانت النساء فى معظم العصور ، وبخاصة فى عصر الإقطاع ، يتزوجن الرجال لما لديهم من مال ، ويعجبن بغير أزواجهن لما يتمتعون به من سحر وجمال . وكان الشعراء لفقرهم يتزوجون من الطبقات الدنيا ويحبون من طبقات بعيدة المنال ، ويتوجهون بأجمل أغانيهم إلى السيدات اللاتى لا يرجون أن يصلوا إليهن . وكان الفارق بين المحب وحبيبه فى العادة كبيراً إلى درجة يرى معها الناس أن أحفل الشعر بالعواطف الجياشة لا يعدو أن يكون تحية ظريفة للمحبوب . وكان السيد الإقطاعى المهذب يكافئ الشعراء الذين يتشببون بزوجته ؛ وشاهد ذلك أن الفيكونت ڤو Vaux ظل يستضيف الشاعر پير ڤيدال Peire Vidal بعد أن تغزل تهر بامرأته — بل بعد أن حاول أن يغويها[٧٥] — وإن كانت هـذه درجة من المجاملة لا يضطر الشعراء عادة أن يجرؤوا عليها . وكان الشاعر المحب يرى أن الزواج ، إذ يتيح أكبر فرصة للمتعة بأقل قدر من الإغراء ، قلما يوجد الحب

العذرى أو يستبقيه بعد أن يوجد ؛ ويبدو أن دانتى التقى نفسه لم يحلم قط بأن يقرض الشعر الغزلى فى زوجته ، ولم يجد ما يعيبه فى التغزل بغيرها من النساء المتزوجات منهن وغير المتزوجات . وكان الفارس يرى ما يراه الشاعر من أن حب الفارس يجب أن تختص به سيدة أخرى غير زوجته ، وكانت هذه السيدة عادة زوجة فارس آخر(٧٦) . وكان معظم الفرسان يسخرون من هذا الحب العذرى ، ويعودون بعد وقت ما إلى أزواجهم ، ويسلون أنفسهم بالحروب . وقد نسمع عن فرسان يصمون آذانهم عن نداء النساء اللاتى يعرضن عليهم حبهن العذرى(٧٧) . ولقد مات رولان Roland ، كما تحدثنا الأغنية Chanson وهو لا يكاد يفكر فى خطيبته أود Aude التى كادت تموت من الحزن حين جاءها خبر وفاته . كذلك لم يكن حب النساء كله حبا عذريا ؛ ولكن جرى العرف الذى كان متبعاً عند الكثيرات منهن أن يكون للسيدة حبيب ، أفلاطونى أو بيرونى(*) Byronic ، مضافا إلى زوجها . وإذا جاز لنا أن نصدق روايات الحب التى كتبت فى العصور الوسطى قلنا إن الفارس كان يقسم بأن يقوم بخدمة السيدة التى أعطته لونها(**) ليلبسه أو بأداء الواجب الذى يفرضه عليه حبها . وكان لها أن تفرض عليه مغامرات خطرة لتمتحن حبه أو لتبعده عنها ؛ وإذا ما قام بخدمتها على الوجه الأكمل كان المنتظر منها أن تكافئه على خدمته بعناق أو بما هو خير عنده من العناق ؛ ذلك هو « الجزاء » الذى كان يطلبه . وكان يوجه إليها كل ما يقوم به من أعمال حربية مجيدة ، وكان اسمها هو الذى يناديه فى ساعات القتال الحرجة ، أو حين يلفظ آخر أنفاسه . وتلك حالة أخرى من الحالات التى لم يكن فيها الإقطاع جزءا من المسيحية ، بل كان نقيضها ومنافسها . ذلك أن النساء اللاتى كن من الوجهة

(*) الحب الأفلاطونى معروف أما الحب البيرونى فنسبة إلى الشاعر الإنجليزى بيرون صاحب الحب الشهوانى الذى لم يكن يستحى منه ، وكان يقول إنه إنما يفعل جهرة ما يفعله غيره فى الخفاء . (المترجم)

(**) أى الشارة ذات اللون الخاص بها . (المترجم)

النظرية مقيدات فى حبهن بقيود شديدة ، قد أكدن بهذه الطريقة حقهن فى الحرية ، وشكلن بأنفسهن قانونهن الأخلاق . وأخذت عبادة المرأة الشهوانية تنافس عبادة مريم العذراء الروحية ؛ ونودى بالحب على أنه أساس مستقل تقدر به قيم الناس ، وأوجد مثلا عليا لأداء الخدمات لهم ، وقواعد للسلوك ، وكان فيه تجاهل للدين معيب حتى فى الوقت الذى كان يأخذ عنه مصطلحاته وصوره .

وقد أثارت هذه التفرقة المعقدة بين الحب والزواج مشاكل كثيرة خاصة بالأخلاق وآداب السلوك . وكان المؤلفون يعالجون هذه المسائل فى تلك الأيام ، كما كانوا يعالجونها فى أيام أوفد بكل ما يتصف بة الأخلاقيون من تدقيق وإتقان . وحدث فى وقت ما بين عامى ١١٧٤ و١١٨٢ أن ألف رجل يدعى أندرياس كيلانوس Andreas Capellanus أى القس أندرو — رسالة فى الحب ودوائه Tractatus de amore et de amoris remedio أورد فيها بين ما أورد من المسائل قانون الحب العذرى ومبادئه . ويقصر أندرو هذا الحب على الأشراف ، ويقول بلا حياء إنه هو هيام فارس هياماً محرما بزوجة فارس آخر ، ولكنه يذكر أن خواص هذا الحب هى الولاء والتبعية ، وخدمة الرجل للمرأة . وهذا الكتاب هو أهم المراجع التى يستشهد بها على وجود « محاكم الحب » التى كانت السيدات ذوات الألقاب يُستجوبن فيها ويقدمن القرارات الخاصة بالحب العذرى . وكانت زعيمة السيدات فى هذه الإجراءات أيام أندرو ، إذا كان لنا أن نصدق ما يقوله هو عن هذا ، هى الأميرة الشاعرة مارية Marie كونتة شمبانيا ، وكانت زعيمتها قبل وقتها بجيل هى أمها . وأكثر النساء فتنة فى المجتمع الإقطاعى هى إليانور Eleanor دوقة أكتين Aquitaine التى كانت فى وقت ما ملكة فرنسا ثم ملكة إنجلترا بعدئذ . وكانت هى وأمها قاضيتين ترأسان محكمة الحب فى مدينة بواتييه فى بعض القضايا(٧٩) وكان أندرو يعرف مارية حق المعرفة ، وكان قساً خاصا بها ، ويبدو أنه ألف كتابه ليذيع به

نظرياتها وأحكامها فى الحب ؛ ومن أقواله فيه إن « الحب يعلم كل إنسان أن يتحلى بكثير من ضروب الأخلاق الفاضلة » ؛ ويؤكد لنا أن أشراف بواتييه الغلاظ قد انقلبوا بفضل تعاليم مارية مجتمعا من كرائم السيدات وذوى المروءة والشهامة من الرجال .

وتحتوى قصائد شعراء الفروسية الغزلين عدة إشارات إلى محاكم الحب السالفة الذكر التى كانت تقيمها سيدات من الطبقة الراقية — كونتة نربونة Narbonne وكونتة فلاندرز وغيرهما — فى بيير فو Pierrefeu وأفنيون Avignon وغيرهما من بلدان فرنسا[٨٠] . ويحدثنا المؤرخون أن عشر نساء ، أو أربع عشرة ، أو ستين منهن كن يجلسن للفصل فى القضايا التى تعرض عليهن ، ومعظمها يعرضه نساء ، وبعضها يعرضه رجال ؛ وكانت تلك المحاكم تفض المنازعات وتسوى الخلافات ، وتوقع العقاب على من يخرق القانون . وبمقتضى هذا الحق أصدرت مارية الشمبانية Marie of Champagne (كما يقول أندرو) فى السابع والعشرين من إبريل عام ١١٧٤ فتوى فى سؤال وجه إليها يقول فيه صاحبه : « هل يمكن وجود حب حقيقى بين الأشخاص المتزوجين؟ » فكان جوابها إنه لا يمكن وجوده ، وكانت حجتها فى ذلك أن « المحبين يعطون كل شىء بلا مقابل ، ولا يتقيدون فيما يعطون بموجبات الضرورة ؛ أما المتزوجون فإن ما عليهم من واجبات يرغمهم على أن يخضع كل منهم لرغبات زوجه »[٨١] . وقد أجمعت محاكم الحب كلها ، كما يقول أندرو ، على واحد وعشرين قانونا من « قوانين الحب » : منها (١) لا يمكن أن يتخذ الزواج حجة لرفض الحب . . . (٣) لا يستطيع إنسان أن يحب اثنين فى وقت واحد (٤) لا يمكن أن يظل كل الحب على حال واحدة ، فهو إما أن يزيد وإما أن ينقص (٥) المنة التى يسديها صاحبها مرغما منة تافهة (١١) لا يليق بالرجل أن يحب النساء اللاتى لا يحببن إلا بقصد الزواج . . . (١٤) إن السهولة المفرطة فى نيل الحبيب تحقر الحب ، أما الصعاب التى تعترض الحب فإنها ... ترفع من قدره ... (١٩) إذا بدأ الحب يتناقص فسرعان ما يزول ، وقلما يعود ...(٢١) يزداد الحب

على الدوام بتأثير الغيرة . . . (٢٣) الشخص الذى يقع فريسة الحب لا ينام إلا قليلا ولا يطعم إلا قليلا (٢٦) المحب لا يضن بشىء على حبيبه[٨٢] .

وكانت محاكم الحب هذه أجزاء من ندوات تقيمها نساء طبقة الأشراف ؛ ولكن رجال هذه الطبقة لم يكونوا يعبأون بها ، وكان الفرسان العشاق يضعون لأنفسهم قواعدهم . غير أن الذى لا شك فيه أن ازدياد الثراء والتعطل قد أحاط الحب بأخيلة وآداب ومجاملات امتلأت بها قصائد شعراء الفروسية الغزليين وقصائد بداية النهضة . وفى ذلك يقول ڤلانى Villani شاعر فلورنس (١٢٨٠ ؟ — ١٣٤٨) « تكون فى فلورنس فى شهر يونية من عام ١٢٨٣ فى عيد القديس يوحنا بينا كانت المدينة سعيدة آمنة . . . اتحاد اجتماعى قوامه ألف شخص ، يرتدون كلهم بيض الثياب ، ويطلقون على أنفسهم اسم خدام الحب . وقد نظمت هـــذه الجماعة سلسلة من الألعاب ، والحفلات والرقص ، مع السيدات ؛ فكان الأعيان ورجال الطبقة الوسطى يمشون على دقات الطبول وأنغام الموسيقى ، ويقيمون الولائم فى منتصف النهار وفى الليل . وقد ظلت محكمة الحب هذه قائمة نحو شهرين ، وكانت أجمل وأشهر ما أقيم من نوعها فى تسكانيا »[٨٣] .

نشأت الفروسية فى القرن العاشر ، وبلغت ذروتها فى القرن الثالث عشر ، وقاست الأمرين من وحشية حرب المائة السنين ، واضمحلت أشد الاضمحلال من جراء الأحقاد المريرة التى بددت شمل طبقة الأشراف الإنجليز فى حروب الوردتين ، ثم لفظت آخر أنفاسها فى وسط الأحقاد التى أثارتها الحروب الدينية فى القرن السابع عشر ؛ ولكنها تركت آثارها البارزة فى أوربا أثناء العصور الوسطى والعصر الحديث من النواحى الاجتماعية ، والتربوية ، والخلقية ، والأدبية ، والفنية ، واللغوية . وازداد عـــدد طبقات الفروسية — ربطة الساق ، والحمام ، والجزة الذهبية — وتضاعفت حتى بلغ عددها ٢٣٤ طبقة منتشرة فى بريطانيا ، وفرنسا ، وألمـــانيا ، وإيطاليا ، وأسپانيا ؛ وجمعت مدارس

كمدارس إيتن Eton ، وهرو Harrow ، وونشستر Winchester بين مثل الفروسية الأعلى والتربية « الحرة » فى جهودها الموفقة فى تاريخ التربية لتثقيف العقل ، وتقوية الإرادة ، وتقويم الأخلاق . وإذ كان الفارس يتعلم الآداب ، والشهامة والمروءة ، فى حاشية النبيل أو المليك ، فقد كان ينقل بعض هذه الصفات إلى من هم دونه من أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى ؛ وليست المجاملات والرقة فى الوقت الحاضر إلا مزيجاً مخففاً من فروسية العصور الوسطى المركزة . ولقد ازدهر الأدب الأوربى من أغنية رولان إلى دن كيشوت ، لأنه أخذ يصف أخلاق الفرسان وموضوع الفروسية ؛ وكان الكشف الثانى لنظام الفروسية من العناصر الفعالة فى الحركة الأدبية الإبداعية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومهما يكن فى آداب الفروسية الخلقية من إسراف وسخافات ، ومهما كان الفرق كبيراً بين حقيقتها العملية ومثلها العليا ، فإنها بلا ريب من أعظم ما ابتدعته الروح البشرية من نظم ، وإنها فن من فنون الحياة أبهى وأفخم من كل فن سواه .

وهكذا نرى أن الصورة التى رسمناها للإقطاع لم تقتصر على أن تكون صورة للاسترقاق فى الأرض ، وللأمية ، وللاستغلال ، والعنف ؛ بل كانت تجمع بين هذا كله وبين قدر يعدله من الفلاحين الأقوياء ، يقطعون أشجار الغابات ، ومن رجال متباهين أشداء فى لغتهم ، وحبهم ، وحروبهم ، وفرسان يقسمون بأن يكونوا شرفاء ، خادمين لمن يحتاجون إلى خدمتهم ، يجدون فى طلب المغامرات وأسباب الشهرة كما يجد غيرهم فى طلب الراحة والأمن ، يحتقرون الخطر والموت والجحيم ؛ ونساء صابرات كادحات ، يلدن ويربين الأبناء فى قرى الفلاحين ؛ وسيدات من ذوات الحسب والنسب الرفيع يمزجن دعواتهن الرقيقة لمريم العذراء بالحرية الجريئـــة فى التغنى بالشعر الشهوانى والحب العذرى — ولعل الفروسية كانت أقوى أثراً من المسيحية فى رفع منزلة المرأة . ولقد كان أهم ما اضطلع به الإقطاع من أعمال هو إعادة النظام السياسى والاقتصادى إلى أوربا

بعد أن توالت عليها الغارات والكوارث المخربة المقطعة لأوصالها مائة عام . ولقد أفلحت فى غرضها هذا ؛ ولما أن اضمحلت قامت على أنقاضها وتراثها مدنيتنا الحديثة .

وبعد فليست العصور الوسطى حقبة يحق للعالم أن ينظر إليها بتشامخ وازدراء . ذلك أنه لم يعد فى وسعه أن يشهر بما كان فيها من جهل وخرافات ، وتفكك سياسى ، وفقر اقتصادى وثقافى ؛ بل عليه بدلا من هذا أن يعجب كيف استطاعت أوربا أن تفيق من الضربات المتعاقبة التى كالها لها القوط ، والهون ، والوندال ، والمسلمون ، والمجر ، والشماليون ، واحتفظت فى وسط الاضطراب والمآسى بهذا القدر الكبير من الآداب والأساليب الفنية القديمة . ولا يسعه إلا أن يعجب بشارلمان ، وألفرد ، وأولاف ، وأتو ، وأمثالهم من الرجال الذين أقاموا من هذه الفوضى نظاماً ؛ كما يعجب ببندكت ، وجريجورى ، وبنيفاس ، وكولمبا ، وألكوين ، وبرونو ومن إليهم من الرجال الذين صابروا وصبروا حتى بعثوا الأخلاق والآداب من قفار تلك الأيام ؛ وبالمطارنة والصناع الذين استطاعوا أن يشيدوا الكنائس الكبرى ، والشعراء المجهولين الذين استطاعوا أن يُغَنُّوا فيما بين كل حرب وحرب ، وإرهاب وإرهاب . وكان لا بد للدولة والكنيسة أن تبدءا عملهما مرة أخرى من الدرك الأسفل ، كما بدأه رميولوس ونوما قبلهما بألف عام ؛ وكانت الشجاعة التى يتطلبها بناء المدن من الغابات ، وخلق المواطنين الصالحين من الهمج ، أعظم من أختها التى شادت شارتر ، وأمين ، وريمس فى الزمن الحديث ، أو هدأت حمى دانتى الانتقامية فصاغت منها شعراً موزوناً .

المراجـــع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XV

1. Abbott, G.F., *Israel in Egypt*, 43.
2. Baron, S., *Social and Religious History of the Jews*, I, 266; Gratez, H., *History of the Jews*, II, 566.
3. Socrates, *Ecclesiastical History*, iii; 20; Julian, *Works*, III, 51.
4. Abbott, 45.
5. Ammianus Marcellinus, *Works*, xxiii, 1.
6. Jerome, *Commentary on Isaiah*, vi, 11-13, in Baron, I. 261.
7. Baron, I, 255.
8. Baeder, Gershom *Jewish Spiritual Heroes*, III, 46.
9. Talmud, Yebamoth, 37b.
10. Friedländer, L., *Raman Life and Manners under the Early Empire*, III, 173.
11. Gregory of Tours *History, of the Franks*, 1916, viii, 1.
12. References to the Mishna will be by tractate, chapter, and section; to the (Babylonian) Gemara by tractate and folio sheet.
13. Baba Kama, 60b.
14. Megilla, 16b,
15. Tanhuma, ed. Buber, Yitro. sect. 7, in Moore, G. F., *Judiasm in the First Centuries of the Christian Era*, II, 242.
16. Menachoth, 99b.
17. Pesikta Rabbati, 10, 4. in Newman, L., and Spitz, S., *Talmudic Anthology*. 300.
18. Chagiga, 10a.
19. Examples in Moore, I, 259.
20. Berachoth. 6b.
21. Aboda Zara, 8b; Newman, 81.
22. Chagiga, 8b.
23. Succah, 52b.
24. Barachoth, 6a.
25. Aboda Zara, 3b.
26. Mechilta, 65a, on Exod. xix, 18.
27. From Deut. vi, 4.
28. Shebouth, 77b.
29. Erubin, 18a.
30. Bereshit Rabbah on Gen. xxiii, 9.
31. Berachoth, 6a
32. Aboda Zara, 5a.
33. Sifre on Deut. 32.
34. Shebuoth, 55a.
35. Midrash Mishle, 28, in Newman,
36. Genesis Rabbah, xlviii, 8.
37. Babo Metzia, 58b.
38. Berochoth, 34a.
39. Ketuboth, 111a.
40. Wayyikra Rabboh, 34. in Newman, 108.

41. Bereshit Rabbah, 44,1, in Newman, 292.
42. Quoted in Cohen, A., *Everyman's Talmud*, 89.
43. Aboda Zara, 20b.
44. Kiddushin, 66d.
45. Shebuoth, 41a,
46. In Cohen, A., 258.
47. Leviticus xxi, 2-5.
48. Yebamoth, 48b.
49. Ketuboth, 27 : Cohen, A., 257.
50. Pesachim, 113a,
51. Shebuoth, 152.
52. Pesachim, 49b.
53. Exod. xxiii, 19 ; xxiv, 26 ; Deut xiv, 21.
54. Nidda, 17.
55. Yoma, 75.
56. Shebuoth, 33.
57. Ibid., 152a.
58. Baba Bathra, 58b.
59. Pesachim, 109a.
60. Berachoth, 55a, 60b.
61. Taanith, 11a.
62. Pesachim, 108.
63. Exod. xii, 13.
64. Megilla on Esther, 7b, in Moore, II, 51.
65. In Oesterley, W.O., and Box, G. H., *Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism*, 149.
66. Kiddushin, 31a; Isaiah vi, 8.
67. Baba Bathra, 8b; Baron, I,277-8.
68. Berachoth, 10a.
69. Gen. i, 28 ; Kiddushin, 29.
70. Genesis Rabbah, lxxi, 6.
71. Yebamoth, 12b; Himes, N. E., *Medical History of Contraception*, 72.
72. Baba Bathra, 72.
73. Exodus Rabbah, I, 1.
74. Harris, M. H., ed., *Hebraic Literature : Translation form the Talmud, Midrashim, and Kabbala*, 335.
75. Baba Bathra, 9a.
76. Ketuboth, 50a, 67,
77. Taanith, 22.
78. Ibid., 20b.
79. Graetz., II, 486, 545.
80. Baba Bathra, 9.
81. Gittin, 70a.
82. Chagiga, 16a.
83. Berachoth, 61a.
84. Kiddushin, 29b.
85. Sota. 44a
86. Taanith, iv, 8.
87. Yebamoth, 63a.
88. Ibid., 65a, 44a.
89. Pesikta Rabbati, 25, 2, in Newman, 3.
90. Berachoth, xxiv, 1.
91. Kiddushin, 4.
92. Yebamoth, xlv, 1 ; 64b.
93. Gittin, ix, 10.
94. Ketuboth, vii, 6.
95. Cohen, A., 179.
96. Ketuboth, 77a ; Neuman, A.A., *The Jews in Spain*, Philadelphio, 1942, II, 59.
97. Yebamoth, xxi, in Beader,III, 66.
98. Gittin, 90b.
99. Kiddushin, 80b.
100. Nidda, 45.
101. Kiddushin, 49b.
102. Yoma. 83b.
103. Mikvaoth, 9b, in Cohen,A., 17
104. Hai Gaon in Newman, 540.
105. Yebamoth, 88.
Ketubeth 47b.
107. Shebuoth, 30b.
108. Erubin, 41b.
109. Baeder, III, 15.

110. Bereshit Rahbah, xvii, 7.
111. Harris, M. H. *Hebraic Literature* 340.
112. Pirke Aboth, iv, 1.
113. Ibid., iv, 3.
114. Ibid., i, 17.
115. Ibid., iii, 17.
116. Shemot Rabbah, xxv, 16 Newman, 397.
117. Menachoth 29b, in Moore, II, 187.
118. Renan, E., *Origins of Christianity : The Christian Chruch*, 131 ; Baron, I, 305-6.

CHAPTER XVI

1. Graetz, III, 308.
2. Abrahams, Israel *Jewish Life in the Middle Ages*, 219.
3. Benjaman of Tudela, *Travels*, in Komroff, M., ed., *Contemporaries of Marco Polo*, 290.
4. Graetz, III, 90. Others date the Gaonate from 589 : cf. Oesterley and Box, 209.
5. Graez, III, 133.
6. Ibid., 148.
7. Druck, D., *Yehuda Halevy*, 66.
8. Baron, I, 353.
9. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, 85. 42f.
10. Malter, H., *Saadia Gaon*, 279, 291
11. Benjamin of Tudela, in Komroff 310.
12. Baron, I, 318.
13. Friedländer, III, 181.
14. Dill, Sir S., *Roman Society in Gaul in the MerovenglanAge*, 246
15. Groetz, III, 143, 161, 241, 389.
16. Benj. of Tudela, in Komroff, 260.
17. Ibid., 257.
18. Ameer Ali, Sayed, *The Spirit of Islam*, 260.
19. Druck, 26.
20. Dozy, R., *Spanish Islam*, 597f.
21. Abbott, G. F., 71.
22. Abrbhams, *Jewish Life*, 366.
23. Dozy, 721.
24. Graetz, III, 617.
25. Neuman, A., *Jews in Spain*, I, 5,
26. Ibid., 164.
27. Ibid., II, 184.
28. Ibid., II, 221 ; Graetz, III, 281.
29. Neuman, II, 221.
30. Graetz, III, 360f.
31. Baron II, 37 ; Graetz, III, 506.
32. Neuman, II, 149.
33. Ibid., 247.
34. Abrahams, *Jewish Life*, 67.
35. Solom Asch in Browne, Lewis, ed., *The Wisdom of Israel*, 698.
36. Baba Kama, 113a.
37. Pirke Aboth, iii, 2.
38. Baron, II, 17.
39. Ibid., 26.
40. Ibid.
41. Bracton, *De Legibus*, vi. 51, in Baron, II, 24
42. Pollock, F., and Maitland, F.W., *History of English Law before Edward I*, 1, 466.
43. *Cambridge Medieval History*, II, 602.
44. Ricard, T.A., *Man and Metals*, II, 602.
45. Abrahams, *Jewish Life*, 241.
46. Rapaport, S., *Tales and Maxims from the Talmud*, 147.
47. Graetz, III, 229.
48. Arnold, Sir, T., and Guillaume, A., *The Legacy of Islam*, 102.
49. Pirenne, H., *Medieval Cities*, 258.
50. Baron, II, 8f.
51. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
52. Deut. xxiii, 20.
53. Baba Metzia, v, 1-2, 11.
54. Abrahams, *Jewish Life*, 110

55. Baron. II. 120.
56. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 134.
57. *Cambridge Medieval History*, VII 644.
58. Ibid., 646.
59. Neuman, A., I, 202; Lacroix, P., *Manners Customs and Dress during the Middle Ages*, 451.
60. Coulton, G. G., *Medieval Panorama*, 352.
61. Abbott, *Israel*. 113.
62. Lacroix, *Manners*, 451.
63. Ashley, W. J. *Introduction to English Economic History and Theory* 202.
64. Abbott, 177.
65. Pollock and Maitland, 451.
66. *Cambridge Medieval History*, VI, 226.
67. Abbott, 122.
68. Hosik, 508.
69. Abbott, 126; Graetz, III, 583.
70. Abbott, 158; Lacroix, *Manners*, 445.
71. In Foakes-Jacson, F., and Lake, K., *Beginnings of Chirlstianity*, I, 76.
72. Baba Bathra, 90.
73. Baba Metzia, iv. 3.
74. Baron, I, 277-8; II, 108.
75. Baron, II, 99.
76. Moore, II, 174-5.
77. Abrahams, *Jewish Life*, 141, 819, 326, 335; Baron, II, 99.
78. Coulton, *Panorama*, 357.
79. Abrahams, 277.
80. Ibid., 281.
81. Burton, Sir R. F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 128; Baron II, 169
82. Abrahams, 331.
83. Baba Kama, 118b.
84. Abrahams, 106.
85. Ibid, 104.
86. Ibid., 90.
87. Baron, II, 112.
88. Abrahams, 166.
89. Kiddusigin, 41a; Neuman, II, 21.
90. Ibid.
91. Moore, II, 22.
92. Abrahams, 117.
94. Burton, *The Jew*, 48.
95. White, F. M., *Woman in World History*, 176.
96. Abrahams, 155.
97. Brittain, A., *Women of Early Christianity*, 10.
98. White, 189.
99. Neuman, II, 229.
100. White, 185.
101. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 318.
102. Abrahams, 82.
103. Neuman, II, 153.
104. Baron, I, 288; II, 97.
105. Abrahams, 126.
106. Brittain, 12.
107 Moore, I, 316.
108. Maimondes, *Mishneh Torah*, — Book I, tr. Moses, Hayamson, 63a.
109. In Waxman, M., *History of Jewish Leterature*, I, 214.
110. Jewish Encyclopedia, IX, 122.
111. *Oxford Histor of Music* introd. volume, 60.
112. Jewish Encyclopedia, III, 458.
112a. In Zeitlin, S., *Maimonides*, 44
113. Baron, II, 88.
114. Lacroix, *Munners*, 439.
115. Baron, II, 35.
116. Abrahams, 411; Moore, II, 74.

117. Deut. vii, 3;Nehemiah xiii, 25.
118. Klausner, J., *From Jesus to Paul*, 515.
119. Baron, II, 56.
120. Gittin. 61.
121. Abrahams, 418-4.
122. Ibid., 418.
123. Ibid., 424; Baron, II, 40.
124. Baron, II, 36.
125. Abbott, 93.
126. Coulton, *Panorama*, 352.
127. Ibid.
128. Graetz, IV, 33.
129. Gregory I, Epistle ii, 6, in Dudden, F. H., *Gregory the Great*, II, 155.
130. Ep. xiii, 15, in Dudden, II, 155
131. Belloc, H., *Paris*, 170.
132. Graetz, III, 421.
133. Coulton, *Panorama*, 352.
134. Thatcher, O. J., and McNeal, E.H., *Source Book of Medieval History*, 212.
135. Lea, H.C., *History of the Inquisition in the Middle Ages*, II, 63.
136. Graetz, III, 563.
137. Ibid., 583.
138. Marcus, 151.
139. Baron, II, 85.
140. Abbott,51; Jewish Encyclopedia III, 453.
141. *Camb. Med.H.*, VII, 624; Jewish Encyclopedia. IX, 368.
142. Graetz, III. 299.
143. Ibid., 300.
144. Ibid.,301f; *Cambridge Medieval History*, V., 275f; VII, 641.
145. Greatz III, 350; Abbot, 88.
146. Jewish Encyclopedia. IV, 379.
147. Graetz, III, 355.
148. *Cambridge Medieval History*, VII, 642.
149. Graetz, IV, 35; Jewish Encyclopedia, IX, 358.
150. Abbott, 144.
151. Coulton, Panorama, 859.
152. Cuninggham, W., *Growth of English Industry and Commerce* 204.
153. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
154. Lacroix, *Manners*, 447.
155. Graetz, III, 642; Abbott, 130.
156. Abbott, 131.
157. Ibid., 68.
158. Lacroix, *Manners*, 447.
159. Abbot. 68.
160. Montesquieu, C. Baron de, *The Spirit of Laws*, I, xii, 5.
161. Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicles*, I, 197.
162. Marcus, 24.
163. Graetz, III, 570.
164. Villehardouin, G. de,*Chronicles of the Crusades*, 148.
165. Abbott. 118.
166. *Cambridge Medieval History*, VII, 641.

CHAPTER XVII

1. Abrahams, *Jewish Life* 210.
2. Sarton, G., *Introduction to the History of Socience*, II (i), 295.
3. Abrhams, I., *Chap ers on Jewish Literuture*, 116.
4. Waxman, I, 226.
5. Graetz, III, 269.
6. Gabirol, S.ibn,*Selected Religious Poems*, tr. Israel Zangwill, 62.
7. Ibd., 80.
8. Abrahams, *Literature*, 109.
9. Abrahams, *Jewish Life*, 163.
10. In Wilson, E , ed. *Hebrew Leterature*, 383.
11. Sarton, II, (I), 188.
12. Halevi, J., *Selected Poems*, tr. Nina Salaman, 58.
13. Abbott, 72.
14. Druck, 97.
15. Ibid., 94.
16. Wilson, *Hebrew Literature*,365-6.
17. Novella 146 in Burton, *The Jew*, - 105.

18. Graetz, III, 573.
19. Sarton, II (ii), 557.
20. Schechter, S., *Studies in Judaism*, I, 107.
21. Graetz, III, 604.
22. Sarton, II, (i), 145.
23. *N. Y. Times*, June 2, 1937.
24. Sarton, II, (i), 145.
25. Cf. Komroff' M. *The Contempararies of Marco Polo.*
26. Husik, 24.
27. Munk, S., *Mélanges de philosophie juive et arabe* 158.
28. Marcus, 312.
29. Cf. Gabirol, S. ibn, *Improvement of the Moral Qualities*, tr. Stephen Wise, 4, 27.
30. Gabirol, *Fons Vitae*, i, 8, in Munk, 6.
31. Halevi, J., *Kitab 'al-Khazari*, tr. H. Hirschfeld, i, 116.
32. Ibid., III, 5, 7.
33. Husik, 215.
34. Yellin, D., and Abrahams, I., *Maimonides*, 11; Zeitlin, *Maimonides*, I,
35. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 427.
36. Zeitlin, *Maimonides*, 5.
37. "Letter of Consolation" in Yellin, 46.
38. Zeitlin, 178.
39. Arnold, Sir T., *Preaching of Islam*, 421.
40. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 290.
41. Maimonides, Aphorisms, in Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, I, 176.
42. Zeilin, 172.
43. In Baron, *Essays*, 288.
44. Zeitlin, 174.
45. Baron, *Essays*, 284.
46. Maimonides, *Mishneh Trab*, Introd., 4b.
47. Zeitlin, 214.
48. *Mishneb Torab*, Introd., 16. 3a.
49. In Baron, *Essays*, 117.
50. Maimonides, *Guide to the Perp exed* tr. M., Friedländer, II, xli.
51. Ibid., III, 35, Baron, *Essays*, 139.
52. *Guide*, III, xxii, xli; Deut. xxiii, 17; Exod, xxii, 1; xxxi, 15.
53. *Mishueh Torab*, 40b.
54. Ibid., 59a.
55. Ibid, 54a.
56. Ibid., 58a.
57. Ibid., 58ab.
58. Ibid., 52b.,
59. In Baron, *Essays*, 110.
60. Zetlin, 132.
61. *Guide*, I, Introd.
62. Ibid., II, xix; III, xiv.
63. II, Pt. II, Introd. and Prop xx.
46. Ibid., xxxvi-xixi.
65. III, xxii.
66. II, xviif.
67. II, xxx.
98. III, x, xii.
69. III, lxx.
70. Zeitlin, 151.
71. Ibid., 103; Baron, *Essays*, 143.
72. *Guide*, II, Pt. II, Introd.
73. Baron, *Essys*, 119-21; Zeitlin, 209.
74. Marcus, 307-9.
75. SPinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, xv, 4.
79. Roth, L., *Spinoza Descares, and Maimonides*, 66; Baron, *Essays*, 7·

77. Husik, 302; Graetz, IV, 23.
78. Ibid., III, 681.
79. Neuman, A., II, 122.
80. Ibid., 118; Graetz, IV, 29-41.
81. Jewish Encyclopedia, III, 457,479.
82. Sarton, II, (i), 866.
83. Graetz, V, 21.
84. Baron, *History*, II, 136.
85. Ibid., 142.
86. Abrahams, *Jewish, Life*, 143,157, 198.
87. In Marcus, 314.

CHAPTER XVIII

1. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 173.
2. Gibbon, IV, 504.
3. *Cambridge Medieval History*, II, 889.
4. Ibid., IV, 6; Gibbon, V, 142.
5. In Diehl, *Moneul*, 335.
6. *Cambridge Medieval History*, IV, 115f.
7. Voltaire, *Works*, XIII, 190.
8. Diehl, *Portraits* 159; Bury, *Eastern Roman Empire*, 169.
9. McCabe, J., *Empresses of Constantinople*, 174.
10. *Cambridge Medieval History*, IV, 108; Diehl, *Portraits*, 264.
11. Boissonnade, P., *Life and Work in Medieval Europe*, 56.
12. *Cambridge Medieval Hitory*, IV, 750.
13. Diehl, *Portraits*, 286.
14. *Cambridge Medieval History*, IV. 745.
15. Komroff, *Contemporaries of Xarco Polo*, 266.
16. *Cambridge Medival History*, IV, 760.
17. Ibid.
18. Clapham and Power, 212.
19. Diehl, *Portraits*, 158; Gibbon V, 458; Brittain, *Women of, Eorly Christianity*, 318.
20. Lopez, R.S., in *Speculum*, Vol' XX, No.1, pp. 17-18: Boissonnade, 46-7; *Cambridge Medieval History*, IV, 761.
21. Boissonnade, 50.
22. Ibid., 51.
23. Castiglione, 254.
24. Bury, *Eastern Roman Empire*, 436; Grunebaum, *medieval Islam* 54.
25. Psellus *Chronographia*, vi, 46.
26. Ibid., v, 25-37.
27. Diehl, *Manuel*, 405.
28. Luitprand in Grunebaum, 29.
29. Cf. Walker Trust Report, *The Great Palace of the Byzantine Emperors*, plates 24-37 and 57.
30. The judgment of Kondakof in Diehl, *Manuel*, 580.
31. Diehl, 590.
32. Ibid., 881.
33. Finlay, *Greece under the Romans*, 21.
34. Thompson, J.W., *FeudalGermany*, 458.
35. Kluchevsky, V. O. *History of Russia*, I, 46; Thompson, *Feudal Germany*, 456.
36. Pokrovsky, M. N., *History of Russia* 11; Fustel de Coulanges questioned this - cf. Dopsch, 26.
37. *Cambridge Medieval History*, IV, 136.
38. Navor, J., *Economic History of Russia*, I, 15.
39. Kluchevsky, I, 88.
40. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 84.

CHAPTER XIX

1. Paul the Deacon, *History of*
2. *the Longobards*, I, 9.
3. Munro and Sellery, 538.
4. Dante, *Elleven Letters*, 185.
5. Note by W. D. Foulke in Paul the Deacon, 309.

6. Voltaire, *Works*, XIII, 80.
7. Molmenti, P., *Venice*, I, I, 212-4.
8. *Cambridge Medieval History*, III, 170
9. Pirenne, *Medieval Cities*, 110.
10. Ruskin, *Stones of Venice*, I', 66.
11. Lanciane, R, *Ancient Rome*, 57.
12. Ibid., 275.
13. Castiglone, 801.
14. Dozy, *Spanish Islam*, 440.
15. Coulton, G. G., *FiveCentruies of Religion*, I, 174.
16. Hume, M, *The Spanish,People*, 129 ; *Spain*, 191 ; Encyclopedia Britannica, V., 699.
17. In Guizot, *History, of France*, I, 171.
18. Ibid., 168.
19. Pirenne, *Cities*, 248 ; Voltaire, XIII, 131.
20. Freeman, E.A., *HistoricalEssays*, First Series, 179.
21. *Cambridge Medieval History*, II, 316.
22. Guizot, *France*, I, 229f ; Guizot, *Hisory, of Civilization*, II, 193-6.
23. Pollock and Maitland, I, 117, Barnes, H.E., *History, of Western Civilization*, I, 775.
24. Lea, *Superstiion and Force*, 469,
25. Guizot *Civilization*, II, 225f.
26. Capitulary of Charlemagne, year 803, //3, in Guizot *Civilization*, II. 222.
27. In Pirenne, *Cities*, 166.
28. Ibid., 58 ; *Cambridge Medeival History*, II, 657.
29. *Cambridge*, *Medieval History*, II, 657.
30. Letter of Alcuin in William of Malmesbury, i, 3, p. 66.
31. Eginhard, *Life of Charlemagne*, 61,
32. Hodkin, T., *Charlemagne*' 81'2.
33. West, A F', *Alcuin*, 55.
34. Eginhard, p. 14.
35. Ibid., 62.
36. Ibid., 64.
37. Capitulay of 802 in Bebel A., *Woman under Socialism*, 60.
38. Eginhard, 83.
39. Bury, *Eastern Empire*, 318,
40. Eginhard, 56-8.
41. Raby, F. J. *History of Secular Latin Poetry in the MiddleAges*, I, 190.
42. Eginhard, 52.
43. Ibid., 48 ; Russell, C. E., *Charlemagne*, 262.
44. Guizot, *France*, I, 241.
45. Morey, C. R, *Medieval Art*, 207.
46. Ibid., 191.
47. Davis *Medieval England*, 266.
48. Guizot, *Civilization*, II, 375.
49. Erigena, J.S. *De divisione naturae*, i, 69.
50. In Guizot, *Civilizati·n*, II, 383.
51. Erigena, // 517.
52. Ibid., // 443
53. // 518.
54. // 896.
55. // 919-26, 937-40.
56. // 861.
57. Poole, R. L., *Illustration of the History of Medieval Thought*, 61.
58. Guizot, *Civilization*, II, 388.
59. William of Malmesbury, ii, 4.
60. Guizot, *France*, I, 303
61. Ibid., 311.
62. Ibid., 329.
63. Ibid., 336.

CHAPTER XX

1. Asser, *Alfred the Great*, 61.
2. Asser, 66, 78, 85.

3. Alfred, Preface to tr. of Gregory I's *Cura patoralis,* in Ogg, *Source Book of Mediedval History,* 191.
4. Voltaire, *Works,* XIII, 176.
5. Boissonnade, *Life and Work in Medieval Europe,* 83.
6. Green, [R., *Conquest of England* 185, 329, 359-60.
7. Srubbs, W., *Constitutionrl History of England,* I, 146, 157.
8. Hume, D., *History of England,* I, 181.
9. Pollock and Maitland, II, 450.
10. William of Malmesbury in Coulton, G.G., *Social Life in Britain* 20 : Green, J. R., *Making of England,* 192.
11. Traill, H. D., *Socal England,* I, 204.
12. Hume. D., *History of England* I, 188.
13. Briffault' R., *The Mothers,* II, 419.
14. William of Malmesbury, I, 4.
15. Ibid , i, 2.
16. Ibid., ii, 5.
17. Bede, v, 24.
18. Ibid., i, 15.
19. Ibid., Introd., xvi.
20. Gordon, R. K., *Anglo - Saxon Poetry,* 81-2.
21. In Ker, W.P., *Epic and Romace,* 63.
22. *Beowulf,* xxxvii and xliii, in Gordon, *Anglo-Saxon Poetry,* 60, 70.
23. Bede, iv, 23.
24. Plummer, *Life and Times of Alfred the Great,* 14.
25. In Addison, J., *Arst and Crafts in the Midile Ages,* 4.
26. Aldhelme (c. 709) in Addison, 199.
27. bede, iv, 18.
28. Freeman, E.A., *Norman Conquest* II, 298.
29. William of Malmesbury, iii, 238; Ordericus Vitalis, *Historia Ecclestastica,* 492A ; Freeman, *Norman Conquest,* II, 244.
30. Guizot, *France,* I, 345; Freeman, *Norman Conquest,* III, 320.
31. *Mabinogion,* 1f.
32. Hyde, *Litary History of Ireland* 238.
33. Joyce. *Short History of Ireland,* 39-46,
34. Thompson, J. W., *Economic History,* 148.
35. Boissonnade, 78.
36. Joyce, 80.
37. Ibid , 168.
38. Ibid., 155, 158.
39. Hyde, 222.
40. Ibid., 239,
41. Ibid., 279f.
42. Thompson, Sir E. M., *Introd to Greek and Latin Palaeography,* 374.
43. Joyce, 189-92.
44. Keating in Hyde, 488.
45. Horn, F. W , *Literature of the Scandinavian North,* 13, *Cambridg Medieval History,* II, 481
46. Surluson, S., *Heimskringla*
47. Ibid., Haakon the Good, ch. 23.
48. Ibid., Olaf Tryggveson, ch. 7.
49. Ibid., ch. 92.
50. Ibid., ch. 87.
51. Ibid., St. Olaf, ch. 56, 131.
52. Ibid., ch. 74.

53. Ibid., Appendix to Olaf Tryggveson's Saga; Encyclopedia Britannica. art. Columbus.
54. *Beowulf*. xxxv.
55. Sturluson, Son of Magnus, ch. 33; Du-Chaillu, II, 370-379.
56. Saxo Grammaticus, *Danish History, I*, 28.
57. Haskins, *Encyclopedia*, III, 499c.
58. DuDhaillu, II, 1.
59. Haskins, *Normans in Europeau History*, 36.
60. DuChaillu, I, 486.
61. Saxo, 25.
62. Thompson, J. W., *The Middle Ages*, I, 327.
63. Sturluson, Magnus the Good, ch. 16.
64. Sigiusson, Saemud, *The Elder Edda*, 22-56.
65. Ibid., 28.
66. 59.
67. 66.
68. 14.
69. 84.
70. 102.
71. 81.
72. 65.
73. 73.
74. 121.
75. 68.
76. 55-6.
77. 86.
78. 68.
79. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 41.
80. Faereyinga Saga in Ker, *Epic and Romance*, 236.
81. Sturluson, Olaf Tryggvesson's saga, ch. 9.
2. Sturluson, Yaglinga Saga, ch. 6 and note; Hodgkin, *Charlemagne* 164; Saxo, 44.
83. Milman, III, 216. Milman persuasively defends the credibility
84. *Cambridge Medieval History*, 270.
85. West, *Alcuin*, 127.
86. Rab, F. J. E. *Histoy of Christian Latin Poetry in the Middle Ages* 188.
87. Welch, Alice K., Of Six *Medieval Women*, 5.
88. Addison, *Arts and Crafts*, 16.

CHAPTER XXI

1. *Cambridge Medieval History*, I, 536.
2. In Rassell, B., *History of Western Philosodhy*, 379.
3. Rule of St. Benedict, ch. 3, in Ogg. 87.
4. Ch. 7.
5. Ch. 63.
6. Dudden, I, 111.
7. In Maitland, S.R., *Dark Ages*, 196-8.
8. In Dudden, I, 58.
9. Ibid., 289.
10. Bede, ii, 1.
11. Gregory of Tours, 227.
12. Dudden, I, 215.
13. Thompson, J.W., *Middle Ages*, I, 178.
14. Dudden, II, 156; McCabe, J., *Story oj Religieus Controvery*. 307.
15. Bede, ii, 1.
16. Ibid., 198.
17. Gregory I, Ep. xiii, 45, in Dudden, I, 278.
18. In Abélard, *Ouvrages inédits, Quaestio*, 1a.
19. Gregory I, *Magna Moralia*, in Dudden, II, 313.
20. *Dialogues*, iv, 7, in Dudden, I, 360.
21. Dudden, II, 484f.
22. Ibid., 38.
23. Thompson. J W. *Middle Ages*, I, 178.

24. Voltaire, *Works*, XIII, 90.
25. *Cambridge Medieval History*, II, 690.
26. Funk, I, 287; *Cambridge Medieval History*, V, 710.
27. In Milman, III, 25.
28. Gibbon, IV, 82.
29. Sarton, I, 555.
30. Poole, R.L., *Illustration*, 20.
31. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 136.
32. Dudden, I, 86.
33. Ibid.
34. Montalembert, Comte de, *Monks of the West*, I, 558.
35. Guizot, *Civilization*, II, 113 - 9: Toynbee, A.J., *Study of History* II, 331.
36. Waddell, H., *Wandering Scholar* 34.
37. Bede, I, 17.
38. William of Malmesbury, I, 2.
39. Bede, I. 80.
40. Bede, Letter to Egbert.
41. Green, *Making of England*, 413.
42. Gibbon, V, 534.
43. Coulton, *Five Centu ies oi Redigion*, I, 222.
44. Ibid., 852.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 662.
46. Ibid., III, 67.
47. Milman, III, 111.
48. *Cambridge Medieval History*, III, 455.
49. Millman, III, 160; McCabe, *Crises in the History of the papacy*, 128f.
50. Ibid., 181, quoting the *Liber Pontificalis*.
51. Milman, III, 171 : *Cambridge Medieval History*, III, 455.
52. Milman, III, 178.
53. Ibid., 185f.
54. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 847.
55. Vincet of Beauvais, *Spec. Hist.*, in Milman, III, 221.
56. Thorndik, *Magic and Experimental Socience* I. 704.
57. *Cambridge Medieval History*, III, 109.
58. Hulme, E.M. *Middle Ages*, 339; Coulton G.G., *Life in the Middle Ages*, I, 1: Sarton. I, 734.
59. Funk, I, 282.
60. Sleuhens. W.R. W. *Hildebrand*, 14: Milman. III. 230: McCabe, *Crises*, 140.
61. *Cambridge Medieval History*, 10.
62. Guizot, *France*, I, 160.
63. Porter, A. K. *Medieval Architecture*, II. 2.
64. Ibid.
65. Carlvle R.W., *History of Medieval Political Theory in the West* IV, 52.
66. Coulton, *Five Cecturies of Religion*, IV, 187.
67. Coulton, *From St. Francis to Dante*, a tr. of *The Chronicle of Salimbene*, 286.
68. *Cambridge Medieval History* V, 9-10.
69. Catholic Encyclopedia, I, 156
70. *Cambridge Medieval History*, V, 12.
71. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 210.
72. Lecky *Morals*, II, 237.
73. Lea, *H,story of Auricular Confessions*, I, 46.
74. Letter to Egbert in Bede, p. 4.
75. Catholic Encyclopedia, III, 486.
76. *Cambridge Medieval History*, IV, 268.
77. Ibid., 272.

78. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 194, 223; Thompson, *Social and Economic History*, 662.
79. Lea, *Celibacy*, 226.
80. Bryce, Jas., *Roman Empire*, 158.
81. *Cambridge Medeival History* V, 99.
82. Thompsn, *Social and Economic History*, 663.
83. Taylor, *Medieval Mind*, II, 65
84. Letter of Gregory VII to William I of England, 1080, in Bryce, 160.
85. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
86. Figgis, *Political Aspects of St. Augustine's City of God*, 88.
87. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
88. Carlyle, R.W., *Medieval Political Theory*, IV, 64.
89. Stephens, *Hildebrand*, 116.
90. Thatcher and McNeal, 159.
91. *Cambringe Medieval History*, V 741.

CHAPTER XXII

1. Lot., *End of the Ancient World* 125.
2. Dopsch, 288.
3. Seebohm, F., *English Village Communty*, 126f, 179.
4. Seignobos, C., *Feudal Regime*, 34, Barnes, *Economic History*, 139.
5. Clapham and Power, 237-8.
6. Letters, Iv, 2.
7. Coulton, G.G., *Medieval Village* 161.
8. McCabe, *Story of Religious Controvery*, 325.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 679.
10. Coulton, *Medieval Village*, 492.
11. Coulton, *Medieval Panorama*, 322
12. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, IIIae, xciv, 5.
13. Decree of Fourth Council of Orléans, in Dopsch, 250.
14. Lecky, *Morals*, II, 70, Sarton, II (ii). 799, but cf. Catholic Encyclopedia, XIV, 38.
15. Ashley. *Introd. to English Economic History*, II, 276.
16. Coulton, *Medieval Village*, 59.
17. Westermark, E., *Short History of Marriage*, 14: Coulton, *Medieval Village*, 80.
18. Reignobos, 14: Coulton, *Medieval Village*. 464.
19. Bebel, 57.
20. *Cambridge Medieval History*, VII, 721.
21. Coulton, *Life in the Middle Ages*, III, 123-5.
21a. *Cambridge Medieval History*. VII. 22.
22. Seignobos, 21.
23. Coulton, *Medieval Village*. 65.
24. Cram R.A., *Substance of Gothic* 181.
25. Lynn White. Jr. in *Speculum*. Apr. 1940. p. 151.
26. Taine. H. *Ancient Regmie*. 9, Carlyle,
27. Barnes. *Economic History* 145
28. *Cambriage Medieval History*. VII. 741.
29. Coulton. *Medieval Village* 311-18.
30. Ibid., 21. 243
31. Coulton. *Panorama*. 92.
32. *Speculum*. Apr. 1940.
33. Ibid., 155.
34. Chrteoubriand. Vicomte de, *The Genius of Christianity*.iv.1.4
35. Coulton *Medievol Village*, 119.

36. Lacroix. Paul. *Military and Religious Life in the Middle Age.* 166.

37. Hitti. *History of the Arabs.* 663; Hrnold *Legacy of Islam* 131.

38. Lacroix.Pahl. *Science and Literature in the Middle Ages.* 299f.

39. Beaumonoir in Seinobos. 55.

40. Coulton. *Panorama.* 50.

41. Voltaire. *Works.* XIII., 181.

42. Thompson. *Feudal Germany.*301

43. Carlyle. R.W. *Medieval Polotical Theory.* 463.

44. Pollock and Maitland. II. 242.

45. Maine. Sir H. *Ancient Low.* 185.

46. Coulton *Medieval Village.* 528.

47. Jenks. E. *Law and Politics in the Middle Ages.* 23.

48. Coulton *Medieval Village.* 187.

49. Lea. *Superstition and Force.* 286, 297, 314.

50. Coulton, *Panorama* 379.

51. Lea. *Superstition.* 178.

52. Ibid., 140f, 179.

53. Seignobos. 79.

55. Sumner W.G.*Folkways.* 522.

56. Barnes. *Western Civilization.* I. 798.

57. Seignobos. 81.

58. Coulton. *Medieval Village.* 248.

59. Lacroix. *Military Life*, 49.

60. Davis, W.S. *Life on a Medieval Barony.* 176.

61. Coulton. *From St. Francis to Dante.* 20.

62. Seignobos. 74.

63. Coulton, *Chaucer and His England.* 199.

64. Coulton, *Panorama.* 247.

65. Prestage, F., *Chivalry.* 72.

66. *Speculum.* Apr. 1930. 189.

67. Thornpike, *Magic and Socience.* II. 31.

68. Hoover, H., and Gibbons. H.A. *Conditions of a Lasting Peace*29.

69. Prestage. 75.

70. Coulton. *Panorama.* 289.

71. Traill. I. 379.

72. In Brif'ault. *Mothers,* III. 383,

73. Bebel. 63.

74. Prestage, 9.

75. Rowbotham, 283.

76. Prestage, 89.

77. Davis. *Life on a Medieval Barony* 77.

78. Vossler. K., *Medieval Culture* I. 299; Taylor *Medieval Mind,* II, 542.

79. Miss Amy Kelly in *Speculum,* 1937, 5.

80. Rombotham, 224, 285.

81. Ibid., 249.

82. Ibid., 245.

الفهرس

الكتاب الثالث ـ الحضارة اليهودية

الكتاب الرابع – العصور المظلمة

الباب الثامن عشر : العالم البيزنطى

الباب التاسع عشر : اضمحلال الغرب ٢٠٦

الباب العشرون : نهضة الشمال

الموضوع		الصفحة
	٣ – بين فتحين	٢٨٦
الفصل الثانى	: ويلز	٢٩٣
الفصل الثالث	: الحضارة الإيرلندية	٢٩٦
الفصل الرابع	: اسكتلندة	٣٠٦
الفصل الخامس	: أهل الشمال	
	١ – قصص الملوك	٣٠٨
	٢ – الحضارة الفيكنجية	٣١٣
الفصل السادس	: ألمانيا	٣٢٥
	١ – تنظيم السلطة	٣٢٥
	٢ – الحضارة الألمانية	٣٣٢

الباب الحادى والعشرون : صراع المسيحية

الباب الثانى والعشرون : الإقطاع والفروسية

فهـــرس الصور